

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ١٤٣



تَفْسِيرُ

# الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سُورَةُ فَاطِمَةَ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

عَفَى اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

مِنْ إِصْدَارَاتِ

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٣)

تفسير  
القرآن الكريم  
سورة فاطمة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٤٣٥  
١٤٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة فاطر. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦ هـ

٣٤١ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٣)

ردمك: ٤ - ٥٠ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - سورة فاطر - تفسير.

أ - العنوان

١٤٣٦/٧٨٣٢

ديوي: ٢٢٧،٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٢

ردمك: ٤ - ٥٠ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِمِيِّنِ الْخَيْرِيَّةِ

اللائق أن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يطلب الكتاب من :

مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِمِيِّنِ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

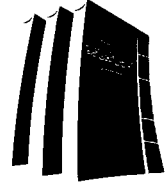
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimen.com

info@binothaimen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرّة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوپر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

•••••

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَمِنَ الدَّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُسَجَّلَةِ صَوْتِيًّا، وَالَّتِي كَانَ يَعْقُدُهَا صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ الْوَالِدُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي جَامِعِهِ بِمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ أَثْنَاءَ الْإِجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ؛ حَلَقَاتٌ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَتْ بَدَايَتُهَا مِنْ سُورَةِ النُّورِ وَمَا بَعْدَهَا؛ حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ:

﴿ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٤)

وَقَدْ اعْتَمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِهِ لِتِلْكَ السُّورِ كِتَابًا يَبْنِي يَدِي الطُّلَابِ هُوَ (تَفْسِيرُ الْجَلَالَيْنِ) لِلْعَلَّامَةِ جَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَحَلِّيِّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)<sup>(١)</sup>، وَالْعَلَّامَةُ جَلَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُحَمَّدِ

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٣٩/٧)، حُسن المحاضرة (٤٤٣/١).

ابن سابق الدين الحَضْرِيّ السُّيُوطِيّ، المتوفَّى سنة (٩١١هـ)<sup>(١)</sup>. تغمّدهما الله بوسع رَحْمته ورضوانه، وأسكنهما فسيح جنّاته، وجزّاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وسعيًا - بإذن الله تعالى - لتعميم النفع بتلك الجهود المباركة في هذا الميدان العظيم باشر القسم العلمي بمؤسّسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية واجباته في شرف الإعداد والتجهيز للطباعة والنشر لإخراج ذلك التراث العلمي؛ إنفاذاً للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قرّرها فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى في هذا الشأن.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم؛ نافعا لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعليّ درجته في المهديين، إنه سميع قريب مجيب.

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

### القسم العلمي

في مؤسّسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

٢٠ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ



(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة فاطر  
•••••

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه  
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

قال المفسر<sup>(١)</sup> رحمه الله: [مَكِّيَّة، وآياتها خمس وأربعون أو ست وأربعون].

قوله: [مَكِّيَّة] أصح الأقوال في المكي والمدني أن ما نزل بعد الهجرة فهو مدني  
وإن نزل بمكة، وما نزل قبل الهجرة - أي: قبل وصول النبي ﷺ المدينة - فإنه مكي  
ولو نزل في غير مكة؛ هذا هو أصح ما قيل في تعريف المكي والمدني.

والغالب في الآيات المكيَّة قوَّة العبارة وشِدَّتْها وقصر الآيات، وموضوعها  
غالبًا في أصول الدين وتقرير التوحيد.

وأما الآيات المدنيَّة فإنَّها بالعكس؛ تجد عباراتها أسهل وأطول، وغالب  
موضوعها في فروع الدين؛ لأنَّ النَّاسَ غالبهم قد قاموا بالتوحيد، ولها ضوابط  
معروفة في أصول التفسير وعلامات.

وهنا يقول رحمه الله: إنَّها [مَكِّيَّة]، واعلم أنَّ السُّورَةَ إذا كانت مَكِّيَّة، واستثنى  
بعض آياتها - مثلاً يقول: (مَكِّيَّة إلا آية كذا وكذا) - فإنَّ هذا الاستثناء غير مقبول  
من قائله إلا بدليل؛ لأنَّ الأصل أنَّ السُّورَةَ جزء واحد؛ بمعنى أنَّ الرَّسُولَ ﷺ إذا

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، ترجمته في:  
الضوء اللامع (٧/٣٩)، حسن المحاضرة (١/٤٤٣).

نزلت آية، قال: ضعوها في موضع كذا من سورة كذا<sup>(١)</sup>.

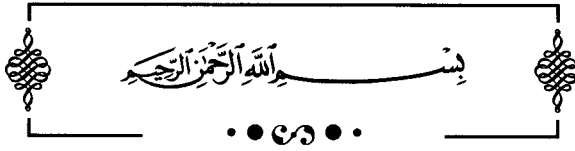
فالسورة المكية مكّية ولا يُستثنى منها شيء، والسورة المدنية مدنيّة ولا يُستثنى منها شيء إلا بدليل، ولا يكفي أن يقول العالم: (إلا كذا، إلا كذا)، بل لا بُدَّ فيه من سند؛ لأنّ هذا خبرٌ، والأخبار لا بُدَّ من سند لها حتى تصل إلى غاية السند.

وقول المفسر رحمه الله: [إمّا خمس وأربعون آية، أو ست وأربعون آية] هذا لا يضر؛ فالاختلاف في عدد الآيات أمرٌ ليس بضار؛ ولهذا في سورة (الفاتحة) اختلف العلماء رحمه الله: هل البسملة آية من آياتها أو مُستقلة مع الاتفاق على أنّ الفاتحة سبع آيات.

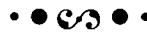


(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٧/١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها [أي البسملة]، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.﴾



الْبِسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مُسْتَقْلِلَةٌ، لَا تَكُونُ تَبَعًا لِمَا قَبْلَهَا وَلَا مُقَدِّمَةً لِمَا بَعْدَهَا؛ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا وَلَا مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا؛ لَكِنْ يُؤْتِي بِهَا فِي ابْتِدَاءِ السُّورَةِ عَلَامَةٌ عَلَى ابْتِدَائِهَا إِلَّا فِي سُورَةِ (بِرَاءة) فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنَزِّلْ فِيهَا الْبِسْمَلَةَ.

يَقُولُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لِأَنَّهَا بَعْضٌ مِنْ سُورَةِ (الْأَنْفَالِ).

وَيَقُولُ آخَرُونَ: لِأَنَّهَا نَزَلَتْ بِالسَّيْفِ وَالشُّدَّةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارِ، وَهَذَا لَا يُنَاسِبُهُ الْبِرَاءَةُ بِالْبِسْمَلَةِ الَّتِي هِيَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فَإِنَّ الْبِسْمَلَةَ بَرَكَةٌ وَرَحْمَةٌ لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ الشُّدَّةِ وَالْعِلْظَةِ وَالْقَتْلِ وَالْقِتَالِ، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ أَقْرَبُ شَيْءٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَشْكَلُ عَلَيْهِمْ: هَلْ هِيَ مِنَ (الْأَنْفَالِ) أَوْ مُسْتَقْلِلَةٌ؟ فَوَضَعُوا فَاصِلًا وَلَمْ يَضَعُوا الْبِسْمَلَةَ<sup>(١)</sup>، فَلَمْ يَجْزِمْوْا لَا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا، عَلَى أَنَّ نَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنَزِّلْهَا؛ لِأَنَّ الْبِسْمَلَةَ لَوْ نَزَلَتْ بَيْنَ (الْأَنْفَالِ) وَ(بِرَاءة) لَكَانَ بَقَاؤُهَا حَتْمِيًّا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ اجْتِهَادُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مُوَافِقًا تَمَامًا لِمَا وَقَعَ الْحَالِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١/٥٧)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مِنْ جَهْرٍ بِهَا [أَيِ الْبِسْمَلَةِ]، رَقْمُ (٧٨٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، رَقْمُ (٣٠٨٦)، مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما إعرابها فقد تقدّم مراراً، وذكرنا أنّ أحسن الإعرابات فيها أنّ الجارَّ  
والمجرور متعلّق بمحذوفٍ مؤخّرٍ فعليّ مناسِبٍ، فإذا أردتَ أن تتوضّأ، وقلت:  
(بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيمِ)؛ فالتّقديرُ: (بسم الله أتوضّأ).



(الآية ١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١].

•••••

اعلم أن الحمد هو وصفُ المَحْمُودِ بِالْكَمَالِ مع المَحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ، وقد حَمِدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ فِي أَوَّلِ الْأُمُورِ وَأَخِيرِهَا.

ففي أَوَّلِ الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وفي أَوَّلِ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

كما حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى مُتْتَهَى الْأُمُورِ أَيْضًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الزُّمَرِ: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فَحَمِدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ فِي أَوَّلِ الْأُمْرِ وَفِي مُتْتَهَى الْأُمْرِ؛ لِأَنَّ اللهُ تَعَالَى لَهُ الْأَمْرُ أَوَّلًا وَأَخِيرًا، وَكُلُّ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وهنا يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: مُبْتَدَأٌ، اللهُ: خَبَرُهُ، وَاللَّامُ هُنَا لِلِاسْتِخْقَاقِ وَالِاخْتِصَاصِ؛ لِلْمَعْنِيَيْنِ جَمِيعًا، أَمَّا كَوْنُهَا لِلِاسْتِخْقَاقِ؛ فَلِأَنَّهُ لَا أَحَدَ أَحَقُّ بِالْحَمْدِ مِنْ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ وَكُلَّ مَا يُشْرَعُهُ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ

عليه لكماله، وأمّا كونها للاختصاصِ فلأنَّ (أل) في (الحمد) هنا للاستغراق؛ أي: كلُّ حمدٍ فهو لله، ثابتٌ له، ومعلومٌ أنه لا أحدٌ يختصُّ بهذا الوصفِ العامِّ الشَّامِلِ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ من يُحمد سوى الله لا يُحمد إلا على أشياء جزئيةٍ غيرِ شاملةٍ، لكنَّ الذي يُحمد على كلِّ شيءٍ هو الله، وبهذا عرفنا أنَّ اللامَ للاستحراقِ والاختصاصِ أيضًا.

قال المفسر رحمه الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد الله تعالى نفسه بذلك كما بيّن في أوّل سورة (سبأ).]

ففي أوّل (سبأ) قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]، لكن هناك حمدٌ لنفسه لعمومِ ملكه الذي له ما في السمواتِ والأرضِ، وهنا حمدٌ نفسه لابتداءِ خلقه.

قال المفسر رحمه الله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خالقِهما على غيرِ مثالِ سبق]. وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ لهم عقولٌ أخصُّ من عقولِ البشر؛ لأنَّ عقولَ البشرِ قد تستولي عليها الشهوةُ فيضيعُ الإنسانُ عقله. قوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ جمع (رسول) يقول: [إلى الأنبياء]، والأصحُّ إلى الأنبياءِ وغيرهم؛ يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] رُسُلُ الله تعالى إلى هذا المحتضر ليقبضوا روحه، فهم رُسُلُ إلى الأنبياءِ وإلى غيرهم؛ فتخصيصُ الآيةِ بالأنبياءِ يُعتبرُ قُصورًا في التفسير.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَجْنَحَةٌ﴾: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ بمعنى أصحاب؛ يعني أنَّ الملائكة لهم أجنحة، وهو جمع (جناح)، هذا الجناح يطرون به بسُرعةٍ فائقةٍ أسرع من الجنِّ؛

بدليل أن العفريتَ من الجنِّ قال لسليمانَ لما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوَنِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) قَالَ عَفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴿[النمل: ٣٨-٣٩]

وكان له عادة أنه يقوم في وقتٍ مُعَيَّنٍ فقال: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: في الوقتِ المُعَيَّنِ وإلا لكان الأمرُ مُبْهَمًا ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

يعني مثلاً: إن نظرتَ مثلاً أبعدَ شيءٍ -هم قالوا هكذا- قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِيهِ بِهِ، وَفِعْلًا أَنَاهُ؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾ [النمل: ٤٠].

قال العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ: إِنَّ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمِ، وَأَنَّهُ دَعَا بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ، فَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَأَلْقَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَسْرَعُ مِنَ الْجِنِّ، وَلَا شَكَّ فِي هَذَا؛ أَنَّهُمْ أَسْرَعُ وَأَقْوَى، فَهَمَّ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ عَظِيمَةٍ.

جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان له سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ<sup>(١)</sup>، كُلُّ جَنَاحٍ لَهُ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الْحَمْلِ وَالطَّيْرَانِ، مَاذَا تَكُونُ سُرْعَتُهُ؟

لَا شَكَّ أَنَّهَا سُرْعَةٌ فَائِقَةٌ جَدًّا؛ لِأَنَّنا إِذَا رَأَيْنا الْآنَ الطَّيَّارَاتِ النَّفَّاثَةَ أَجْنِحَتِهَا الَّتِي تَحْمِلُهَا وَهِيَ الْمَرَاوِحُ الَّتِي تُدْخِلُ الْهَوَاءَ لِيَحْمِلَ الطَّائِرَةَ لَا تَبْلُغُ هَذَا الْمَبْلَغَ وَلَا عُسْرَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ تَنْتَقِلُ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ الْعَظِيمَةِ وَهَذَا الارتفاعِ الْعَظِيمِ، فَجَبْرِيْلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ، وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ لَهُمْ سُرْعَةً فَائِقَةً عَظِيمَةً.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهذه الأجنحة ﴿مَتْنِي وَتَلَكَّ وَرَبَّعَ﴾ وأكثر؛ ولذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. قوله تعالى: ﴿مَتْنِي﴾ ظاهرها أن ذلك في العدد لا في الصنف؛ لأن هذا هو الأصل، ويحتمل أن يكون في الصنف؛ لأننا نرى الطائر مثلاً له جناحان، لكن كل ريشة من هذه الأجنحة لها عمل خاص في تكييف الطيران، منها مثلاً ما ينصبه حتى يرتفع، ويخفضه حتى ينزل، ويفرشه حتى يستقر، هذا شيءٌ مُشاهد؛ ولهذا بعض الأحيان تُنتفأ أشياءٌ معينة من الجناح ثم لا يطير، مع أن الباقي في جناحه أكثر مما تُنف بكثير، فيحتمل أن قوله تعالى: ﴿مَتْنِي﴾ يعني: باعتبار الصنف.

﴿وَتَلَكَّ وَرَبَّعَ﴾ ويحتمل أنه باعتبار العدد وأن الملائكة بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ولا ينافي ذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام له ست مئة جناح؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ ويكون مما زاده أن جعل لجبريل ست مئة جناح.

فإذا قلت: هل نعرف كيفية هذه الأجنحة؟

فالجواب: لا؛ كيفية هذه الأجنحة لا نعلمها، وهذا نظيره تماماً ما جاء في صفات الله عز وجل؛ فإننا نعلم معنى الصفة، ولكننا نجهل كيفية الصفة، الله عز وجل وجه، نعلم معنى الوجه، لكن هل نعلم كيفية؟

الجواب: لا؛ لأن ما غاب عنك لا يخاطبك الله به إلا ببيان معناه فقط، وأما كيفية فلا يمكنك إدراكها؛ لأنه غائب ولا نظير له، والشيء لا يعرف إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه.

ونعرب: ﴿مَتْنِي﴾ بدلاً أو صفة لـ ﴿أَجْنَحَةٍ﴾ وبدل المجرور مجرور، وعلامة جرّه فتحة مقدرة على الألف نيابة عن الكسرة، والمانع من الصرف الوصفية والعدل.

وكذلك نقول في ﴿وَوَلَّتْ وَرَبَّعَ﴾ ولذلك قال: (ثلاث) ولم يقل: (ثلاث)،  
وقال: ﴿وَرَبَّعَ﴾ ولم يقل: (وَرَبَّاع).

قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: يزيد في الخلق سواء كان في الملائكة  
أو غيرهم، يزيد ما يشاء مما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى؛ ولذلك نجد المخلوقات لها  
أيدي وأرجل بحسب حاجتها إلى هذه الأيدي والأرجل، فبنو آدم لهم أرجل يمشون  
بها، ولهم أيدي يبطشون بها ولا يمشون بها؛ لأن هذه الأيدي محل الأخذ والعطاء،  
فأكرم الإنسان بأن تكون يده غير مستعملة في المشي، بخلاف الحيوان؛ فالحيوان  
يده مستعملة في المشي؛ لأنه يأخذ بفيه، ويغطي بفيه، وينقل بفيه، حتى الهرة إذا  
أرادت أن تنقل أولادها تنقلهم بفيها، لكن الأدمي مكرم، فجعل الله تعالى يديه  
غير مستعملتين في المشي، فهو يزيد في الخلق ما يشاء على حسب ما تقتضيه الحكمة  
وحاجة ذلك المخلوق، وكل ما ذكره الله عز وجل مما هو معلق بمشيئته فقد تقدم أنه  
مقرون بالحكمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تعليل لقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ  
مَا يَشَاءُ﴾ يعني: كأن سائلاً يسأل: وهل ذلك صعب عليه؟

فكان الجواب من هذه الجملة أنه سهل؛ لأن الله على كل شيء قدير، فكل  
شيء موجود قادر على إعدامه، وكل معدوم قادر على إيجاده.

لكن لو قال لك قائل: هل يقدر على أن يجعل الشيء المتحرك ساكناً في آن

واحد؟

نقول: كلمة (متحرك) نقيض (ساكن) إذا وصفته بالمتحرك فيقينا ليس

بساكن، وإذا وصفته بأنه ساكن، فيقينا ليس بمتحرك؛ فلذلك قال العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ:

إِنَّ الْمُسْتَحِيلَ غَيْرٌ وَّارِدٍ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَحِيلَ لَا يُمْكَنُ وُجُودُهُ، لَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ بِاعْتِبَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْمُتَحَرِّكَ مُتَحَرِّكًا صَارَ مُتَحَرِّكًا لَا سَاكِنًا، أَمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَحَرِّكًا سَاكِنًا فِي آيٍ وَاحِدٍ، كَيْفَ ذَلِكَ وَالْمُتَحَرِّكَ غَيْرٌ سَاكِنٍ؟

يقال<sup>(١)</sup>: إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يَفْرَحُ بِمَوْتِ الْعَالِمِ، إِذَا قِيلَ: (مَاتَ فُلَانُ الْعَالِمِ) فَرِحَ وَاسْتَأْنَسَ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ: (مَاتَ عَابِدٌ) يَقُولُ: هَذَا هَيِّنٌ، فَقَالَ لَهُ جَنُودُهُ: لِمَاذَا تَفْرَحُ بِمَوْتِ الْعَالِمِ هَذَا الْفَرَحَ الْعَظِيمَ، وَمَوْتُ الْعَابِدِ لَا يَهْمُكَ مَعَ أَنَّ الْعَابِدَ مُنْقَطِعٌ عَنِ الدُّنْيَا، وَزَاهِدٌ فِي الدُّنْيَا، وَيُكثِرُ الذِّكْرَ وَالصَّلَاةَ وَغَيْرَهَا؟

قال: لِأَنَّ الْعَالِمَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنَ الْعَابِدِ، قَالُوا: كَيْفَ؟ قَالَ: سَأْتِبُ لَكُمْ الْآنَ، اذْهَبُوا إِلَى الْعَابِدِ وَقُولُوا لَهُ: هَلْ يَقْدِرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي جَوْفِ بَيْضَةٍ أَوْ لَا؟ فَذَهَبُوا إِلَى الْعَابِدِ، قَالُوا لَهُ: هَلْ يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي جَوْفِ بَيْضَةٍ؟ قَالَ: هَذَا مُسْتَحِيلٌ، وَلَا يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى هَذَا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ قُولُوا لَهُ: هَلْ يَقْدِرُ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُ؛ أَيْ: أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ اللَّهِ؟ فَذَهَبُوا لَهُ، وَقَالُوا لَهُ: مَا تَقُولُ؟ هَلْ يَقْدِرُ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ رَبًّا مِثْلَهُ.

إِذَنْ: كَفَرَ هَذَا الْعَابِدُ سَلْبًا وَإِيجَابًا؛ نَفْيُهُ الْقُدْرَةَ فِي الْأَوَّلِ كُفْرًا، وَإِثْبَاتُهُ الْقُدْرَةَ فِي الثَّانِي كُفْرًا.

ثم قال لهم: اذْهَبُوا إِلَى الْعَالِمِ، وَاسْأَلُوهُ عَنْ هَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ، فَذَهَبُوا إِلَى الْعَالِمِ

(١) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/١٢٩)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/٦٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.



قالوا له هل يَقْدِرُ اللهُ عَزَّجَلَّ على أن يَجْعَلَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَةٍ؟  
 قال: نعم، يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] إِمَّا أَنْ تَصْغُرَ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ،  
 أو تَكْبُرَ البَيْضَةُ، المهمُّ إذا أراد قال فكان، قالوا: فهل يَقْدِرُ اللهُ أن يَخْلُقَ مثله؟  
 قال: هذا أمرٌ مُسْتَحِيلٌ، والمِثْلِيَّةُ لا يُمَكِّنُ أن تتطابق أبداً؛ لو لم يكن من الفارقِ  
 العظيمِ إلا أن هذا حادثٌ وذاك واجبُ الوجودِ، هذا مُسْتَحِيلٌ.  
 المهمُّ: أن الله عَزَّجَلَّ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لكنَّ الشَّيْءَ المُسْتَحِيلَ الذي لا يُتَصَوَّرُ  
 لا يُتَصَوَّرُ، وليس المرادُ هنا المُسْتَحِيلَ عادةً؛ فالمُسْتَحِيلُ عادةً يُخْلَفُه اللهُ عَزَّجَلَّ؛ لأنَّ الله  
 هو خالقُ العادةِ وقادرٌ على تَغْيِيرِها، وهذه النَّارُ التي تَحْرِقُ كانت بَرْدًا وسلامًا على  
 إبراهيمَ، وهذا الماءُ السَّيَّالُ صار جامدًا كالطَّوْدِ العظيمِ، والعادةُ يُمَكِّنُ أن يُغَيِّرَها  
 اللهُ عَزَّجَلَّ بِكُلِّ سُهولةٍ، لكنَّ الكلامَ على الأمرِ المُمتنعِ المُسْتَحِيلِ.  
 يقولُ العُلَمَاءُ رَحْمَهُمُ اللهُ: إِنَّه لا تَتَعَلَّقُ به القُدْرَةُ؛ لأنَّه مُسْتَحِيلٌ؛ ولهذا قال  
 السِّفَارِينِي في العقيدة<sup>(١)</sup>:

«..... وَاقْتَدِرْ .....

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنٍ .....

وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه عند العُقَلَاءِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا ليس فيه اسْتِثْنَاءٌ، كتب الجلال رَحْمَةُ اللهِ

-وهو السيوطي- على هذه الآية في سورة (المائدة) قال: «وَخَصَّ العَقْلُ ذَاتَهُ فليس

عليها بقادرٍ؛ يعني: على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا على ذَاتِهِ فليس عليها بقادرٍ.

(١) العقيدة السفارينية (ص ٥٢).

نقول: هذا الاستثناء لا شك أنه باطل؛ لأن الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: «إِنَّ الْعَقْلَ حَصَّ ذَاتَهُ فليس عليها بقادرٍ» نقول: إنَّ الْعَقْلَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُحْصَصَ هَذَا الْحَبْرَ بَدُونَ دَلِيلٍ، وَلَوْ ذَهَبْنَا نَحْصَصَ مِثْلَ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ بِالْعُقُولِ لَأَبْطَلْنَا كَثِيرًا مِنْ دَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وماذا تريد بقولك: «حَصَّ الْعَقْلُ ذَاتَهُ فليس عليها بقادرٍ؟» إن أردت أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَىٰ ذَاتِهِ؛ بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ مِثْلًا أَنْ يُمَرِّضَ نَفْسَهُ أَوْ أَنْ يُعَدِمَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَهَذَا أَصْلٌ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ الْقُدْرَةُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَحِيلَةِ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنَّهُ لَيْسَ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ، فَلَعَلَّ هَذَا مُرَادُهُ - لِأَنَّ الْأَشَاعِرَةَ وَمَنْ شَابَهُمْ يُنْكِرُونَ الْأَفْعَالَ الْاِخْتِيَارِيَّةَ - فَهَذَا كَذِبٌ؛ بَلِ الْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ فَعَالًا لِمَا يُرِيدُ.

وَتُوجَدُ عِبَارَةٌ تَقَعُ كَثِيرًا بَيْنَ النَّاسِ تَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) نقول: هذه عبارة خطأ؛ لأنَّ هَذَا يُوهِمُ أَنَّ مَا لَا يَشَاءُ هُوَ فليس قادرًا عليه، هذا أولاً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، فالمشبهة هنا ليست عائدة على القدرة بل عائدة على الجمع؛ يعني: إذا شاء جمعهم فإنه قادرٌ عليه ردًّا على من أنكروا البعث، وقالوا: كيف يجمعُ الله النَّاسَ وَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ أَنْ مَاتُوا؟ ثَانِيًا: أَنْتَ إِذَا قُلْتَ: (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فَقَدْ خَالَفْتَ التَّعْبِيرَ الْقُرْآنِيَّ الَّذِي أَطْلَقَ اللَّهُ فِيهِ وَعَمَّمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثَالثًا: أَنَّ هَذَا مَاخُودٌ مِنْ مَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْقَدَرِيَّةَ يَقُولُونَ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ عَمَلِ الْعَبْدِ) فَهُوَ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ، وَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَشَاءُ، وَكَذَلِكَ

يقولون: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ فِعْلُ الْعَبْدِ فِي غَيْرِ مَشِيئَتِهِ فَإِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ فَقَطْ.

فَلأَجْلِ هَذَا نَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ لَا تَتَّبَعِي، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا يَرِيدُ بِهَا مَعْنَى صَحِيحًا، فَقَدْ يُرِيدُ بِهَا مَعْنَى صَحِيحًا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ عِبَارَةً كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَنْطِقُونَ بِهَذَا الشَّيْءِ، وَنَقُولُ: إِنَّ الْأَكْمَلَ أَنْ تَقُولَ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهُ وَرَدَ فِي قِصَّةِ آخِرٍ مِنْ يُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ فيقول الله له: لَمَّا قَالَ هَذَا لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ، قَالَ اللَّهُ لَهُ: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»<sup>(١)</sup> هَذَا حَدِيثٌ قَدْسِيٌّ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا فِي قِصَّةِ مُعَيَّنَةٍ؛ يَعْنِي: لَوْ وَقَعَ شَيْءٌ يَسْتَعْرِبُ الْإِنْسَانَ وَوُقُوعُهُ وَيَسْتَبْعِدُهُ، فَلَمَّا أَنْ نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا شَاءَ شَيْئًا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ فَاعِلُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] بِخِلَافِ الْقُدْرَةِ الْمَجْرَدَةِ عَنِ الْفِعْلِ، فَإِنَّ هَذِهِ لَا تُقَيَّدُ بِالْمَشِيئَةِ.

وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلٌ، فَهَلْ هَذَا الظَّاهِرُ مُرَادٌ؟

الجواب: غَيْرُ مُرَادٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بَيَانُ كَمَالِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ حَيْثُ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ بِالْحَمْدِ، وَقَالَ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٦)، من حديث ابن مسعود

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يَحْمَدُونَهُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خَبْرٌ، لَكِنْ مَعْنَاهَا الْإِرْشَادُ وَالتَّوْجِيهَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

ولهذا ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنَّهُ كَلَّمَا جَاءَتْ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فَهِيَ عَلَى تَقْدِيرِ: (قل) حَتَّى قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] الْمَعْنَى: (قل: الحمد لله).

وَلَكِنَّ الصَّوَابَ خِلَافَ ذَلِكَ، وَأَنَّ هَذَا خَبْرٌ مِنَ اللَّهِ وَنَحْنُ نَتْلُوهُ نُسْنِي بِهِ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يَأْمُرَنَا اللَّهُ بِذَلِكَ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: إِثْبَاتُ اسْمِ (الله) لِلرَّبِّ عَزَّجَلَّ، وَهَذَا الْاسْمُ خَاصٌّ بِهِ، لَا يُقَالُ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ أَصْلُ الْأَسْمَاءِ؛ وَلِذَلِكَ تَأْتِي الْأَسْمَاءُ بَعْدَهُ فِي الْغَالِبِ صِفَةً لَهُ، وَلَا تَأْتِي سَابِقَةً عَلَيْهِ إِلَّا نَادِرًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم: ١-٢] وَإِلَّا فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ تَأْتِي تَابِعَةً لَهُ، فَهُوَ أَصْلُ الْأَسْمَاءِ؛ وَهَذَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ أَبَدًا لَا عَلَمًا وَلَا صِفَةً بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

وهل هو مُشْتَقٌّ أَوْ اسْمٌ جَامِدٌ؟

الصَّحِيحُ بِلَا شَكٍّ: أَنَّهُ مُشْتَقٌّ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ اللَّهُ تَعَالَى مُشْتَقَّةٌ؛ بِمَعْنَى أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهَا؛ فَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَلُوْهِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْأَشْتِقَاقَاتِ تَكُونُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ هُوَ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ؛ حَيْثُ ابْتَدَأَ خَلَقَ هَذِهِ السَّمَوَاتِ الْعَظِيمَةَ وَهَذِهِ الْأَرْضَ عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْبِقَ مِثَالُ يَحْتَدِيهِ وَيَقْتَدِي بِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُبْدِعَ الصَّنْعَةِ يُشْهَدُ لَهُ بِالْخِبْرَةِ وَالْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّهُ أَنْشَأَ شَيْئًا جَدِيدًا وَصَارَ هَذَا الشَّيْءُ الْجَدِيدُ مُنْتَظِمًا عَلَى تَمَامِ الْإِنْتِظَامِ وَغَايَةِ الْإِحْكَامِ فَإِنَّهُ يُشْهَدُ لَهُ بِالْكَمَالِ وَالْخِبْرَةِ، فَفِي كَوْنِهِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ وَعَلَى الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ السَّمَوَاتِ مُتَعَدَّدَةٌ، وَقَدْ بَيَّنَّهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُا سَبْعٌ، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وَأَمَّا الْأَرْضُ فَذُكِرَتْ مَفْرَدَةً بِاعْتِبَارِ الْجِنْسِ، وَهِيَ سَبْعُ أَرْضِينَ، وَالدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وَمِنَ السُّنَّةِ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظَلَمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(١)</sup>.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبَاتُ الْمَلَائِكَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَنِ اضْطَفَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى رُسُلًا إِلَى الْخَلْقِ بِالْوَحْيِ وَغَيْرِ الْوَحْيِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ هَوْلَاءِ الرُّسُلِ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ مُتَعَدَّدَةٌ الْأَصْنَافِ وَمُتَعَدَّدَةٌ الْأَعْيَانِ، يَعْنِي أَنَّهَا مُتَعَدَّدَةٌ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ فِيهَا إِشَارَةً إِلَى سُرْعَةِ تَنْقُلِ الْمَلَائِكَةِ لِقُوَّةِ أَجْنِحَتِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحَهُ﴾ وَإِنَّمَا قُلْتُ: (لِقُوَّةِ أَجْنَحَتِهِمْ)؛ لَأنَّهُ لولا أَنَّ لهذِهِ الأَجْنَحَةَ مَزِيَّةَ عَظِيمَةً اسْتَحَقَّتْ أَنْ يُنصَّ عَلَيْهَا لَذَكَرَ غَيْرُ الأَجْنَحَةِ كَالرُّؤُوسِ مِثْلاً، وَلَكِنْ ذَكَرَ الأَجْنَحَةَ لِمَا فِيهَا مِنَ القُوَّةِ لِحَمْلِهَا هَؤُلاءِ المَلائِكَةِ؛ وَلا مَثَمَا تَكُونُ عِنْدَ الإِرْسَالِ أَسْرَعُ، وَقد ذَكَرْنَا مِثْلاً لذلِكَ يَدُلُّ عَلى أَنَّ المَلائِكَةَ أَسْرَعُ مِنْ غَيرِها فِي الطَّيرانِ فِي قِصَّةِ عَرشِ بَلقيسَ.

الفائدة الحادية عشرة: أَنَّ اللهَ عَزَّجَلَّ يَزِيدُ عَلى الاثْنينِ وَالثَلَاثَةِ وَالأَرْبَعَةِ بِما شاءَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ ما يَشَاءُ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: أَنَّ اللهَ تَعَالَى فَضَّلَ المَخْلُوقاتِ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ﴾ وَالزِّيادَةُ مُقابِلُها نَقْصٌ.

إذن: فَهناكَ مُفاضِلَةٌ بَينَ المَخْلُوقاتِ بَعْضَها مَعَ بَعْضٍ، وَلَكِنْ هَلِ المُرادُ القُوَّةُ أَوْ كِبَرُ الجِسمِ أَوْ العَقْلُ أَوْ العِلْمُ أَوْ غَيرُ ذلِكَ؟

الجوابُ: العُموماً؛ لَأنَّهُ قالَ: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ ما يَشَاءُ﴾ فَهَذا يَزِيدُهُ قُوَّةً فِي الجِسمِ، وَهَذا يَزِيدُهُ قُوَّةً فِي العَقْلِ، وَهَذا يَزِيدُهُ قُوَّةً فِي الطُّولِ، وَهَذا يَزِيدُهُ قُوَّةً فِي العِلْمِ... الخ.

الفائدة الثالثة عشرة: أَنَّكَ إِذا وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ نَقْصاً فِي خَلْقِكَ فَاطْلُبْ إِكمالَهُ مِنَ اللهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ ما يَشَاءُ﴾ مَعنَا: لا تَسألُ الزِّيادَةَ فِي خَلْقِكَ وَلا خُلُقِكَ إِلا مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ؛ لَأنَّهُ هُوَ المانُّ بِما يَزِيدُ بِهِ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى.

الفائدة الرابعة عشرة: إِثباتُ المَشِيئَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ما يَشَاءُ﴾ وَقد تَقَدَّمَ أَنَّ المَشِيئَةَ كَلِّما وَرَدَّتْ وَرَدَّتْ مَعْلَقَةً بِالْحِكْمَةِ، وَاسْتَدَلُّنا لذلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَما تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكِيماً﴾ [الإِنسان: ٣٠].

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: إِبْتَاتُ الْقُدْرَةِ الْعَامَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَزِيدَ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَقَادِرٌ عَلَى الْإِبْجَادِ وَالْإِعْدَامِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: الرَّدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أفعالَ الْعَبْدِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَلَا مَقْدُورَةٍ لِلَّهِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَأفعالُ الْعَبْدِ مِنَ الْأَشْيَاءِ.



## الآية (٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

•••••

﴿ مَا ﴾ شَرْطِيَّةٌ تَجْزِمُ بِدَلِيلِ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَلَكِنَّ الْفِعْلَ بَعْدَهَا أَمَامَنَا مَكْسُورٌ ﴿ يَفْتَحُ ﴾ فنقول: إِنَّ هَذِهِ الْكَسْرَةَ عَارِضَةٌ مِنْ أَجْلِ تَوْقِي التَّقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَإِلَّا فَإِنَّهَا مَجْزُومَةٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البينة: ١] وَأَصْلُهَا: (لَمْ يَكُونُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ فَتَحُ الشَّيْءِ: إِزَالَةُ الْحَوَاجِزِ دُونَهُ؛ يَعْنِي: مَتَى فَتَحَتِ الْبَيْتَ؛ يَعْنِي: أَزَلَّتِ الْحَاجِزَ الْمَانِعَ مِنْ دُخُولِهِ وَهُوَ الْبَابُ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا فُتِحَتْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَدْخُلُ إِلَيْهَا وَيَلْجُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾: ﴿ مِنْ ﴾ بَيَانٌ لـ ﴿ مَا ﴾، وَ﴿ مَا ﴾ شَرْطِيَّةٌ مُفِيدَةٌ لِلْعُمُومِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي الْآيَةِ عُمُومٌ؛ أَي: أَيُّ رَحْمَةٍ يَفْتَحُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلنَّاسِ فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ إِمْسَاكَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [كَرَزِقٍ وَمَطْرٍ]، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ لَا الْحَصْرِ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨] فَرَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا تُحْصَى فِي أَنْوَاعِهَا فَضْلاً عَنْ أَفْرَادِهَا.



قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَسِّكْ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يُمَسِّكُهَا، بل سَتَصِلُ إِلَى مَنْ فَتَحَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَلَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ؛ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَعْدَ أَنْ يَرْفَعَ مِنَ الرُّكُوعِ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»<sup>(١)</sup> وَيَقُولُهُ كَذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ<sup>(٢)</sup>، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ...»<sup>(٣)</sup>.

فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَسِّكَ رَحْمَةَ اللهِ مَهْمَا عَمِلَ، حَتَّى لَوْ حَاوَلَ الْحَسَدَ وَالتَّشْوِيهَ وَمَنَعَ الرِّزْقَ لَا يَسْتَطِيعُ، إِذَا فَتَحَ اللهُ الرَّحْمَةَ لِلْعَبْدِ فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا؛ وَهَذَا جَاءَتْ: ﴿فَلَا تُمَسِّكْ لَهَا﴾.

و(لا): نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَهِيَ أَنْصَبُ شَيْءٍ عَلَى الْعُمُومِ؛ وَهَذَا عُمُومٌ لَا نَافِيَةَ لِلْجِنْسِ لَا تَخْصِيصَ فِيهِ أَبَدًا.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لَهَا﴾ يَعُودُ عَلَى الرَّحْمَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ لَعَلَّكَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ نَصُّ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا)؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ الْآنَ فِي الرَّحْمَةِ وَهُوَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى قَالَ: ﴿فَلَا تُمَسِّكُ لَهَا﴾ فَيَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى؛ أَي: (وَمَا

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، رَقْمٌ (٤٧٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَذَانِ، بَابُ الذِّكْرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، رَقْمٌ (٨٤٤)، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ الذِّكْرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، رَقْمٌ (٥٩٣)، مِنْ حَدِيثِ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١/٢٩٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ، رَقْمٌ (٢٥١٦).

يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) هكذا تتوقع، ولكن ليس الأمر كذلك.

لأنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ لم يُخَصَّصْ بِالرَّحْمَةِ حَتَّى نَقُولَ: إِنَّ الْمُتَوَقَّعَ أَنْ يَقُولَ: (فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) بَلْ قَالَ: ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ وَحَذَفَ الْمُتَعَلِّقَ لِيُقَيِّدَ الْعُمُومَ؛ أَي: (وَمَا يُمْسِكُ مِنْ رَحْمَةٍ وَمَا يُمْسِكُ مِنْ شَرِّ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ) حَتَّى الضَّرَرَ الَّذِي يُمْسِكُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَا أَحَدٌ يَرْسِلُهُ إِلَيْكَ، حَتَّى الرَّحْمَةِ الَّتِي أَمْسَكَهَا اللَّهُ عَنْكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرْسِلَهَا أَحَدٌ إِلَيْكَ.

ولهذا يسعى الإنسان أحياناً إلى ما يراه من رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْ رِزْقٍ أَوْ غَيْرِهِ، ثُمَّ يَحْوِلُ الْقَدْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، يَتَعَرَّضُ الْإِنْسَانُ أحياناً لِأخطارٍ وَلَكِنْ يَسَلِّمُ مِنْهَا، قَدْ يَحْصُلُ لِلسَّيَّارَةِ انْقِلَابٌ أَوْ تَصَادُمٌ، فَيَمُوتُ أَناسٌ أَقْوَى مِنْكَ أَجساماً، وَأَقْوَى مِنْكَ مَنَعَةً، وَتَبْقَى أَنْتَ.

إِذَنْ: أَمْسَكَ اللَّهُ عَنْكَ الضَّرَرَ، وَلَوْلَا هَذَا الْإِمْسَاكُ لَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ.

إِذَنْ نَقُولُ: (مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ) أَي: لِمَا أَمْسَكَهُ، فَعَادَ الضَّمِيرُ فِي ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ عَلَى لَفْظِ ﴿وَمَا﴾ وَلَفْظِ ﴿وَمَا﴾ مُذَكَّرٌ، بِخِلَافِهِ فِي الْأَوَّلِ، فَعَادَ عَلَى ﴿رَحْمَةٍ﴾ لِأَنَّهَا مُؤَنَّثٌ.

الآن تَبَيَّنَ لَنَا: أَنَّ السِّيَاقَ عَلَى أَتَمِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَأَنَّ مَا كُنَّا نَتَوَقَّعُهُ مِنْ أَنْ يَقَالَ: (فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) لَيْسَ عَلَى مَا نَتَوَقَّعُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ لَا يَعْنِي الرَّحْمَةَ، إِذَنْ هُوَ عَامٌّ؛ وَلهَذَا نَقُولُ: إِنَّ قَوْلَ الْمُفَسِّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ: [وَمَا يُمْسِكُ مِنْ ذَلِكَ] فِيهِ قُصُورٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: (مِنْ ذَلِكَ) يَعُودُ إِلَى الرَّحْمَةِ، وَلَكِنْ نَقُولُ: (وَمَا يُمْسِكُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ).

قال المُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَي: بَعْدَ إِمْسَاكِهِ]، وَهَذَا لَا شَكَّ

أنه احتمال، وأنه يُحتمَل أن يكون الضمير راجعاً إلى إمساك المُستفادِ من قوله تعالى:  
﴿يُمْسِكُ﴾.

فإذا قيل: هل لهذا نظير؛ أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل قبله؛ لأن من المعلوم أن مرجع الضمير لا بُدَّ أن يكون اسماً مذكوراً مطابقاً قبل أو بعد، أو مُقدَّراً، المُهمُّ أن مرجع الضمير اسم، والاسم إما أن يُذكر بلفظه الصريح مقدماً أو مؤخراً أو مُقدَّراً، وإما أن يُؤخذ من مصدر فعلٍ سابق، هنا على كلام المُفسر رَحْمَةُ اللَّهِ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد إمساك؟

فالجواب: كَلِمَةُ (إمساك) سَبَقَتْ؛ لأن ﴿يُمْسِكُ﴾ فعل مأخوذ من (الإمساك).

إذن: فقد تضمَّنَ الفعلُ ذلك اللَّفْظَ وهو الإمساك، ونظيره قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:  
﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] ﴿هُوَ﴾؛ أي: العَدْلُ المَفهُومُ من قوله تعالى:  
﴿أَعْدِلُوا﴾.

والأصلُ في مرجع الضمير أن يكون اسماً مذكوراً متقدماً مطابقاً، وقد يتأخر، وقد يُقدَّرُ، وقد يكون مفهوماً من مصدر فعلٍ سابق، كما هو في قوله تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وكما في هذه الآية على تقدير المُفسر رَحْمَةُ اللَّهِ.

وهل يُمكن أن يُحتمَل عَوْدُ الضميرِ على غيرِ (الإمساك)؟

الجواب: نعم، فيُحتمَلُ أن يعود على (الله) عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه قال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ أي: من بعد الله، وتكون كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ويكون الضميرُ في قوله تعالى:

﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا أَقْرَبُ؛ لِأَنَّهَا أَدْلُ عَلَى كِهَالِ التَّصَرُّفِ فِي حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ الْعَزِيزُ ]: الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي فِعْلِهِ [ وَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنَ الْمَفْسَّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَاصِرٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: [ الْعَزِيزُ ] الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، هَذَا أَحَدُ مَعَانِي ( الْعَزِيزِ )؛ فَإِنَّ ( الْعَزِيزَ ) لَهُ ثَلَاثَةٌ مَعَانٍ: عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَالْقَهْرُ، وَالْإِمْتِنَاعُ.

١- الْقَهْرُ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: [ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ]، وَنَقُولُ: إِنَّهُ يَشْمَلُ الْغَالِبَ عَلَى أَمْرِهِ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَهَذَا هُوَ الْقَهْرُ.

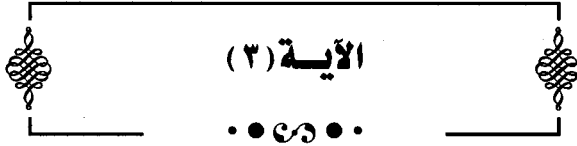
٢- ذُو الْقَدْرِ الرَّفِيعِ الْعَالِي، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِنَا: ( عِزَّةُ الْقَدْرِ ).

٣- أَمَّا عِزَّةُ الْإِمْتِنَاعِ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يِنَالَهُ سُوءٌ أَوْ نَقْصٌ أَوْ عَيْبٌ.

فَالْعِزَّةُ إِذْنُ ثَلَاثَةٌ مَعَانٍ، وَلَيْسَتْ مَعْنَى وَاحِدًا.

أَمَّا ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فَقَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ فِي فِعْلِهِ ]، وَهَذَا أَيْضًا قَصُورٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ، فِي قَدْرِهِ وَشَرْعِهِ، فِي الْكُلِّ، بَلْ إِنَّ الْحَكِيمَ لَهَا مَعْنَى آخَرٌ؛ لِأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِحْكَامِ، فَهُوَ ذُو حُكْمٍ وَذُو إِحْكَامٍ، وَالْحُكْمُ كَوْنِيٌّ وَشَرْعِيٌّ، وَالْإِحْكَامُ فِي الْغَايَةِ أَوْ فِي الصُّورَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّيْءُ، فَالْجَمِيعُ أَرْبَعَةٌ أَنْوَاعٍ، وَيَقْرَنُ اللَّهُ تَعَالَى دَائِمًا بَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ كِهَالِ عِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْبِئُوهُمْ أَنِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [فاطر: ٣].



تصديرُ الخطابِ بالنداءِ يدلُّ على الاهتمامِ به والعنايةِ به؛ لأنَّ النداءَ يتضمَّنُ التَّنْبِيهَ؛ ولهذا إذا قلتَ لِلطَّالِبِ: (يا وَلَدُ) فَإِنَّهُ يَتَنَبَّهُ، فتصديرُ الحُكْمِ بالنداءِ يدلُّ على العنايةِ به؛ لأنَّ النداءَ يُفيدُ التَّنْبِيهَ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَهْلُ مَكَّةَ.

وهذا بلا شكَّ قصورٌ؛ لأنَّ النَّاسَ عامٌّ، والواجبُ علينا في القرآن والسُّنَّة أن نُبَيِّنَ العامَّ على عُمومِهِ حتى يقومَ دليلٌ على إرادة الخُصوصِ، وإلاَّ فإنَّ الواجبَ إبقاؤه على عُمومِهِ؛ لأنَّه ليس لنا الحقُّ في أن نتصرَّفَ في مدلولات الألفاظِ المخالفةِ لظاهرها إلاَّ بدليلٍ من المتكلم أو من يتكلم مبيِّناً كلامه؛ كالرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالنداءُ إذن عامٌّ لجميعِ النَّاسِ.

قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المرادُ بالذِّكْرِ هنا ذِكْرُ النِّعْمَةِ بِالْقَلْبِ، وَذِكْرُهَا بِاللِّسَانِ، وَذِكْرُهَا بِالْفِعْلِ (بالجوارح).

فذكُرْها بِالْقَلْبِ بأن يتأمَّل الإنسان، من أين أتت هذه النِّعْمَةُ؟ ومن الذي خلقه؟ ومن الذي أمدهُ بالرِّزْقِ وهو في بطنِ أمِّه لم يخرجْ بعدُ؟ ومن الذي أعدَّه لقبولِ

ما يَمُرُّ به وَتَصَوُّره وَتَعَقُّله وَتَنْفِيذه؟

الجواب: الله، فأنت إذا تذكَّرت في قلبك - وَنَسَأَلُ الله أن يُعِيذَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْغَفْلَةِ - عَرَفْتَ أَنَّ مَا بَكَ مِنْ نِعْمَةٍ فَهُوَ مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ، فَيَتَأَمَّلُ الْإِنْسَانُ: يقول: مَنْ الذي أَوْجَدَنِي؟ مَنْ الذي أَمَدَّنِي بِالنِّعَمِ وَأَنَا فِي بطنِ أُمِّي، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْهِ لُقْمَةُ الْعَيْشِ أَوْ جُرْعَةُ الْمَاءِ، ثُمَّ مَنْ الذي أَعَدَّنِي وَهَيَّأَنِي لِأَنْ أَكُونَ قَابِلًا لِمَا فِيهِ مَنَفَعَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

الجواب: الله عَزَّجَلَّ.

فالنِّعَمُ إِيجَادٌ وَإِمْدَادٌ وَإِعْدَادٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ؛ هَذَا ذِكْرُهَا بِالْقَلْبِ.

وَأَمَّا ذِكْرُهَا بِاللِّسَانِ أَنْ يُشَيِّيَ عَلَى اللهِ بِهَا ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فَيَتَحَدَّثُ بِالنِّعَمِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِفْتِخَارِ، وَلَكِنْ عَلَى سَبِيلِ الشُّكْرِ.

ذِكْرُهَا بِالْجَوَارِحِ أَنْ يُرَى أَثْرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَتِ النِّعْمَةُ عَلِيمًا رُؤْيَى أَثْرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِحُسْنِ التَّصَرُّفِ، وَالْوَقَارِ، وَالسَّكِينَةِ، وَالْأَدَبِ، وَنَشْرِ الْعِلْمِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّجَلَّ، هَذَا مِثَالٌ، وَإِذَا كَانَ بِهَالٍ يُرَى أَثْرُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِالْإِنْفَاقِ فِيهَا يُحِبُّهُ اللهُ عَزَّجَلَّ مِنَ الزَّكَاةِ، وَالنَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ، وَالصَّدَقَاتِ الْمُسْتَحَبَّةِ، وَالثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثْرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup> هَذَا ذِكْرٌ بِالْجَوَارِحِ.

وَمِنْ ذِكْرِ النِّعْمَةِ بِالْجَوَارِحِ أَيْضًا أَنْ يَقُومَ بِالشُّكْرِ، وَاللهُ عَزَّجَلَّ أَمَرَنَا بِذِكْرِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٤٣٨)، من حديث عمران بن الحصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

نِعْمَتِهِ لِلغَايَةِ؛ وهي كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] ليس المرادُ أيضًا أن تَذْكُرَ النِّعْمَةَ فقط، بل لا بُدَّ من قَرْنِ هذا الذِّكْرِ بالشُّكْرِ.

فصار الذِّكْرُ يَشْمَلُ ثلاثةُ أمورٍ: الذِّكْرُ بِالْقَلْبِ، واللِّسَانِ، والجوارِحِ.

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: (نِعْمَةٌ) مفردٌ مضاف، فيشْمَلُ جميعَ النِّعَمِ، وهي كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِسْكَانِكُمْ الحَرَمَ وَمَنْعِ الغَارَاتِ عَنْكُمْ [هذا التفسيرُ بناءً على أَنَّ المُخاطَبَ أَهْلُ مَكَّةَ، ولكن نقول: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالنِّعَمِ التي لا تُحْصَى، وهي كثيرةٌ جدًّا كما أسلفنا الأَمْثَلَةَ عليها، فتكونُ نِعْمَةً بِالِإِيجَادِ وَالِإِمْدَادِ وَالِإِعْدَادِ، كُلُّ هذهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ يعني: إِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ شَكَرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَإِنَّا نُوجِّهُ إِلَيْكُمْ هَذَا السُّؤَالَ الْمُتَضَمِّنَ لِلنَّفْيِ.

قال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ زائِدةٌ، و﴿خَلْقٍ﴾: مُبْتَدَأٌ، ﴿غَيْرِ اللَّهِ﴾ بِالرَّفْعِ وَالْجَرِّ نَعْتٌ لـ﴿خَلْقٍ﴾ لَفْظًا وَمَحَلًّا، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [١].  
﴿هَلْ﴾: حَرْفٌ فِيهِ أَدَاةُ اسْتِفْهَامٍ.

و﴿مِنْ﴾ زائِدةٌ زائِدةٌ، وكيف (زائِدةٌ زائِدةٌ)؟ أي: زائِدةٌ لَفْظًا زائِدةٌ لِلْمَعْنَى؛ لِأَنَّهَا تُفِيدُ توكيدَ النَّفْيِ وَالتَّنْصِيصَ على الأُمُورِ، و﴿خَلْقٍ﴾ إِذْنٌ مُبْتَدَأٌ مرفوعٌ بِضَمِّهِ مُقَدَّرَةٌ على آخِرِهِ مَنَعٌ من ظُهُورِها اسْتِغْثَالُ المَحَلِّ بِحَرْكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

و﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ فيه قراءتان (غَيْرٌ) و(غَيْرِ)، وكلاهما صحيح، أمّا على قراءة الجرِّ (غيرِ الله) فهي صِفَةٌ تَابِعَةٌ لِلْفِعْلِ ﴿خَلَقِ﴾ لِأَنَّ ﴿خَلَقِ﴾ مَجْرُورٌ، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ فَهِيَ صِفَةٌ تَابِعَةٌ لِمَحَلِّ ﴿خَلَقِ﴾؛ لِأَنَّ مَحَلَّهُ الرَّفْعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ.

ولهذا قال المفسر رحمه الله: [بالرَّفْعِ والجرُّ نعتٌ لخالقٍ لفظاً ومَحَلّاً] في كَلَامِ المفسرِ رَحِمَهُ اللهُ لَفٌّ ونشْرٌ مُشَوِّشٌ، ونقول: (غَيْرٌ مُرْتَبٍ) إذا صار في القرآن أو في الحديث، أمّا في كَلَامِ النَّاسِ فنقول: (مُشَوِّشٌ).

فهو (بالرَّفْعِ والجرُّ نعتٌ لخالقٍ) لو كان مُرْتَبًا لقال: (نعتٌ لخالقٍ محلاً)؛ لِأَنَّهُ بِالرَّفْعِ يَكُونُ نَعْتًا لِلْمَحَلِّ، وَبِالْجَرِّ يَكُونُ نَعْتًا لِلْفِعْلِ.

وعلى كُلِّ حَالٍ: ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ فِيهَا قِرَاءَتَانِ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا وَجْهٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. قال المفسر رحمه الله: قوله [﴿يَرْزُقُكُمْ﴾: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ] هل الفِعْلُ نَفْسُهُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ أَوْ الْجُمْلَةُ؟

الجواب: الجُمْلَةُ، لَكِنَّهُمْ عِنْدَ الْإِعْرَابِ يَتَسَاهَلُونَ فَمَثَلًا يَقُولُ: (فَلانٌ فِي الْمَسْجِدِ) يَقُولُ: (فِي الْمَسْجِدِ): جَارٌّ وَمَجْرُورٌ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ.

قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا أَنَّ الْاسْتِفْهَامَ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى النَّفْيِ فَإِنَّهُ مُشْرَبٌ مَعْنَى التَّحْدِيثِ؛ يَعْنِي: لَوْ قَالَ: (لَا خَالِقَ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ) اسْتِقَامَ الْكَلَامُ، لَكِنْ إِذَا قَالَ: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ) صَارَ أَبْلَغَ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ النَّفْيَ وَالتَّحْدِيثَ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: (أَرُونِي خَالِقًا غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقِ﴾ الْخَلْقُ فِي اللُّغَةِ: التَّقْدِيرُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:



وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي<sup>(١)</sup>

فَقَوْلُهُ: (تَفْرِي مَا خَلَقْتَ)؛ يعني: ما قَدَّرْتَ، ولكنه يُطْلَقُ عَلَى الْإِيجَادِ الْمَسْبُوقِ بِتَقْدِيرٍ، فَهَذَا ﴿خَلَقِ﴾ بِمَعْنَى مُوجِدِ إِيجَادًا مَسْبُوقًا بِتَقْدِيرٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟

الجواب: لا، لا خَالِقَ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُنَا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا مِرَارًا عَلَى نَفْسِي الْخَلْقِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ، وَقَلْنَا: إِنَّهُ قَدْ جَاءَتْ نُصُوصٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَخْلُقُ.

وَأَجَبْنَا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ خَلْقَ غَيْرِ اللَّهِ لَيْسَ إِيجَادًا، وَلَكِنَّهُ تَحْوِيلٌ مِنْ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ، وَأَيْضًا لَيْسَ عَامًّا، وَكَذَلِكَ خَلْقُ غَيْرِ اللَّهِ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْوَاقِعِ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] حَتَّى لَوْ أَنَّنِي الَّذِي خَلَقْتُ هَذَا الشَّيْءَ يَعْنِي: أَوْجَدْتُهُ؛ بِمَعْنَى: غَيَّرْتُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَإِنَّ فِعْلِي هَذَا مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، فَعَلِيهِ نَقُولُ: إِنَّ الْخَالِقَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ بِمَعْنَى يُعْطِيكُمْ؛ لِأَنَّ الرِّزْقَ بِمَعْنَى الْعَطَاءِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ فَسَّرَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ الرِّزْقَ مِنَ السَّمَاءِ بِالْمَطَرِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهِ؛ فَإِنَّ الْمَطَرَ مِنَ الرِّزْقِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ، وَهَلْ هُنَاكَ رِزْقٌ غَيْرُهُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؟

نعم، الْوَحْيُ وَهُوَ رِزْقٌ مَعْنَوِيٌّ.

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص ٣٢).

ولماذا لا نقول: الطيور مطلقاً؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ [النحل: ٧٩] فهي تنزل من السماء وهي رزق للعباد أيضاً؟  
والجواب: هي رزق من الأرض ومن السماء.

ويمكن أن نقول: إنَّ الطَّلَّ مِنَ الرَّزْقِ الَّذِي هُوَ الْمَطَرُ (الرُّطوبَةُ)، وهي من السماء أيضاً وهي رزق؛ لأنَّهَا تَنْفَعُ الْأَشْجَارَ.

قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ [ومن (الأرض)] قَدَّرَ ﴿مَنْ﴾ إشارةً إلى أن (الأرض) معطوفةٌ على السماء.

قوله: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الْمَطَرُ، وَمِنَ (الأرض) النَّبَاتُ، وهذا صحيح، لكنه قاصِرٌ؛ لأنَّ الرَّزْقَ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنَ النَّبَاتِ، فالرزق من الأرض يشمل النَّبَاتَ وَالْمَعَادِنَ، والمياه؛ وغير ذلك كثيرٌ من الأرض.

وقوله: [والاستيفاهم للتقرير؛ أي: لا خالق رازق غيره] قوله: [للتقرير] ثم قال: أي: [لا خالق] هذا شبه تناقض؛ لأنَّ قَوْلَهُ: [لا خالق] يقتضي أن يكون معناه النَّفْيَ، وهو كذلك، فهو للنفي المُشْرَبُ بِالتَّحْدِي، وأنَّه لا خالق إلا الله، وإذا كان لا خالق إلا الله سُبحانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ الواجب أن نعبد الله وحده، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ أي: (لا معبود حق إلا هو)، وكيف تعلمون أنه لا رازق يرزقنا من السماء والأرض إلا الله، ثم تذهبون فتعبدون غيره؟! هل هذا إلا نقص في التصوُّر، ونقص في العقل أيضاً والتصرُّف؟! فهو نقص في التصوُّر والعقل والتصرُّف.

فإذا كان لا رازق إلا الله كيف تعبد اللات والعزى ومناة وهبل، والأشجار

والأحجارَ، والشمس والقمر، والبقر أيضًا، فيوجد أناس يعبدون البقر، وأنه إذا مرَّت البقرة على طريق القطار الحديد فإنه يجب أن يقف ولو تكسّر كل من فيه، وطبعًا القطار يمشي بسرعة إذا وقف تصادمت الأقراص، ومات من فيها، أو تكسّر، ومع ذلك يقول هؤلاء يجب أن تقف؛ لأن هذه إله، أو أن تدخل دكانه وتأكل ما شاءت وتدع ما شاءت!

هل هذه عقول؟! الجواب: ليست عقولاً، وكانوا في الجاهلية يصنعون آلهة من التمر، فإذا جاعوا أكلوها، أكلوا الإله، فإذا كان الله عز وجل هو الرازق وحده بإقراركم واعترافكم فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وأما إعراب هذه الجملة العظيمة التي بها يدخل الإنسان في الإسلام أو يخرج؛ يدخل إن نطق بها، ويخرج إن أنكرها.

فإعرابها فيه ستة أوجه للنحويين، وألف بعض العلماء رسالة في ذلك، ولكن أحسن ما يقال في إعرابها أن: (لا): نافية للجنس، و(إله): اسمها، وخبرها محذوف تقديره: (حق)؛ أي: لا إله حق و(إلا): أداة استثناء، و(الله): بدل من الخبر المحذوف.

وهل النفي هنا مُسلط على (الوجود) أو على الوجود بحق؟

الجواب: (على الوجود بحق)؛ لأن هناك آلهة دون الله تُعبد، لكن ليست بحق، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، فالآلهة موجودة، لكنها لا تستحق أن تكون آلهة؛ إذ ليس لها ربوبية.

قول المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾ من أين تُصَرِّفُونَ عن تَوْحِيدِهِ مع إقرارِكُمْ بأنَّه الخَالِقُ الرَّازِقُ؟] لو قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: (عن عِبَادَتِهِ) لكان أَحْسَنَ؛ لأنَّ (لا إله إلا هو) تَوْحِيدُ أُلُوهِيَّةِ، وليس تَوْحِيدَ رُبُوبِيَّةِ، وَكَلِمَةُ تَوْحِيدٍ تَشْمَلُ الرُّبُوبِيَّةَ أَيْضًا، فلو قال: (فَأَنْتَ تُصَرِّفُونَ عن عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ مع إقرارِكُمْ أَنَّهُ الخَالِقُ وَحَدَهُ) لكان أَحْسَنَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُؤْفِكُونَ﴾ قال: أي: [تُصَرِّفُونَ]، فـ(الْأَفْكَ) بِمَعْنَى الصَّرْفِ، ماضيه (أَفَكَ) ومُضَارِعُهُ: (يَأْفِكُ أَفْكًَا) أَمَّا الْإِفْكَ بِالْكَسْرِ فَهُوَ الْكَذِبُ.

وَالْكَذِبُ - فِي الْوَاقِعِ - يَتَّفِقُ مَعَ (الْأَفْكَ) مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْكَذِبَ هُوَ الْإِخْبَارُ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ، فَهُوَ صَرَفٌ لِلشَّيْءِ عَنْ حَقِيقَتِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ [الذاريات: ٩٠]؛ أَي: يُصَرِّفُ عَنْهُ مِنْ صُرْفٍ.

إِذَنْ: ﴿تُؤْفِكُونَ﴾ أَي: تُصَرِّفُونَ عن عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ مع إقرارِكُمْ بأنَّه الخَالِقُ وَحَدَهُ.

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾ الْاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ، يَعْنِي: كَيْفَ تُقَرُّونَ بِأَنَّهُ الخَالِقُ وَحَدَهُ ثُمَّ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ.

#### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وَجُوبُ ذِكْرِ نِعْمَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.  
الفائدة الثانية: أَهْمِيَّةُ ذِكْرِ النِّعْمَةِ؛ لِأَنَّهَا صُدِّرَتْ بِـ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْأَهْمِيَّةِ؛ لِأَنَّ مَا صُدِّرَ بِالنِّدَاءِ مَعْنَاهُ تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ عَلَى الْاسْتِيعَابِ.  
الفائدة الثالثة: أَنَّ الْكُفَّارَ مُحَاطَبُونَ بِالشَّرَائِعِ، وَهَذَا مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ﴾ فكما يجبُ على المسلم أن يذكرَ نعمةَ الله يجبُ على الكافرِ أيضًا أن يذكرَ نعمةَ الله، وبناءً عليه فإنه يُعاقبُ على عَدَمِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ في الآخِرَةِ، وقد يُعاقبُ عليه أيضًا في الدُّنْيَا.

الفائدةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ فضلِ الله سُبحانَهُ وتعالى على عباده بالنِّعمِ؛ لقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١] وليس نعمةً فقط، ولكنها جنس، فيشمل جميع ما أنعم الله علينا من نِعَمِ الدِّينِ والدُّنْيَا سواءً عادت إلى البدن، أو العقل، أو العِرْضِ، أو المال.

الفائدةُ الخَامِسَةُ: أنه لا خالقَ إلا اللهُ بدليلِ قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ ووجهُ ذلك أن الاستفهامَ هنا بمعنى النفي، كأنه قال: (لا خالقَ إلا اللهُ).

الفائدةُ السَّادِسَةُ: أن الرِّزْقَ يأتي الإنسانَ من فوق ومن تحت، من السماء والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ قَوْعِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

الفائدةُ السَّابِعَةُ: بيانُ أن الله عزَّ وجلَّ له الإيجادُ والإعدادُ والإمدادُ؛ فالإمدادُ مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الرِّزْقَ إمدادٌ للإنسانِ، والإيجادُ مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَوْفِكُونَ﴾ وأما الإعدادُ فقد أعدنا الله لِقَبُولِ الحَقِّ، فإذا كان اللهُ أعدكم لهذا القبولِ والاستدلالِ بالأدلةِ على مدلولاتها، فأتى تَوْفِكُونَ عنها؟

الفائدةُ الثَّامِنَةُ: أن الإقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ يستلزمُ الإقرارَ بتوحيدِ الألوهيةِ، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ فكما أنه هو الخالقُ وحده فيجب أن يكون هو المعبودَ وحده؛ ولهذا نقولُ: توحيدُ الألوهيةِ يتضمَّنُ توحيدَ الربوبيةِ

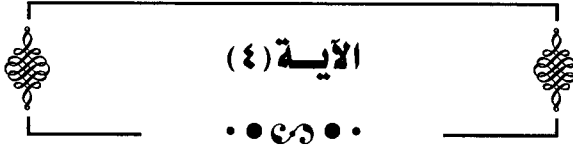
والأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا مَنْ عُلِمَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْكَامِلُ فِي صِفَاتِهِ، وَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ وَتَوْحِيدَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَطْلَانُ الْأُلُوهِيَّةِ مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا مَا أَخُوذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَكِنْ كَيْفَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَذَا النَّفْيِ وَبَيْنَ إِثْبَاتِ الْآلِهَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ [هود: ١٠١]؟

الجواب: أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ الْحَقَّ لَيْسَتْ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: سَفَاهَةُ أَوْلِيَاكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، وَهَذَا مَا أَخُوذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزِلْ تُوْفِكُونَ﴾ لِأَنَّ الْأَسْتِفْهَامَ هُنَا بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].



قال المفسر رحمه الله: [﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا مُحَمَّدُ في مجيئِكَ بالتَّوْحِيدِ والبَعْثِ، والحِسَابِ والعِقَابِ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾: (إِنْ) هنا شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ وجوابه ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾ واقْتَرَنَ بالفاء؛ لَأَنَّهُ مُصَدَّرٌ بـ(قد).

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: يَنْسُبُوكَ إلى الكَذِبِ، فيقولون: إِنَّكَ كاذِبٌ، لست رسولاً من الله عَزَّجَلَّ، بل أنت ساحِرٌ ومَجْنُونٌ وكاهِنٌ وشاعِرٌ وما أشبه ذلك، وِبَعْضِهِمْ يقول: لا بَعْثَ ولا جِزَاءَ ولا حِسَابَ ولا عِقَابَ، إن كَذَّبُوكَ فهذا أمرٌ ليس يبدع من بني آدم وليس غريباً من صنيع بني آدم.

﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مَنْ كَذَّبَهُمْ؟ كَذَّبَهُمْ أَقْوَامُهُمْ حَتَّى قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup> حَتَّى إِنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عامًا يَدْعُوهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وبالتَّوْبِيخِ وبالوعد، ومع ذلك ما آمَنَ معه إلا قَلِيلٌ.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلٌ﴾ التَّنْكِيرُ هُنَا لِلتَّكْثِيرِ وَالتَّعْظِيمِ؛ أَي: رُسُلٌ كَثِيرَةٌ وَرُسُلٌ  
 عَظِيمَةٌ أَيْضًا كُذِّبَتْ؛ كُذِّبَ نُوحٌ، وَكُذِّبَ إِبْرَاهِيمُ، وَكُذِّبَ مُوسَى، وَكُذِّبَ عِيسَى،  
 وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَآخِرُ الرُّسُلِ كُذِّبُوا، فَتَكْذِيبُكَ إِذْنٌ لَيْسَ بِبِدْعٍ.  
 وَيُرَادُ بِهَذَا تَسْلِيَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ غَيْرَهُ أُصِيبَ  
 بِمِثْلِ مُصِيبَتِهِ تَسَلَّى بِذَلِكَ؛ لَوْ أَنَّ أَحَدًا أُصِيبَ بِحَادِثٍ، ثُمَّ رَأَيْنَا الْحَوَادِثَ فِيهَا مِنْ  
 انْكَسَرَتْ يَدُهُ، وَمِنْ انْكَسَرَتْ أُصْبُعُهُ، وَمِنْ انْكَسَرَ فَعِزُّهُ، وَمِنْ انْكَسَرَ صُلْبُهُ، فَقَامَ  
 الَّذِي انْكَسَرَتْ أُصْبُعُهُ يَصِيحُ وَيَتَضَجَّرُ، قُلْنَا لَهُ: فَلَانَ انْكَسَرَ صُلْبُهُ، فَيَخْفُ عَلَيْهِ  
 الْأَلَمُ وَيُنْسَاهُ؛ لِأَنَّ تَسْلِيَ النَّفْسِ بِالْغَيْرِ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ  
 الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، فَاشْتَرَاكُمْ فِي الْعَذَابِ لَنْ  
 يُخَفِّفَ عَنْكُمْ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي حَالِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَتِ الْخَنَسَاءُ تَرْتِي أَخَاهَا  
 صَخْرًا<sup>(١)</sup>:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوِي  
 عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي  
 وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ  
 أَسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

قَالَتْ: (أَسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي) أَقُولُ: هَذِهِ مَاتَ أَخُوهَا، وَهَذِهِ مَاتَ  
 أَخُوهَا، وَهَذِهِ مَاتَ أَخُوهَا، فَأَنْتِ وَغَيْرُكِ سَوَاءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ هُنَا الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿تُرْجِعُ﴾ وَقُدِّمَ  
 لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ؛ يَعْنِي: إِلَى اللَّهِ لَا غَيْرَهُ تُرْجِعُ الْأُمُورَ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ قُدِّمَ أَيْضًا لِفَائِدَةٍ

(١) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص: ٧٢)، الكامل للمبرد (١/١٦).



لَفْظِيَّةٍ وَهِيَ مِرَاعَاةُ الْفَوَاصِلِ.

قال المفسر رحمه الله: ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ فِي الْآخِرَةِ فَيُجَازِي الْمُكْذِبِينَ وَيَنْصُرُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا أيضا من القصور؛ لأنَّ الْأُمُورَ تُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الدُّنْيَا أَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الْمُرْسَلِينَ فِي الدُّنْيَا وَيُعَاقِبُ الْمُكْذِبِينَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]

إِذَنْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ هَذَا عَامٌّ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُمُورِ الشَّرْعِ وَأُمُورِ الْقَدَرِ، فَكُلُّ الْأُمُورِ تُرْجَعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، مِنْهُ الْمُبْتَدَى وَإِلَيْهِ الْمُنْتَهَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الاعراف: ٥٤]، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ فَلْيَأْتِ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾» وَمَاذَا يَبْقَى؟ إِذَا كَانَ الْخَلْقُ - وَهُوَ الْإِيجَادُ - لِلَّهِ، وَالْأَمْرُ فِي التَّصَرُّفِ وَالتَّصَرُّفِ لِلَّهِ مَاذَا بَقِيَ لَنَا؟ مَا بَقِيَ شَيْءٌ.

ولهذا لم يبقَ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَحَدٍ أَبَدًا، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا لِلَّهِ.

وَالْأُمُورُ هُنَا جَمْعٌ (أَمْرٌ) بِمَعْنَى الشَّأْنِ؛ أَي: شُؤُونُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالشُّؤُونِ الْقَدَرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ؛ كُلُّهَا تُرْجَعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِذَا كَانَتْ تُرْجَعُ إِلَى اللَّهِ وَقَدْ كُذِّبَتِ الرُّسُلُ، فَمَا مَصِيرُ الرُّسُلِ وَالْمُكْذِبِينَ؟

الجواب: مَصِيرُ الرُّسُلِ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَصِيرُ الْمُكْذِبِينَ الْخِلْدَانُ وَالْخِزْيُ وَالْعَارُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ بِنِدْعٍ؛ فَالرُّسُلُ قَدْ كُذِّبَتْ مِنْ قَبْلِهِ، وَهَذَا وَاضِحٌ مِنَ اللَّفْظِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ عِنَايَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا مَاخُودٌ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَلَّى رَسُولَهُ بِذِكْرٍ مِنْ كُذِّبَ مِنْ قَبْلِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ وَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّهُ أَهْلَكَ مِنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَهَدَّدَ مِنْ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ﴾ يَعْنِي: أَنْتَ رَسُولٌ وَهَمَّ رُسُلٌ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ﴾ فَائِدَةٌ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ مَرْجِعَ الْأُمُورِ وَالشُّؤُونَ كُلَّهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ وَوَجْهَ اخْتِصَاصِ هَذَا بِاللَّهِ تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ؛ فَتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْحَضَرَ، إِذَنْ: إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَتْهُ الضَّرَاءُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ فَإِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ فَلْيَكُنْ طَلَبُ إِزَالَةِ الضَّرَرِ مِنَ اللَّهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وَجُوبُ تَحْكِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ لِأَنَّ الْأُمُورَ وَالشُّؤُونَ تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، وَمِنْهَا الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مِنْ حَكْمِ غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقَدْ اعْتَدَى عَلَى حَقِّ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَالِىَ اللَّهِ﴾ أَي: إِلَيْهِ وَحْدَهُ ﴿تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُسَيِّدَ مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنْ رِزْقٍ، سِوَاءِ كَانَتْ عِلْمًا أَمْ مَالًا أَمْ جَاهًا أَمْ وَلَدًا أَمْ زَوْجَةً، إِلَى نَفْسِهِ، فَيَقُولُ: إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات نعمة الله عزَّجَلَّ على العبادِ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا﴾ وإرسالِ الرُّسُلِ من أكبر النعم؛ لأننا لا نستطيع أن نعرف كيف نعبُد الله إلا عن طريق الرُّسُلِ، فالإنسانُ يعرفُ مثلًا بفطرته أن الله تعالى موجودٌ، وأنَّ له ربًّا خالقًا مدبرًا، لكن لا يعرف كيف يصلُّ إلى هذا الربِّ إلا من طريق الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى؛ حيث جعل للرُّسُلِ من يكذبهم؛ لأنه لولا تكذيبهم ما حصل الامتحان، فهذه من الحكمة العظيمة؛ أن يجعل الله للرُّسُلِ من يكذبهم، فلولا تكذيبهم لم يحصل الامتحان؛ إذ لو كان الناسُ كلُّهم على الطاعة ما تميَّز الحبيثُ من الطيبِّ ولا تبيَّن المؤمنُ من الكافرِ، ولا قامت سوقُ الجهادِ، ولا الأمرُ بالمعروفِ، ولا النهيُ عن المنكرِ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمَنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ﴾ [محمد: ٤].

فهذه من الحكمة في وجود المكدِّبين للرُّسُلِ، وهناك حكمٌ كثيرة؛ منها أيضًا: أنه لا يتبيَّن الحقُّ حتى يُعرفَ الباطلُ كما قيل<sup>(١)</sup>:

وَبِضْءِهَا تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ .....

فلولا الباطلُ الذي يُنازعُ الحقَّ ما عرفوا الحقَّ، ولكان الكلُّ سواءً، ولا نعرفُ

حقًّا من باطلٍ.



(١) انظر: ديوان المتنبي (ص ١٢٧).

(الآية ٥)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

• • • • •

النَّدَاءُ هُنَا مُوجَّهٌ لِعُمُومِ النَّاسِ؛ لِكُلِّ النَّاسِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ [وَصَدَقَ، فَكُلُّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ فَإِنَّهُ حَقٌّ، سِوَاءِ الْبَعْثِ، أَوِ الْعِقَابِ، أَوِ الثَّوَابِ، أَوِ النَّصْرِ، أَوِ الْخِذْلَانِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ، فَإِنَّهُ حَقٌّ].

﴿حَقٌّ﴾ هُنَا بِمَعْنَى صِدْقٍ وَثَابِتٍ، فَهُوَ بِاعْتِبَارِ الْإِخْبَارِ بِهِ صِدْقٌ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَبِاعْتِبَارِ وَقُوعِهِ ثَابِتٌ، وَلَا بُدَّ؛ فَالْحَقُّ هُنَا بِمَعْنَى الصَّادِقِ مِنْ حَيْثُ الْخَبْرُ بِهِ، الْوَاقِعُ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُهُ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، فَلَيْسَ وَعْدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ كَوَعْدِ غَيْرِهِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ ﴿ تَغُرَّكُمْ ﴾ وَالنَّهْيُ هُنَا مُؤَكَّدٌ بِالنُّونِ: ﴿ تَغُرَّكُمْ ﴾، بِدُونِ النُّونِ: (تَغُرَّكُمْ)؛ أَي: تَخْدَعَنَّكُمْ، وَهَذَا مُفْرَعٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي تَخْدَعُهُ الدُّنْيَا يَكُونُ إِيمَانُهُ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى ضَعِيفًا؛ إِذْ إِنَّ الدُّنْيَا تُلْهِمُهُ وَتَخْدَعُهُ حَتَّى يَنْجَرِفَ وَرَاءَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ لَا شَكَّ أَنَّهَا فِي حَيَاةٍ، وَضِدُّهَا الْمَوْتُ، وَ(دُنْيَا):

اسْمٌ تَفْضِيلِيٌّ، مَذَكَّرُهُ (أَذْنَى) مِثْلُ: عُلْيَا وَأَعْلَى، سُمِّيَتْ دُنْيَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأوّل: أنّها مُتقدِّمة عن الآخرة، فهي أَدنى إلى الناسِ مِنَ الآخرة؛ ولهذا تُسمّى الحال الأولى.

الثاني: وسمّيت دنيا أيضًا من دُنُوٍّ مرَّتبتها.

فهي دانيةٌ بمعنى قريبة؛ لأنّها هي الأولى، وهي دانيةٌ بمعنى دُنُوٍّ المرّتبة؛ لأنّ ما فيها من النعيم - إن قُدِّرَ - فإنّه مُنغَّصٌ تنغيصًا مُستقبلًا أو تنغيصًا حاضرًا؛ تنغيصًا حاضرًا؛ لأنّ نفسَ النعيمِ الذي تُنعمُ به في الدُّنيا لا بُدَّ أن يُشابَ بِكُدْرِ؛ كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نَسَاءً وَيَوْمٌ نَسْرٌ<sup>(١)</sup>

وهذا لو تأملته لوجدته كذلك، كلّ يومٍ في أسبوعٍ ناظرٍ نفسك؛ يومٌ تكون فرحًا مسرورًا، ويومٌ تغتمُّ، ويومٌ تأتلك أشياءً خارجيّة تُفرحُك، ويومٌ آخرٌ بالعكس، ثم لو قُدِّرَ أنّ صفوها خلا من ذلك؛ يعني: لم يُشبَّ بأذى، فإنّ المُستقبل يُنغَّصُ عليك هذا الصّفاء؛ كما قال الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنغَّصَةً لِدَائِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ<sup>(٢)</sup>

فلا بُدَّ من أحدٍ أمرين: إمّا موتٌ عاجلٌ، وإمّا هَرَمٌ مُذهِبٌ.

فالإنسانُ إذا قُدِّرَ أنّ الله تعالى مدّ له في العُمُرِ فإنّه يَرجعُ إلى حاله الأولى؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَرُدُّونَ إِلَى الْآخِرَةِ لَنَسْفَقُنَّهُمُ أَغْفًا﴾ [النحل: ٧٠] يَرجعُ إلى حاله الأولى يَسْقُطُ

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسبويه (١/٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (٣٤٦/١).

(٢) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/٢٧٤)، مع الهوامع (٤٢٨/١).

تَمَيُّزُهُ، وَيَكُونُ أَشَدَّ مِنَ الصَّبِيِّ؛ يَعْنِي: كَوْنُهُ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِ أَشَدُّ مِنْ كَوْنِ الصَّبِيِّ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ الصَّبِيَّ لَيْسَ عِنْدَهُ عَقْلٌ وَتَمَيُّزٌ، غَايَةُ مَا هُنَالِكَ أَنَّهُ يَصِيحُ، وَإِنْ أُعْطِيَ شَيْئًا لَعِبَ بِهِ وَسَكَتَ، لَكِنَّ هَذَا الْهَرَمَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّمَيُّزِ.

نَحِيْدُهُ يَصِيحُ عَلَى أَهْلِهِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: كَيْفَ تَنْسُونَ حَاجَتِي، حِينَمَا كُنْتُ شَابًّا كُنْتَ أَعْمَلُ وَأَنْفِقُ عَلَيْكُمْ، وَأُحْضِرُ لَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَالْيَوْمَ تَنْسُونَ، فَهُوَ يُفْزِعُهُمْ أَكْثَرَ، ثُمَّ هُوَ أَيْضًا ثَقِيلٌ، أَمَّا الصَّبِيُّ فَيَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى يَدِهِ وَيَمْشِي بِهِ يَمِينًا وَيَسَارًا؛ حَتَّى يَسْكُتَ، لَكِنَّ هَذَا الْهَرَمَ هُوَ الْإِشْكَالُ؛ لِذَلِكَ إِذَا تَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَمَهْمَا كَانَ عَيْشُهُ فَسَوْفَ يَنْتَغِصُّ؛ وَلهَذَا نَقُولُ: هَذِهِ الْحَيَاةُ دُنْيَا، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ دُنُو الزَّمَنِ وَدُنُو الْمَرْتَبَةِ وَالْقَدَرِ.

قَوْلُهُ: [عَنِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ]؛ أَي: بِوَعْدِ اللَّهِ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ غَفَلُوا عَنْ وَعْدِ اللَّهِ! وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ فَنَسُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي وَرَاءَهَا!

فَكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] كَيْفَ يَنْصُرُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْقِلَّةِ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْكُفَّارِ وَهُمْ بِهِذِهِ الْكُثْرَةِ وَبِهِذِهِ الْقُوَّةِ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟!

فَيَعْتَمِدُ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَلَى الْأَسْبَابِ الْمَادِيَّةِ دُونَ مَا وَرَاءَهَا، وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِوَعْدِ اللَّهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى وَعَدَّ أَنْ يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

يقول قائل: كيف يَسْتَخْلِفُنَا اللهُ فِي الْأَرْضِ وَعِنْدَنَا الْأُمَّمُ الْقَوِيَّةُ الْكَثِيرَةُ مَا

الجواب على ذلك؟

الجواب: ﴿إِنَّ وَعَدَ اللهُ حَقًّا فَلَا تُغْرِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ لَا تُغْرِكُ الدُّنْيَا حَتَّى فِي النَّصْرِ، أَسْبَابُ النَّصْرِ لَيْسَتْ هِيَ الْمَادَّةُ فَقَطْ، بَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ وَرَاءَهَا وَهِيَ قُوَّةُ الْعَزِيزِ عَزَّجَلْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَلَا يُغْرِكُكُمْ بِاللَّهِ﴾ فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ ﴿الْغُرُورُ﴾ الشَّيْطَانُ؛ يَعْنِي: لَا يُخَدِّعُكُمْ أَيْضًا مَنْ وَصَفَهُ الْخِدَاعُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ وَصْفُ ﴿الْغُرُورِ﴾ وَ(غُرُورٌ): فَعُولٌ، صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ؛ لِأَنَّ غُرُورَهُ كَانَ وَصْفًا لِأَزْمًا لَهُ لُزُومَ الْوُجُوبِ.

و(الغُرُورُ) غَيْرُ (الغُرُورِ) بِالضَّمِّ؛ (الغُرُورُ) بِالضَّمِّ مَصْدَرٌ، وَ(الغُرُورُ) صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ دَالَّةٌ عَلَى الْمَعْنَى وَمَنْ قَامَ بِهِ الْمَعْنَى، (فَالغُرُورُ) إِذَنْ هُوَ الشَّيْطَانُ، سِوَاءَ كَانَ إِنْسِيًّا أَمْ جِنِّيًّا؛ فَمِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ مَنْ يَغُرُّ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُلْقِي فِي قَلْبِكَ مَا يُخَدِّعُكَ، وَمِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ أَيْضًا مَنْ يَغُرُّ، وَهُمْ جُلَسَاءُ السُّوءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْإِنْسَانَ فَيَدْخُلُونَ فِيهِ كَمَا يَدْخُلُ الْمَاءُ فِي الْمَدْرَةِ، أَوِ النَّارُ فِي الْفَحْمِ، يَدْخُلُونَ لَهُ دَخُولًا بِحَيْثُ يَكُونُ كَالنَّائِمِ أَوْ كَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ، فَاللهُ عَزَّجَلَّ حَدَّرَنَا مِنْ هَؤُلَاءِ.

وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَلَا يُغْرِكُكُمْ بِاللَّهِ﴾ فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ ﴿الْغُرُورُ﴾ الشَّيْطَانُ].

[فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ]، صَحِيحٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَغْتَرُّ بِاللَّهِ فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ فَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: لَوْ كُنْتُ عَلَى خَطَاٍ لِعَاقِبَتِي اللهُ، وَمَا دَامَ اللهُ عَزَّجَلَّ يَرْزُقُنِي وَيُعَافِينِي فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنِّي عَلَى حَقٍّ، لَكِنَّ هَذَا مِنَ الْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ الَّتِي حَدَّرَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:

«الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»<sup>(١)</sup>؛ أي: الأمازي، وهذا الحديث وإن كان فيه ما فيه من حيث الصِّحَّة، لكنَّ معناه صحيحٌ بلا شكٍّ، فإنَّ الكَيْسَ الحَازِمَ هو الذي يَعْمَلُ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ بِاللَّهِ فِي حِلْمِهِ وَإِمهالِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: الخَادِعُ وَهُوَ الشَّيْطَانُ؛ قَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ: [الشَّيْطَانُ] هَذَا اسْمٌ لِلشَّيْطَانِ (إِبْلِيسُ) وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطِئٍ يَشِيطُ إِذَا غَضِبَ، أَوْ مِنْ شَطَنَ يَشْطِنُ إِذَا بَعُدَ، وَالْوَصْفَانِ ثَابِتَانِ لِلشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّ عِنْدَهُ طَيْشًا وَسُوءًا تَصَرَّفَ، كَالَّذِي يَشِيطُ غَضَبًا، وَهُوَ أَيْضًا شَاطِنٌ؛ أَي: بَعِيدٌ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَعَنَهُ فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ١٧٨].

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَهْمِيَّةُ التَّصْدِيقِ بِوَعْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَجَهٌ ذَلِكَ أَنَّهُ صَدَّرَهُ بِالنَّدَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الْكُفَّارَ مُحَاطَبُونَ بِالْفُرُوعِ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ هُنَا عَامٌّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ مِنْ صَادِقٍ قَادِرٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَي: صِدْقٌ فِي حَالِ الْحَبْرِ عَنْهُ، وَاقِعٌ فِي حَالِ إِيقَاعِهِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٤/٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يَرْتَبَطَ بِالدُّنْيَا مَهْمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ مَنْ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا فَإِنَّهُ مَخْدُوعٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْرَنُّكُمْ﴾ أَي: تَخْدَعَنَّكُمْ؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَنْخَدِعُ بِذَلِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الْإِشَارَةُ إِلَى وَجوبِ الْعِنَايَةِ بِالْآخِرَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فَإِذَا نُهِبْنَا عَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَعْنَاهُ أَنَّا نُلْزَمُ أَوْ نُؤَمَرُ بِالْعِنَايَةِ بِالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ الْمُنْتَهَى، أَمَّا هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَمُرُّهَا عَابِرًا فَقَطْ، حَتَّى الْقُبُورِ الَّتِي يَبْقَى فِيهَا الْإِنْسَانُ مِنَ السَّنَوَاتِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ هِيَ مَحَلُّ عُبُورٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] سَمِعَ أَعْرَابِيٌّ فَتَى يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ: (وَاللَّهِ مَا الزَّائِرُ بِمُقِيمٍ) أَوْ (إِنَّ الزَّائِرَ لظَاعِنٌ)؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ﴾ وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الزَّائِرَ يَبْقَى مُدَّةً ثُمَّ يَنْصَرِفُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: دُنُوُّ الدُّنْيَا مَرْتَبَةً وَدِنَاءُهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الدُّنْيَا﴾ فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ حَيَاةً لَكِنْهَا دُنْيَا، وَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ الشُّنَاءَ عَلَى الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بِالْعَيْبِ يَدُلُّ عَلَى وَصْفِ صَرَّتِهَا بِالْكَمَالِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: جَوَازُ تَنْعَمِ الْإِنْسَانِ بِالدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا تَعْرُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْرَنُّكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (فَلَا تَتَّعَمُوا فِي الدُّنْيَا بَشْيَءٍ)، بَلْ قَالَ: ﴿فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الْحَطَرِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَالِ وَيُسْرِ الْعَيْشِ؛ لِأَنَّ هَذَا قَدْ يَخْدَعُ الْمَرْءَ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَحْشَى أَنْ

تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا  
وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

الفائدة العاشرة: وجوب الحذر من الشيطان وسأوسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا  
يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وسواء كان الشيطان إنسياً أم جنياً؛ لأن الشيطان الإنسي يغُرُّ  
الإنسان كما يغُرُّه شيطان الجن.

الفائدة الحادية عشرة: الحذر الشديد من هذا الذي يعرُّنا؛ من شياطين الإنس  
والجن؛ لأنه وصفه بقوله تعالى: ﴿الْغُرُورُ﴾ والغرور - كما سبق - إما صفةٌ مُشَبَّهَةٌ وإما  
صيغةٌ مُبَالِغَةٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)،  
ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(الآية ٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

•••••

هذه الجملة مؤكدة بـ ﴿ إِنَّ ﴾، وقال: ﴿ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ ﴾ ولم يقل: (إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوُّكُمْ) لثبوت هذه العداوة؛ ولهذا أتى بالجملة الاسمية المكوّنة من مُبتدأ وخبر، ﴿ عَدُوٌّ ﴾: مُبتدأ مؤخر و﴿ لَكُفْرٌ ﴾: خبرٌ مقدّم، وتقديم الخبر هنا يفيد الحصر؛ يعني: كأنه ليس عدوّاً إلا لكم، ومعلوم أنّ من انحصرت عداوته في شخصٍ فإنه يجب عليه أن يتخترز منه أكثر وأكثر.

وقوله تعالى: ﴿ عَدُوٌّ ﴾ على وزنِ فَعُولٍ، فهي صفةٌ مُشبهةٌ، والعدوّ ضدّ الوليّ، فإذا كان الوليّ هو الناصر المتولّي لأمرِك المعنويّ به، فالعدوّ هو الخاذل الذي لا يهتمه أمرِك، فالشيطان عدوّ، يقول الله عزّوجلّ: ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ لما أكّد أنّه عدوّ لنا ربّنا على ذلك فقال: ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ والفاء هنا يُسمونها فاء التّفريع؛ أي: فيسبب ثبوت كونه عدوّاً اتّخذوه عدوّاً؛ يعني: اجعلوه عدوّاً لكم بحيث تنفرون منه نفوركم من الأعداء.

فإذا قال قائل: كيف تتخذّه عدوّاً؟

الجواب: تتخذّه عدوّاً بكرهته وبغضه، وبعدم الانصياع لأمره ووسوسته؛

لأنه كما قال الله عنه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فهو لا يأمر إلا بالفحشاءِ والشُّوءِ ومَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فإذا أَحْسَنْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ تَهْوَى الْمَعْصِيَةَ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ إِمْلَاءِ الشَّيْطَانِ، فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَنْفِرَ مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا صَادِرٌ مِنْ عَدُوِّكَ، لَا يَرِيدُ إِلَّا إِضْرَارَكَ وَخِذْلَانَكَ؛ وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

قال المفسر رحمه الله: [فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا] ﴿بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا تُطِيعُوهُ﴾ يعني: أطيعوا الله ولا تُطِيعُوا الشَّيْطَانَ، وَأَنْتُمْ إِذَا أَطَعْتُمْ اللَّهَ فَإِنَّ هَذَا أَعْظَمُ سِلَاحٍ يَغِيظُ هَذَا الشَّيْطَانَ، فَإِذَا أَطَعْتَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغِيظُ الشَّيْطَانَ وَتَدْحِرُهُ وَتُدِلُّهُ كَمَا أَنَّكَ تَدُلُّ أَوْلِيَاءَهُ أَيْضًا وَتَغِيظُهُمْ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْمًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ بِصِفَتِهِمُ الْمَذْكُورَةَ يَغِيظُونَ الْكُفَّارَ، وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا كَانُوا يَغِيظُونَ الْكُفَّارَ فَإِنَّهُمْ يَغِيظُونَ الشَّيْطَانَ أَيْضًا، فَأَعْظَمُ شَيْءٍ لِإِغَاظَةِ الشَّيْطَانِ هُوَ أَنْ تَقُومَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

يُرَوَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ عَنْ بَنِي آدَمَ: «أَهْلَكْتُهُمْ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِسْتِغْفَارِ»<sup>(١)</sup>، فَالتَّوْحِيدُ وَسُؤَالُ الْمَغْفِرَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَغِيظُ الْكُفَّارَ.

قال المفسر رحمه الله: [إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ] ﴿أَتْبَاعَهُ فِي الْكُفْرِ﴾ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الشَّدِيدَةِ].

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْرٍ تَفِيدُ إِثْبَاتَ الْحُكْمِ فِي الْمَذْكُورِ وَنَفْيَهُ عَمَّا سِوَاهُ؛ يَعْنِي: مَا

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (٧)، وأبو يعلى في المسند رقم (١٣٦)، والطبراني في الدعاء رقم (١٧٨٠)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يدعو حزبه إلا لهذا الأمر؛ لأن يكونوا من أصحاب السعير، واللأم في قوله تعالى: ﴿يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ اللأم هذه للعاقبة؛ يعني: يدعو حزبه للشر والفحشاء لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير.

وقول المفسر رحمه الله: [حزبه، ﴿أتباعه في الكفر﴾] قد يقال: إن فيه قصورا؛ لأن حزب الشيطان الحزب المطلق لا شك أنهم الكفار، لكن من عصى الله عز وجل ولو لم يكن كافرا في معصية من المعاصي فله من حزبه الشيطان بقدر ما عصى الله، لكن الحزب المطلق هم الكفار.

قوله تعالى: ﴿يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني: من أصحاب النار، والسعير هو النار الشديدة، وإنما يدعوهم لذلك؛ لأنه لما غوى -والعياذ بالله- وتكبر عن عبادة الله قال: ﴿قَالَ فِيمَا آغَايَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا آغَايَيْتَنِي لِأَزِيدَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا آغَايَيْتَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحج: ٣٩].

لما خذل -والعياذ بالله- وطرد وصار غاويا حرس على أن يكون له أتباع في غيه، وهذا أمرٌ مُشاهد؛ فأهل الحق يودون أن يكون لهم أتباع في الحق، وأهل الباطل يودون أن يكون لهم أتباع في الباطل، فالشيطان -والعياذ بالله- لما كان من أصحاب النار أحب أن يكون الناس -أي: بنو آدم- أن يكون الناس كلهم من أصحاب النار، هؤلاء الذرية ذرية آدم، وشقاء إبليس إنما كان لتركيه السجود لآدم، فلا جرم أن يغوي ذريته وأن يجارب بكل ما يستطيع إغواءهم حتى يكونوا من أصحاب النار.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عَدَاوَتِهِ الْمُؤَكَّدَةَ لِلإِنْسَانِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَهْمِيَّةُ إِيْمَانِنَا بِذَلِكَ؛ أَيِ عِلْمِنَا بِأَنَّهُ عَدُوٌّ، لَكِنْ مَا وَجَّهَ ذَلِكَ؟  
الجوابُ: تَقَدَّمَ فِي (البَلَاغَةِ): أَنَّ الخِطَابَ الخَبْرِيَّ هُوَ الخِطَابُ الَّذِي يُلْقَى إِلَى المُخَاطَبِ بِدُونِ تَوْكِيدٍ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَكَّدُ فِي مَقَامِ الخِطَابِ الخَبْرِيَّ إِلَّا لِسَبَبٍ؛ الخِطَابُ الخَبْرِيُّ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى إِنْسَانٍ خَالِي الذَّهْنِ فَإِنَّهُ لَا يُؤَكَّدُ؛ لِأَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِلتَّوْكِيدِ، فَالتَّوْكِيدُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا زِيَادَةٌ كَلِمَاتٍ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا، لَكِنْ إِذَا كَانَ الأَمْرُ ذَا أَهْمِيَّةٍ فَإِنَّهُ يُؤَكَّدُ وَلَوْ كَانَ لِإِنْسَانٍ خَالِي الذَّهْنِ، فَإِذَا كَانَ عَالِمًا بالأَمْرِ صَارَ أَيْضًا تَوْكِيدُهُ أبعَدَ، وَلَا نَحْتَاجُ إِلَى التَّوْكِيدِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

فَالآنَ نَقُولُ: كَوْنُ اللهِ أَكَّدَ هَذَا الكَلَامَ، وَالإِنْسَانُ خَالِي الذَّهْنِ أَوْ عَالِمٌ بِهِ مِنْ قَبْلِ يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ الإِيْمَانِ بِهَذَا الأَمْرِ الَّذِي عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَهُوَ أَنَّهُ هُنَا عَدُوٌّ.

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ البَلَاغَةِ: إِنَّ الخَبْرَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى عَالِمٍ بِهِ مُؤَكَّدًا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ هَذَا المُخَاطَبَ نَزَلَ مَنزِلَةَ المُنْكَرِ؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ هَذَا الخِطَابُ، وَمِثْلُوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] فَكُلُّ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَمُوتُ، كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّنَا مَيِّتُونَ، لَكِنْ لِمَاذَا أَكَّدَ لَنَا المَوْتَ وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِهِ وَنَتَأَكَّدُ مِنْهُ؟

الجوابُ: لِأَنَّ فِعْلَنَا فِعْلَ المُنْكَرِ لِلْمَوْتِ؛ حَيْثُ إِنَّا لَا نُصَدِّقُ وَلَا نَعْمَلُ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ.

إِذْنًا: نَأْخُذُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ: أَهْمِيَّةُ إِيْمَانِنَا بِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَنَا عَدُوٌّ؛ لِأَنَّهُ أَكَّدَ الخَبْرَ مَعَ أَنَّهُ مُلْقَى إِلَى إِنْسَانٍ خَالِي الذَّهْنِ لَا يَدْرِي بِأَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ، أَوْ إِلَى إِنْسَانٍ عَالِمٍ بِهِ لَكِنَّهُ نَزَلَ مَنزِلَةَ المُنْكَرِ؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ عَدُوًّا لَهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وَجُوبُ الْبُعْدِ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ الْأَوْصَافِ الْمَذْمُومَةِ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِهَا نَصْحَ الْمُخَاطَبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ﴾ فلو رَأَيْتَ شَخْصًا مُغْتَرًّا بِآخِرِ، يَحْسِبُهُ صَدِيقَهُ، وَهَذَا الشَّخْصُ الَّذِي اعْتَرَّ بِهِ صَاحِبُهُ عَدُوًّا لَهُ، نَعْلَمُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُوقِعَ بِهِ كُلَّ سُوءٍ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْصَحَهُ عَنْهُ، وَنَذْكَرُ مَعَايِبَ هَذَا الشَّخْصِ حَتَّى لَا يَغْتَرَّ بِهِ، فَنَقُولُ: إِنَّكَ تُصَاحِبُ فَلَانًا وَهُوَ عَدُوٌّ لَكَ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ عِدَاوَتُهُ لِكُونِهِ يَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِعِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ غَيْرُ مُدْرِكٍ لَنَا وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَخْبَرَنَا بِهِ، ثُمَّ حَثَّنَا بِلِأْمَرِنَا بِمُخَالَفَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

مَسْأَلَةٌ: لَكِنْ هَلْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ وَلَا يُحْلَدُ فِيهَا فَلَا يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِهَا؟

نَقُولُ: يُمَكِّنُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَبْلُغُوا الذُّرْوَةَ فِي الْمُخَالَفَةِ، وَإِذَا بَلَغُوا الذُّرْوَةَ فِي الْمُخَالَفَةِ وَكَفَرُوا حَيْثُذُ يَكُونُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ يُحْلَدُونَ فِيهَا، أَمَّا الْمَعَاصِي الَّتِي دُونَ ذَلِكَ فَإِنَّ أَصْحَابَهَا وَإِنْ دَخَلُوا النَّارَ - كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النَّصُوصُ - فَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَصْحَابِهَا.



الآية (٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [فاطر:٧].

• • • • •

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ جُمْلَةٌ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ والعذاب: العقوبة، وأتى بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ لِثُبُوتِ هَذَا الْعَذَابِ وَاسْتِمْرَارِهِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرِينَ مُخَلَّدُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَ(الشَّدِيدُ) بِمَعْنَى الْقَوِيِّ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا؛ الْإِيْمَانُ مَحَلُّ الْقَلْبِ؛ أَي: صَدَّقُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ مَعَ الْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، فَالْإِيْمَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ التَّصَدِيقِ، بَلْ هُوَ تَصَدِيقٌ مَقْرُونٌ بِقَبُولِ وَإِذْعَانِ؛ قَبُولِ لِمَا آمَنَ بِهِ، وَإِذْعَانِ يَفْتَضِيهِ هَذَا الْإِيْمَانُ، أَمَّا مُجَرَّدُ التَّصَدِيقِ فَلَيْسَ إِيْمَانًا، وَلَوْ سِتَّم لَصَرَبْنَا مَثَلًا بِأَبِي طَالِبٍ؛ فَإِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ، وَلَمْ يُدْعِنْ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ هَذَا التَّصَدِيقُ.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي: صَدَّقُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ تَصَدِيقًا مُسْتَلَزِمًا لِلْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ حَتَّى يَتِمَّ الْإِيْمَانُ وَيَتَحَقَّقَ وَيَتَبَيَّنَ.

قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي كَانَ خَالِصًا صَوَابًا؛ أَي: خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا فِي مُوَافَقَةِ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَهَذَا التَّعْرِيفُ يَعُمُّ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَغَيْرَهَا، فَمَا كَانَ



خَالِصًا لِلَّهِ مُوَافِقًا لِّشَّرِيعَتِهِ فَهُوَ صَالِحٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ فَاسِدٌ، فَلَوْ قُدَّ  
الإِخْلَاصُ مِنَ الْعَمَلِ لَمْ يَكُنْ صَالِحًا، وَلَوْ وُجِدَ الإِخْلَاصُ لَكُنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى وَفْقِ  
الشَّرِيعَةِ لَمْ يَكُنْ صَالِحًا، وَعَلَى هَذَا فَالْأَعْمَالُ الْبِدْعِيَّةُ - وَإِنْ أَخْلَصَ فِيهَا صَاحِبُهَا -  
لَيْسَتْ بِصَالِحَةٍ، وَالْأَعْمَالُ الشَّرْعِيَّةُ إِذَا شَارَكَهَا الرِّيَاءُ وَإِرَادَةُ الْخَلْقِ لَمْ تَكُنْ صَالِحَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هَذِهِ تَتَكَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، وَهِيَ عَلَى مَا قَالَ  
النَّحْوِيُّونَ: مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمَنْعُوتِ وَوَجُودِ النَّعْتِ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهَا:  
وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ذَكَرَ لَهُمْ  
عَمَلًا وَذَكَرَ لَهُمْ جَزَاءً، أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَذَكَرَ عَمَلًا وَاحِدًا وَجَزَاءً وَاحِدًا، فَالَّذِينَ  
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ؛ الْعَمَلُ: الْكُفْرُ، وَالْجَزَاءُ: الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهَذَانِ عَمَلَانِ وَالْجَزَاءُ: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ، فَمَغْفِرَةٌ لِذُنُوبِهِمْ،  
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ.

وَالْمَغْفِرَةُ هِيَ سِتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْمَغْفِرِ، وَهُوَ مَا يُسْتَرُّ  
بِهِ الرَّأْسُ لِلْوَقَايَةِ مِنَ السَّهَامِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ قَوِيًّا يَمْنَعُ، وَلَيْسَتْ الْمَغْفِرَةُ  
مُجَرَّدَ السِّتْرِ؛ لِأَنَّ مُجَرَّدَ السِّتْرِ وَالْعُقُوبَةَ لَيْسَ بِمَغْفِرَةٍ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرَيْنِ: السِّتْرِ،  
وَعَدَمِ الْمُواخَذَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْرٌ﴾ الْأَجْرُ: الثَّوَابُ الَّذِي يُجَاوِزُ بِهِ الْعَامِلُ، حَتَّى الْأُجْرَةُ  
مَثَلًا إِذَا اسْتَأْجَرْتَ رَجُلًا يَعْمَلُ لَكَ عَمَلًا وَأَعْطَيْتَهُ أُجْرَةً، فَهَذَا أَجْرٌ، وَسَمَّى اللَّهُ  
عَزَّجَلَّ الثَّوَابَ أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ الْعَامِلُ، فَهُوَ كَأُجْرَةِ الْأَجِيرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهَا  
الْعَامِلُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فَسَمَّى

الْعَمَلُ لِلَّهِ قَرَضًا؛ لِأَنَّ الْقَرَضَ يَجِبُ إِيفَاؤُهُ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُثِيبَ الْعَامِلَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هَلْ هُوَ كَبِيرٌ فِي حَجْمِهِ أَوْ كَبِيرٌ فِي مَعْنَاهُ؟

الجواب: كلاهما؛ لِأَنَّ «أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مُلْكِهِ الْفَنِيِّ عَامٌ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَذْنَاهُ»<sup>(١)</sup>، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ كَبِيرٌ وَاسِعٌ، وَكَذَلِكَ فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ دَائِمٌ وَثَابِتٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هَذَا بَيَانٌ مَا لِمُؤَافِقِي الشَّيْطَانِ وَمَا لِمُخَالِفِيهِ] مُؤَافِقُو الشَّيْطَانِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَمُخَالِفُوهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. إِذَنْ: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَّخِذَ الشَّيْطَانَ عَدُوًّا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

#### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الثواب والعقاب؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الفائدة الثانية: بلاغة القرآن؛ حيث يجمع بين الشيء وخصمه، وهو مضدق قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣] قال: ﴿مَثَانِي﴾ مثنائي أنه تشبي في المعاني، وهنا لما ذكر عذاب الكافرين ذكر ثواب المؤمنين.

الفائدة الثالثة: بلاغة القرآن أيضًا من وجه آخر: حيث بدأ بذكر عذاب

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣/٢، ٦٤)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، رقم (٢٥٥٣)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة القيامة، رقم (٣٣٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الكافرين بعد أن ذكر ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فبدأ بما فيه التحذير قبل ما فيه التبشير من أجل المناسبة.

الفائدة الرابعة: أن الكافر عذابه شديد؛ يعني: ليس بالعذاب السهل، ووجه شدته بالكمية والكيفية؛ لأنه دائم؛ ولأنه عذاب لا نظير له.

الفائدة الخامسة: أن الأجر لا يثبت إلا باتصاف تام بوصفين؛ أحدهما: الإيمان، والثاني: العمل الصادق.

الفائدة السادسة: تقسيم الأعمال إلى صالح وفاسد، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والصابط في ذلك: أن ما كان خالصاً صواباً فهو صالح، وما كان فيه شرك أو بدعة فليس بصالح.

الفائدة السابعة: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ينالون أجرهم من وجهين؛ من زوال المكروه الثابت؛ بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وحصول المطلوب الثابت بقوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الفائدة الثامنة: بلاغة القرآن؛ لأنه لما ذكر عملاً واحداً في الكفار ذكر جزاء واحداً، ولما ذكر وصفين في المؤمنين ذكر وصفين في ثوابهم، وهذا ظاهر أيضاً في سورة (الإنسان): ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ إذا تأملتها وجدت الله عز وجل لم يذكر في الكافرين وعذابهم إلا قليلاً بالنسبة للأبرار.

والسبب: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا﴾ فقال تعالى: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ فقط، ولم يقل شيئاً عن هذه، فكان الجزاء مختصراً ﴿سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا﴾ وذكر الأبرار وأطال في ذكر ما لهم من نعيم؛ لأنه ذكر عدة أعمال من أعمالهم:

﴿إِنَّ الْأَبْتَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مِرَاجِحُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ يُوفُونَ بِالْغَدْرِ وَغَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنَتَا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴿[الإنسان: ٥-٩] الإخلاص التام ﴿لا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٩-١٠].

فذكر عدة أوصافٍ من أوصافهم، فأطال في ذكر جزائهم؛ لما أطال في ذكر أعمالهم أطال في ذكر الجزاء بخلاف الكافرين، وهذا بلا شك من بلاغة القرآن. الفائدة التاسعة: أن الأجر يختلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فالأجور تختلف باختلاف العمل، وتختلف باختلاف العامل، وإذا كانت متعدية فإنها تختلف باختلاف من انتفع بها.

فمثلاً: تختلف باختلاف العمل كما في حديث: «أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَفَتْهَا»<sup>(١)</sup>، والواجب أفضل من المستحب.

وباختلاف العامل كما في قوله ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى»<sup>(٢)</sup> وقال النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المواقيت، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَتُخْتَلَفُ أَيْضًا بِاخْتِلَافِ الْمَحَلِّ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّيَّةً، فَالصَّدَقَةُ عَلَى الْقَرِيبِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى مَنْ هُوَ أَشَدُّ حَاجَةً أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى مَنْ دُونَهُ، وَهَكَذَا. فَاخْتِلَافِ الْأَعْمَالِ يَسْتَلْزِمُ اخْتِلَافَ الْأَجُورِ أَيْضًا، وَتُخْتَلَفُ أَيْضًا بِاخْتِلَافِ الْإِخْلَاصِ؛ فَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي عَمَلِهِ أَخْلَصَ كَانَ عَمَلُهُ أَفْضَلَ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ أَيْضًا: تُخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ الْاِتِّبَاعِ، فَكُلَّمَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ أَتْبَعَ اللَّهُ كَانَتْ أَكْمَلَ.

وعلى كُلِّ حالٍ: فهذه الاختلافات في وُجُوهها تُخْتَلَفُ لها الأُجُور.



الآية (٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَدَّبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [ونزل في أبي جهل<sup>(١)</sup> وغيره: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ بالتمويه] أبو جهل كان يُسمى في الجاهلية أبا الحكم؛ يعني: أنه ذو حكمة وعقل وروية، لكنه سُمي في الإسلام أبا جهل؛ لأنَّ أعظم الجهل أن يبقَى على كفره، ولا يؤمن بالله، نزل فيه ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾: ﴿ أَفَمَنْ ﴾ الهمزة هنا للاستفهام، والفاء: حرف عطف، والمعطوف عليه مختلف فيه؛ فمنهم من قال: إنه مقدرٌ بين الهمزة وحرف العطف فيكون بحسب السياق، ومنهم من قال: إنَّ المعطوف عليه ما سبق، فعلى الأوَّل نُقدِّرُ المحذوف بما يناسبُ المقام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ١٠٩] التَّقْدِيرُ: أَعْفَلُوا فلم يسيروا في الأرض، وهنا نقول: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ نُقدِّرها بما يناسبُ، فنقول: التَّقْدِيرُ: أَتَدْرِكُونَ هذا السَّيِّئَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، أو نقول: أَيْسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ.

ولكن القول الثاني في المسألة أنه معطوف على ما سبق أحسن؛ لأنَّ الأصل

(١) انظر: زاد المسير (٣/٥٠٦).

عدمُ التَّقْدِيرِ، ولأنَّه في بعضِ الأحيانِ يَصُعبُ على الإنسانِ أن يقدِّرَ المَحذوفَ، وعلى هذا القولِ يقولون: إِنَّ حَرْفَ العَطْفِ (الفاء) يُقدِّرُ سابقًا للهَمْزَة، فيكون فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقْدِيرُ على هذا: (فَأَمَّنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ).

وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ مِنَ الْمَزِينِ؟

ذكر الله عَزَّجَلَّ أَنَّ الْمَزِينِ الشَّيْطَانُ، وذكر أَنَّ الْمَزِينِ هو الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]، وفي بعض الآيات يكون الْمَزِينُ مُبَهَّمًا كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالمزِينُ اللهُ، والمزِينِ الشَّيْطَانُ، فإذا قلت: كيف تَجْمَعُ بين هذا وهذا؟

فالجواب: أَنَّ الْمَزِينِ الْمُبَاشِرَ هو الشَّيْطَانُ، أمَّا اللهُ عَزَّجَلَّ فهو مُزِينٌ بالتَّقْدِيرِ؛ يعني: هو الذي قدَّرَ على الشَّيْطَانِ أَنْ يُزَيِّنَ لَهُمْ، ومعلومٌ أَنَّ اللهُ تعالى خَالِقُ الشَّيْطَانِ، وما نتج من أعماله فهو مضافٌ إلى الله؛ كما نقول في الإنسانِ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، وما نتج من أعماله فهو مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، فيكون تَزْيِينُ اللهِ تعالى حَسَبَ التَّقْدِيرِ؛ يعني: هو الذي قدَّرَ أَنْ يُزَيِّنَ الشَّيْطَانُ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾: (عمل) مفردٌ مضافٌ، فيشْمَلُ كُلَّ الأَعْمَالِ، سواء كانت شَرْكًَا أو عُدْوَانًا على الغير، أو سوءَ السُّلُوكِ وفسادَ الأخلاقِ، أو غير ذلك.

المهم: أنه شاملٌ لكلِّ الأعمالِ.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [بالتَّمْوِيهِ]؛ أي: أنه يُمَوِّهُ على النَّاسِ أن هذا العَمَلُ الذي يقوم به عملٌ حَسَنٌ.

قوله تعالى: ﴿فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ أي: رأى سُوءَ عَمَلِهِ حَسَنًا، وهذا أَشَدُّ ما يكون؛ أن يكون الإنسانُ على خَطَأٍ ويرى أنه على صوابٍ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا لا يكاد يظهر عن غِيَّهِ؛ حيث إنه يَعْتَبِرُهُ صوابًا، ومن ذلك مِثْلًا أصحابُ الحِجْلِ (المخادعون)، فالْمُنَافِقُ مِثْلًا زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِهِ؛ لأنَّه يرى أَنَّهُ ذَكِيٌّ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وهذا من سوء العَمَلِ.

وكذلك المتَحَيِّلُونَ على الرِّبَا بأنواعِ الحِجْلِ هؤلاء أيضًا زُيِّنَ لهم سُوءُ أَعْمَالِهِمْ؛ ولهذا لا تكاد تَجِدُهُمْ مُقْلَعِينَ عَمَّا هم عليه؛ لأنَّه قد زُيِّنَ ذلك في نُفُوسِهِمْ فلا يُقْلَعُونَ عنه؛ المِهمُّ أن هذا له أمثلة كثيرة.

بقي علينا أن نقول: (من) مُبْتَدَأُ فَايْنِ خَبْرُهُ؟ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [مَنْ: مُبْتَدَأُ، خَبْرُهُ: كَمَنْ هَدَاهُ اللهُ، لا؛ دَلٌّ عَلَيْهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ يعني: (كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له سُوءُ عَمَلِهِ ورأى سُوءَ عَمَلِهِ سَيِّئًا)؛ لأنَّ الذي زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِهِ سَيِّئًا عَلَيْهِ، والذي رآه سَيِّئًا سوف يَتَجَنَّبُهُ، وهذا ما يَقُولُهُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [كَمَنْ هَدَاهُ اللهُ]، ومِثْلُ هذا التَّعْبِيرِ يأتي في القرآن كثيرًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيئٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فالْحَبْرُ مَحْذُوفٌ؛ أي: كَمَنْ ليس كذلك.



فَقَوْلُهُ: [لا]؛ يعني: ليس هذا كهذا، قال: بينها فَرْقٌ؛ فَإِنَّ مِنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَسَوْفَ يَبْقَى عَلَى ضَلَالِهِ، وَمَنْ لَمْ يُزَيِّنْ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَرَأَى سَيِّئًا فَسَيَّجَبَّهُ وَلَا يَقَعُ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: [دَلَّ عَلَيْهِ]: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [، وعلى هذا، فالفاء هنا ليست واقعة في خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ، بَلْ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ مَحْدُوفٌ، لَكِنهَا عَطْفٌ عَلَى ذَلِكَ الْخَبَرِ؛ أَيْ: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ فَيَلْتَزِمُهُ، وَهَذَا يَقُولُ: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ تَقَدَّمَ كَثِيرًا تَعْلِيْقُ الْأَشْيَاءِ بِالْمَشِيئَةِ، وَلَكِنَّا قَلْنَا وَنَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَشِيئَةَ مَقْرُونَةٌ بِالْحِكْمَةِ؛ مِنْ أَقْتَضَتْ حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ يُضِلَّهُ أَصْلَهُ، وَمِنْ أَقْتَضَتْ حِكْمَتَهُ أَنْ يَهْدِيَهُ هِدَاةً، مِنَ الَّذِي تَقْتَضِي حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ يُضِلَّهُ؟

هو الذي أراد الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فإذن: إضلالُ الله تعالى للعبد في محله، وذلك بأن يكون هذا الرجل لا يريد الخير، وإنما يريد الشر.

واعلم أن الهداية والضلال إمَّا عَدْلٌ وَإِمَّا فَضْلٌ، فَالضَّلَالُ عَدْلٌ؛ لِأَنَّهُ جُوزِي بِحَسَبِ مَا أَرَادَ، لَمَّا أَرَادَ الضَّلَالُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَزَاغَ قَلْبُهُ أَزِيغًا، وَأَمَّا الْهِدَايَةُ فَإِنَّهَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَتَفَضَّلُ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

ولهذا لو قال قائلٌ: كيف يجعلُ الله تعالى هذا مُهْتَدِيًا وهذا ضَالًّا، أليس هذا ظُلْمًا؟

والجواب: لا؛ لِأَنَّ مَنَعَ الْهِدَايَةَ مِنْ هَذَا الضَّالِّ إِنَّهَا هِيَ الْمُقْتَضَى عَدْلُهُ، أَمَّا الْهِدَايَةُ الْمَهْتَدِي فِي فَضْلِهِ.

فنقول: إِنْ مَنَعَكَ مَا هُوَ لَكَ فَقَدْ ظَلَمَكَ، وَإِنْ مَنَعَكَ فَضْلَهُ فَفَضَّلَ اللَّهُ يَأْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ، وَلَوْ لَا أَنَّكَ لَسْتَ أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ مَا مَنَعَكَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الْمُرَادُ بِالْهُدَايَةِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَرَبَّمَا نَقُولُ: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالذَّلَالَةُ، وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ هُوَ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا؛ لِأَنَّ الَّذِينَ أَصَلَّهُمْ اللَّهُ قَدْ هَدَاهُمْ اللَّهُ هِدَايَةَ الذَّلَالَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَٰتِ﴾ [يونس: ٢٥] وَهَذَا عَامٌّ، وَلَكِنَّ الْهُدَايَةَ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ هَلْ هَذَا النَّهْيُ نَهْيٌ عَمَّا كَانَ أَوْ نَهْيٌ عَمَّا لَمْ يَكُنْ؟ الظَّاهِرُ أَنَّهُ نَهْيٌ عَمَّا كَانَ، وَأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَحَسَّرُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُكْذِبُونَهُ وَيَضِيقُ صَدْرُهُ، وَيَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِكَ الْآلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فـ ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِكَ﴾ أَي: مُهْلِكُ نَفْسِكَ، ﴿الْآلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

فَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحَسَّرَ لِهَؤُلَاءِ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ نَهْيًا عَمَّا كَانَ وَقَدْ يَكُونُ نَهْيًا عَمَّا لَمْ يَكُنْ؛ فَقَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (١١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿ [الشعراء: ٢١٣-٢١٤] هَذَا نَهْيٌ عَمَّا لَمْ يَكُنْ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَدْعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ يَعْنِي: لَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ مِنْ أَجْلِهِمْ، كَمَا يَقَالُ: (بَكَيْتَ عَلَيْكَ الدَّهْرَ) أَي: مِنْ أَجْلِكَ، فَالْمَعْنَى: لَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ مِنْ أَجْلِهِمْ حَسْرَاتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَسْرَتٍ﴾ قِيلَ: إِنَّهَا حَالٌ عَلَى أَتْمَا مَصْدَرٌ أُرِيدُ بِهِ اسْمُ الْفَاعِلِ؛ أَي: حَاسِرَةٌ، وَالْحَسْرَةُ هِيَ الْهَمُّ الشَّدِيدُ وَالْغَمُّ عَلَى مَا فَاتَ، وَكُلُّ مَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ يُحِبُّهُ

وَيَطْلُبُهُ فَاهْتَمَّ لَذَلِكَ وَاعْتَمَّ يَقَالُ: (تَحَسَّرَ)، وَقِيلَ: إِنْ ﴿حَسَرْتِ﴾ مَصْدَرٌ وَأَنَّهُ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَالْمَعْنَى: فَلَا تَذْهَبِ نَفْسُكَ؛ أَي: تَهْلِكُ؛ مِنْ أَجْلِ الْحَسَرَاتِ عَلَيْهِمْ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَا نَذْهَبِ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرْتِ﴾ عَلَى الْمُرْتَبِّينَ لَهُمْ ﴿حَسَرْتِ﴾ بِاِغْتِمَامِكَ أَلَّا يُؤْمِنُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ] فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَهْدِيدٌ وَتَسْلِيَةٌ؛ تَهْدِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُخَالِفِينَ، وَتَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ يَعْنِي: لَا يَهْمَنَّكَ أَمْرُهُمْ؛ فَإِنَّكَ سَائِرٌ مَعَ اللَّهِ وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْمَى قَلْبُهُ حَتَّى يَرَى السَّيِّئَ حَسَنًا، وَفِي مَقَابِلِ ذَلِكَ يَرَى الْحَسَنَ سَيِّئًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾.

الفائدة الثانية: إِبْهَامُ الْفَاعِلِ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ هَذَا الْفِعْلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ الْمُرْتَبِّينَ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي الْأَصْلِ، وَالشَّيَاطِينُ فِي الْمُبَاشَرَةِ.

الفائدة الثالثة: انْقِسَامُ الْأَعْمَالِ إِلَى سَيِّئٍ وَصَالِحٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾.

الفائدة الرابعة: فِيهَا الرَّدُّ عَلَى الْجَبْرِِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فَأُضَافَ الْعَمَلُ إِلَيْهِ، وَهَمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تُضَافُ إِلَى الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهُ مُجَبَّرٌ عَلَيْهَا.

الفائدة الخامسة: أَنَّ مِنْ هَذِهِ حَالُهُ لَا يَسْتَوِي مَعَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، بِحَيْثُ يَرَى السَّيِّئَ سَيِّئًا وَالْحَسَنَ حَسَنًا، وَنَأْخُذُهَا مِنْ أَنَّ الْمَحْذُوفَ يَكُونُ مُقَابِلًا لِلْمَذْكَورِ؛ لِأَنَّ الْهَمْزَةَ هُنَا لِلتَّسْوِيَةِ؛ يَعْنِي: (أَيْسَتَوِي هَذَا وَهَذَا؟) وَالْجَوَابُ: لَا يَسْتَوِيَانِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْهُدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وَهِيَ تَتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ، أَنَّنَا إِذَا عَلِمْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا نَسْأَلُ الْهُدَايَةَ مِنَ اللَّهِ، وَنَسْتَعِيدُ مِنَ الضَّلَالِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْبَاتُ مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ عَلَّقَهُ اللَّهُ بِمَشِيئَتِهِ فَإِنَّهُ مَقْرُونٌ بِالْحِكْمَةِ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ أفعالَ الْعَبْدِ مِنَ ضَلَالَةٍ أَوْ هِدَايَةٍ لَا تَتَعَلَّقُ بِهَا مَشِيئَةُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مَذْهَبَ الْقَدَرِيَّةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهِ تَعَلُّقٌ إِطْلَاقًا حَتَّى إِنَّ غُلَاتِهِمْ يَزْعَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ عَمَلَ الْعَبْدِ حَتَّى يَقَعَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأَمْرَ أُنْفٌ؛ أَي: مُسْتَأْنَفٌ؛ أَي: إِنَّ عِلْمَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَحْدُثُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعَزَّ مِنْ أَرْسَلَهُ كَانَ يَجْزَنُ حَزَنًا عَظِيمًا تَكَادُ تَذْهَبُ نَفْسُهُ مِنْ شِدَّتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ وَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّهْيِ أَنْ يَكُونَ عَمَّا وَقَعَ، وَقَدْ يَكُونُ عَمَّا لَمْ يَقَعَ، وَهُوَ كَثِيرٌ أَيْضًا، وَبَدَلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ وَقَعَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَكْبَرُ﴾ [الشعراء: ٣].

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: شَفَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَحْزَنُ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ أَوْ طَاعَتِهِمْ لِمَصْلَحَتِهِ هُوَ وَلَكِنْ لِمَصْلَحَتِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَرٌ يَتَأَثَّرُ بِمَا يَتَأَثَّرُ بِهِ الْبَشَرُ مِنْ أَسْبَابِ الْفَرَحِ وَأَسْبَابِ الْحُزْنِ، وَهَذَا أَمْرٌ وَّاقِعٌ، وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرِي أَنَّ مُجْزَأَ الْمُدْلِحِيِّ دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أَسَامَةَ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»<sup>(١)</sup>.

فَفَرِحَ ﷺ حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ؛ فَالْأَعْرَاضُ الْبَشَرِيَّةُ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ، وَالْغَمِّ وَالِاسْتِشْشَارِ، وَالنَّسِيَانِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ تَطَرُّأً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَغَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَمَيَّزُ عَنِ الْبَشَرِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْوَحْيُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] وَكَلِمَةُ «بَشَرٌ» تُغْنِي عَنِ «مِثْلُكُمْ» لَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ التَّكْيِيدِ؛ لِئَلَّا يَذْهَبَ ذَاهِبٌ إِلَى أَنَّهُ بَشَرٌ قَدْ خُصَّصَ بِشَيْءٍ، فَقَالَ: «بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» ثُمَّ ذَكَرَ الْمِيزَةَ فَقَالَ: «يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ» وَفِي هَذَا رَدٌّ وَاضِحٌ عَلَى أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ تَأْثِيرًا فِي الْخَلْقِ كَتَأْثِيرِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ مَا ذَهَبَتْ نَفْسُهُ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، وَلَهْدَاهُمْ وَسَلِّمَ مِنْ هَذِهِ الْحَسْرَاتِ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَفْسِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: إِثْبَاتُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِكُلِّ مَا نَعْمَلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، رقم (١٤٥٩).

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: عناية الله برسوله ﷺ في مثل هذه الجملة التي تفيد تسليته وتهوين الأمر عليه وأنه ما من حساب هؤلاء عليه من شيء كما أنه ليس من حسابهم من شيء.



الآية (٩)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مِّمَّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

•••••

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ ﴾ وفي قِرَاءَةٍ: (الريح) [الله وَحْدَهُ- هو الذي يُرْسِلُ هذه الرِّيحَ دون غَيْرِهِ، فلن يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أن يُرْسِلَ شَيْئًا من هذه الرِّيحِ، حتى الخَلْقُ كُلُّهُمْ لو اجتمعوا على أن يُرْسِلُوا الرِّيحَ ما استطاعوا، لو اجتمعوا على أن يُهَوِّنُوا عَصْفَهَا ما استطاعوا، ولكن ذلك بيدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ وَحْدَهُ الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ.

وتأملُ قَوْلَهُ تعالى: ﴿ أَرْسَلَ ﴾ حيث جعلها رسولا كَأَنَّهَا تُبَلِّغُ أو كَأَنَّهَا تَفْعَلُ ما أُمِرَتْ بِهِ كما أن الرُّسُولَ يُبَلِّغُ ما أُرْسِلَ بِهِ فهي مُرْسَلَةٌ؛ ولهذا ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ النَّهْيُ عن سَبِّ الرِّيحِ<sup>(١)</sup>؛ لأنَّ سَبَّ الرِّيحِ يعود حَقِيقَةً إلى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهُ هو الذي أَرْسَلَهَا، فهي مُدَبَّرَةٌ مُسَخَّرَةٌ.

وقوله: ﴿ الرِّيحَ ﴾ [الريح] وفي قِرَاءَةٍ: (الريح) [والقِرَاءَةُ هنا سَبْعِيَّةٌ، والفرقُ بينها أن (الرياح) جمع، و(الريح) مُفْرَدٌ، لكنَّ هذا المُفْرَدُ في مَعْنَى الجمع؛ لأنَّهُ محلٌّ بـ(أل)

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٣/٥)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم (٢٢٥٢)، من حديث أبي كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهي للاستغراق، فيشمل كل الرياح، سواء أتت من الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب، فالله تعالى هو الذي أرسلها.

واعلم أن الغالب أن (الرياح) مجموعة تكون في الحَيْر، و(الريح) مفردة تكون في ضده، ولهذا يروى عن النبي عليه الصلاة والسلام في دعاء الريح: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا»<sup>(١)</sup>.

ولكن مع ذلك تأتي هذه محل هذه، ويكون هناك قرينة، ففي قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، هذه في الشر، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِهَمِّ رِيحٍ طَبَّيَّةٍ﴾ [يونس: ٢٢] هذه في الخير؛ لأنها وصفت، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] هذه في الخير، وهنا تكون في الخير أيضًا.

قوله تعالى: ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ تُثِيرُ عَطْفُ المضارع على الماضي، وكان مقتضى السَّق أن يعطف على الماضي ماضيًا مثله، فيقول: (والله الذي أرسل الرياح فأثارت)، لكن لماذا عدل عن الماضي إلى المضارع؟

بيَّنه المفسر رحمه الله فقال: [﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ المضارعُ لحكاية الحالِ الماضية؛ يعني: عبَّرَ بالمضارعِ عن الماضي حكايةً للحالِ حين إرسالها؛ لأنه أبلغُ في التَّصوُّر، كأنَّها الآن أمامك وهي تُثِيرُ هذا السَّحابَ، وهذا أبلغُ في تصوُّر الإنسان؛ لأنه يَسْتَحْضِرُ الحالَ الماضيةَ كأنَّها الآن؛ إذ إنَّ المضارعَ - كما هو معلوم - يصلحُ للحالِ والاستقبالِ،

(١) أخرجه الشافعي في مسنده [ترتيب السندي] (١/١٧٥، رقم ٥٠٢)، وأبو يعلى في المسند رقم (٢٤٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٢١٣، رقم ١١٥٣٣)، من حديث ابن عباس



ولكنه قد يَقْتَرِنُ به ما يُعَيِّنُهُ للحال، ويقترن به ما يُعَيِّنُهُ للاستقبال، ويقترن به ما يُعَيِّنُهُ للماضي، إنَّما الأصل فيه أَنَّهُ للحاضرِ والمُسْتَقْبَلِ، ولا يكون للماضي إلا بِقَرِينَةٍ، فعليه نقول: عُدِلَ عن التَّعْبِيرِ بالماضي هنا لحكايةِ الحالِ الماضِيَةِ حتى كأنَّكَ تُشَاهِدُهَا الآن وهي تُثِيرُ هذا السَّحَابَ.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ في معنى ﴿فَتُنِيرُ﴾ قال: أي [تُزَعِّجُهُ]، وهذا معنى قد يُنَاقَشُ فيه؛ لأنَّ الإِزْعَاجَ أَحْصَى من الإِثَارَةِ؛ لأنَّ الإِثَارَةَ بِمَعْنَى إِنْهَارِ الشَّيْءِ كما يقال: (أَثَرْتُ البَعِيرَ)؛ أي: أَمْهَضْتُهُ حتى صار قائماً بعد أن كان بارِكاً.

وقوله تعالى: ﴿فَتُنِيرُ سَحَابًا﴾ كأنَّ هذا السَّحَابَ في الأصلِ في الأَرْضِ، ثم أَثَارَتْهُ هذه الرِّيحُ، ومعلومٌ أَنَّ السَّحَابَ يكون من بُخَارِ البَحْرِ، ويكون أحياناً من الجَوِّ المُتَلَبِّدِ بالرطوبةِ حسبما تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا أمرٌ يَرْجِعُ إلى مَعْرِفَةِ العلومِ الطَّبِيعِيَّةِ.

قوله تعالى: ﴿سَحَابًا﴾ السَّحَابُ هو هذا الغَيْمُ المعروفُ في الجَوِّ كما تشاهدونه؛ فلذلك سُمِّيَ سَحَابًا لِأَنِّسْحَابِهِ في الجَوِّ.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَسُقْنَهُ﴾ فيهِ التَّفَاتُ عن الغَيْبَةِ]؛ أي: إلى التَّكَلُّمِ، وفيهِ أيضاً التَّفَاتُ من المِضَارِعِ إلى المَاضِي؛ ولذا قال: ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُنِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ﴾ عدل عن المِضَارِعِ إلى المَاضِي لِاِخْتِلَافِ الفَاعِلِ في الفِعْلَيْنِ؛ لأنَّ (تُنِيرُ) الفَاعِلُ فيها (الرِّيحُ)، و(سُقْنَهُ) الفَاعِلُ فيها (الله).

إذن: يَحْسُنُ أن تكون بِلفظِ المَاضِي عَطْفًا على قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَرْسَلَ﴾ لأنَّ المُرْسَلَ هو اللهُ، فلما اتَّحَدَ الفَاعِلُ في الفِعْلَيْنِ (أرسل، وسُقْنَا) كان الأَفْصَحُ أن يكونا جَمِيعًا

بَلْفُظِ الْمَاضِي، لَكِنْ فِيهِ عَدْوُلٌ عَنِ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ﴾ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسُقْنَهُ﴾ لِمَاذَا؟

الجواب: سبق أن الالتفات له فائدة دائمة وهي التنبيه؛ لأن سياق الكلام على نسقٍ واحدٍ يقتضي أن الذهن ينساق معه ولا يتوقف، لكن إذا اختلف السياق يقفُ الذهن، وينظر ما الذي حدث؟ وحينئذ يكون في تغييره تنبيه للمخاطب؛ فهذا واحد.

لكن هنا أيضًا فيه فائدة ثانية: وهي بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُقْنَهُ﴾ أي: نحن، فأضافه إلى نفسه؛ لأنه أدل على القدرة، فإذا اجتمع ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ﴾ ثم الله سبحانه وتعالى ساق هذا السحاب الذي أثارته الرياح فهو أدل على القدرة مما لو جاء على نسقٍ واحد.

قول المفسر رحمه الله: [إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ] بالتشديد والتخفيف: لا نبات بها.

كَلِمَةٌ ﴿مَيِّتٍ﴾ فِيهَا قَرَاءَتَانِ، ﴿مَيِّتٍ﴾ وَ(مَيِّتٍ) وَقَدْ قِيلَ: إِنْ (الْمَيِّتِ) لِمَنْ مَاتَ بِالْفِعْلِ، وَالْمَيِّتُ لِمَنْ سَيَمُوتُ، وَجَعَلُوا عَلَى ذَلِكَ شَاهِدًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ أي: ستموت، وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ف﴿مَيِّتًا﴾ هُنَا لِمَنْ قَد مَاتَ، هَكَذَا فَرَّقَ بَعْضُهُمْ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَأْتِي بِالْوَجْهَيْنِ عَلَى الْمَعْنَيْنِ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةُ، ف﴿مَيِّتٍ﴾ هُنَا هَلْ مَعْنَاهَا: سَيَمُوتُ، أَوِ الْمَعْنَى: قَد مَاتَ بِالْفِعْلِ؟

الجواب: قد مات، ومع هذا جاءت بالتشديد.

قول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [لا نبات بها] وهذا هو مَوْتُ البَلَدِ، والمراد بالبَلَدِ هنا ليس المَسْكُونُ من الأَرْضِ، بل ما هو أَعْمُ، فيشمل المَسْكُونِ وغير المَسْكُونِ، وتخصيصُ البَلَدِ بالمسكونِ تَخْصِيصٌ عُرْفِيٌّ، وإلا فإنَّ كُلَّ الأَرْضِ بلدٌ لأنبلادها وتَسَطُّحُها؛ ولهذا يقول الله عزَّوجلَّ: ﴿إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ أحيينا به، سقناه فأحييناه، هنا الأفعال والضائرُ على نسقٍ واحد.

قوله: [﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ من البلد]: [من البلد]؛ يعني: أَرْضُ البَلَدِ هذه التي كانت مَيِّتَةً أحيها الله عزَّوجلَّ؛ أحيها بالنبات؛ ولهذا قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِهَا؛ أي: أنبتنا به الزرع والكلاء] وهذا أمرٌ مُشَاهِدٌ، تأتي الأَرْضُ يابِسَةً هَامِدَةً عيدان تَنكَّسَرُ فيُنزِلُ اللهُ المَطَرَ عليها، ثم تَهْتَرُ خَضراءَ فيها من كلِّ زوجٍ بهيج، فمن الذي أحيها؟

الله عزَّوجلَّ، لا يَسْتَطِيعُ الخَلْقُ أن يُحْيِيها أبداً مهما كان، حتى الكلاء الذي يُنبتُ بالمَطَرِ لا يُنبتُه الماء الجاري كما هو مُشَاهِدٌ؛ يعني: لو تسقي هذه الأَرْضَ مهما سَقَيْتَها بالماء الجاري فإنَّ الكلاء الذي يُنبتُ من المَطَرِ لا يُنبتُ بهذا الماء.

إذن: فالله عزَّوجلَّ هو الذي أحيها هذه الأَرْضُ بعد مَوْتِها؛ أي: بعد أن كانت يابِسَةً هَامِدَةً ليس بها نباتٌ، أحيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقدْرته.

قوله: [﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: البعثُ والإحياء]

﴿كَذَلِكَ﴾ الكافُ هنا اسمٌ بَمَعْنَى: (مثل)، وهي خبرٌ مُقَدَّمٌ و﴿النُّشُورُ﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ؛ أي: النُّشُورُ مثل ذلك، ويجوز أن تقول: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكافُ حرفٌ جَرٌّ، ليست اسماً بَمَعْنَى: (مثل) وتجعلها جاراً ومجروراً خبراً مُقَدِّماً، و﴿النُّشُورُ﴾: مُبْتَدَأٌ

مُؤَخَّرًا، والتَّقْدِيرُ: (النُّشُورُ كائنٌ كذلك)، و﴿النُّشُورُ﴾ هو نَشْرُ الأَمْوَاتِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ وإِحْيَاؤُهُمْ بعد أن كانوا أمواتًا.

والتَّشْبِيهُ هنا هل هو تشبيهٌ للسَّبَبِ والتَّيْجَةِ أو للتَّيْجَةِ فقط؛ أي: هل المعنى أَنَّ النُّشُورَ الذي يكون للأَمْوَاتِ يكون بِوَاسِطَةِ مَاءٍ يُنْزِلُهُ اللهُ عَزَّجَلَّ فَتَنْبُتُ هَذِهِ الأَجْسَامُ ثم تَحْيَا، أو أَنَّ التَّشْبِيهَ للتَّيْجَةِ فقط؛ أي إِنَّ إِحْيَاءَ المَوْتَى كإِحْيَاءِ الأَرْضِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ السَّبَبِ؟

الجوابُ: الأوَّلُ؛ لأنَّه وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ اللهُ تَعَالَى يُرْسِلُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ مَطْرًا غَلِيظًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى الأَجْسَامِ فَتَنْبُتُ فِي القُبُورِ كَمَا تَنْبُتُ الحَبَّةُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا تَكَامَلَتِ الأَجْسَامُ نُفِخَ فِي الصُّورِ، فَخَرَجَتِ الأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَامِهَا<sup>(١)</sup>، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ التَّشْبِيهُ هُنَا عَائِدًا إِلَى السَّبَبِ وَالتَّيْجَةِ أَيْضًا، هَذَا هُوَ المَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان قُدْرَةِ اللهُ عَزَّجَلَّ فِي إِرْسَالِ هَذِهِ الرِّيَّاحِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَحْمِلُ أَوْ تُثِيرُ هَذَا السَّحَابَ الثَّقِيلَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

الفائدة الثانية: أَنَّ الإِثْبَاتَ بِالأَسْبَابِ وَأَنَّ المَسَبِّاتِ مَرْبُوطَةٌ بِأَسْبَابِهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُنِيرُ﴾ فَإِنَّ الفَاءَ هُنَا لِلسَّبَبِيَّةِ.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي الأُمُورِ الهَامَّةِ أَنْ يُصَاغَ المَاضِي بِصِيغَةِ الحَاضِرِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفتين، رقم (٢٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

استحضاراً له في الذهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ فَإِنَّ تَصْوِيرَ الْمَاضِي بِصِيغَةِ الْحَاضِرِ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَحْتُ الْإِنْسَانَ إِلَى تَصَوُّرِهِ أَكْثَرَ مِنَ الشَّيْءِ الْمَاضِي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا السَّحَابَ يَجْرِي بِأَمْرِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسُقْنَهُ إِلَى

بَلَدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ هَذَا السَّحَابَ لَهُ شَعُورٌ؛ يَعْنِي: مَعْنَاهُ يَعْدُو وَيَجْرِي، وَهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسُقْنَهُ﴾ أَي: كَمَا يُسَاقُ الْبَعِيرُ، وَعَلَى هَذَا جَاءَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي سَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: «اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ»<sup>(١)</sup>، فَإِنَّ تَوْجِيهَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ذُو شُعُورٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَمَّا ذَاتُ شُعُورٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا قَالْنَا أَنَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّتَّى فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: صِحَّةُ وَصْفِ الْأَرْضِ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَدٍ مَّتَّى فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادَاتِ؛ لِأَنَّهُ هُنَا أُثْبِتَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ لِلْأَرْضِ وَهِيَ مِنَ الْجَمَادَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْأَضْنَامِ: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤)، من حديث أبي

الفائدة التاسعة: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ يَابِسَةً هَامِدَةً تَعُودُ فَتَهْتَزُّ حُضْرَةً وَازْدَهَارًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ فَأُضِيفَ الْإِحْيَاءُ إِلَى نَفْسِهِ.

الفائدة العاشرة: إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ فَإِنَّ الْبَاءَ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ.

الفائدة الحادية عشرة: جَوَازُ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى سَبَبِهِ الْمَعْلُومِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾.

وَإِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَى سَبَبِهِ الْمَعْلُومِ أَمْرٌ وَقِعَ فِي الْقُرْآنِ وَفِي السُّنَّةِ؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ تَقْرَنَ مَعَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَإِذَا أَضْفَتَ الشَّيْءَ إِلَى سَبَبِهِ الْمَعْلُومِ - وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقْرَنَ اللَّهُ بِهِ - فَلَا بَأْسَ، لَكِنَّ الْمَحْرَمَ أَنْ يُضَافَ إِلَى سَبَبٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ لَا شَرْعًا وَلَا حِسًّا، أَوْ أَنْ يُضَافَ إِلَى سَبَبِهِ الْمَعْلُومِ مَقْرُونًا مَعَ اللَّهِ بِحَرْفٍ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ.

فَمَثَلًا: إِضَافَةُ الشِّفَاءِ إِلَى التَّمَائِمِ وَالْحَلِيقِ وَالْحَيْوُطِ، وَمَا أَشْبَهَهَا، هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا السَّبَبَ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَلَا يَصِحُّ، وَإِضَافَةُ تَلْيِينِ الْبَطْنِ إِلَى الْعَقَّارِ الَّذِي تَنَاوَلْتَهُ حَتَّى لَيْنَ بَطْنِكَ صَاحِحٌ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ، وَإِضَافَةُ الشِّفَاءِ إِلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ جَائِزٌ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَبِالشَّرْعِ؛ «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّمَا رُفِيقُكَ»<sup>(١)</sup>.

فَالْمَحْظُورُ إِذْنُ أَنْ يُضَافَ الشَّيْءُ إِلَى غَيْرِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ، أَوْ أَنْ يُضَافَ إِلَى سَبَبٍ شَرْعِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ مَقْرُونًا مَعَ اللَّهِ بِحَرْفٍ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ؛ مِثْلُ: (لَوْلَا اللَّهُ وَكَذَا) فَإِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الشَّرْكِ؛ حَيْثُ قَرَنَ اللَّهُ مَعَ غَيْرِهِ بِالْوَاوِ الَّتِي تَقْتَضِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْإِجَارَةِ، بَابُ مَا يَعْطَى فِي الرِّقِيَّةِ، رَقْمٌ (٢٢٧٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ السَّلَامِ، بَابُ جَوَازِ أَخْذِ الْأَجْرَةِ عَلَى الرِّقِيَّةِ، رَقْمٌ (٢٢٠١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التَّسْوِيَةَ، ولكن قل: (لولا الله ثم كذا).

الفائدة الثانية عشرة: إثبات صحّة القياس؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ وإثبات القياس كثير في القرآن، فكلُّ مثلٍ ضربَه اللهُ فهو دليلٌ على القياس؛ فكلُّ مثلٍ سواءٍ للدنيا أو للإنسان أو للأوثان أو لأي شيء، فإنّه دليلٌ على ثبوت القياسِ وصحّته؛ لأنَّ المقصودَ بالمثلِ قياسُ المَضروبِ بالمَضروبِ فيه، وهذا هو القياسُ.

الفائدة الثالثة عشرة: الإشارةُ إلى أنَّ إحياء الموتى كإحياء الأرض بعد موتها؛ أي: كما جاء في الآثارِ أنَّ المطرَ ينزل على الأرضِ كمَنِّي الرِّجالِ، يبقى أربعين يوماً تنبت منه الأجسامُ، ثم بعد ذلك يُنفخُ في الصورِ، فتعودُ الأرواحُ إلى أجسامِها.



الآية (١٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ. وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ ﴾ [فاطر: ١٠].

•••••

﴿ مَنْ ﴾ هنا شَرْطِيَّةٌ وَالشَّرْطُ فِيهَا ظَاهِرٌ؛ يَعْنِي: أَيُّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ لَكِنَّهَا عَامَّةٌ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَ الِاسْتِفْهَامِ وَأَسْمَاءَ الشَّرْطِ وَالْأَسْمَاءَ الْمُوصُولَةَ كُلَّهَا تُفِيدُ الْعُمُومَ؛ يَعْنِي: أَيُّ أَحَدٍ يُرِيدُ الْعِزَّةَ؛ أَي: يَطْلُبُهَا وَيَحْرِصُ عَلَيْهَا، وَالْعِزَّةُ هِيَ الْغَلْبَةُ وَالْمَنْعَةُ وَقَهْرُ الْأَعْدَاءِ.

﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أَي: فَلْيَطْلُبْهَا مِنْهُ، فَمَا دَامَتِ الْعِزَّةُ لَهُ مِلْكًا وَتَصَرَّفًا فَإِنَّهَا لَا تُطَلَّبُ إِلَّا مِنْهُ؛ كَمَا لَوْ قُلْتَ: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَ فَالْمَالُ عِنْدَ زَيْدٍ) الْمَعْنَى: فَلْيَطْلُبِ الْمَالَ مِنْ زَيْدٍ، وَالْمَعْنَى هُنَا: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبِ الْعِزَّةَ مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ، هَذَا يُرَادُ بِهِ الرَّدُّ عَلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ لِأَجْلِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهَا الْعِزَّةَ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا عِزَّةَ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١].

الجواب: ﴿ كَلَّا ﴾ [مريم: ٨٢] لَنْ يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، بَلْ بِالْعَكْسِ، سَيُذَلُّونَ فِي مَوْقِعِهِمْ أَمْ حَاجُّونَ مَا يَكُونُوا إِلَى الْعِزَّةِ ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾



[مريم: ٨٢] فأين العِزَّةُ في هذه الأصنامِ أو في هذه الآلهة التي اتَّخَذوها من دون الله؟ وردت العِزَّةُ في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن، وردت في آيةٍ أخرى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ولا منافاة بينها وبين هذه الآية، فإنَّ العِزَّةَ لله أصلاً، ولِرَسُولِهِ من الله، ولِلْمُؤْمِنِينَ من الله، وحيثُ فِئْتِ العِزَّةُ كُلُّهَا لله كما قال الله تعالى في سورة (آل عمران): ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] فكلُّ من عنده عِزَّةٌ فإِنَّهَا ليست عِزَّةً ذاتيةً له من ذاتِ نَفْسِهِ، ولكنها من الله عَزَّوَجَلَّ، وبماذا تكون العِزَّةُ التي يكتسبها الإنسان وهي من الله؟

تكون بها علقَ الله العِزَّةَ عليه وهي الإيمانُ ﴿وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فمتى أراد الإنسانُ العِزَّةَ فليكن مؤمناً، وكلُّ ما كان أكثرَ إيماناً بالله وأقوى إيماناً بالله كان أكثرَ عِزَّةً وأقوى عِزَّةً.

ولهذا قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ فَلَنْ نَبْتَغِيَ العِزَّةَ بغيره»<sup>(١)</sup> بسواه، أذلنا الله، وصدق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فالعربُ لما كانوا عرباً ليس عندهم إسلامٌ كانوا أذلةً فقراءٌ يذهبون إلى اليمينِ في الشتاء ليأتوا بالسَّلْعِ منه، ويذهبون إلى الشَّامِ في الصيف ليأتوا بالسَّلْعِ منه، فهم فقراءٌ يأكلون من غيرهم، لكن لما آمنوا صاروا هم الأغنياء، وصارت كُنُوزُ كِسرى وقيصَرَ تأتي إلى المدينة لتُنْفَقَ عليهم من المدينة.

إذن: نحن مهما أردنا العِزَّةَ لن نَسْتَعِزَّ إلا بالإسلام، لن يكون أعداءُ الله سبباً لعِزَّتنا أبداً، بل إنَّ تَوَلَّيْنَا إِيَاهُمْ وَمَوَالِيْنَا لَهُمْ سَبَبٌ لِلذُّلِّ ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨/٣٢٠)، والحاكم في المستدرک (١/٦٢).

لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبَعُضَاهُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَد بَيْنَا لَكُمْ آلَايَاتٍ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨].

وإذا تَبَعَتِ الْوَاقِعَ وَجَدْتَهُ شَاهِدًا لِّقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى هَذَا، وَأَنَّ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَسْعَوْا فِي إِعْزَازِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ يَسْعَوْنَ بِكُلِّ جُهْدِهِمْ إِلَى إِذْلالِ الْمُؤْمِنِينَ وَخِذْلَانِهِمْ، لَكِنَّهُمْ يَمَكُرُونَ، وَيُجَادِعُونَ، وَيَسْخَرُونَ، وَيَسْتَهْزِئُونَ؛ لِيُنَالُوا مَا رِبِهِمْ، وَيَضْرِبُوا النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْعِزَّةُ لِلَّهِ فَمِنْ أَيْنَ نَطْلُبُهَا؟

الجواب: مِنَ اللَّهِ، لَا مِنْ غَيْرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَمِيعًا﴾ حَالٌ مِنَ الْعِزَّةِ الَّتِي هِيَ الْمُبْتَدَأُ الْمَوْخَرُ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ فِيهَا حَضْرُ الْعِزَّةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَوَجْهُهُ: تَقْدِيمُ الْحَبْرِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْحَبْرِ يُفِيدُ الْحَضْرَ.

إِذْنًا: تَقْدِيمُ الْحَبْرِ يُفِيدُ الْحَضْرَ؛ لِأَنَّ لَدِينَا قَاعِدَةً سَبَقَتْ: وَهِيَ أَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقَّهُ التَّأخِيرُ يُفِيدُ الْحَضْرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَمِيعًا﴾ يَرَادُ بِهِ عُمُومُ الْأَنْوَاعِ وَعُمُومُ الْأَزْمَانِ وَعُمُومُ الْأَمْكَانَةِ. عُمُومُ الْأَنْوَاعِ هِيَ: عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَالْقَهْرِ، وَالِامْتِنَاعِ.

وَالْأَزْمَانِ؛ أَي: الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

وَالْمَكَانِ: فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا] أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا تُنَالُ مِنْهُ - أَي: فَلَا تُنَالُ الْعِزَّةُ مِنَ اللَّهِ - إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَلْيُطِيعْهُ أَي: فَلْيُطِيعْهُ

من كان يريد العِزَّةَ، أو (فَلِنُطْعُهُ) بالنون.

أفاد المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ مَحْدُوفٌ، وهو قَوْلُهُ: [فَلِنُطْعُهُ]، ولكن الصَّوَابَ أَنَّ التَّقْدِيرَ: (فَلِنُطْلِبُهَا مِنْ اللَّهِ)، (من كان يريد العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا فَلِنُطْلِبُهَا مِنْهُ) وَيَشْمَلُ الطَّلَبَ بِلِسَانِ الْحَالِ وَبِلِسَانِ الْمَقَالِ.

أما على رأي المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ فَإِنَّ الطَّلَبَ يَحْتَضُّ بِلِسَانِ الْحَالِ فَقَطْ، فَالصَّوَابُ إِذْنًا أَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ مَحْدُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: (فَلِنُطْلِبُهَا مِنْهُ) لِيَشْمَلَ ذَلِكَ طَلَبَ الْحَالِ وَطَلَبَ الْمَقَالِ، فَطَلَبُ الْمَقَالِ أَنْ تَقُولَ: (اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي)، (اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي العِزَّةَ عَلَى عَدُوِّي) وهكذا، وَطَلَبُ الْحَالِ: أَنْ تَقُومَ بِطَاعَةِ اللَّهِ بِلِ بَطَاعَةِ اللَّهِ مَعَ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٨].

وقد ذَكَرَتِ العِزَّةُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٥٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: ﴿إِلَيْهِ﴾ جَارٌّ وَمَجْرُورٌ مُقَدَّمٌ عَلَى عَامِلِهِ وَهُوَ ﴿يَصْعَدُ﴾ وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِلَيْهِ﴾ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا بَيْنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَكُونُ مِنْ أَسْبَابِ العِزَّةِ، فَقَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَصْعَدُ﴾ أَي: يَرْتَفِعُ وَيَعْرُجُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ.

يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [يَعْلَمُهُ] فَفَسَّرَ صُعُودَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ بِعِلْمِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَهَذَا تَحْرِيفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، بَلِ الْمُرَادُ بِالآيَةِ ظَاهِرُهَا، أَنَّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ يَصْعَدُ إِلَى

الله؛ يعني: يَعْرُجُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لكن المفسر - غفر الله لنا وله - أراد أن يبيِّن عن إثبات العُلُوِّ الذَّاتِيِّ، فقال: [يَعْلَمُهُ]، ولو كان المراد العِلْمُ، لم يقل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ لأنَّ العِلْمَ لا يَلْزَمُ منه الصُّعُودُ، بل قد يكون العالمُ بالشَّيءِ أَنْزَلَ من الشَّيءِ؛ كما لو كُنْتَ في أَسْفَلِ البُئْرِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما فَوْقَ.

على كُلِّ حالٍ: هذه هَفْوَةٌ من المفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ، نَسَأَلُ اللهَ أَنْ يَغْفُوَ عنه.

ونقول: إلى الله يَصْعَدُ؛ أي: يَرْتَفِعُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ في العُلُوِّ، وأدِلَّةُ العُلُوِّ قد بَيَّنَّتْ في العقائِدِ، وَأَتَتْهَا خَمْسَةٌ أَنْواعٍ: الكِتَابِ، والسُّنَّةِ، والإِجْمَاعِ، والعَقْلِ، والفِطْرَةِ؛ كُلُّهَا مُتَمَقِّمَةٌ على عُلُوِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَدَاتِهِ، وفي كِتَابِ (الإِقْناع) (١) أَنَّ شَيْخَ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: من زَعَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى معنَا بَدَاتِهِ في المَكَانِ فهو كَافِرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الكَلِمُ﴾ اسمٌ، جَمْعٌ (كَلِمَةٌ)، فهو دَالٌّ على الجَمْعِ، وما المراد

بِالكَلِمِ الطَّيِّبِ؟

الكَلِمُ الطَّيِّبُ هو كُلُّ كَلِمٍ يُقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ف(لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) من الكَلِمِ الطَّيِّبِ، وسُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، كُلُّهَا من الكَلِمِ الطَّيِّبِ، والقُرْآنُ من الكَلِمِ الطَّيِّبِ، والأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ من الكَلِمِ الطَّيِّبِ، وقِراءَةُ العِلْمِ من الكَلِمِ الطَّيِّبِ، وكُلُّ قَوْلٍ يُقَرَّبُ إِلَى اللهِ فهو من الكَلِمِ الطَّيِّبِ.

والكَلِمُ الطَّيِّبُ يَقابِلُهُ نواعان من الكَلَامِ: كَلِمٌ رَدِيَّةٌ خَبِيثَةٌ، وكَلِمٌ لا هَذَا ولا هَذَا، لا يُوصَفُ بِأَنَّهُ طَيِّبٌ ولا يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَبِيثٌ.

أَمَّا الكَلِمُ الخَبِيثُ فَكَلِمَةُ الكُفْرِ والسَّبِّ والشَّتْمِ واللَّعْنِ لِمَنْ لا يَحِلُّ سَبُّهُ

(١) الإقناع (٤/٢٩٨).

وَلَا شَتْمُهُ وَلَا لَعْنُهُ.

وَأَمَّا الْكَلِمُ الَّذِي لَا هَذَا وَلَا هَذَا، فَهُوَ أَكْثَرُ كَلَامِ النَّاسِ.

وَالصَّنْفَانِ جَمِيعًا لَا يُرْفَعَانِ إِلَى اللَّهِ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّهُ خَبِيثٌ، وَ«اللَّهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»<sup>(١)</sup>، وَأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ حَتَّى يُرْفَعَ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا الثَّانِي -أَعْنِي: الَّذِي لَيْسَ هَذَا وَلَا هَذَا- قَدْ يَكُونُ طَيِّبًا لَا لِذَاتِهِ وَلَكِنْ لِغَيْرِهِ؛ لِمَا يُوصَلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَحَدَّثُ إِلَى شَخْصٍ كَلَامًا لَيْسَ هُوَ خَيْرًا فِي نَفْسِهِ لَكِنْ يَقْصِدُ بِهِ التَّأْلِيفَ لِهَذَا الرَّجُلِ وَإِدْخَالَ الْأُنْسِ عَلَيْهِ وَالشَّرُورَ، فَيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي هُوَ لَعْوٌ فِي نَفْسِهِ يَكُونُ مَحْمُودًا لِمَا قُصِدَ بِهِ، كَمَا أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي هُوَ لَعْوٌ فِي نَفْسِهِ إِذَا قُصِدَ بِهِ الْإِسَاءَةُ إِلَى مَنْ لَا تَحِلُّ الْإِسَاءَةُ إِلَيْهِ صَارَ كَلَامًا خَبِيثًا لِغَيْرِهِ أَي: لِمَا قُصِدَ بِهِ.

وَعَلَى كُلِّ: فَالْكَلِمُ الطَّيِّبُ لِذَاتِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْكَلِمُ لَيْسَ جِزْمًا؟ بَلْ أَصَوَاتٌ تُسْمَعُ بِحَرَكَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الْفَمِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَةِ؟

فالجواب: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمَعْقُولَ شَيْئًا مَحْسُوسًا؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَسْرُبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرُبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ إنما جمعه لكثرة أنواعه، وكثرة الأنواع تدلُّ على كثرة الأفراد من باب أولى، فالأنواع كثيرة والأفراد في كل نوع كذلك كثيرة؛ فلهذا جمعه.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾] يقبله [أفادنا المفسر رحمه الله بقوله: [يقبله] أن الفاعل في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ يعود إلى الله، وأن الهاء في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ تعود إلى العمل الصالح؛ يعني: والعمل الصالح يقبله الله، فكأن ضمير الفاعل يعود على (الله) وضمير المفعول يعود على (العمل) هذا لا نناقش المفسر رحمه الله فيه؛ لأنه محتمل، لكننا نناقشه في تفسيره الرفع بالقبول، وكل هذا فراراً من إثبات العلو الذاتي، غفر الله له، بل نقول: معنى ﴿يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفع هذا العمل، من الرفع الذي هو ضد النزول، يرفعه إليه سبحانه وتعالى؛ لأنه فوق، وهذا التفسير في مرجع الضمائر الذي ذكره المفسر رحمه الله هو أحد التفاسير المذكورة في هذه الآية.

التفسير الثاني: (والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب) فجعل ضمير الفاعل يعود على ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وجعل الهاء تعود على ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ فيكون العمل الصالح مرفوعاً بالكلم الطيب، واحتج هؤلاء بأن العمل الصالح لا يقبل إلا بالإسلام، وهو الكلم الطيب الذي هو (لا إله إلا الله)، فإن الإنسان لو عمل من العمل الصالح الشيء الكثير لكنه غير مسلم لا يرتفع هذا العمل، فلا يرفع العمل الصالح إلا الكلم الطيب.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٥٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والقول الثالث: بالعكس، يقول: (والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب) فيكون الفاعل في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ العمل الصالح، والمفعول ﴿الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ﴾ عكس الذي قبله، ما وجه ذلك؟

يقول: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ لأن الكلم الطيب بدون عمل لا ينفع صاحبه فلا بُدَّ في الكلم الطيب من عمل صالح يرفع ذلك القول الطيب. والأقرب - والله أعلم - أن ما ذهب إليه المفسر رحمه الله هو الصواب؛ أي: إنَّ الله يرفع العمل الصالح؛ كما أنَّ الكلم الطيب يصعد إلى الله، فإذا صعد الكلم الطيب إلى الله امتنَّ الله على هذا المتكلم بأن رفع العمل الصالح الذي يعملُه، إلا أننا لا نوافق المفسر رحمه الله في تفسير الرفع بالقبول، نوافقُه على مرجع الضمائر، لكن لا نوافقُه على تفسير الرفع بالقبول.

وحينئذ نقول: والعمل الصالح يرفعه الله عزَّ وجلَّ، فيكون الله عزَّ وجلَّ - في هذه الآية - ذكَّر القول والعمل، فذكر أنَّ القول يصعد وأنَّ العمل يُرفع؛ لأنَّ رفع العمل كالجزاء على الكلم الطيب، فإذا تكلم الإنسان بالكلمة الطيبة فصعدت إلى الله عزَّ وجلَّ قبلها، ثم رفع العمل الصالح.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المَكَرَاتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ بالنبي في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجِه كما ذُكر في الأنفال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُؤْرَثُ﴾ يَهْلِك].

الواو للاستئناف، و﴿وَالَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَجُمْلَةٌ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبر المبتدأ. وقوله تعالى: [﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فيه نوعٌ من الإشكال؛ لأنَّ السَّيِّئَاتِ لا تُمَكَّرُ، وإنَّها يُمَكَّرُ بها؛ يعني: يُمَكَّرُ بسبب السَّيِّئَاتِ، فلماذا تعدى الفعل إليها؟

أفادنا المفسر رحمه الله أن السيئات صفة لمصدرٍ محذوف، والتقدير: (المكرات السيئات) فيكون الوصف هنا للفعل لا لما حصل به المكر؛ لأن فعلهم نفسه مكرٌ سيئٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِبُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وسمى الله عز وجل السيئات مكرًا؛ لأن الإنسان في الواقع يحدغ نفسه بها، ويحدغ غيره بها، فيمني نفسه التوبة وأنه سيتوب، أو يمني نفسه سعة حلم الله ومغفرته وأن الله واسع الحلم والمغفرة والرحمة، فلن يواخذه بهذه العقوبة، فتمني الإنسان في هذا الباب من وجهين:

الوجه الأول: أنه يمني نفسه التوبة، وما يذريه فله لا يتمكن منها، لعل سيئاته تُحيط به ثم لا يتمكن من التوبة، أو لعله يفجؤه الموت، ثم لا يتمكن من التوبة.

الوجه الثاني: أنه يتمنى على الله الأمان، فيقول: (إن الله غفورٌ رحيم)، و(الله واسع الرحمة)، و(سوف يعفو عني) كما يوجد عند كثير من الناس عندما يعمل معصية؛ حيث يقول لك: الله غفورٌ رحيم، بل بعضهم يحتج بالآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ويقول: أنا لم أشرك، وما دون الشرك فإن الله تعالى يغفره.

وجوابنا على ذلك يسيرٌ جدًا، وهو أن نقول له: أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له؛ لأن الله عز وجل ما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ وسكت، بل قيده بقوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فأنت أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له، وحينئذ يكون لك حجة، أما أن تفعل المعصية التي هي سبب العقوبة ثم تتمنى على الله أمرًا لم يعدك الله به، بل قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فهذا لا شك أنه ضلالٌ منك.



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ السَّيِّئَاتُ هِيَ مَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ فِعْلُهُ  
مِثْلُ شُرْبِ الْحَمْرِ، السَّرِقَةِ، الزَّانَا، الرَّبَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا لَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ فِعْلُهُ!

فَجَوَابُنَا عَلَى هَذَا أَنْ نَقُولَ: إِنْ أَرَدْتَ أَنَّهُ لَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ فِعْلُهُ أَبَدًا فَهَذَا لَيْسَ  
بصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَوْفَ يَنْدَمُ، وَسَوْفَ يَسُوءُ الْإِنْسَانَ فِعْلُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.  
أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَسُوءُ الْإِنْسَانَ فِعْلُهُ؛ لِأَنَّ لِلذُّنُوبِ آثَارًا عَلَى الْقُلُوبِ، فَإِنَّ  
الْمَعَاصِيَ تَكُونُ نُقْطَةً سَوْدَاءَ فِي الْقَلْبِ فَإِنْ تَابَ الْإِنْسَانُ انْصَقَلَ قَلْبُهُ وَعَادَ إِلَى بِيَاضِهِ،  
وَإِلَّا تَوَسَّعَتْ هَذِهِ النُّقْطَةُ السَّوْدَاءُ، وَأَصْبَحَ الْقَلْبُ مُظْلِمًا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بَلْ يُحْتَمُّ  
عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَصِلَ إِلَيْهِ الْخَيْرُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾  
[المطففين: ١٤].

فَلِلذُّنُوبِ آثَارٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الْقَلْبِ تُوجِبُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَبِضًا، وَإِذَا تَلَدَّدَ بَعْضُ  
الشَّيْءِ فِي هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ فَإِنَّهُ يَعْقُبُ ذَلِكَ حَسْرَةً عَظِيمَةً فِي الْقَلْبِ وَضِيقٌ، وَاقْرَأْ إِنْ  
شِئْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ  
لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَسُوءُ فَاعِلَهَا، وَإِنْ كَانَ  
قَدْ لَا يَشْعُرُ بِهَا؛ لِأَنَّهُ قَدْ رَانَ عَلَى قَلْبِهِ مَا كَانَ يَعْمَلُ.

إِذَنْ: السَّيِّئَاتُ سَيِّئَاتٌ لِكُلِّ حَالٍ تَسُوءُ صَاحِبَهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ قَدْ لَا يَظْهَرُ،  
وَقَدْ لَا يَتَبَيَّنُ لَهُ، وَفِي الْآخِرَةِ يَظْهَرُ لَهُ وَيَتَبَيَّنُ وَيَتَمَنَّى أَنْ يَعُودَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلَ صَالِحًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ الْمَكْرَاتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ بِالنَّبِيِّ فِي دَارِ  
النَّدْوَةِ مِنْ تَقْيِيدِهِ، أَوْ قِتْلِهِ، أَوْ إِخْرَاجِهِ، كَمَا ذَكَرَ فِي الْأَنْفَالِ] هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ إِذَا أَرَادَ

المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ الْمُرَادُ بِالآيَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَقُصُورٌ، وَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ التَّمثِيلَ فَصَحِيحٌ؛ فَإِنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ مَكَرُوا بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

مَعْنَى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أَي: يُقَيِّدُوكَ وَيَجْبِسُوكَ ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ هَذَا وَاضِحٌ، وَ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أَي: مِنْ مَكَّةَ، وَلَكِنْ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ فَهُمْ -الْحَمْدُ لِلَّهِ- مَا أَثْبَتُوهُ، وَلَا قَتَلُوهُ، وَلَا أَخْرَجُوهُ، كُلُّ هَذِهِ انْتَقَتْ مَعَ حِرْصِهِمُ الشَّدِيدِ عَلَى تَنْفِيذِهَا، لَكِنْ مَا حَصَلَ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَجُمْلَةٌ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ، وَهِيَ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرٌ ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾.

وَالْعَذَابُ بِمَعْنَى الْعُقُوبَةِ، وَالشَّدِيدُ؛ أَي: الْقَوِيُّ، فَهُوَ قَوِيٌّ فِي إِيْلَامِهِ، وَإِيْجَاعِهِ، وَفِي أَنْوَاعِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ، مِنْ حَرُورٍ، وَبَرْدٍ، وَعَطَشٍ، وَجُوعٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شِدَّتَيْهِ؛ لَهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- سَرَابِيلٌ مِنْ قَطْرَانٍ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، وَقَالَ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٧] يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الزِّيَادَةَ تَأْتِي فَوْرًا.

وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَبْقَى بزيادتها، لَكِنَّهَا تَجِبُ لِيَكُونَ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الطَّمَعِ فِي خِفَّةِ الْعَذَابِ أَوْ الْخُرُوجِ، ثُمَّ يَعُودُ: فَيَكُونُ هَذَا أَشَدَّ؛ لِأَنَّ ضَرْبَ الْإِنْسَانِ بِعُقُوبَةٍ بَعْدَ الطَّمَعِ فِي زَوَالِهَا يَكُونُ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِمَّا لَوْ كَانَ الْأَمْرُ مُسْتَمِرًّا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هَذَا مُفَصَّلٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ تَبَعَهُ

- أي أنواع العذاب التي للكافرين في النار - من القرآن يكون جيِّداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: ﴿وَمَكْرٌ﴾ مُبْتَدَأُ خَبْرُهُ جُمْلَةٌ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ و﴿هُوَ﴾ لا تَصِحُّ هنا أن تكون ضَمِيرَ فَضْلٍ؛ لأنَّ القَاعِدَةَ أنَّ ضَمِيرَ الْفَضْلِ يكون بين اسمين لا بين اسمٍ وفِعْلٍ، لكنها مُبْتَدَأٌ خَبْرُهَا جُمْلَةٌ ﴿يَبُورُ﴾ والجُمْلَةُ مِنَ الْمُبْتَدَأِ والخَبْرُ خَبْرٌ ﴿وَمَكْرٌ﴾ وأتى بهذا التَّرْكِيبِ من بابِ تَعْظِيمِ هذا الشَّيْءِ وتَهْوِيلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ ولم يَقُلْ: (مَكْرٌ هَؤُلَاءِ) إِمَّا اسْتِيعَادًا لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ليسوا أَهْلًا لِأَن يُقَرَّبُوا؛ أو لِأَنَّهُمْ هم جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ في محلِّ الْعَالِينَ الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ، فَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعَالَوْا بِمَكْرِهِمْ - وإن كانوا في الْقِمَّةِ على حَسَبِ زَعْمِهِمْ - فَإِنَّ هَذَا الْمَكْرَ يَبُورُ؛ والبوار بِمَعْنَى الْهَلَاكِ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

فهؤلاء مَكْرُهُمْ يَبُورُ؛ أي: يَتَلَاشَى وَيَضْمَحِلُّ، ولا يَفِيدُهُمْ شَيْئًا.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: في هذا الحثُّ على طلب العِزَّةِ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ ليس الْمَعْنَى أَنَّ من أَرَادَ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا من الله، فليس المرادُ الْعَرَضُ فقط؛ إذ كُلُّ أَحَدٍ يريد الْعِزَّةَ، لكن إذا أَرَدَتِ الْعِزَّةَ فَمِمَّنْ تَطْلُبُهَا؟ من الله، ففيه إثباتُ أَنَّ الْعِزَّةَ تُطَلَّبُ من الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائدة الثانية: أَنَّهُ لا عِزَّةَ بدونِ الله، وذلك بالقيام بطاعةِ الله، والاسْتِيعَانَةَ به، والاعتمادِ عليه، فإذا اعْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِكَثْرَتِهِ فَإِنَّهُ يُهْزَمُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولو اعْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِقُوَّتِهِ الْمَادِيَّةِ كَقُوَّةِ السَّلَاحِ مِثْلًا فَإِنَّهُ يُهْزَمُ،

وإذا استعان بالله فإنه لا يُهزم، اللهم إلا لحكمة تكون مُقْتَرَنَةً بتلك القَصِيَّةِ المُعَيَّنَةِ فقد يكون.

الفائدة الثالثة: إثبات العِزَّةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

الفائدة الرابعة: أن العِزَّةَ لها كُلُّ وَبَعْضٌ، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ بما يدلُّ على أن هناك كلاً وِبَعْضًا، وذلك أن العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ قَسَمُوا العِزَّةَ التي أَنْصَفَ اللهُ بها إلى ثلاثة أقسامٍ: عِزَّةُ الامْتِنَاعِ، وعِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ.

الفائدة الخامسة: إثبات علوِّ الله، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ لأنَّ الصُّعُودَ هو العُلُوُّ.

الفائدة السادسة: أن الكَلِمَ غَيْرُ الطَّيِّبِ لا يَصْعَدُ إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿الْكَلِمِ الطَّيِّبِ﴾ ويؤيدُ هذا قولُ النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»<sup>(١)</sup>.

الفائدة السابعة: الإشارةُ إلى انْقِسَامِ الكَلَامِ؛ لقوله تعالى: ﴿الطَّيِّبِ﴾ فإن هذا الوَصْفَ إخراجٌ لما سِوَاهُ، وقد تَقَدَّمَ: أن الذي يقابِلُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ نوعان من الكَلَامِ: الحَبِيثُ، وما ليس بطيِّبٍ ولا خبيثٍ.

أما الخبيثُ فمَرْدُودٌ بِكُلِّ حالٍ؛ لأنَّه خبيثٌ لِذَاتِهِ، وأما ما ليس بطيِّبٍ ولا خبيثٍ، فقلنا: إن هذا القِسْمَ من الكَلَامِ قد يكون طَيِّبًا لِغَيْرِهِ، وخبيثًا لِغَيْرِهِ، وسالمًا من الوَصْفَيْنِ، فإذا كان طَيِّبًا لِغَيْرِهِ فَإِنَّهُ يَصْعَدُ إلى أعلى؛ لعموم قوله تعالى: ﴿الْكَلِمِ الطَّيِّبِ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَا يَرْفَعُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا كَانَ صَالِحًا؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا اشْتَمَلَ عَلَى وَصْفَيْنِ: الْإِحْلَاصَ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةَ لِشَرْعِهِ، فَإِنَّ فَقْدَ الْإِحْلَاصِ فَلَيْسَ بِعَمَلٍ صَالِحٍ؛ لِأَنَّهُ شَرِكٌ، وَإِنْ فُقِدَتِ الْمُتَابَعَةُ فَلَيْسَ بِعَمَلٍ صَالِحٍ؛ لِأَنَّهُ بِدْعَةٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ مَكْرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هَذَا إِذَا أَخَذْنَاهَا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ، أَمَّا إِذَا قَلْنَا: إِنَّ السَّيِّئَاتِ عَامٌّ أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ فَلِلْمَكْرِ الَّذِي حَصَلَ مِنْ أَدِيَّةِ قُرَيْشٍ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ يَكُونُ خَاصًّا، لَكِنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِهِ الْعُمُومُ وَأَنْ يَكُونَ بَاقِيًا عَلَى عُمُومِهِ حَتَّى يَرِدَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوصُ أَوْ عَلَى أَنَّهُ مُخَصَّصٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مَكْرَ هَؤُلَاءِ هَالِكٌ زَائِلٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ بُورٌ﴾ حَتَّى أَعْمَالُهُمْ لَا تَنْفَعُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

هذه هي الفوائد الظاهرة من هذه الآية الكريمة، وربنا عند التأمل يجد الإنسان أكثر؛ لأن كلام الله سبحانه وتعالى لا يحاط به، ولكن الناس يختلفون في الفهم.



الآية (١١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

•••••

لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا سَبَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرِّيحِ، وَإِثَارَةِ السَّحَابِ، وَسَوْقِهِ إِلَى الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ تُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

قال هنا: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وهذا باعتبار الأصل الذي هو آدم؛ ولهذا قال المفسر رحمه الله: [بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ] أي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، وهذه الآية فيها أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، وفي آيةٍ أُخْرَى أَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ، وفي آيةٍ ثَالِثَةٍ أَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ فَخَّارٍ، وفي آيةٍ رَابِعَةٍ: مِنْ حَمِّ مَسْنُونٍ، فما هو الجواب عن هذا التَّعْيِيرِ؟

الجواب: أَنَّ هَذَا تَغْيِيرٌ أَوْصَافٍ، وَلَيْسَ تَغْيِيرٌ ذَوَاتٍ وَحِينَئِذٍ فَلَا تَنَاقُضُ؛ إِذْ يَجُوزُ أَنْ تَتَعَدَّدَ الْأَوْصَافُ عَلَى مَوْصُوفٍ وَاحِدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ [الأعلى: ١-٤] مَعَ أَنَّهُ وَاحِدٌ.

الحاصل: أَنَّ يُقَالُ فِي هَذَا التَّغْيِيرِ: إِنَّ هَذَا تَغْيِيرٌ أَوْصَافٍ وَلَيْسَ تَغْيِيرٌ ذَوَاتٍ

وأعيانٍ، فالعَيْنُ وَاحِدَةٌ، لَكِنَّ أَوْلَهَا التَّرَابُ، فَإِذَا أُضِيفَ إِلَيْهَا المَاءُ صَارَتْ طِينًا، فَإِذَا أُطْرِي وَأَخَذَ مُدَّةً صَارَتْ حَمًّا مَسْنُونًا مُتَغَيَّرًا؛ يَعْنِي الطِّينُ إِذَا أَكْثُرَتْ فِيهِ المَاءُ تَجِدُهُ يَسْوَدُّ وَتَكُونُ لَهُ رَائِحَةٌ، وَالرَّابِعُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ هَذَا بَعْدَ أَنْ كَانَ حَمًّا مَسْنُونًا يَيْسَ وَصَارَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ، ثُمَّ نَفَخَ اللهُ فِيهِ الرُّوحَ، فَيَكُونُ هُنَا التَّغْيِيرُ تَغْيِيرَ أَوْصَافٍ، وَالْأَصْلُ فِيهِ التُّرَابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَتَى بِ(ثُمَّ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّرَاخِي وَالتَّرْتِيبِ؛ لِأَنَّ (ثُمَّ) تَدُلُّ عَلَى التَّرَاخِي وَالتَّرْتِيبِ، وَ(وَالْفَاءُ) تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ بِدُونِ تَرَاخٍ، هُنَا قَالَ: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لِأَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آدَمَ وَخَلَقَ ذُرِّيَّتَهُ تَنَاسَلَتْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةُ بِوِاسِطَةِ هَذَا المَاءِ الَّذِي هُوَ النُّطْفَةُ، وَالنُّطْفَةُ هِيَ المَاءُ القَلِيلُ.

قَالَ المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَي: مَنِىِّ بِيخْلِقِ ذُرِّيَّتَهُ مِنْهَا]؛ أَي: مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ، وَالعَرِيبُ أَنَّ هَذِهِ النُّطْفَةَ القَلِيلَةَ يَذْكُرُ عُلَمَاءُ الطَّبِّ أَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مِلايينَ مِنَ الحَيَوَانَاتِ المَنْوِيَّةِ، وَهَذِهِ النُّطْفَةُ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مِلايينَ - وَهَمَّ أَعْلَمُ مِنْهَا بِذَلِكَ - لَا يَصْلُحُ مِنْهَا إِلَّا وَاحِدٌ فِي الغَالِبِ، أَوْ ائْتَانِ، أَوْ ثَلَاثَةَ، أَوْ أَرْبَعَةَ، هَذَا أَنَّهُى مَا سَمِعْتُ، أَنَّهُ يُوَلَّدُ لِلْمَرْأَةِ أَرْبَعَةَ أَوْلَادٍ فِي بَطْنٍ وَاحِدَةٍ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قَدْ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ.

قَالَ المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذَكَورًا وَإِنَاثًا].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَزْوَاجًا﴾ فَسَّرَ المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ هُنَا الأَزْوَاجَ بِالدُّكُورَةِ وَالأُنْثَى بِقَرِينَتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ الأَزْوَاجُ هُنَا بِاعْتِبَارِ الجِنْسَيْنِ: الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَيُؤَيِّدُ تَخْصِصَ الأَزْوَاجِ هُنَا بِالدُّكُورَةِ وَالأُنْثَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ أَمَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى لَفْظِ أَزْوَاجٍ فَإِنَّ الأَزْوَاجَ بِمَعْنَاهَا

الأصناف، والأصناف أعمُّ من الذكورة والأنوثة، فإنه يشمل الشقي والسعيد، والأسود والأبيض، والطويل والقصير، وغير ذلك، لكن الذي جعل المفسر رحمه الله يحمل الكلام على الذكورة والأنوثة فقط قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

فإنَّه عزَّ وجلَّ بقدرته وحكمته جعل هذه الذرِّيَّة التي خرجت من هذا الرَّجُل الواحد جعلها ذكورًا وإناثًا لبقاء النسل؛ لأنَّه لا يُمكن بقاء النسل إلا بهذا، وإن كان الله سبحانه وتعالى قادرًا على أن يُبقي النسل بدون هذا، فإنَّه يقال: إنَّ البشريَّة منها ما خُلِقَ بلا أمٍّ وأبٍ، ومنها ما خُلِقَ من أبٍ بلا أمٍّ، ومنها ما خُلِقَ من أمٍّ بلا أبٍ، ومنها ما خُلِقَ من أبوين؛ فالذي خُلِقَ بلا أمٍّ ولا أبٍ آدمٌ، ومن أبٍ بلا أمٍّ حواءٌ، ومن أمٍّ بلا أبٍ عيسى، وسائر النَّاسِ بين أبوين من ذكرٍ وأنثى.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حال؛ أي: معلومة له].

(ما) هذه شرطية، هنا ﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد ﴿أُنْثَى﴾ فاعل ﴿تَحْمِلُ﴾ مرفوع بضمة مُقدَّرة على آخره منع من ظهورها التَّعذُّر، لكنه في الواقع من حيث اللَّفْظُ مجرورٌ لفظًا.

قوله: [﴿أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ أي: أنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حال؛ أي: معلومة له] أي: أنثى تحمل من بني آدم، أو منه ومن غيره؟

الجواب: منه ومن غيره، ما تحمل ولا تضع إلا بعلمه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، فالله عزَّ وجلَّ يعلم ما تحمل كل أنثى في ابتداء الحمل وتطور الحمل، ومآل الحمل، وكل ما يتعلَّق به؛ ولا تضع إلا بعلمه،



فَأَوَّلُ مَا يَنْشَأُ الْحَمْلُ فِي الرَّحِمِ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِذَا وَضَعَتْ فَهُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [حَال] يَعْنِي أَنَّ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، فَمَعْنَى ﴿إِلَّا يَعْلَمِهِ﴾ قَالَ: إِلَّا مَعْلُومَةٌ لَهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ الْبَاءَ هُنَا لِلْمُصَاحَبَةِ وَالْمُقَارَنَةِ؛ أَي: لَا يَحْصُلُ الْحَمْلُ وَلَا الْوَضْعُ إِلَّا مَقْرُونًا بِعِلْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ونضيف إلى ذلك أيضًا أنه بعلمه وإرادته، لكن سنأخذ - إن شاء الله - من الفوائد هنا أن فيها دليلًا على أن من أثبت العلم لزم أن يثبت الإرادة؛ ولهذا قال أهل السنة - الشافعي وغيره - بالنسبة للقدرية: «ناظرُوهم بالعلم، فإن أنكروه كفروا، وإن أقرؤا به خصموا»<sup>(١)</sup> إن قالوا: (الله لا يعلم عن عباده) كفروا، وإن قالوا: يعلم خصموا؛ لأنه إذا علم ذلك، فإما أن يقع الشيء على خلاف معلومه أو على وفاقه، فإن كان على وفاقه فيإرادته، وإن كان على خلافه فقد أنكروا العلم؛ أي: إنهم بهذا ينكرون العلم.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أَي: مَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ طَوِيلِ الْعُمُرِ ﴿وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أَي: ذَلِكَ الْمَعْمَرُ أَوْ مُعَمَّرٌ آخَرَ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيْئًا].

﴿وَمَا﴾ هَذِهِ نَافِيَةٌ أَيْضًا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وَدَلِيلِ آخَرَ؛ قَطَعَ الْفِعْلُ عَنْهَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ مَعْنَى التَّعْمِيرِ: الزِّيَادَةُ فِي الْعُمُرِ؛ أَي: لَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٤٧).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ مُعَمَّرٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ هَذِهِ زَائِدَةٌ دَاخِلَةٌ عَلَى نَائِبِ الْفَاعِلِ، فَتَقُولُ فِي «مُعَمَّرٍ»: نَائِبُ فَاعِلٍ مَرْفُوعٌ بِضَمَّةٍ مُقَدَّرَةٌ عَلَى آخِرِهِ مَنَعٌ مِنْ ظَهْوَرِهَا اشْتِغَالُ الْمَحَلِّ بِحَرَكَةِ حَرْفِ الْجَرِّ الزَّائِدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هُنَا يَقُولُ: ﴿مِنْ عُمْرِهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: ذَلِكَ الْمُعَمَّرُ أَوْ مُعَمَّرٌ آخَرَ] أَمَّا كَوْنُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عُمْرِهِ﴾ يَعُودُ عَلَى مُعَمَّرٍ آخَرَ فَهَذَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مُعَمَّرًا فَيَكُونُ الثَّانِي نَاقِضًا، لَكِنَّ الْإِشْكَالَ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى الْمُعَمَّرِ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ مُعَمَّرًا وَهُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ مَنَقُوضٌ مِنْ عُمُرِهِ؟

الجواب: هَذَا مَحَلُّ إِشْكَالٍ فِيهَا يَظْهَرُ؛ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ لِتَفْرِضُ أَنَّهُ زَيْدٌ، ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ إِذَا قُلْنَا: الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى ذَلِكَ الْمُعَمَّرِ صَارَ يَعُودُ عَلَى (زَيْدٍ) فَيَكُونُ زَيْدٌ مُعَمَّرًا مَنَقُوضًا مِنْ عُمُرِهِ، إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ عَائِدٌ عَلَى مُعَمَّرٍ آخَرَ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ أَي: مِنْ عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ، لَا يَلْزِمُ الْأَوَّلُ؛ صَارَ النَّقْضُ يَعُودُ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ، فَعِنْدَنَا زَيْدٌ مُعَمَّرٌ، وَعَمْرٌو مَنَقُوضٌ مِنْ عُمُرِهِ، فَهَذَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ.

لَكِنَّ الْإِشْكَالَ الْأَوَّلَ: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي تَوْجِيهِهِ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ إِنَّ النَّقْضَ هُنَا فِي مُقَابِلِ الزِّيَادَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا تَقَدَّمَ يَوْمًا فِي الدُّنْيَا نَقَصَ عُمُرَهُ بِاعْتِبَارِ آخِرِ عُمُرِهِ؛ مِثْلًا الَّذِي لَهُ عَشْرُ سَنَوَاتٍ فَإِذَا صَارَ لَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَقُدِّرَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ فِي عِشْرِينَ سَنَةً، فَهَذَا نَقْضٌ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا زَادَ مِنْ وَجْهِ نَقْصٍ مِنْ وَجْهِ آخَرَ.

فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُكْتَبُ نَقْصُهُ كَمَا تُكْتَبُ زِيَادَتُهُ؛ فَيُكْتَبُ مِثْلًا: (فَلَانٌ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ

عَشْرَ سِنِينَ، وَنَقَصَ مِنْ عُمُرِهِ؛ يعني: من آخِرِ عُمُرِهِ عشر سنين؛ بلغ إحدى عَشْرَةَ، وَنَقَصَ مِنْ عُمُرِهِ إحدى عَشْرَةَ، فَبَقِيَ تِسْعٌ وَهَكَذَا، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ بَعْضُ التَّابِعِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَلَكِنَّ آخِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالُوا: إِنْ هَذَا حِينَ أُخْبِرَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»<sup>(١)</sup> وَبَيَّنَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْقَصُ عُمُرُهُ وَيُزَادُ بِحَسَبِ صِلَةِ الرَّحِمِ؛ مِثْلَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِذَا لَمْ يَصِلْ رَحِمَهُ، وَيُزَادُ فِي عُمُرِهِ إِذَا وَصَلَهُ.

وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ: أَنَّ زِيَادَةَ الْعُمُرِ أَوْ نَقْصَهُ مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ عُمُرُهُ يَطُولُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ فَسَوْفَ يُقَدَّرُ لَهُ أَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ، وَمَنْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يُنْقَصَ عُمُرُهُ بِقَطِيعَةِ الرَّحِمِ فَسَوْفَ يَكُونُ قَاطِعًا لِرَحِمِهِ؛ لِأَنَّ الْمُسَبِّبَاتِ مَرْبُوطَةٌ بِأَسْبَابِهَا، مَعْلُومَةٌ عِنْدَ اللَّهِ.

وهذا يُزِيلُ عِنَّا الْإِشْكَالَ الَّذِي أَشْكَلَ، أوردته بعض العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَحَاولُوا أَنْ يُفَسِّرُوا زِيَادَةَ الْعُمُرِ بِالْبَرَكَاتِ فِي عُمُرِ الْإِنْسَانِ؛ بِأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْزَلَ بَرَكَاتًا فِي الْعُمُرِ وَإِنْ كَانَ قَصِيرًا صَارَ خَيْرًا مِنْ عُمُرٍ طَوِيلٍ بِلا بَرَكَاتٍ، وَلَكِنْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ هَذَا لَا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْإِشْكَالِ؛ لِأَنَّ الْبَرَكَاتِ أَيْضًا مَكْتُوبَةٌ، وَكَذَلِكَ مُحَقَّقَةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَلَا يُخْرِجُهُمْ ذَلِكَ مِنَ الْإِشْكَالِ، لَا يُخْرِجُونَ مِنَ الْإِشْكَالِ إِلَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ عُمُرَ الْإِنْسَانِ الْمُطَوَّلِ بِسَبَبِ صِلَةِ الرَّحِمِ قَدْ كُتِبَ، وَقَدْ كُتِبَ أَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ، إِذَنْ مَا الْفَائِدَةُ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ...؟».

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنهُ.

الجواب: الفائدة من ذلك: الحثُّ على صِلَةِ الرَّحِمِ، كما أننا نقول: (من أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) فلا يقول قائل: إذا كانت الجنة مكتوبة فكيف يَدْخُلُهَا ولم يَعْمَلْ؟ كيف إذا عَمِلَ كُتِبَتْ له الجنة؟

ونقول: هي مكتوبةٌ من قَبْلِ أَنْ يَعْمَلَ، لَكِنْ قَدْ كُتِبَتْ له الجنة وكُتِبَ أَنْ يَعْمَلَ لها عَمَلُهَا، وعلى هذا كُلُّ ما حصل من تَقْدِيرَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَخْتَصُّ بِالْعُمُرِ، الإِشْكَالُ وَارِدٌ عَلَى الْجَمِيعِ، وَلَكِنَّ الْجَوَابَ عَنْهُ بَسِيطٌ: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: إِنْ هَذَا مَكْتُوبٌ نَتِيجَةً لِهَذَا السَّبَبِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ، أَمَّا عِنْدَنَا فَلَيْسَ بِمَعْلُومٍ.

إِذَنْ: يَكُونُ أَحْسَنُ مَا يَشَارُ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ أَيُّ مُعَمَّرٍ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُزَادُ فِي عَمْرِهِ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَقَدْ يُنْقَصُ مِنْ عَمْرِهِ لِسَبَبٍ آخَرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾: ﴿كِتَابٍ﴾ فِعَالٍ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛ فِفِرَاشٍ بِمَعْنَى مَفْرُوشٍ، وَغِرَاسٍ بِمَعْنَى مَغْرُوسٍ، وَبِنَاءٍ بِمَعْنَى مَبْنِيٍّ، فِكِتَابٍ بِمَعْنَى مَكْتُوبٍ، فَمَا هُوَ هَذَا الْكِتَابُ؟ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ] وَهَذَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَحْفُوظٌ مِنْ عِدَّةٍ أَوْجُهُ:

مَحْفُوظٌ أَنْ يِنَالَهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ خَاصٌّ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

مَحْفُوظٌ مِنْ أَنْ يُغَيَّرَ؛ أَيُّ: يُبَدَّلُ؛ وَلِهَذَا مَا كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْقَلَمِ: «اكَتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك أيضًا محفوظٌ عن الحقلِ بحيث لا يحتاج إجمالاً ولا ترتيباً ولا يتخلفُ ما كُتِبَ فيه؛ يعني: لا يقع فيه السهو، فهو تامٌّ من كلِّ وجهٍ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: [إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿ هَيْئٌ ] .

﴿ ذَلِكَ ﴾ المشارُ إليه: كلُّ ما سبق، الزيادةُ في العمر، والنقص، والكتابة، كُله يسيرٌ على الله؛ أي: هيئٌ عليه، وإن كان عند المخلوقين صعباً وعسيراً، لكنَّه عند الله سهلٌ ويسيرٌ؛ لأنه عزَّجَلَّ إذا أراد شيئاً قال له: كُنْ فيكونُ.

#### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيانُ قُدرةِ الله سبحانه وتعالى بابتداءِ خلقِ بني آدم؛ أنه خلقه من ترابٍ ثم من نطفة... إلخ.

الفائدة الثانية: أن الله بحكمته ورحمته جعل بني آدم أزواجاً ذكراً وأنثى، وذلك لبقاءِ النسل، وحُصولِ المتعة.

الفائدة الثالثة: إحاطةِ علمِ الله بكلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ .

الفائدة الرابعة: إثباتُ القُدرةِ لله عزَّجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ لأنَّ الخلقَ لا يكون إلا بعدَ علمٍ وقُدرةٍ.

الفائدة الخامسة: أن الأعمارَ الطويلةَ منها والقصيرةَ؛ كُلُّها مكتوبةٌ عند الله عزَّجَلَّ في كتابٍ.

الفائدة السادسة: إثباتُ مرتبتين من مراتبِ القدر، وهما: العلم، والكتابة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: سُهولةُ هذا الشَّيْءِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ الْخَلْقُ وَالْكِتَابَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْقَدْرِ وَهِيَ الْخَلْقُ، إِذَنْ: هِيَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الْعِلْمُ، وَالْكِتَابَةُ، وَالْخَلْقُ.

وَأَمَّا الْمَشِيئَةُ فَتُؤَخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ فَيَكُونُ فِي الْآيَةِ إِذَنْ إِثْبَاتُ مَرَاتِبِ الْقَدْرِ الْأَرْبَعِ: الْعِلْمُ، ثُمَّ الْكِتَابَةُ، ثُمَّ الْمَشِيئَةُ، ثُمَّ الْخَلْقُ، وَقَدْ جُمِعَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ الْأَرْبَعُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ:

عِلْمٌ كِتَابَةٌ مَوْلَانَا مَشِيئَةٌ      وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِجَادٌ وَتَكْوِينٌ

فهذه مراتبُ القَدْرِ الْأَرْبَعِ.



## الآية (١٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴾ [فاطر: ١٢].

•••••

﴿وَمَا﴾ نافية، و﴿يَسْتَوِي﴾ بمعنى يتساوى ويتمائل ﴿الْبَحْرَانِ﴾ وهذا مجمل، والبحر هو الماء الكثير، فكل ماء كثير يُسمى بحرًا، البحران هنا مجمل، فسره عزَّوجلَّ بقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ العذب هنا بمعنى الحلو المُستساغُ شُرْبُهُ، وفُرَاتٌ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ [شديد العذوبة].

﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي: شُرْبُهُ، سَائِغٌ؛ بمعنى: سهَّلٌ وميسرٌ؛ لأنه حلو عذب، وليس فيه ما يُكدره من وساخة أو حرارة زائدة أو برودة زائدة، المهمُّ أنه عذب فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ.

والثاني [﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة] ملح شديد الملوحة، هل يستويان؟

لا، وهل هذا يُرادُ به الحقيقةُ أو هو مثلُ صَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ؟

قيل: إنه يُرادُ به الحقيقةُ بدليلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾

وقيل: إنَّ المرادُ به مثلُ صَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، فالْمُؤْمِنُ بِمَنْزِلَةِ الْعَذْبِ الْفُرَاتِ، وَالْكَافِرُ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ الْأُجَاجِ، وَلَكِنْ لَدَيْنَا قَاعِدَةٌ فِي الْكَلَامِ أَنَّهُ إِذَا دَارَ

الأمر بين أن يكون حقيقة أو غير حقيقة وجب أن يُحمَل على الحقيقة، فهو إذن حقيقة، ويؤيده أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فإن مثل هذا الترشيح يدلُّ على أنه حقيقة وليس بمجاز، على أننا نقول: إنه لا مجاز في القرآن ولا في غيره كما سبق، ولكن مع هذا لا بأس أن ينتقل من نفي التساوي بين هذين البحرين ونفي التساوي بين كلِّ شَيْئَيْنِ مُتَغَايِرَيْنِ؛ يعني: لا مانع من أن ينتقل لانتفاء التساوي بين هذين المخصوصين إلى انتفاء التساوي بين الأمور المعقولة المعنوية.

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

﴿وَمِن كُلِّ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ [لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمَكُ] الطَّرِيُّ معناه الذي لم يتغير بتتن، وهذا من خصائص السَّمَكِ؛ أنه وإن مات فإنه طَرِيٌّ كما قال الله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَالسِّيَّارَةَ﴾ [المائدة: ٩٦] قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «صَيْدُهُ مَا أُخِذَ حَيًّا وَطَعَامُهُ مَا أُخِذَ مَيْتًا»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: من فوائد هذين البحرين [﴿وَسَتَخْرِجُونَ﴾ من المالح، وقيل: منهما ﴿حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان] كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وقد اختلف الناس: هل هذا لا يخرج إلا من المالح أو يخرج من المالح والعذب؟

أكثر المفسرين على أنه لا يخرج إلا من المالح، وحملوا قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على أن المراد من مجموعيهما لا من جميعيهما.

فهما إذا قلنا: عندنا بحران؛ عذب ومالح، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/٤١٥)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/٧٢٣، ٧٢٧)، والبيهقي (٩/٢٥٥).



[منهما] يعني من المجموع لا من الجميع، ولكن الصَّحِيح أَنَّهُ يخرج من الجميع؛ لأنَّ هذا هو ظاهرُ القرآن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا خَلَقَ، فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْهُمَا، وقد ثبت الآن أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ يخرج من هذا ومن هذا؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [وقيل منها].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وَذَكَرَ اللَّبْسَ؛ لِأَنَّهُ غَايَةٌ مَا يُتَّفَعُّ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْحِلْيَةِ، وَإِلَّا فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ يَسْتَخْرِجُ هَذِهِ الْحِلْيَةَ يَتَّخِذُهَا تِجَارَةً، وَتِجَارَةُ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ فِيهَا سَبَقٌ وَإِلَى الْآنِ لَا تَزَالُ تِجَارَةٌ قَوِيَّةٌ، لِأَنَّ الَّذِي يَشْتَرِيهَا مِنَ التَّجَارِ يَرِيدُ بِهَا اللَّبْسَ، فَإِنْ أَرَادُوا بِهَا التَّكْسِبَ يَلْبَسُهَا كِسْوَةً لِلْبَدَنِ فِي بَاطِنِهِ وَكِسْوَةً لِلْبَدَنِ فِي ظَاهِرِهِ، كِسْوَةَ الْبَدَنِ فِي بَاطِنِهِ أَكُلُّ اللَّحْمِ، فَأَكُلُ اللَّحْمِ كِسْوَةَ لِلْبَدَنِ فِي بَاطِنِهِ؛ وَهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجْمُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ [طه: ١١٨] وَلَمْ يَقُلْ: (وَلَا تَبْلَى) بَلْ قَالَ: ﴿وَلَا تَعْرِى﴾ لِأَنَّ الْجَمْعَ عُرْيِي الْبَاطِنِ وَالْعُرْيِي الظَّاهِرِ؛ فَمَنْ ثُمَّ نَقُولُ: ذَكَرَ اللهُ لِيَاسِينَ: اللَّبَاسَ الْبَاطِنَ بِأَكُلِ اللَّحْمِ، وَاللَّبَاسَ الظَّاهِرَ بِهَذِهِ الْحِلْيَةِ، فَمَنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ وَتَسْتَخْرِجُونَ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَتَرَى﴾ تَبْصِرُ ﴿الْفُلْكَ﴾ السُّفْنَ ﴿فِيهِ﴾ فِي كُلِّ مِنْهُمَا ﴿مَوَاحِرَ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿وَتَرَى﴾ أَي: تَبْصِرُ] الْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ، وَالرُّؤْيُ هُنَا بَصْرِيَّةٌ، فَإِنَّ مَنْ يُشَاهِدُ الْبَوَاحِرَ فِي الْبَحَارِ يَرَاهَا تَمْتَحِرُ الْمَاءَ؛ أَي: تَشْقُهُ.

وَقَوْلُهُ: [﴿فِيهِ﴾ فِي كُلِّ مِنْهُمَا] أَجَابَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ إِشْكَالِ وَاضِحٍ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ وَمُقْتَضَى السِّيَاقِ أَنَّ يَكُونُ التَّعْبِيرُ هَكَذَا (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهَا) وَلَكِنَّ الضَّمِيرَ هُنَا لَا يَعُودُ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَإِنَّمَا

يعود على (كُلُّ) و(كُلُّ) لَفْظٌ مُفْرَدٌ، فعاد الضَّميرُ في هذه الآية على (كُلُّ) باعتبار اللَّفْظِ؛ لأنَّه مُفْرَدٌ، ومن هنا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [في كُلِّ مِنْهَا] فزال الإِشْكَالُ.

وقوله تعالى: ﴿مَوَاحِرَ﴾ قال: [تَمَخَّرَ المَاءُ؛ أَي: تَشَقَّه بَجَرِّهَا فِيهِ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ] وهذا من نِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَنْ سَخَّرَ الفُلُكَ لَنَا تَجْرِي عَلَى هَذَا المَاءِ، وَتَمَخَّرَ عُبَابَ المَاءِ، حَامِلَةً أَنْوَاعَ الأَرْزَاقِ، وَحَامِلَةً البَشَرِ الكَثِيرِ؛ وَلِذَلِكَ الفُلُكُ الآن تُعْتَبَرُ بِلَدَا كَامِلًا، وَإِذَا دَخَلَتْهَا رَأَيْتَهَا كَالْبَلَدِ، وَهَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَذَكَرَ هُنَا ثَلَاثَ فَوَائِدَ:

الأولى: أَكُلُ اللَّحْمِ، وَالثَّانِيَةُ: الحِلْيَةُ، وَالثَّالِثَةُ: البَوَاحِرُ الَّتِي تَعْبُرُ أَوْ تَشُقُّ المَاءَ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى أُخْرَى لِتَنْقُلَ الأَرْزَاقَ وَالأَدَمِيَّينَ.

وَتَأْمَلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وَ﴿تَأْكُلُونَ﴾ وَ﴿وَتَرَى الفُلُكَ فِيهِ مَوَاحِرَ﴾ لِأَنَّ السَّمَكَ أَخْذُهُ هَيْئًا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى كُلْفَةٍ، فَذَكَرَ الأَكْلَ مَبَاشَرَةً، أَمَّا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَيَحْتَاجُ إِلَى كُلْفَةٍ وَإِلَى تَعَبٍ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى عَوْصٍ وَآلاتٍ وَطُولِ نَفْسٍ أَوْ حَمَلِ أَشْيَاءٍ تُعِينُ عَلَى التَّنْفُسِ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَسْتَخْرِجُونَ﴾ أَي تَطْلُبُونَ الحِلْيَةَ، وَأَمَّا الفُلُكُ فَقَالَ: ﴿وَتَرَى الفُلُكَ فِيهِ مَوَاحِرَ﴾ لِأَنَّ مُشَاهَدَتَهَا بِالْعَيْنِ وَهِيَ تَشُقُّ المَاءَ يَرَى الإِنْسَانَ فِيهَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿لِتَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبُوا مِنْ فَضْلِهِ] تَعَالَى بِالتَّجَارَةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهُ عَلَى ذَلِكَ].

يعني: سَخَّرَ الفُلُكَ وَجَعَلَهَا مَوَاحِرَ فِي هَذَا البَحْرِ لِأَمْرَيْنِ:

أولاً: لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ؛ أَي: تَطْلُبُوا الرِّزْقَ بِمَا تَحْمِلُهُ هَذِهِ البَوَاحِرُ؛ وَلِذَلِكَ الآنَ مَا الَّذِي يَأْتِي إِلَيْنَا مِثْلًا بِالأَرْزَاقِ مِنْ أَمْرِيكَ وَمِنَ اليَابانِ وَمِنَ المَنَاطِقِ الأُخْرَى

الْبَعِيدَةَ إِلَّا بِوَأَسْطَةِ هَذِهِ الْبُؤَاخِرِ الَّتِي تَحْمِلُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛  
لأنه قال: ﴿لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فَإِنَّ (لَعَلَّ) هُنَا حَتَّى نَسْتَعْرِضَ  
المعاني التي تأتي لها (لعل) ف(لعل) تأتي للترجي، وتأتي للتوقع، وتأتي للإشفاق،  
وتأتي للتعليل، فلاي المعاني كانت في هذه الآية؟

الجواب: للتعليل؛ لأنها لأجل أن تذكروا الله عزَّجَلَّ، إذا رأيتم هذه البواخر  
تَمُخَّرُ الْمَاءَ وَتَأْتِي بِالْأَرْزَاقِ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ، فَإِنَّ هَذَا يَسْتَوْجِبُ أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ.

والشُّكْرُ قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ؛ اعْتِرَافًا  
بِالْقَلْبِ، وَتَحَدُّثًا بِاللِّسَانِ، وَطَاعَةً بِالْأَرْكَانِ، فَمَوَاضِعُهُ ثَلَاثَةٌ: الْقَلْبُ، وَاللِّسَانُ،  
وَالْجَوَارِحُ؛ وَهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتُكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً  
يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا<sup>(١)</sup>

فهذا الشُّكْرُ يَكُونُ بِهَذِهِ الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، وَالْحَمْدُ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، فَمُتَعَلِّقُ  
الشُّكْرِ أَعْمٌ وَسَبَبُهُ أَحْصُ، وَمُتَعَلِّقُ الْحَمْدِ أَحْصُ وَسَبَبُهُ أَعْمٌ؛ لِأَنَّ الْحَمْدَ يَكُونُ فِي  
مُقَابَلَةِ النِّعْمَةِ، وَيَكُونُ فِي مُقَابَلَةِ كَمَالِ الْمُحْمُودِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُتَّفِقَةَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مُتَسَاوِيَةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾.

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/٣٤٦)، والفايق للزمخشري (١/٣١٤).

يَنْفَرُّ مِنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ فِي الْحُقُوقِ وَلَا فِي غَيْرِهَا؛ لِأَنَّ تَكْوِينَ خِلْقَةِ الْمَرْأَةِ مُخْتَلِفٌ عَنْ تَكْوِينِ خِلْقَةِ الرَّجُلِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْمَرْأَةِ أَعْمَالَ تَلِيْقُ بِهَا وَلِلرَّجُلِ أَعْمَالَ تَلِيْقُ بِهِ.

فَقَدْ سَأَلَتْ عَائِشَةُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَلْ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ جِهَادٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ»<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»<sup>(٢)</sup>، وَنَهَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ تَزْوِيجِ الْمَرْأَةِ نَفْسَهَا<sup>(٣)</sup>، وَفِي الْمِيرَاثِ جَعَلَ لِلْمَرْأَةِ نِصْفَ الرَّجُلِ إِذَا كَانَ مِنْ جِنْسِهَا كَالِإِخْوَةِ وَالْأَوْلَادِ، وَهَلِ الْأَعْمَامُ كَذَلِكَ؟

الجواب: لا؛ لِأَنَّ الْعَمَّةَ لَا تَرِثُ، فَلَوْ هَلَكَ هَالِكٌ عَنْ عَمَّةٍ وَعَمَّتِيهِ، فَإِنَّ الْعَمَّةَ لَا تَرِثُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ جَعَلَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ هَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ الْمُتْبَاعِدَيْنِ هُمَا بَحْرَانِ مِنَ الْمَاءِ؛ أَحَدُهُمَا: عَذْبٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَالثَّانِي: مِلْحٌ أُجَاجٌ، فَهِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَمَعَ ذَلِكَ يُخْتَلِفَانِ هَذَا الْاِخْتِلَافَ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ الْمَاءَ الْعَذْبَ يَكُونُ سَائِغَ الشُّرْبِ، وَعَكْسُهُ الْمَاءُ الْمَالِحُ.

وَيَتَفَرَّقُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَشْرَبَ مَا لَا يَسْتَسِيغُهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٦/١٦٥)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ الْحَجِّ جِهَادِ النِّسَاءِ، رَقْمُ (٢٩٠١)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى كَسْرِي وَقَيْصَرِ، رَقْمُ (٤٤٢٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيِّ، رَقْمُ (١٨٨٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يؤثر عليه ويضره، كما أنه لا مانع من أن يتناول ما تشتهه نفسه وإن كان في بعض الحالات ضرراً عليه.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في (زاد المعاد)<sup>(١)</sup> أن في طلب النفس الشيء أثراً كبيراً في انتفاء مضرته، وضرب لذلك مثلاً كما أظن (الميتة خبيثة مضرّة) فإذا اضطرّ الإنسان إليها واشتدّت حاجته وضرورته صارت النفس تقبلها وتستسيغها، ثم تهضمها فلا تضرها؛ لأن الميتة لو كانت تضرّ المضطرّ ضرراً غير المضطرّ، لكان حلّها له يتضمّن قتل نفسه؛ ولذلك لو اضطرّ إلى أكل وليس عنده إلا سم لم يحلّ له أن يأكل السمّ.

وضرب مثلاً لذلك أيضاً بقصة صهيب الروميّ كان أرمداً؛ أي: تؤلمه عينه من رميد كان بها، فجيء إلى النبي ﷺ بتمر، فأكل منه النبي عليه الصلاة والسلام وذهب صهيب ليأكل، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «إنك أرمداً»، ومعروف أن الذي في عينه رمداً لا يأكل التمر، فقال: يا رسول الله أمضغه من الجانب الآخر، فمثلاً إذا كان في عينه اليمنى فيها رمداً يَمْضِغُهُ من الجانب الأيسر، فصحك النبي عليه الصلاة والسلام، وقال له: «كُلْ»<sup>(٢)</sup> لأن نفسه الآن كانت تطلبه طلباً قوياً، وهذا الطلب يُزيل الضرر.

فالمهم أن الشيء الذي لا يُستساع لا ينبغي للإنسان أن يتناوله ويكره نفسه عليه؛ ولهذا قيل: (كُلْ ما يشتهي بطنك، ولا تأكل ما يشتهي فمك)، وهل هذا يصحُّ أو لا يصحُّ؟

الجواب: يصحُّ؛ لأن بعض الناس يتلذذ بنوع من الطعام لكن باطنه لا يقبله،

(١) زاد المعاد (٤/٩٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/٦١)، وابن ماجه: كتاب الطب، باب الحمية، رقم (٣٤٤٣).

تَجِدُهُ إِذَا أَكَلَهُ يُقْرِفُ بَطْنُهُ، نقول: لا تأكل هذا، ولو اشتَهَيْتَ الأَكْلَ؛ لأنَّ هذا صَرَرٌ عَلَيْكَ.

الفائدة الرابعة: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده بما يستفيدونه من هذه البحار من اللحوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ بدون مشقة وبدون تعب، ومع ذلك فإنَّ لحوم السمك من أحسن اللحوم، وكذلك نعمة الله عز وجل لما نستخرجه من هذه البحار من الحلية التي نلبسها.

الفائدة الخامسة: بيان الفرق بين تناول اللحوم من هذه البحار وتناول الحلي؛ لأنه قال في اللحوم: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ولم يذكر العلاج الذي نتوصل به إلى هذا الأكل؛ لأنه سهل هين لا يذكر، لكن في الحلية قال: ﴿وتستخرجون﴾ لأنها تحتاج إلى مشقة ومعاونة.

الفائدة السادسة: بيان قدرة الله عز وجل بحمل هذا الفلك الثقيل المملوء بالبضائع على متن الماء، ومع ذلك يستطيع أن يدفع الماء ويمخره؛ لقوله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ وإلا فإن الماء ثقيل، وليس بالهين؛ ولهذا عندما يسبح الإنسان في الماء يحتاج إلى قوة حتى يدفع الماء، لكن هذه السفن تمخر الماء، ويظهر أثر هذه النعمة إذا تذكر الإنسان السفن القديمة التي تجري بالرياح.

الفائدة السابعة: بيان نعمة الله علينا بنيل ما نطلبه من فضله بواسطة هذه البواخر؛ لقوله تعالى: ﴿لتبغو من فضله﴾.

الفائدة الثامنة: أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي يتوصل بها إلى المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿لتبغو من فضله﴾ ﴿أما أن يقول: (أبقى في بيتي ورزقي يأتيني)، ويقول: (إنه متوكّل على الله)، هل نوافقه على قوله؟

الجواب: لا، نقول له: لو كُنْتَ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ لَا تَكُونُ مُتَوَاكِلًا، فَفَرَّقُ بَيْنَ التَّوَكَّلِ وَالتَّوَكُّلِ، أَفْعَلِ الْأَسْبَابَ، هَذَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ الْأَسْبَابَ الْجَاذِبَةَ لِلْخَيْرِ الدَّافِعَةَ لِلشَّرِّ.

إذن: ابْتَغُوا فَضْلَ اللَّهِ، وَأَفْعَلُوا السَّبَبَ؛ فَإِنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، وَإِنَّمَا يَأْتِي الرِّزْقُ بِطَلَبِ الْإِنْسَانِ، وَالْأَمْرُ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى أَمْثَلَةٍ، وَإِلَّا لَمَثَلْنَا بِمِثَالٍ مِنْ أَقْرَبِ مَا يَكُونُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدَّرَ لِي وَلِدًا فَسَيَأْتِينِي، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ، نَقُولُ: هَذَا كَلَامٌ رَجُلٍ مَجْنُونٍ؛ إِذْ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيكَ الْوَلَدُ وَأَنْتَ لَمْ تَتَزَوَّجْ؟! مَا عَلِمْنَا أَنَّ الْأَوْلَادَ تَنْبُتُ مِنَ الصَّلَاتِ أَبَدًا، وَلَكِنْ تَأْتِي بِفِعْلِ أَسْبَابِهَا كَالزَّوْجِ مِثْلًا، وَهَكَذَا أَيْضًا الرِّزْقُ يَحْتَاجُ إِلَى طَلَبِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وَجُوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ هَذِهِ النِّعَمَ وَسَخَّرَهَا تَسْخِيرًا لَنَا لِنُقُومَ بِشُكْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الشُّكْرَ مَوْضِعُهُ اللِّسَانُ وَالْقَلْبُ وَالْجَوَارِحُ.



الآيتان (١٣، ١٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا تَسْمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِنْ ثَمَرٍ خَيْرٍ ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

•••••

ثم قال الله سبحانه وتعالى مبيِّناً تمام قدرته ونعمته أيضاً، قال: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣].

قال المفسر رحمه الله: ﴿ يُولِجُ ﴾ يُدْخِلُ اللهُ ﴿ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ فيزيد ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿ فِي اللَّيْلِ ﴾ فيزيد [انتبه لكلام المفسر رحمه الله هل يوافق الظاهر أو لا؟ قال: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ فيزيد] ما الذي يزيد؟

الجواب: لا شك أن الليل إذا دخل على النهار زاد الليل، وإن كان يعود على أقرب مذكور وهو ﴿ النَّهَارَ ﴾ فيزيد، فهذا فيه نظر، لكن توجيه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ أن شيئاً من الليل يكون جزءاً من النهار هذا توجيهه، فإذا كان شيئاً من



اللَّيْلِ جزءًا من النَّهَارِ معناه زاد النَّهَارِ؛ يعني: كأنه يقول مثلًا: (دَخَلَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ فصار نهارًا) وحينئذ يزد النَّهَارُ، والعكس بالعكس، لكن الظاهر من الآية الكريمة أنه يدخل اللَّيْلُ في النَّهَارِ فيكون جزءٌ من النَّهَارِ ليلاً، الآن لو قلت: (أَدْخَلْتُ هذه السَّاقِيَةَ في هذه الأَرْضِ) الجزء الذي دخل من السَّاقِيَةَ جَعَلَ الأَرْضَ سَاقِيَةً.

إذن: (أَدْخَلْتُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ) جَعَلْتُ جزءًا من النَّهَارِ ليلاً، وحينئذ يكون اللَّيْلُ هو الذي يطول.

إيلاج اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وإيلاج النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ لا شكَّ أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الحَلْقَ لو اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُوجِئُوا جُزْءًا يَسِيرًا مِنَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ أَوْ بالعكسِ ما اسْتَطَاعُوا أَبَدًا، ثم هذا الإيلاجُ أيضًا إيلاجُ بِنِظامٍ؛ أَي: إِنَّهُ يَأْتِي شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تَتَكَيَّفَ طِبَاعُ البَشَرِ لِهَذَا الإيلاجِ.

ما ظَنُّكُمْ لو أَنَّ اللَّيْلَ جاءَ بِنِهايَتِهِ دَفْعَةً واحِدَةً؛ يعني مثلًا: اليوم صار اللَّيْلُ ثمانِي سَاعَاتٍ وَخَمْسًا وَثلاثين دَقِيقَةً، فِي اللَّيْلَةِ القادِمَةِ صارَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً وَخَمْسَ دَقائِقَ، ماذا تكون حال النَّاسِ؟

الجواب: تَضَطَّرِبُ، لِكِنَّهُ عَزَّجَلَّ يُوجِئُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، هذا من جهة الاضطرابِ، ومن جهةٍ أُخرى لو أوجِهَ هكذا دَفْعَةً، ومعلومٌ أَنَّ سَبَبَ طُولِ النَّهَارِ قُرْبُ الشَّمْسِ مِنْ مُسامكةِ الرُّؤوسِ، وإذا قارَبَتِ الشَّمْسُ مِنْ مُسامكةِ الرُّؤوسِ فلا بُدَّ أَنْ تكونَ شديدةَ الحرارة؛ مَعْنَى ذلك أَنَّ يكونَ هذا اليَوْمُ هذا في عِزِّ الشَّتاءِ، واليوم الذي يليه في عِزِّ الصَّيفِ، وهذا صَرَرٌ عَظِيمٌ، لِكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوجِئُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وهذا من تمامِ القُدْرَةِ والحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ.

أيضًا إيلاجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وبالعكسِ له تأثيرٌ عَظِيمٌ عَلَى الجَوِّ؛ لِأَنَّ الجَوَّ يَنْقَلِبُ

من باردٍ شديدٍ على طول الزمّنِ إلى حارٍّ شديدٍ على طول الزمّنِ أيضًا، معلومٌ أنّ هذه الحرارة الشديدة تقتل من الجراثيم الضّارة ما لا يعلمُ به إلا الله عزّوجلّ؛ ولهذا نضربُ مثلًا بسيطًا كلُّنا نُشاهدُه: البعوضُ إذا اشتدَّ الحرُّ مات لم يبقَ له أثرٌ؛ ولهذا أكثر ما يكثر في الزمّن الذي بين الحرِّ والبرودة الشّتاء، كذلك شدّة البرودة تقتل الجراثيم التي تعيش على الحرارة، ولا يعلمُ بها إلا الله عزّوجلّ؛ ومن ثمّ قال العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ: إنّ أكثر أهل الأرضِ أمراضًا هم الذين على خطِّ الاستواء وما قاربه؛ إذ ليس عندهم شتاءٌ يقتلُ أو صيفٌ حارٌّ يقتل أيضًا، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ أيضًا.

إذن: إيلاج الليل في النهار فيه عدّة حكم؛ ولهذا بيّنه عزّوجلّ فقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

قوله عزّوجلّ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ الشَّمْسُ معروفةٌ، والقمرُ معروفٌ، سَخَّرَهُمَا؛ أي: ذلّلَهُمَا لمصالح العباد؛ فإنّ في الشَّمْسِ والقمرِ من المصالح العظيمة للعباد ما يعرفه أهل العلم رَحِمَهُمُ اللهُ بهذا الشأن، وهذه الشَّمْسُ والقمرُ ما بين الله لنا ثقلَهُما ولا حَجْمَهُما؛ لأنّ ذلك ليس بالعلم النافع الكثير لنا، فالجهلُ به لا يضرُّ، والعلمُ به من فضول العلم، إن لم يشغلك عما هو أهمُّ منه فاشتغل به، إنّما بين المصالح التي تترتب على تسخير الشَّمْسِ والقمرِ، فقال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فبالشَّمْسِ يكون النهارُ والليلُ، ويكون أيضًا نضجُ الثمار، وتكون الأنوار العظيمة، ما رأيكم مثلًا ماذا يتوفّر للعالم من الطّاقة بعد خُروج الشَّمْسِ؟

الجواب: كثيرٌ لا يُحصى؛ لأنّها تُوفّر الكهْرُبَاءَ، وتوفّر أيضًا تليين الأشياء التي تحتاج إلى تليين وحرارة، ثم إنّهم في الأزمنة الأخيرة صاروا يُنتجون من حرارة الشَّمْسِ طاقةً كبيرةً عظيمةً، أمّا القمرُ فسُخِّرَ لنا أيضًا بما يحصل من نُوره في الليل،

وبما يَحْضُلُ منه من العِلْمِ بِالْحِسَابِ وَعَدَدِ السِّنِينَ، وما إلى ذلك.

وإن شئتم مزيداً من هذا فراجعوا كِتَابَ (مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ)<sup>(١)</sup> لابن القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ؛ حيث ذكر من فوائِدِ الشَّمْسِ والقَمَرِ أَشْيَاءَ عَظِيمَةً كَبِيرَةً، وذكر غَيْرُهُ أَيْضًا ذلك، لكن يَجِدُ الإِنْسَانَ الفَرَقَ بين بَحْثِ ابْنِ القَيِّمِ مثلاً وبَحْثِ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ؛ لأنَّ عُلَمَاءَ الطَّبِيعَةِ يَنْظُرُونَ إلى هذه الأَشْيَاءِ من زاوِيَةِ مُظْلِمَةٍ حَالِكَةٍ مادِّيَّةٍ مُحْضَةٍ لا يَتَرَبَّى فيها الإِنْسَانُ تَرْبِيَةً دِينِيَّةً ولا يَعْرِفُ بها قُدْرَةَ اللهِ وَنِعْمَتَهُ، لكن إذا تَكَلَّمَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في ذلك يَعْقِلُ أَنَّ هذا دائِماً بِرَحْمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، فيجد الإِنْسَانَ مع عِلْمِهِ بهذا الفَنِّ والعُلُومِ، يَجِدُ مع ذلك خَشِيَّةً لَهِ عَزَّوَجَلَّ، وَنَعْظِيماً لَه، وَمَحَبَّةً لَه.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا﴾ ﴿مِنْهَا﴾ ﴿يَجْرِي﴾ ﴿فِي فَلَكَهٖ﴾ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [كلٌّ؛ أي: كُلُّ من الشَّمْسِ والقَمَرِ يَجْرِي؛ يعني: يسير في فَلَكَهٖ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، الفَلَكَ شَبَّهَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: بِفَلَكَهٖ المِغْزَلِ<sup>(٢)</sup>، وَفَلَكَهٖ المِغْزَلُ عِبَارَةٌ عن فُرْصٍ في أعلاه، وفي أسْفَلِهِ عودٌ يَنْطَوِي عليه الحَبْلُ الذي يَغْزَلُ، هذه تدور؛ لأنَّ المرأةَ التي تَغْزَلُ تَبْرُمُه هكذا حتى يدورَ وَيَحْكُمُ الحَبْلُ، فالفَلَكَ هذا؛ للشَّمْسِ فَلَكَ تدور به، وللْقَمَرِ فَلَكَ يدور به.

وفي إسنادِ الجَرَيَانِ إلى كُلِّ مِنْهَا دليلٌ على أَنَّهما يَسيرانِ بِذاتِهما، ويدوران على الأَرْضِ، وهذا شَيْءٌ مُّشَاهِدٌ أَنَّ الشَّمْسَ تدور على الأَرْضِ وكذلك القَمَرُ، وما ادَّعاه عُلَمَاءُ الهَيْئَةِ من أَنَّ الأَرْضَ هي التي تدور، والشَّمْسُ لا تدورُ نحو الأَرْضِ فَإِنَّا نَكْذِبُه حتى يقومَ لنا دليلٌ حَسْبِيٌّ يكون لنا حُجَّةً أمامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الخُرُوجِ عن ظاهِرِ كَلَامِهِ.

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٠٧-٢١١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/٤٤٠-٤٤١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٦/٥١٥).

وإلا فالواجب علينا نحو هذه الأمور ألا نخرج عن ظاهر كلام الله؛ لأن الله تعالى هو الخالق، والخالق أعلم بما خلق من غيره، وهذا مسلم، ولأن كلام الله عزَّجَلَّ أَوْضَحُ الكَلَامِ وَأَبْيَنُهُ، فلا يُمَكِّنُ أن يكون فيه شيءٌ من التَّعْقِيدِ لا اللَّفْظِيِّ ولا المَعْنَوِيِّ، فهو واضحٌ في معناه وظاهرٌ؛ ولأنَّ كَلَامَ اللهِ عزَّجَلَّ أَصْدَقُ الكَلَامِ، فلا يُمَكِّنُ أن يُخْبِرَنَا اللهُ عزَّجَلَّ بأمرٍ لم يكن، أو بأمرٍ يكونُ الواقعُ على خلافه؛ ولأنَّ اللهُ عزَّجَلَّ أَحَبُّ أَحَدٍ يكونُ البَيَانُ إليه؛ يعني أَنَّهُ يُحِبُّ البَيَانَ لعباده أَكْثَرَ من أي أَحَدٍ، وقرأ قوله تعالى: ﴿يَبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، وما أشبهها من الآيات الدالَّةِ على أنَّ اللهُ عزَّجَلَّ يريدُ أن يُبَيِّنَ لعباده ما يَهْتَدُونَ به، فإذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو أَحَبُّ من تكلَّم بالبيان، أو هو أَحَبُّ من يكونُ البَيَانُ إليه أَحَبَّ، وهو اللهُ عزَّجَلَّ، فإنَّ اللهُ تعالى لا يُمَكِّنُ أن يقول في كَلَامِهِ ما ليس فيه بيانٌ لنا.

إذن: فنحن نكذبهم ونقول: كذبتُم أن يكون تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الأرض، بل تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الشمس على الأرض، ولا غرابة بذلك، هم يقولون: كيف أن الكبير يدور على الصغير، نقول: ليس هناك مانع، نحن معكم أن الشمس أكبر من الأرض، لكن ما المانع من أن يكون الجرم الكبير هو الذي يدور على الصغير؟!

ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدنا أن الله سبحانه وتعالى يضيف هذه الحركة إلى الشمس نفسها، وكذلك إذا نظرنا إلى السنة، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورُ عَنْ كَهْفِهَا ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]، وفي القرآن يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي: الشمس، وفي القرآن يقول: ﴿وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٤﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ بَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ﴿١٢﴾ مثل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهذه خمسة مواضع كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالُ تَقَعُ مِنَ الشَّمْسِ.

لو كان هذا يأتي بدوران الأرض لقال: (وترى الشمس إذا طلّعت عليها)؛ لأنّه إذا دارت الأرض، فنحن الذين نطلّع على الشمس، وليست الشمس هي التي تطلّع علينا.

وأما قولهم: إن هذا خطابٌ إلى الناس بما يُشاهدونه بأعينهم والأمر على خلافه، يعني: إذا طلّعت حسَبَ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ، وفي الواقع أننا نحن الذين نطلّع عليها فبماذا نجيبهم؟

نقول: هذا خلاف ظاهر اللفظ، ولا يُمكن أن نحيد عن هذا الظاهر إلا بدليل محسوس يُمكننا أن نحتج به أمام الله عزّوجلّ؛ لأنّ الله سيُحاسبنا يقول: لماذا عدلتم عن كلامي إلى كلامٍ غيري؟ والخطاب من الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَتِ تَرْوَرٌ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧] تَزَاوَرُ؟ أَي: تَمِيلُ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بِدَوْرَانِ الْأَرْضِ لَكَانَتِ الْأَرْضُ هِيَ الَّتِي تَمِيلُ ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ﴾ ﴿لَوْ كَانَ هَذَا بِدَوْرَانِ الْأَرْضِ لَكَانَتِ الْأَرْضُ هِيَ الَّتِي تَغْرُبُ عَنِ الشَّمْسِ.

أما في السنة فقد قال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟»<sup>(١)</sup>، فأسند الذهاب إليها عندما غربت، ولو كانت الأرض هي التي دارت حتى اختفت الشمس لكان يقول: أتدري أين تذهب الأرض مثلاً.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (٢٥٠/١٥٩).

والحاصل: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا وَجُوبًا أَنْ نَأْخُذَ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَأَنَّ الشَّمْسَ هِيَ التي تدورُ على الأرضِ وَأَنَّهُ بِدَوْرَانِهَا يَحْضُلُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، هَذَا الْوَاجِبُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَحِيدَ عَنْ هَذَا أَبَدًا إِلَّا إِذَا قَامَ الدَّلِيلُ الْحَسِيُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُ التَّأْوِيلُ وَصَرَفُ الْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ؛ لِأَنَّنا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُجَالِفُ الْوَاقِعَ، أَمَّا شَيْءٌ يَقُولُونَهُ بِأَوْهَامِهِمْ وَيَقَدِّرُونَهُ، فَإِنَّا لَا نُؤَافِقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَسَعُ الْمُؤْمِنَ أَنْ يَحِيدَ عَنْ ظَاهِرِ كَلَامِ اللَّهِ لِمُجَرَّدِ قَوْلِهِمْ أَبَدًا.

أَمَّا مَسْأَلَةُ الْأَرْضِ هَلْ تَدُورُ أَوْ لَا تَدُورُ؟

فَنَحْنُ نَقُولُ: لَا نَصَدِّقُ وَلَا نَكْذِبُ؛ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا دَوْرَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لِلشَّمْسِ دَوْرَةٌ، هُمْ يَقُولُونَ: إِذَا أَقْرَرْتُمْ بِدَوْرَانِ الْأَرْضِ لَزِمَكُمْ أَنْ تَقُولُوا: إِنَّ الشَّمْسَ ثَابِتَةٌ، فَنَقُولُ لَيْسَ ذَلِكَ بِلَازِمٍ، يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلشَّمْسِ دَوْرَةٌ، وَلِلْأَرْضِ دَوْرَةٌ أُخْرَى، وَلَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا نَقُولُ: إِنَّ الْكَلَامَ فِي دَوْرَانِ الْأَرْضِ مِنْ فُضُولِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُضَيِّعَ وَقْتَهُ بِهِ إِلَّا رَجُلًا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ؛ كَمَا يُذَكِّرُ أَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي الصَّوَارِيخِ الْمَوْجَّهَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِهِ، فَحِينَئِذٍ إِذَا احْتَاجَ إِلَيْهِ فَلَا حَرَجَ أَنْ يَبْحَثَ فِيهِ.

أَمَّا إِذَا لَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ فَنَقُولُ: هَذَا مِنْ ضَيَاعِ الْوَقْتِ، وَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا تَدُورُ؟ أَوْ لَا تَدُورُ، أَحْمَدُ اللَّهِ أَنْ جَعَلَهَا قَرَارًا سِوَاءَ كَانَتْ تَدُورُ أَوْ لَا تَدُورُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَامَ الْعَاقِبَةِ؛ أَي: كُلُّ يَجْرِي حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى هَذَا الْأَجَلِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ بِمَعْنَى (إِلَى) كَمَا جَاءَتْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَرِيَانِ غَايَتَيْنِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، هَذِهِ الْغَايَةُ

فَسَّرَهَا الْمُفَسِّرُ رَحْمَةً لِلَّهِ بِقَوْلِهِ: [يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: مُعَيَّنٍ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَهُ وَلَيْسَ مَعْلُومًا عِنْدَنَا.

إِذَنْ: فَهَذِهِ الشَّمْسُ وَهَذَا الْقَمَرُ لَيْسَا أَبَدِيَّيْنِ، لَكِنَّهُمَا دَائِبَانِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أَي: مُسْتَمَرِّيْنِ، لَكِنْ لَهَا أَجَلٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾ هَلِ الْإِشَارَةُ تَعُودُ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنَ التَّسْخِيرِ وَالْجَرِيَانِ، أَوْ تَعُودُ إِلَى الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ﴾؟

الجواب: الثاني، إذ ذلکم المُسَخَّرُ اللهُ، فالمُشارُ إليه الآن مُفْرَدٌ مذكَّرٌ، والمخاطبُ جماعةٌ ذُكُورٌ، لكن: ماذا يُراعى في اسمِ الإِشارةِ وكافِ الخطابِ؟ هل يُراعى المخاطبُ أو المُشارُ إليه؟

نقول: أمَّا اسمُ الإِشارةِ فِيراعى فيها المُشارُ إليه، وأمَّا الكافُ فِيراعى فيها المخاطبُ، فإذا أَشَرْتَ إِلَى رَجُلَيْنِ مُحاطِبًا جماعةً إناثٍ فَإِنَّكَ تقول: (ذانِكنَّ)، ف(ذان) تخاطبُ ذَكَرَيْنِ، و(كنَّ) تُخاطبُ جماعةً إناثٍ، وفي القرآنِ قالَتْ: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] لكن هنا في الآية: المُشارُ إليه مُفْرَدٌ مذكَّرٌ، وإذا خاطبتَ جماعةً ذُكُورٍ مُشيرًا إلى جماعةٍ إناثٍ فَإِنَّكَ تقول: (تلكنم) أو (أولئكنم).

وهلِ الْأَفْصَحُ فِي الْمَخاطِبِ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَلَى حَسَبِ الْمَخاطِبِ؛ يَعْنِي: جماعةٌ ذُكُورٍ إِذَا كانِ الْمَخاطِبُ جماعةً ذُكُورًا، وجماعةٌ إناثٍ إِذَا كانِ الْمَخاطِبُ جماعةً إناثٍ، مُثنى إِذَا كانِ الْمَخاطِبُ مُثنىً، مُفْرَدٌ مُفتوح إِذَا كانِ الْمَخاطِبُ مُذَكَّرًا، مُفْرَدٌ مَكسُورٌ إِذَا كانِ الْمَخاطِبُ مُؤنثًا، أو الْأَفْصَحُ أَنْ يَكُونَ بِلَفْظِ الْإِفرادِ دائِمًا؟

نقول: فيه ثلاث لغات:

أولاً: أن يكون باعتبارِ المخاطبِ مُطلقاً.

ثانياً: أن يكون بالفتحِ دائماً.

ثالثاً: أن يكون بالفتحِ لمفردٍ في المذكرِ وبالكسرِ لمفردٍ في المؤنثِ مُطلقاً.

فهذه ثلاث لغات:

اللغة الأولى: وهي المشهورة الفصحى؛ أن تكون الكاف بحسبِ المخاطبِ مُطلقاً، تُخاطبُ مفرداً مُذكراً تقول: (ذلك)، مفردة مؤنثة: (ذلك) مثني (ذلكما) جماعة ذكور: (ذلكم جماعة)، إناث: (ذلكن) هذا الأصح.

ثانياً: أن تجعله مفرداً مفتوحاً في المذكرِ مُطلقاً فتقول: (ذلك) سواء كنتِ تخاطبُ مفرداً أو مثني أو جمعاً لكن بشرط أن يكون مُذكراً، وتقول في المؤنث: (ذلك) سواء كنتِ تخاطبُ واحدةً أو مثني أو جماعةً.

ثالثاً: أن تجعله مفتوحاً بصيغة المذكرِ دائماً أيّاً خاطبتِ، فتقول: (ذلك) سواء كنتِ تخاطبُ رجلاً، أو امرأةً، جماعةً، أو مثني، أو مفرداً.

هنا يقول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشار إليه مفردٌ مُذكّرٌ، والمخاطبُ جماعةٌ؛ لأن الله يُخاطبُ الناسَ جميعاً.

﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الربُّ يُطلق على معانٍ كثيرة في اللغة العربية:

منها: الخالق، المالك، المدبّر.

فالربوبية معناها أن الله تعالى خالقُ مالكِ مُدبّرٌ؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾



فهذه جُمْلَةٌ خَيْرِيَّةٌ قُدِّمَ فِيهَا الْحَبْرُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَضْرِ؛ يَعْنِي: لَهُ وَحْدَهُ الْمَلِكُ دُونَ غَيْرِهِ، الْمَلِكُ الْمَطْلُوقُ الشَّامِلُ لِلَّهِ وَوَحْدَهُ، مَلِكُ الذَّوَاتِ وَالْأَعْيَانِ، وَمَلِكُ التَّصَرُّفِ فِي هَذِهِ الْأَعْيَانِ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ، وَهُوَ الْمُتَّصِرُّ فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ.

فَإِذَا قُلْتَ: كَيْفَ يَصِحُّ الْحَضْرُ مَعَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَثَبَّتَ الْمَلِكُ لِغَيْرِهِ فَقَالَ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] وَقَالَ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّمَّا كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [النور: ٦١]، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكُتُبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، فَأَثَبْتَ الْمَلِكُ لِغَيْرِهِ وَأَنْتَ تَقُولُ: إِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِيهَا حَضْرٌ؟

فالجواب من وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ مَلِكَنَا لَيْسَ مَلِكًا مُطْلَقًا، بَلْ هُوَ مَلِكٌ مُقَيَّدٌ بِحَسَبِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنَا مِثْلًا مَالِكٌ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، لَكِنْ لَا أَمْلِكُ أَنْ أُتْلِفَهَا؛ لِأَنَّهُ حَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أُتْلِفَهَا، مَالِكٌ لِهَذَا الْبَعِيرِ مِثْلًا، لَكِنْ هَلْ أَمْلِكُ أَنْ أُعَذِّبَهُ؟ هَلْ أَمْلِكُ أَنْ أُجْرَحَهُ؟

الجواب: لا، لا أَمْلِكُ هَذَا إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ الشَّرْعِ؛ وَهَذَا لَمَّا أَذِنَ الشَّرْعُ بِوَسْمِ الْبَعِيرِ مَعَ أَنَّهُ مُؤْذٍ لَهَا وَمُؤْلِمٌ جاز، وَلَمَّا أَذِنَ بِإِشْعَارِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ فِي الْهَدْيِ جاز.

وَالْإِشْعَارُ هُوَ أَنْ يُشَقَّ السِّنَامُ بِالسَّكِينِ فِي الْهَدْيِ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ عَلَى الشَّعْرِ وَالْجِلْدِ، وَالْفَائِدَةُ مِنْ هَذَا لِيُعْرَفَ أَنَّ هَذِهِ هَدْيٌ؛ وَهَذَا نَحْنُ نُشْعِرُ الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ، وَنُقَلِّدُ الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمَ، فَالغَنَمُ لَيْسَ فِيهَا إِشْعَارٌ، بَلْ فِيهَا تَقْلِيدٌ فَقَطْ، وَالتَّقْلِيدُ أَنَّنَا نَضَعُ عَلَيْهَا قِلَادَةً فِي الْعُنُقِ، نُعَلِّقُ فِيهَا النَّعَالَ الْقَدِيمَةَ الْمُتَقَطَّعَةَ، وَأَذَانَ الْقَرَبِ (وَاحِدَهَا قِرْبَةٌ) يَعْنِي: قِطْعَ الْقَرَبِ لَتُعَلَّقَ بِهَا، نُعَلِّقُهُ عَلَى هَذَا الْبَعِيرِ أَوْ الْبَقَرَةِ أَوْ الشَّاةِ لِيُعْرَفَ أَنَّهَا هَدْيٌ؛ لِأَنَّ النَّعَالَ الْمُتَقَطَّعَةَ وَقِطْعَ الْقَرَبِ تُدَلُّ عَلَى الرَّثَائَةِ وَالْفَقْرِ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذِهِ لِلْفُقَرَاءِ، وَالْقَصْدُ أَنَّ مَلِكَنَا لِلشَّيْءِ مُقَيَّدٌ.

ثانياً: أَنَّهُ مَلِكٌ قَاصِرٌ؛ يعني: ليس شامِلاً، فأنا مثلاً أملك هذه الحقيقة، لكن أنت لا تملكها، وأنت تملك هذا الكتاب، وأنا لا أملكه، إذن فهو ملكٌ قاصِرٌ لا يتعدى، أمّا ملك الله عزَّجَلْ فَإِنَّهُ مَلِكٌ مُطْلَقٌ يَتَصَرَّفُ فِي مُلْكِهِ كَمَا يَشَاءُ، وهو ملكٌ عامٌّ شامِلٌ، والله عزَّجَلْ يُنْزِلُ الْأَمْرَاضَ وَيُنْزِلُ الْجُرُوحَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، وقد يبتي الله الإنسانَ فتَظْهَرُ فِيهِ جُرُوحٌ تُؤَلِّهُ، وتُرْعِجُهُ وتُظْهِرُ الْأَلَمَ فِي أَعْصَابِهِ وَفِي عِظَامِهِ، لو أن أَحَدًا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لَكَانَ مَمْنُوعًا وَلَا يَجُوزُ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

إذن: الله هو الرَّبُّ، وهو الذي له المُلْكُ، وهذا الملكُ أيضًا شامِلٌ لِلْأَعْيَانِ وَالذَّوَاتِ، وشامِلٌ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا، ومنه التَّصَرُّفُ فِي الْحُكْمِ، فالأحكامُ الشَّرْعِيَّةُ لَا تُتَلَقَّى إِلَّا مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَيَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ وَنُطَبِّقَ جَمِيعَ أَحْكَامِ اللَّهِ سِوَاءِ كَانَتْ فِي الْعِبَادَاتِ أَوْ فِي الْمَعَامَلَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ، يَجِبُ أَنْ نُطَبِّقَ الْجَمِيعَ.

فإن قال أحدٌ من النَّاسِ: العِبَادَةُ حَقُّ اللَّهِ، فَهِيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَلَا أَتَجَاوَزُ مَا شَرَعَ، وَالْمَعَامَلَةُ حَقُّ الْإِنْسَانِ، لَهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ الشَّرْعَ فِيهَا، فَأَنَا لِي أَنْ أَعْدِلَ عَنِ شَرِيعَةِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ الطَّوَاغِيَةِ؟ فَمَثَلًا الْعِبَادَةُ حَقُّ اللَّهِ الْخَاصُّ، لَا يَجُوزُ لِي أَنْ أَتَصَرَّفَ فِيهَا، أَمَّا الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ فَلِمُصْلَحَتِي أَنَا، فَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ يَتَّفِقُ مَعَ الْمَصْلَحَةِ وَالْكَسْبِ فلي أن أفعله، سواء كان ربًّا أو غشًّا أو مكرًّا... إلخ، فهل يجوز ذلك أو لا يجوز؟! فهو يقول: الْمَسْجِدُ لِلَّهِ، وَالْوَطَنُ لِلشَّعْبِ أَوْ لِلْجَمِيعِ.

فالجواب: أن نقول: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ ليس لأحدٍ مُلْكٌ، الْمُلْكُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ يَتَصَرَّفُ فِي هَذَا الْمُلْكِ كَمَا يَشَاءُ حَلًّا وَحُرْمَةً وَإِجَابًا، وَلَا أَحَدٌ يَتَدَخَّلُ فِي ذَلِكَ، وَالَّذِي يَقُولُ هَذَا وَيَعْمَلُ بِالشَّرْعِ فِي الْعِبَادَاتِ وَيُنْكَرُ الشَّرْعَ فِي الْمَعَامَلَاتِ

نقول: إِنَّهُ كَافِرٌ مُّرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ.

ولا يجوز إقراره على هذا الشيء؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فالإيمان ببعض الرُّسُلِ دون بعضِ كالأيمان ببعضِ الشريعة دون بعضٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ تَجْزِئَةٌ فِي الرُّسُلِ، وهذا تَجْزِئَةٌ فِي الْمُرْسَلِ بِهِ وَلَا فَرْقَ؛ فالذي يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضِهِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ؛ لأنَّنا نقول: لو سَلَّمْتَ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ شَرْعَهُ مَا كَفَرْتَ بِهِ، فَإِذَا كَفَرْتَ بِهِ فَهُوَ كَفَرٌ بِالْجَمِيعِ، وَشَرَعُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَّبَعُ.

ومن هنا نأخذ حُطُورَةَ الْأَمْرِ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُحْكَمُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ غَيْرَ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَيَرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْقَوَانِينَ الْوَضْعِيَّةَ الطَّاغُوتِيَّةَ أَفْضَلُ مِنْ شَرْعِ اللَّهِ، وَأَقْوَمُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِمَصَالِحِ عِبَادَةِ اللَّهِ مِمَّا شَرَعَهُ اللَّهُ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ.

وهذا بلا شكَّ نَقْصٌ فِي عُقُولِهِمْ، وَذَهَابٌ لِأَدْيَانِهِمْ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْوَضْعُ الطَّاغُوتِيُّ الْمُحَدَّثُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْعَقْلِ الْقَاصِرِ أَفْضَلَ وَأَنْفَعًا لِلْعِبَادَةِ مِنْ شَرْعِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمْ وَأَحْكَمُ بِمَا يُرْشِدُهُمْ!؟

أَيُّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ عَقْلٌ - فَضْلاً أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ - لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَدُورَ فِي فِكْرِهِ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الْوَضْعِيَّةَ الْمُخَالَفَةَ لِشَرْعِ اللَّهِ خَيْرٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ شَرْعِ اللَّهِ إِلَّا مُحِبَّلاً وَمَجْنُونًا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَمَا ذَلِكَ بِغَرِيبٍ عَلَى بَنِي آدَمَ؛ فَالَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَحْجَارَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ فِي السَّفَهَةِ، هَؤُلَاءِ أَيْضًا عَبَدُوا آرَاءَ غَيْرِهِمْ وَقَدَّمُوهَا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ.

وَالْقَوْلُ بَأَنَّ (الدِّينَ لَهِ وَالْوَطْنَ لِلخَلْقِ) هَذَا خَطَأً فَادْرُجْ، بَلْ يُقَالُ: (الدِّينُ لَهِ وَالْبِلَادُ لِلَّهِ)؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وليست لك، الأَرْضُ لِلَّهِ، وَالشَّعْبُ لِلَّهِ، وَالدِّينُ لِلَّهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ لِلَّهِ، وَإِذَا كَانَ لِلَّهِ فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسِيرَ عَلَى هَدْيِ اللَّهِ.

قَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ الْوَائِئِمَّا اسْتِثْنَائِيَّةٌ وَإِمَّا عَاطِفَةٌ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْجُمْلِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ﴿وَالَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَجُمْلَةٌ ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خَبَرُهَا.

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَالَّذِينَ نَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَيَّ غَيْرِهِ وَهُمْ الْأَصْنَامُ].

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَعْبُدُونَ] لِأَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةً، وَالْعَابِدُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ قَدْ تَتَضَمَّنَ عِبَادَتَهُ الدُّعَاءَ كَالصَّلَاةِ مَثَلًا؛ فِيهَا دُعَاءٌ وَهُوَ عِبَادَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ دُعَاءً بِلِسَانِ الْحَالِ؛ لِأَنَّ الْعَابِدَ يَرِيدُ الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ: الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ فَهُوَ لَا يُرِيدُ إِلَّا ذَلِكَ؛ إِذْ هَذَا بِلِسَانِ الْحَالِ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ، وَهَذَا يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾.

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَعْبُدُونَ] إِمَّا عِبَادَةٌ بِالْفِعْلِ؛ كَالرُّكُوعِ لِلصَّنَمِ، وَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، وَالدَّبْحِ لَهُ، وَالنَّذْرَ لَهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَوْ يَدْعُوهُ دُعَاءَ مَسْأَلَةٍ لَا دُعَاءَ عِبَادَةٍ، فَيَأْتُونَ إِلَى الصَّنَمِ إِلَى الْقَبْرِ، وَيَسْأَلُونَهُ حَاجَتِهِمْ، وَيَسْتَعِيثُونَ بِهِ، فَشَمِلَ

قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، ودُعَاءُ الْعِبَادَةِ، وقلتُ: إِنَّ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ لَكِنْ بِلِسَانِ الْحَالِ.

كيف يدعون هؤلاء؟ أقول: يدعون هذه الأصنام على وجهين:

إمَّا بدُعَاءِ مَسْأَلَةٍ، وإمَّا بدُعَاءِ عِبَادَةٍ، ودُعَاءُ الْعِبَادَةِ دُعَاءُ بِلِسَانِ الْحَالِ.

قول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غَيْرِهِ، وهم الأصنام] الأصنام تارة يُعْبَرُ اللهُ عنها بِصِيغَةِ الْمُؤَنَّثِ، وتارة يُعْبَرُ عنها بِصِيغَةِ الْمَذْكَرِ، هنا عَبَّرَ عنها بِصِيغَةِ الْمَذْكَرِ الْعَاقِلِ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ هذا للمُذْكَرِ الْعَاقِلِ، وإِنَّمَا وَصَفَ هَذِهِ مَعَ أَتَمِّهَا جَمَادٌ مَيِّتَةٌ لِلتَّنَزُّلِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ لَهَا وَذَكَرَهَا عَلَى أَكْمَلِ حَالٍ يَعْتَقِدُونَهَا فِيهَا؛ يعني: هي مع كمالها على زعمكم لكونها من ذوات العقل لا تملك شيئاً.

قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾: ﴿مِنْ زَائِدَةٍ؛ ولهذا نقول: ﴿قِطْمِيرٍ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ بِفَتْحَةِ مُقَدَّرَةٍ عَلَى آخِرِهِ مَنَعَ مِنْ ظَهُورِهَا اسْتِغْثَالُ الْمَحَلِّ بِحَرَكَةِ حَرْفِ الْجَزْرِ الزَّائِدِ؛ أي: ما يملكون قطميراً.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿قِطْمِيرٍ﴾: لِفَاقَةِ النَّوَاةِ] إِنَّ فِي النَّوَاةِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْحَقَارَةِ: قِطْمِيرٌ، وَنَقِيرٌ، وَفَتِيلٌ.

ويدلُّ على هذا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾: ﴿إِنْ﴾ هَذِهِ شَرْطِيَّةٌ، وَفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ وَهُوَ مَجْزُومٌ بِحَذْفِ النُّونِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ وَهُوَ مَجْزُومٌ أَيْضًا بِحَذْفِ النُّونِ؛ يعني: هذه الأصنامُ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، لَوْ تَدْعُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا سَمِعُوا؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ، قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [فَرَضًا

﴿مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ما أجابوكم] يعني: لو سَمِعَتْ هذه الأَصْنَامُ دُعَاءَكم ما استجابت لكم؛ أي: ما أجابتكم سواءً إن قلتم: يا لات يا عَزَّى، يا مَنَاة، يا يَعُوق، يا يَعُوث، يا نَسْر، لو سَمِعَتْ هذا الدُّعَاءَ هل تُجيبُكم وتقول: نعم، ماذا تريدون؟

الجواب: لا، ولا تُعطيكم المَطْلُوبَ أيضًا، حتى لو سَكَتت ما أَوْصَلت المطلوبَ إليكم؛ ولهذا قال: ﴿مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لِيَشْمَلَ الاستِجَابَةَ بالقَوْلِ بأن تقولَ هذه الأَصْنَامُ: ماذا تريدون؟ والاستِجَابَةَ بالفعل وهي إيصالُ المَطْلُوبِ إلى هؤلاء الطَّالِبِينَ، فهي لا تَسْتَجِيبُ لا لهذا ولا لهذا.

قول المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿﴿أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾﴾ أي: أجابوكم] مثل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ أي: أجابهم وكقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَيْسَتْ جِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦] أي: فَلْيُجِيبُونِي، وأمثال هذا كثير؛ فالاستجابة هنا بمعنى الإجابة؛ أي: إن هذه الأَصْنَامَ لا تُجيبهم.

وزد على ذلك أنهم - كما قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ -: ﴿﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾﴾ بإشراككم إياهم مع الله؛ أي: يَتَبَرَّؤُونَ مِنْكُمْ ومن عبادتكم إياهم] إذ انتفى عنها إجابة الدُّعَاءِ، ومع ذلك لِيَتَّهَمُوا مِنْ شَرِّهِمْ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ في هذا المَوْقِفِ العظيم المشهور يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْكُمْ، وهذا غاية ما يكون من الخِذْلَانِ؛ لأنَّ النَّاسَ في يوم الْقِيَمَةِ يكونون فيه أَحْوَجَ ما يكونون إلى النَّصْرِ وَالْعِزَّةِ، وهؤلاء الأَصْنَامُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُذْهِمُ كما قال الله تعالى - وهذا يَقُولُهُ إبراهيم -: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

في هذه الآية يُبَيِّنُ اللهُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِعَابِدِيهَا، هَذَا وَاحِدٌ.

ثانِيًا: وَتَزِيدُ عَابِدِيهَا ذُلًّا وَخِذْلَانًا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُونَ فِيهِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَى الْعِزِّ وَالنَّصْرِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أَي: يُخْبِرُكَ. قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بِأَحْوَالِ الدَّارَيْنِ ﴿مِثْلُ خَيْرٍ﴾ عَالِمٌ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى]. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ هَذِهِ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ مَنْفِيَّةٌ؛ يَعْنِي لَا يُنَبِّئُكَ أَحَدٌ بِأَخْبَارِ هَؤُلَاءِ سِوَاهُ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ.

وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [بِأَحْوَالِ الدَّارَيْنِ] هَذَا وَاضِحٌ، فَهُوَ فَسَّرَهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ؛ يَعْنِي: لَا يُنَبِّئُكَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا يَكُونُ لِهَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ لَا يُنَبِّئُكَ أَحَدٌ مِثْلَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ بِالْأَحْوَالِ، وَسُئِلْنَا مِنَ الْخَيْرِ بِالْأَحْوَالِ؟

الجواب: الْخَيْرُ اللهُ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ سَارَتْ مَسْرَى الْمَثَلِ عِنْدَ الْعَرَبِ، إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُؤَكِّدُوا الشَّيْءَ قَالُوا: (لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلَ خَيْرٍ)، أَوْ أحيانًا يَقُولُونَ: (عَلَى الْخَيْرِ سَقَطَتْ) يَعْنِي: وَصَلَتْ إِلَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْ خِبْرَةٍ، إِذَا كَانُوا لَا يُنَبِّئُونَ مِثْلَ خَيْرٍ وَهُوَ اللهُ وَقَدْ أَنْبَأْنَا بِحَالِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ مَعَ عَابِدِيهَا فَهَلْ يَلِيقُ بِنَا عِبَادَتِهَا وَنَحْنُ عِقْلَاءُ؟!

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ فِي إِيْلَاجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَالْعَكْسِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَهْمَا عَظُمَتْ قُوَّتُهُ.

الفائدة الثانية: بَيَانُ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ لِأَنَّ فِي هَذَا الْإِيْلَاجِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مَا

لا يَحْضُلُ مع عَدَمِهِ، وقد ضَرَبْنَا مَثَلًا - فيما سبق - بالذَّيْنِ على خَطِّ الاستِواءِ الذين لا يزيد عندهم النَّهَارُ واللَّيْلُ، ماذا يكون عِنْدَهُم من الأَمْرَاضِ والفُتُورِ في الأَجْسامِ وَعَدِمِ النَّشَاطِ.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في تَسْخِيرِهِ الشَّمْسِ والقَمَرِ لمَصَالِحِ العِبَادِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَانُ هَاتِيْنِ الآيَتِيْنِ العَظِيْمَتِيْنِ وهُمَا الشَّمْسُ والقَمَرُ، واللَّيْلُ والنَّهَارُ أَيضًا، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ آيَنِيهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وظُهُورُ الآيَاتِ فِيهِمَا واضِحٌ لما فِيهِ من تَمَامِ الحِكْمَةِ والقُدْرَةِ والرَّحْمَةِ.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجْرِيانِ؛ أَي: يَسيرانِ؛ فِيهِما رُدُّ على أربابِ الهَيْئَةِ الجَدِيدَةِ الذين يَدْعون أَنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ لا يَجْرِيانِ على الأَرْضِ ولا يَدورانِ عَلَيْها.

ونحن قلنا: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِالظَّاهِرِ ما لم نَجِدْ دَلِيلًا يَقِينًا يَدُلُّ على أَنَّ هَذَا الظَّاهَرَ غَيْرُ مُرَادٍ، وَحِينَئِذٍ لَنَا مَسَاعٌ في مُخَالَفَةِ هَذَا الظَّاهِرِ.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَضْبُوطٌ ومُحَكَّمٌ ومُقَدَّرٌ في أَجَلٍ مُخَدُودٍ لا يَزِيدُ عَلَيْهِ ولا يَتَأَخَّرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وَهَذَا الأَجَلُ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ والقَمَرُ، يَقولُ المُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللهِ: [إِنَّهُ يَوْمُ القِيَامَةِ] وَيُمْكِنُ أَنْ نَقولَ: يَسيرانِ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى حَتَّى في الفَلَكِ، فمَثَلًا الشَّمْسُ تَنْزِلُ على مدارِ الجَدْيِ في أَيامِ الشِّتَاءِ، ثم تَنْقَلُ شَيْئًا فشيئًا إلى أَنْ تَصِلَ إلى مدارِ السَّرطَانِ، لا يُمكِنُ أَنْ تَتَجَاوَزَ هَذَا ولا هَذَا؛ لِأَنَّهَا تَسِيرُ إلى أَجَلٍ مُّعَيَّنٍ، فَكُلُّ يَوْمٍ مَحْدَدٌ مَكَانُ الطُّلُوعِ وَزَمَانُ الطُّلُوعِ، وَهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ سِيرٌ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى.



الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ فَاعِلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللَّهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفْعَلَهُ إِطْلَاقًا، فِيهِ إِبْطَالٌ لِقَوْلِ أَهْلِ الطَّبِيعَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَانَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْأَفْلاكِ، فَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَي: فَاعِلٌ هَذَا ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عَمُومُ مُلْكِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمَلِكُ﴾ وَ(أَل) هُنَا لِلْعُمُومِ، وَضَابِطُ (أَل) الَّتِي لِلْعُمُومِ أَنْ يَجَلَّ مَحَلَّهَا (كُلُّ)، فَإِذَا صَحَّ أَنْ يَجَلَّ مَحَلَّهَا (كُلُّ) فَهِيَ لِلْعُمُومِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فَإِذَا جُعِلَتْ بَدَلُ (أَل) كُلُّ تَصِيرُ (إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لِفِي خُسْرٍ)، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] إِذَا جُعِلَتْ بَدَلَهَا (كُلُّ) تَصِيرُ (خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ ضَعِيفًا)، وَهُنَا ﴿لَهُ الْمَلِكُ﴾ هَلْ يَصِحُّ أَنْ يَجَلَّ مَحَلَّهَا (كُلُّ)؟

الجواب: نعم، نقول: (له كُلُّ مُلْك).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اخْتِصَاصُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُلْكِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُ الْمَلِكُ﴾ حَيْثُ قَدَّمَ الْخَبَرَ، وَحَقُّهُ التَّأخِيرُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَثْنَاءِ التَّفْسِيرِ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ إِثْبَاتِ الْمُلْكِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَبَيَّنَّا أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ الَّذِي لِلَّهِ لَهُ شَأْنٌ وَالْمُلْكَ الَّذِي لِلْآدَمِيِّينَ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ مَا يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَجْلِبُ خَيْرًا لِدَاعِيهِ بِأَيِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَفَى عَنْهُ كُلَّ طَرِيقٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ بِهِ الْخَيْرُ أَوْ يَنْدَفِعَ بِهِ الضَّرْرُ، فَقَالَ: ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ هَذَا فِي انْتِفَاءِ الْخَيْرِ وَعَدَمِ إِزَالَةِ الضَّرْرِ وَالشَّرِّ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِ هَؤُلَاءِ، وَهَذَا ضَرَرٌ أَعْظَمُ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: النداء الواضح على سفه هؤلاء المشركين، وجهه: أنهم يدعون ما لا يسمع دعاءهم، يدعون ما لو سمع دعاءهم - على فرض التقدير - لم يستجب لهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ يعني: لا أحد أضل، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠] وما هي ملة إبراهيم؟ قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣] هذه ملة إبراهيم؛ التوحيد وعدم الشرك، فهؤلاء السفهاء يدعون ما لا يستجيب ولا ينفع بل يضُرُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن من تعلق بغير الله خاب أملة؛ لأن هذه الأصنام لا تنفعهم في الدنيا ولا تنفعهم يوم القيامة، إذن خاب أملةم، هم يقولون: (إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى) ولكن ما قربوهم، بل هذه ما زادتهم إلا بُعداً، فأملهم قد خاب، والعياذ بالله، وخسروا الدنيا والآخرة.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ: في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ ﴾ نوع هذا الكفر هو التبرؤ، فيستفاد منه: أن هذه الأصنام المعبودة تبرأ من عابديها يوم القيامة، بل إن الله عز وجل يجمع الأصنام وعابديها ويُلقيهم في جهنم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ (١٨) لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴿ [الأنبياء: ٩٨-٩٩] ولكنها ليست آلهة، فلا تنفع.

فإن قلت: قد يتلى داعي هذه الأصنام فتستجيب له ظاهراً؛ بمعنى أن يدعو الصنم أن يشفيه من المرض الفلاني فيشفى، أو أن يجلب له الخير الفلاني فيجلبه، فما هو الجواب؟

نقول: الدعاء ما أفاد، لكن الله عزَّجَلَّ جعلَ هذا الشَّيء يقعُ عند دعائه امتحانًا لهؤلاء العابدين.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الفائدة السادسة عشرة: إثبات علم الله وإحاطته بكلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وهل نأخذ منها الردَّ على الجبرية؟

الجواب: نعم، فهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾.

وهل نأخذ منها أن هذه الأصنام من العقلاء؟

الجواب: لا، لكنها ذكَّرت على سبيل التنزيل وعلى ذكرها بأكمل أوصافها عندهم وهو العقل.



الآية (١٥)

•• ❦ ••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْتَهُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

[فاطر: ١٥].

•• ❦ ••

قال المفسر رحمه الله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْتَهُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ بِكُلِّ حَالٍ ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنِ خَلْقِهِ ﴿الْحَمِيدُ﴾ الْمَحْمُودُ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْتَهُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ هذا النداء عامٌ للمؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، فهو للناسِ عموماً، وصدر الله هذا الحكم بهذا الخطاب الذي هو نداء؛ لأجل التنبيه وبيان الاهتمام به، وفي الحقيقة أنه قد يقال: كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ، لكن هل نحن عَمِلْنَا بِمُقْتَضَى هَذَا الْعِلْمِ؟

الجواب: لا، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٥-٦]

فقرر الله تعالى هذه الحال الثابتة التي لا تنفك عن الإنسان وهي الفقر إلى الله من أجل أن يعمل بمقتضى هذه الحال، فيلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يسأل إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿أُنْتَهُ الْفُقَرَاءُ﴾ هذه الجملة جملة اسمية مفيدة للحصر؛ لأن طرفيها معرفتان ﴿أُنْتَهُ﴾ هذا الضمير معرفة ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ محلى بـ(أل) فهو معرفة، وهل غير الناس أغنياء عن الله؟

الجواب: لا، لكن لما كان الإنسان هو الذي قد يرى نفسه مُسْتَعْنِيًا عن الله

حَصَرَ الْفَقْرَ فِيهِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فَقِيرًا إِلَى اللَّهِ فَانْتُمْ فُقَرَاءٌ وَلَا بُدَّ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الْمُدَبِّرُ نَفْسَهُ فَقِيرًا إِلَى اللَّهِ فَمَا بِالْكَ بِالْبَهِيمَةِ، أَلَيْسَتْ أَشَدَّ فَقْرًا؟

الجواب: بلى، هي أَشَدُّ فَقْرًا إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنَ الْإِنْسَانِ، لَكِنَّهُ خَاطَبَ الْإِنْسَانَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرَى أَنَّهُ قَدْ اسْتَعْنَى عَنِ اللَّهِ وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ اللَّهِ، بَلْ بَعْضُ بَنِي آدَمَ عَكَسَ الْقَضِيَّةَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] والعياذ بالله، فَعَكَسَ الْقَضِيَّةَ، وَالْوَاقِعُ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْفِطْرَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: ﴿إِلَى﴾ هَذِهِ لِلْغَايَةِ؛ أَيِ إِنْ فُقِرْكُمْ مُتَّهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لَا يَسُدُّ عَوَزَكُمْ إِلَّا اللَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: ﴿الْغَنِيُّ﴾ ضِدُّ الْفَقِيرِ، وَالْغَنِيُّ؛ أَيِ: الْمُسْتَعْنَى عَنِ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (التَّغَابُنِ): ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ﴾ [التَّغَابُنِ: ٦]، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ ذُو الْغِنَى الْوَاسِعِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ غَنَاهُ مَقْرُونٌ بِحَمْدِهِ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فَهُوَ غَنِيٌّ يُحْمَدُ عَلَى غِنَاهُ؛ لِأَنَّهُ يَجُودُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، لَكِنْ بَنُو آدَمَ قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مِنْهُمْ غَنِيًّا وَلَكِنْ لَيْسَ حَمِيدًا، فَإِذَا كَانَ غَنِيًّا وَتَسَلَّطَ بَغْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ وَفَخَرَ بِهِ عَلَى النَّاسِ وَلَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ صَارَ غَنِيًّا غَيْرَ حَمِيدٍ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

وَكَالِمَةِ (حَمِيدٍ) يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ؛ اسْمُ الْفَاعِلِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَامِدٌ يُحْمَدُ مِنْ عِبَادِهِ كُلِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ مِنْهُ؛ وَهَذَا يُثْبِتُ عَلَى رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَالشَّاءُ عَلَيْهِمْ هُوَ الْحَمْدُ.

وهو أيضًا مَحْمُودٌ عَلَى أَمْرَيْنِ: عَلَى مَا لَهُ مِنْ كِمَالِ الصِّفَاتِ، وَعَلَى مَا لَهُ مِنْ كِمَالِ الإِنْعَامِ؛ فَهُوَ مَحْمُودٌ لِكِمَالِ صِفَاتِهِ وَمَحْمُودٌ لِكِمَالِ إِنْعَامِهِ وَهَذَا نَقُولُ: الْحَمِيدُ مَحْمُودٌ لِكِمَالِ غِنَاهُ وَكِمَالِ جُودِهِ بِهَذَا الْغِنَى؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ غَنِيٍّ يَكُونُ مَحْمُودًا بِبَدَلِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْغِنَى، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: ﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ فَصْلٍ، وَضَمِيرُ الْفَصْلِ لَهُ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

١- الْحَضْرُ، فَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَا غَيْرُهُ، فَكَمَا تَقُولُ: (زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ)؛ يَعْنِي: لَا غَيْرُهُ.

٢- الْفَضْلُ بَيْنَ الْحَبْرِ وَالصِّفَةِ؛ يَعْنِي: التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا.

٣- التَّوَكُّيدُ؛ فَإِذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ هُوَ الْقَائِمُ) فَهَذَا أَوْكَدَ مِنْ قَوْلِكَ: (زَيْدٌ قَائِمٌ).

#### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَمَهْمَا بَلَّغُوا مِنَ الْغِنَى وَالْقُوَّةِ فَإِنَّهُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ﴾ وَهَذَا لَفْظٌ عَامٌّ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: بَيَانُ شِدَّةِ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ حَيْثُ قَالَ: ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَلَوْ قَالَ: (فُقَرَاءُ) لَكَانَ أَهْوَنَ، لَكِنَّ ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ مَعْنَاهَا أَنَّنَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا كُلِّهَا مُفْتَقِرُونَ إِلَى رَبِّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ غِنَى اللَّهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْمَطْلُوقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، يُسْتَفَادُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ

تعالى: ﴿الْغِنَى﴾ بـ(أل) الدالّة على العموم والاستيعاب.

الفائدة الخامسة: أن الغنى الكامل المطلق خاص بالله سبحانه وتعالى بدليل قوله

تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين ثبوت الغنى لغير الله في الكتاب وفي السنة، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «تَوَخَّذْ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتَرَدَّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ»<sup>(١)</sup> فثبت بالكتاب والسنة أن البشر فيهم أغنياء؟

فالجواب: أن غنى البشر غنى محدود نسبي قاصر قابل للزوال كما أنه كان حادثاً، أما غنى الله فهو مطلق كامل أزلي أبدي، ونظير هذا ما ثبت في الملك والخلق والتدبير وما أشبه ذلك.

الفائدة السادسة: الفرق بين قوله تعالى: ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ و﴿الْغِنَى﴾ ففيها نوع كمال الله سبحانه وتعالى يتبين به نقص البشر تجاه كمال الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عِندَآ فَاِنِ﴾ [الرحمن: ٢٦] ثم قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فإن وصف المخلوق بالنقص ثم إثبات الكمال لله هذا فيه دليل على كمال الله عز وجل، وأن كماله واضح جداً؛ لأنك إذا ذكرت عيب الآخر تبين لك كمال مقابله.

الفائدة السابعة: أن غنى الله سبحانه وتعالى مقرون بالحمد؛ لقوله تعالى: ﴿الْغِنَى الْحَمِيدُ﴾ بخلاف غنى البشر فإنه قد لا يكون محموداً؛ إما بالبخل، وإما بكونه يأتي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بدون استحقاق؛ كالسُّراق واللُّصوصِ فقد يكونون أغنياء لكن اكتسبوه على غير  
الوجه المباح، أما غنى الله فهو غنى كامل يُحمد عليه.

إذن: يُحمد من جهة الغنى، ومن جهة الكرم بما هو غنيّ به.

الفائدة الثامنة: إثبات اسمين من أسماء الله، وهما (الغني) و(الحميد).

و(الغنيّ) يدلُّ على صفة الغنى و(الحميد) يدلُّ على صفة الحمد، ومجموعهما  
يدلُّ على صفة ثالثة وهي كمال غناه؛ لأنه كما ذكرنا في (القواعد المثلى) أنه قد ينشأ  
من الجمع بين وصفين صفة ثالثة تحصل باقترانها، ومثلنا هناك بالعزیز والحكيم؛  
لأنها تقترن دائماً بها؛ لأنه يحصل باقترانها وصف أكمل.





## الآية (١٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦].

•••••

جُمْلَةٌ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذه جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ، هنا الشَّرْطُ ﴿يَشَأْ﴾ وجوابُ الشَّرْطِ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ و﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: بالإهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ﴿وَيَأْتِ﴾ جاءت مَكْسُورَةً وهي فعل مضارعٌ لِأَنَّهَا مَجْزُومَةٌ بِحَذْفِ حَرَفِ الْعِلَّةِ، وَأَصْلُهَا (يَأْتِي) لَكِنْ حُذِفَتِ الْيَاءُ؛ لِأَنَّهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَجْزُومٍ، وَهُوَ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بِدَلِّكُمْ] ﴿بِخَلْقٍ﴾ أَي: بِمَخْلُوقٍ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِ﴾ أَي: بِمَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، فَهَذَا مُصَدَّرٌ أُرِيدَ بِهِ اسْمُ الْمَفْعُولِ؛ أَي بِمَخْلُوقٍ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(١)</sup>، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الْقَهَان: ١١] فَ﴿خَلَقَ﴾ اللَّهُ أَي: مَخْلُوقُهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِالْخَلْقِ الْمَصْدَرُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [الأعراف: ٥٤] لَكِنْ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ اسْمُ الْمَفْعُولِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أَي: بِمَخْلُوقٍ جَدِيدٍ غَيْرِكُمْ، لَكِنْ كَيْفَ يُذْهِبُنَا وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من

حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

الجواب: الله قادرٌ على أن يأتي بخلقٍ جديدٍ مُستَقَلٍّ، وهذا واضحٌ، ثم هو أيضًا يُمكن أن يُذهبَ الموجودينَ بعد أن يأتي خَلْفُهُم منهم، فالنَّشء الصَّغارُ يُعْتَبَرُونَ خَلْقًا جديدًا بالنَّسبة للكِبَارِ الذين هَلَكُوا، وهذا كما قيل في بني إسرائيلَ لما امتنعوا عن دخولِ الأَرْضِ المُقدَّسةِ وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] ابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ، وقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] فضاوعوا؛ ما بين مِصْرَ والشَّامِ مَسِيرَةٌ شَهْرٍ، جلسوا فيه تائِهينَ أربعينَ سنةً ما اهدتوا إلى الطَّرِيقِ.

قال بعضُ العُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ ولاسيما المعاصرونَ منهم: «لأَجْلِ أن يَفْنَى ذلكَ الجِيلُ المُتَغَطِّسُ الذَّلِيلُ ويأتي جِيلٌ ناشئٌ في الصَّحراءِ قَوِيٌّ يريد أن يدخلَ البلادَ المُقدَّسةَ»؛ لأنَّه ناشئٌ في الصَّحراءِ يريد المُدُنَ، فعنده قُوَّةٌ وإِرَادَةٌ تُؤَهِّلُهُ إلى دخولِ تلكِ الأَرْضِ؛ لأنَّ الجِيلَ الأوَّلَ المُتَغَطِّسَ المعانِدُ فَنِيَ في هذه المُدَّةِ، هكذا قال بعضُ العُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ ولاسيما المعاصرونَ منهم.

قالوا: الحِكْمَةُ من أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَرَبَهُم في هذا التَّيِّهَ لأَجْلِ أن يَفْنَى الكِبَارَ وَيَسْتَجِدَّ الصَّغَارُ، والله أعلم.

إنَّما اللهُ عَزَّوَجَلَّ قادرٌ على أن يَمْحُوَ النَّاسَ وَيُذْهِبَهُمْ وَيَأْتِيَ بِخَلْقٍ جديدٍ، إمَّا خَلَقَ مُسْتَقِلًّا، أو من ذَرِيَّةِ هَؤُلاءِ، أو يُفْنِي من في هذه الأَرْضِ ويأتي آخرونَ يَحْتَلُونَ الأَرْضَ.

فلها ثلاثةٌ وجوه: إمَّا خَلَقَ جديدٌ مُسْتَقِلًّا، وإمَّا ذَرِيَّةُ القومِ الذين ذهبوا، وإمَّا قومٌ آخرونَ يأتون من بلادٍ أخرى ويَحْتَلُونَ مَحَلَّ هَؤُلاءِ الذين ذهبوا كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

## الآية (١٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ذَلِك عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ﴾ [فاطر: ١٧].

•••••

قوله تعالى: ﴿وَمَا﴾ هنا حجازية لتمام شروط عملها؛ لأن اسمها (ذا)، وخبرها (عزيز)، لكن دخل على خبرها الباء الزائدة في الإعراب وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَلِك﴾ أي: إذهابكم والإتيان بخلق جديد.

قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ﴾: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ(عزيز) مُقدّم عليه.

وقوله تعالى: ﴿بَعِزٌّ﴾ قال المفسر رحمه الله: [شديد] والصواب عزيز؛ بمعنى: مُمتنع؛ لأن (عزَّ) تأتي بمعنى (امتنع) كما سبق، وتأتي بمعنى (غلب) وتأتي بمعنى (قهر)، وغلب وقهر معناهما واحد، تأتي بمعنى العزة؛ أي: القدر، وهنا ﴿بَعِزٌّ﴾ أي: بِمُمتنع، والمفسر رحمه الله قال: [شديد]؛ لأنَّ الشَّديدَ في حدِّ ذاته مُمتنع؛ لقوته وصلابته، إذا لم يكن عزيزاً على الله فهو سهل.

فنقول: إن هذه الصفة من الصفات السلبية التي نصف الله تعالى بها مع إثبات كمال ضدها، فنقول: ﴿وَمَا ذَلِك عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ﴾ لكَمالِ سُهولته عليه، فهو أمرٌ هينٌ عليه سبحانه وتعالى؛ أن يذهب هؤلاء ويأتي بغيرهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: كمالُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ؛ حيثُ بَيَّنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُذْهِبَنَا، ثُمَّ يَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

الفائدة الثانية: إِبْثَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ﴾.

الفائدة الثالثة: التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَتِهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذَا التَّهْدِيدِ وَتَحْذِيرُنَا مِنْ مُخَالَفَتِهِ.

الفائدة الرابعة: أَنَّ الْخَلْقَ حَادِثٌ، فَلَيْسَ أَزْلِيًّا؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذه فيها دلالة لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وفيها أيضًا دلالة.

أَمَّا الْأُولَى فَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّ مَا كَانَ قَابِلًا لِلْعَدَمِ فَهُوَ قَابِلٌ لِلْحُدُوثِ.

أَمَّا الثَّانِيَةُ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِخَلْقِ جَدِيدٍ﴾ هَلْ نَسْتَفِيدُ مِنْهَا ثُبُوتَ حُدُوثِ أَعْمَالِ اللَّهِ بِاعْتِبَارِ الْمَفْعُولَاتِ؟

الجواب: نعم؛ لِأَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ كَائِنٌ لِلْخَلْقِ، فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ جَدِيدًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ أَيْضًا جَدِيدًا؛ فَمِثْلًا: خَلَقَ اللهُ لِلْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ حَادِثٌ، فَضَرُورَةٌ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ، أَمَّا جِنْسُ فِعْلِ اللهِ فَهُوَ أَزْلِيٌّ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ فِعَالًا، فَهَنَّاكَ فَرَقٌ بَيْنَ وَصْفِ اللهِ تَعَالَى بِالْفِعْلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَبَيْنَ وَصْفِ اللهِ تَعَالَى بِالْفِعْلِ مَقْرُونًا بِالْمَفْعُولِ، فَالْفِعْلُ الْمَقْرُونُ بِالْمَفْعُولِ لَا شَكَّ أَنَّهُ حَادِثٌ، وَالْفِعْلُ الْمَطْلُوقُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ فِعَالًا لِمَا يَرِيدُ هَذَا أَزْلِيًّا.

وهل نستفيد من ذلك جواز تهديد الإنسان بالأشياء المحسوسة ليستقيم على

أمر الله؟

الجواب: نعم؛ لأنَّ هذا تهديدٌ من الله عَزَّجَلَّ لِنَسْتَقِيمَ على أمرِهِ.

إذن نقول: إنَّ العُقوباتِ الحِسيَّةِ إنَّ حَمَلَتْ على الاستقامَةِ فإنَّها مَحْمودةٌ؛ لأنَّها من فعلِ الله؛ ولهذا أَوْجَبَ اللهُ علينا أن نَحُدَّ الزَّانِي، ونَقْطَعَ السَّارِقَ حتى يَرْتَدِعَ، فلا يقول قائلٌ: إنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلك فقد حَمَلْتَ النَّاسَ على أن يتركوا الأَمْرَ لا اللهُ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يقول: كيف هذا، كيف تقع هذه الحدود؟ معناه أنَّ الإنسانَ لا يترك الزَّنا أو السَّرِقَةَ إلا خوفاً من العُقوبةِ، ومعنى ذلك أنَّكَ تَحْمِلُ النَّاسَ على أن يَدْعُوا المحارِمَ لا خوفاً من الله ولكن خوفاً من العُقوبةِ.

فنقول: إنَّ هذا فيه إِصلاحٌ، ووسيلةُ الإِصلاحِ لا يُشْتَرَطُ فيها من نيَّةِ الذي يَحاولُ إِصلاحه.

وهل يُسْتَفَادُ منها جوازُ إعطاءِ الجائزةِ تشجيعاً لمن عَمِلَ صَالِحاً، من باب قياسِ العَكْسِ؟

الجواب: المُكَافَأَةُ على العَمَلِ ثابِتَةٌ في السُّنَّةِ، وفي غَيْرِ السُّنَّةِ أيضاً، فالرَّسُولُ ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»<sup>(١)</sup> أي: في الجهادِ في سبيلِ الله، و(سَلْبُهُ)؛ أي: ما عليه من الثَّيابِ ونحوها، وهذه مُكَافَأَةٌ.

والعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ قالوا: يجوزُ أن يَجْعَلَ لمن دَهَمَ على حِصْنٍ وما أشبه ذلك، من الأُمُور التي فيها مَصْلَحَةٌ للمُجاهِدينَ، يجوزُ أن يَجْعَلَ له جُعْلاً، وكذلك للإمامِ أن يُنْفَلَ السَّرِيَّةَ في الرَّجْعَةِ وفي البِدْءَةِ، كلُّ هذه من باب المُكَافَأَةِ على فِعْلِ الحَيْرِ، فهذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، رقم (٣١٤٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، رقم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثابت، لكن هل نأخذُ جواز ذلك من الآية؟

نقول: يُمكن أن نأخذَه من الآية على سبيل قياسِ العكسِ.

فإن قلت: أثبت لنا قياسَ العكسِ؛ لأننا في شكٍّ من إثبات القياسِ أولاً؟

قلنا: عندنا دليلٌ على إثباتِ العكسِ، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»<sup>(١)</sup>؛ يعني أن الرَّجُلَ إذا أتى أهله فذلك صدقةٌ، الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَاتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

الفائدةُ الخامسةُ: فيها دليلٌ على كمالِ القُدرةِ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

الفائدةُ السادسةُ: صحَّةُ تقسيمِ أهلِ السُّنةِ لصفاتِ الله إلى: ثبوتية، وسلبية،

وقد شك بعض الناسِ في كَلِمَةِ (سَلْبِيَّةٍ) وقال: يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ: (مَنْفِيَّةٍ).



(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (١٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

•••••

لما بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا يُؤْوُلُ إِلَيْهِ أَمْرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، وَهَدَّدَ مِنْ خُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهِ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُذْهِبَهُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ذَكَرَ بَرَاءَةَ غَيْرِ الْوَازِرِينَ مِنَ الْوَازِرِينَ؛ يَعْنِي أَنَّ شِرْكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَا يُؤَثِّرُ عَلَىٰ أَوْلِيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ، قَالَ: ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [نَفْسٌ ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ آئِمَّةٌ]، أفاد المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ بِتَقْدِيرِ (نَفْسِ) أَنْ (وَازِرَةٌ) صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: (نَفْسِ)، وَقَوْلُهُ: (وَازِرَةٌ؛ أَي: آئِمَّةٌ) وَهَلِ الْمُرَادُ أَنَّهَا آئِمَّةٌ بِالْفِعْلِ أَوْ أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْوِزْرِ وَالْإِثْمِ وَهِيَ الْمُكَلَّفُ؛ أَي: الْبَالِغُ الْعَاقِلُ؛ يَعْنِي أَنَّ مَنْ يَكُونُ أَهْلًا لِأَنْ يَأْتِمَّ إِذَا فَعَلَ لَا يَتَحَمَّلُ إِثْمَ غَيْرِهِ، وَتَكُونُ الْفَائِدَةُ مِنْ ذِكْرِ وَازِرَةٍ أَنَّ الصَّغِيرَ مَثَلًا لَا يَتَحَمَّلُ إِثْمًا لِأَنَّ لَهُ وَلَا لِغَيْرِهِ، بِخِلَافِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَتَحَمَّلُ الْإِثْمَ، فَهَلِ يَتَحَمَّلُ إِثْمَ غَيْرِهِ؟

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [آئِمَّةٌ؛ أَي: لَا تَحْمَلُ] عَلَى كَلِمَةِ ﴿ تَزِرُ ﴾ فَسَّرَهَا الْمُسْتَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: [أَي: لَا تَحْمَلُ] وَهَذَا تَفْسِيرٌ بِالْمُرَادِ

لا بالمعنى المطابق للفظ؛ لأنَّ المعنى المطابق للفظ في ﴿تَزَّرَ﴾ أي: تأثَّم؛ إذ إنَّ الوِزْرَ هو الإثْم، ولكن تقدَّم كثيراً أن تفسير القرآن قد يُرادُ به التفسيرُ المطابقُ للفظ، وقد يُرادُ به التفسيرُ بالمعنى المرادُ لا المطابق للفظ؛ أي: [لا تحمِلُ وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى].

أفادنا أيضاً بقوله: [﴿وَزَّرَ﴾ نَفْسٍ] أَنَّ ﴿وَزَّرَ﴾ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْدُوفٍ تَقْدِيرُهُ: (نَفْس)؛ أي إنَّ زِيدًا لَا يَحْمِلُ إِثْمَ عَمْرٍو، وَهَذَا لَا يَحْمِلُ وِزْرَ فَاطِمَةَ مَثَلًا، فَكُلُّ يَحْمِلُ وِزْرَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا ذَلِكَ فِي جُمْلَةٍ تُعْتَبَرُ قَاعِدَةً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكْسِبْ شَيْئًا فَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ إِثْمِ الْآخِرِ شَيْءٌ، وَلَا يِعَارِضُ هَذَا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>؛ لِأَنَّ سَنَّهُ إِيَّاهَا يُعْتَبَرُ وِزْرًا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي شَقَّ الطَّرِيقَ لَهَا، وَمَهَّدَ السَّبِيلَ؛ فَلِهَذَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَالآيَةُ هُنَا لَا تُنَافِي الْحَدِيثَ.

قال: ﴿وَإِنْ تَدَّعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

[﴿وَإِنْ تَدَّعُ﴾ نَفْسٌ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بِالْوِزْرِ ﴿إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾ مِنْهُ أَحَدًا لِيَحْمِلَ بَعْضُهُ ﴿لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾].

﴿وَإِنْ تَدَّعُ﴾ أَي: تَطْلُبُ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بِالْأَوْزَارِ ﴿إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾ لِيَحْمِلَ عَنْهَا بَعْضُهُ ﴿لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وَجُمْلَةٌ ﴿لَا يَحْمَلُ﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَالشَّرْطُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدَّعُ﴾ وَهُوَ مَجْزُومٌ بِحَذْفِ الْوَاوِ، وَالضَّمَّةُ قَبْلَهُ دَلِيلٌ عَلَيْهِ وَ﴿لَا يَحْمَلُ﴾ هَذَا هُوَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَوَى اللَّهُ عَنْهُ.



جوابُ الشَّرْطِ، و﴿شَيْءٌ﴾: نَائِبُ الْفَاعِلِ؛ يعني اعْلَمُوا كما أَنَّ الْغَيْرَ لَا يَحْمِلُ عَنِ الْغَيْرِ وَزَرَهُ فَإِنَّهُ حَتَّى وَإِنْ دُعِيَ وَاسْتَجِدَّ لِيَحْمِلَ أَوْ يُخَفَّفَ عَنِ الْوَاوِرِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فِي الدُّنْيَا رَبًّا يُؤْخَذُ الْإِنْسَانُ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ، فِي الدُّنْيَا أَيْضًا إِذَا اسْتَعَاثَ بِكَ إِنْسَانٌ قَدْ حَمَلَ شَيْئًا ثَقِيلًا خَاصَّةً مِنْ كِبَارِ السَّنِّ، إِذَا قَابَلْتَ إِنْسَانًا حَمَلَ شَيْئًا ثَقِيلًا فَإِنَّكَ تُنَجِّدُهُ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَوْ دَعَتْ نَفْسٌ مُثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا أَنْ يَحْمِلَ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّهَا لَا تُجَابُ إِلَى ذَلِكَ، ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَيْءٌ﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعَمُّ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ هِيَ أَيْضًا نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعَمُّ؛ أَيُّ مُثْقَلَةٍ، مَهْمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُثْقَلَةُ، فَإِنَّهَا إِذَا دَعَتْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهَا مِنْ أَثْقَالِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الْمَدْعُوُّ ﴿ذَا قُرْبَى﴾ قَرَابَةِ كَالْأَبِ وَالْإِبْنِ].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الْمَدْعُوُّ] أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: (وَلَوْ كَانَ الدَّاعِي)؟

الْجَوَابُ: يُمَكِّنُ؛ لِأَنَّهَا مُتَلَازِمَانِ؛ لِأَنَّ الْمَدْعُوَّ إِذَا كَانَ قَرِيبًا لِلدَّاعِي كَانَ الدَّاعِي قَرِيبًا لَهُ، لَكِنْ أُيِّمًا أَنْسَبُ مِنْ حَيْثُ السِّيَاقُ: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ نَقُولُ: (الْمَدْعُوُّ) أَقْرَبُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ الدَّاعِي لَكَانَ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - الْأَنْسَبُ أَنْ يَقُولَ: (وَلَوْ كَانَتْ ذَا قُرْبَى)؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ ضَمِيرَ الْمُؤَنَّثِ وَلَوْ كَانَ مَجَازًا يَكُونُ مُؤَنَّثًا؛ قَالَ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرٍ مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتَ حِرٍّ<sup>(١)</sup>

إذن: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولو كانت ذا قُرْبَى، هذا صحيح؛ أي: ولو كانت الدَّاعِيَّة، لكن قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ بالمدِّكْر، علم أنَّ الفاعل غَيْرُ الدَّاعِيَّةِ كما قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُرْبَىٰ﴾ أي: قَرَابَةٌ] ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ. وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ أي: القَرَابَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فالقُرْبَى هُنَا بِمَعْنَى القَرَابَةِ، لَوْ أَنَّ الْأَبَ اسْتَنْجَدَ بِابْنِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُ مِنْ أَوْزَارِهِ لَمْ يُجِبْهُ، بَلْ ﴿يَقِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ ٣٥ ﴿وَصَحْبِيهِ. وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦] لماذا؟

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [وَعَدَمُ الْحَمْلِ فِي الشَّقِيئِينَ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ] أين الشَّقَّانِ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لَا تُحْمَلُ ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وإذا كان من الله، فإنه لا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحْمَلَ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قَالَ لِشَخْصٍ: (أَتَأْتُكَ عَلَيَّ) فَلَا يَصِحُّ هَذَا؛ لِأَنَّ الَّذِي لَا يُحْمَلُ هُوَ اللَّهُ، فَالْحُكْمُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَوْ أَنَّ أَحَدًا اسْتَنْجَدَ بِأَحَدٍ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُ، وَوَافَقَ عَلَى نَجْدَتِهِ، فَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

هذا الفَائِدَةُ مِنْ قَوْلِهِ: [وَعَدَمُ الْحَمْلِ فِي الشَّقِيئِينَ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ] أي: فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْحُكْمَ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]؛ يَعْنِي: يَقُولُونَ ذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ لَيْسُوا بِصَادِقِينَ عَلَى هَذَا الْحَمْلِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] لَا بِالْتَرَامِهِمْ

ولكن لأنهم هم الأسوة والقُدوة فكانوا يَحْمِلُونَ أثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالٌ مِنْ أَصْلُوهُ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾.

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ﴾ هذه جملة فيها حَصْرٌ طريقه ﴿إِنَّمَا﴾ والحَصْرُ هو إثبات الحكم في

المذكور فيه ونفيه عما سواه.

كأنك تقول: (ما تُنذِرُ إلا الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) و﴿نُذِرُ﴾ من الإنذار، وهو الإعلامُ المَقْرُونُ بالتَّخْوِيفِ، وإن شئتَ فقل: (الإعلامُ المراد به التَّخْوِيفُ)؛ لأنه قد لا يُقْرَن، لكن يُعْرَفُ من هَيْئَةِ الكَلَامِ والصِّيَاحِ مثلاً أنه للتَّخْوِيفِ، فمُنذِرُ الجيشِ يقول: (واصْبَاحاه)، فيُعْرَفُ النَّاسُ أنَّ هذا إنذارٌ للجَيْشِ.

إِذَنْ: الإنذارُ معناه: الإعلامُ المرادُ به التَّخْوِيفُ، فالنَّبِيُّ ﷺ يقول الله له:

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الحَشْيَةُ هِيَ الخَوْفُ النَّابِغُ عَنْ تَعْظِيمِ المَخَوْفِ والعِلْمُ بِهِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وَقَوْلُنَا: إِنَّهُ الخَوْفُ النَّابِغُ عَنْ تَعْظِيمِ المَخَوْفِ؛ لِيَشْمَلَ مَنْ كَانَ خَائِفًا وَلَوْ كَانَ هُوَ قَوِيًّا؛ معناه القَوِيُّ قد يَخَافُ مِنَ الأَقْوَى مِنْهُ فَتَكُونُ هَذِهِ خَشْيَةً، فَإِنْ خَافَ الضَّعِيفُ مِنَ القَوِيِّ فَهُوَ خَوْفٌ؛ وَهَذَا نَقُولُ: إِنَّ الحَشْيَةَ أَعْظَمُ مِنَ الخَوْفِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَي: يَخَافُونَهُ خَوْفًا نَابِغًا مِنْ تَعْظِيمِهِمْ لَهُ

مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلتَّعْظِيمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ الغَيْبُ ضِدُّ الشَّاهِدِ وَالْمَعْلُومِ.

قال المفسر رحمه الله: [إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ] أي: يخافونه وما رأوه [أفادنا المفسر رحمه الله أن قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول به؛ أي: يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ حال كونه غائباً عنهم لم يروه، وهذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ حال كونهم غائبين عن غيره فيكون الجار والمجرور حالاً من الفاعل؛ لأن من الناس من يُظهِرُ خَشْيَةَ اللَّهِ أمام الناس، لكنه إذا غاب عن الناس لم يَخْشِ الله، هل يُمدح هذا على خشيته؟

الجواب: لا؛ لأنه مُراءٍ، لكن من يَخْشَى ربه بالغيب هذا هو الذي يُمدح.

فإن قلت: هل يُمكن أن تُحمَل الآية على المعنيين، ويكون هؤلاء الذين مدحهم الله يَخْشَوْنَ الله؛ مع أنهم لم يروه يَخْشَوْنَ الله في حال الغيبة عن الناس؟

فالجواب: نعم، وهذا من بلاغة القرآن أن يُعبّر بتعبير صالح لمعنيين لا يتنافيان، فهؤلاء القوم يَخْشَوْنَ الله تعالى وهم لم يروه، ولكنهم يَخْشَوْنَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ؛ لأنهم يَخْشَوْنَه بالغيب والشهادة، وقد قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ لا ينافي أنه مُنذِرٌ لجميع الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على عموم ذلك؛ لأن المراد بالإنذار هنا الإنذار النافع؛ أي: إنما يُؤثّر إنذارك في الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب، أمّا من لا يَخْشَى الله بالغيب فإنه وإن أُنذِرَ فإنه لا يَنْتَفِعُ بالإنذار.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم:

كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ مُشِيرًا إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: [لَأَتَّبِعُهُمُ الْمُتَتَفِعُونَ بِالْإِنذَارِ] [لَأَتَّبِعُهُمْ]؛ أَي: الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ الْمُتَتَفِعُونَ بِالْإِنذَارِ، فَلِهَذَا حَصَّ الْإِنذَارَ ٣٣.

إِذْن: حَصْرُ الْإِنذَارِ فِي الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ الْمُرَادُ بِهِ حَصْرُ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ، أَوْ حَصْرُ نَفْعِهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِلَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، أَمَّا مَنْ لَا يَخْشَى اللَّهَ فَإِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلِمَتَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فـ ﴿وَأَقَامُوا﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿يُخْشَوْنَ﴾ أَي: عَلَى صِلَةِ الْمَوْصُولِ، وَهَنَا قَالَ: (يُخْشَوْنَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) فَعَطَفَ الْمَاضِيَ عَلَى الْمَضَارِعِ؛ لِأَنَّ الْحَشِيَّةَ مُسْتَمِرَّةٌ فِي الْأَعْمَالِ كُلِّهَا؛ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [أَدَامُوهَا] وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ أَعْمٌ مِمَّا قَالَ، فِي تَفْسِيرِهِ قُصُورٌ؛ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ تَشْمَلُ إِتْمَامَهَا، وَإِكْمَالَهَا، وَالْحَافِظَةَ عَلَيْهَا، وَالْمُدَاوِمَةَ عَلَيْهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] فَالْخُشُوعُ فِيهَا مِنْ إِقَامَتِهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] هَذَا أَيْضًا مِنْ إِقَامَتِهَا أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهَا وَيُخْرِصَ عَلَيْهَا؛ عَلَى وَاجِبَاتِهَا، وَمُكَمَّلَاتِهَا، وَأَوْقَاتِهَا.

وَقَالَ فِي سُورَةِ (سَأَلَ): ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] وَفِي آخِرِهَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ تَشْمَلُ كُلَّ مَا فِيهِ إِكْمَالُهَا وَإِتْمَامُهَا وَإِدَامَتُهَا؛ فَهُوَ أَعْمٌ مِمَّا قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الصَّلَاةَ﴾ يَشْمَلُ الْفَرَضَ وَالنَّفْلَ؛ لِأَنَّ (أَل) تَفِيدُ الْعُمُومَ؛ أَي:

أقاموا كُلَّ صَلَاةٍ، وَالصَّلَاةُ مَعْرُوفَةٌ، وَهِيَ فِي اللُّغَةِ: الدُّعَاءُ، وَفِي الشَّرْعِ: التَّعَبُّدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ مَعْلُومَةٍ، مُفْتَتِحَةٌ بِالتَّكْبِيرِ مُحْتَمَةٌ بِالتَّسْلِيمِ.

قال: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ هذه الجُمْلَةُ شَرْطِيَّةٌ، وَفِعْلُ الشَّرْطِ فِيهَا ﴿تَزَكَّى﴾ وَجَوَابُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ تَطَهَّرَ مِنَ الشُّرْكِ وَغَيْرِهِ] لِأَنَّ الزَّكَاةَ تُفِيدُ مَعْنَى الطُّهْرِ، وَالْمُرَادُ بِالتَّزَكَّى هُنَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشَّمْسُ: ٩]؛ أَي: مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ؛ أَي: طَهَّرَهَا مِنَ الشُّرْكِ.

وَقَوْلُ المُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [وغيره] كإِرَادَةِ السُّوءِ مَثَلًا، وَالْمَعَاصِي، وَإِرَادَةِ الإِسَاءَةِ إِلَى الخَلْقِ، وَغَيْرِ هَذَا بِمَا يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُطَهِّرَ نَفْسَهُ مِنْهُ، فَهِيَ إِذَنْ عَامَةٌ، وَهَلْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَداءُ الزَّكَاةِ؟

الجوابُ: نعم، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَداءَ الزَّكَاةِ يُطَهِّرُ مِنَ البُخْلِ؛ وَمِنَ الوَاجِبِ، فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾.

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ المراد بهذا الحثُّ عَلَى التَّزَكِّي؛ لِأَنَّكَ إِذَا تَزَكَّيْتَ فَإِنَّمَا تَنْتَفِعُ نَفْسُكَ، وَمَنْ لَمْ يَتَزَكَّ فَضَرَّرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَنْتَ إِذَا تَزَكَّيْتَ فَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِتَزَكِّيكَ أَنْتَ نَفْسُكَ؛ وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنْتَفِعُ بِطَاعَتِكَ، أَمَّا غَيْرُ اللهِ فَقَدْ يَنْتَفِعُ بِطَاعَتِكَ لِأَنَّ حَسَنَاتِكَ لَهُ وَلَكِنْ قَدْ يَنْتَفِعُ بِطَاعَتِكَ: بِالقُدُوةِ بِكَ، وَبِمَا يَحْصُلُ مِنْ عِلْمٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ بِمَا هُوَ دَاخِلٌ فِي التَّزَكِّيَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أَي: فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى التَّزَكِّيِّ.

قوله تعالى: ﴿وَالِىَ اللّٰهِ الْمَصِيْرُ﴾ المصير؛ بمعنى المرجع كما قال المفسر رحمه الله، وجمله ﴿وَالِىَ اللّٰهِ﴾ متعلق بالمحذوف خبر مقدم، و﴿الْمَصِيْرُ﴾ مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة تفيده الحصر؛ لأنه قدّم فيها الخبر وحقه التأخير؛ يعني: إلى الله وحده المصير؛ أي: المرجع، وهل هذا في الدنيا أو في الدنيا والآخرة؟

الجواب: في الدنيا والآخرة، فإلى الله المصير في الدنيا والآخرة، فمرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة.

فالأحكام الشرعية مرجعها إلى الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّٰهِ﴾ [الشورى: ١٠]، والأحكام الكونية مرجعها إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، والأحكام الجزائية التي تكون يوم القيامة مرجعها إلى الله، فمصير كل شيء إلى من أبداع وأحدث كل شيء، والذي أبداع الأمور وأحدثها هو الله سبحانه وتعالى.

إذن: مرجعها إلى الله، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى.

قال المفسر رحمه الله تفرّيعاً على قوله تعالى: ﴿وَالِىَ اللّٰهِ الْمَصِيْرُ﴾ [فيجزى بالعمل في الآخرة] وهذا إشارة من المفسر رحمه الله إلى أنه قصر المصير هنا بالمرجع يوم القيامة، والصواب العموم، وعلى هذا فهو سبحانه وتعالى يجازي، ويحكم قدرًا، ويحكم شرعًا بين عباده.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الإنسان لا يحمل آثام غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

وينبني على هذه الفائدة: ثبوت كمال عدل الله عز وجل؛ حيث لا يحمل أحدٌ وزراً أحد.

الفائدة الثانية: أنه لا يقبل التحميل إلا من كان أهلاً له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَزْرَهُ﴾ لأن غير الوازرة لا تحمل إثم نفسها فضلاً عن إثم غيرها، لكن الوازرة تحمل إثم نفسها لا تحمل إثم غيرها.

الفائدة الثالثة: منع الاتكالية على الغير؛ لأن الإنسان قد يعمل، ويقول: سيهيئ الله لي أحداً يدعو لي، أو يستغفر لي، أو ما أشبه ذلك! نقول: هذا لا نستند عليه.

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؟

فالجواب: لأن أثقال غيرهم حقيقة ناشئة عن أثقالهم، فصاروا كأنهم الذين عملوها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

الفائدة الرابعة: قياس العكس، فإذا كانت النفس لا تحمل إثم غيرها، فهل تلزم بالواجب على غيرها أو تقوم بأوامر غيرها؟

الجواب: لا، فكما أن الإنسان لا يحمل إثم غيره بالمعصية لا يحمل إثم غيره في ترك الواجب، فإذا ترك أبوك أو ابنك أو خالك أو عمك واجباً فليس عليه إثم، الإثم على الرجل نفسه.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.



الفائدة الخامسة: أن الغَيْرَ لا يَحْمِلُ وَزَرَ الغَيْرِ وإن دعاه إلى ذلك؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ بخلافه في الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا دَعَاكَ أَحَدٌ أَنْ تُعِينَهُ عَلَى مَا حَمَلَ أَوْ أَنْ تَحْمِلَهُ عَنْهُ أَجَبْتَهُ، لَكِنْ فِي الآخِرَةِ لَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وَحَتَّى وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْكَ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

الفائدة السادسة: أن رسول الله ﷺ نذير؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ﴾.

الفائدة السابعة: أنه لا يَنْتَفِعُ بِإِنذَارِهِ إِلَّا مَنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾.

الفائدة الثامنة: أن الخَشْيَةَ التي هي محلُّ الشَّئِ هي: ما كانت خَشْيَةً فِي الْغَيْبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ لِأَنَّ الخَشْيَةَ فِي الظَّاهِرِ قَدْ يَكُونُ الحَامِلُ عَلَيْهَا مُرَاعَاةَ عِبَادَةِ اللَّهِ، لَكِنْ إِذَا كَانَتْ بِالْغَيْبِ فَإِنَّ هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا مُخْلِصٌ فِي خَشْيَتِهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

الفائدة التاسعة: فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ وَأَنَّهَا -أَي: الصَّلَاةُ- سَبَبٌ لِلانْتِفَاعِ بِإِنذَارِ النَّبِيِّ ﷺ كَالخَشْيَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

الفائدة العاشرة: أن الإنسان إذا تَزَكَّى فَإِنَّ نَفْعَ تَزَكِّيهِ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنَالُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾.

ويتفرَّع عن هذه الفائدة: أن أوامر الله عَزَّجَلَّ ليست من أجل مَصْلَحَةٍ يَنَالُهَا بامْتِثَالِنَا، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِنَا وَمَصْلَحَتِنَا نَحْنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

الفائدة الحادية عشرة: الحثُّ على تزكية النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ وکل إنسانٍ عاقلٍ إذا علم أن مصلحة العمل تعود إليه فإنه سوف يهتمُّ به ويقوم به، فإذا علمت أن تزكيتك لنفسك حرصت عليه غاية الحرص.

والتزكِّي كما أشرنا إليه يشمل:

تزكية القلب بتطهيره من جميع الشرك، والشك، والضغائن، والأحقاد، والبغضاء، وما أشبه ذلك.

وتزكية الأفواه من كل قولٍ منكرٍ بالأذى يقول الإنسان إلا خيرًا؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُتَّقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ»<sup>(١)</sup>.

وتزكية الأفعال أيضًا من فعل الفواحش والأخلاق السيئة، وما إلى ذلك مما يجب على الإنسان أن يتطهر منه.

الفائدة الثانية عشرة: كمال هذا الدين الإسلامي؛ حيث حث على تزكية النفس ظاهرًا وباطنًا؛ ظاهرًا بالأقوال والأفعال، وباطنًا بالقلوب.

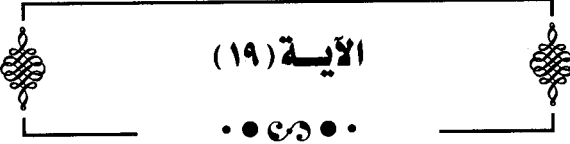
الفائدة الثالثة عشرة: أن مرجع الخلاق إلى الله في أحكامهم الكونية والشرعية والجزائية، أمَّا الأحكام الكونية فظاهر أن المرجع إلى الله؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يرد قضاء الله الكوني، وأمَّا الشرعية فكذلك؛ فإن العباد مَرَبُوبُونَ مُتَعَبِّدُونَ لَهِ عَزَّجَلَّ، فكان مقتضى ذلك أن يتمسوا على أحكامه الشرعية، وأمَّا الجزائية فالأمر ظاهر؛ فإنه لا يجازي العاملين على عملهم إلا الله سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: مَنَعُ الرَّجُوعِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فِيهَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَالِىَ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَرْجِعَ إِلَى النُّظُمِ الْوَضْعِيَّةِ الَّتِي مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ  
وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ.﴾



الآية (١٩)



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٩].



يعني: لا يَسْتَوِيَانِ في إدراك المَبْصِرَاتِ، ليس المعنى نَفِي التَّساوي مُطْلَقًا؛ لَأَنَّ الْأَعْمَى قد يُفْضَلُ الْبَصِيرَ في أُمُورٍ أُخْرَى، لكن لا يَسْتَوِيَانِ في إدراك المَبْصِرَاتِ وهذا ظَاهِرٌ؛ فالأعمى إذا قام يَمْشِي وأمامه حُفْرَةٌ أو حَجَرٌ وقع في الحُفْرَةَ وَعَثَرَ في الحَجَرِ، والبصيرُ بالعكس، فلا يستوي هذا وهذا، والأَكْمَلُ هو: البصير؛ وهذا مَثَلٌ حَسْبِيٌّ يَجِبُ أَنْ نَنْتَقِلَ مِنْهُ إِلَى المَثَلِ المَعْنَوِيِّ.

وَأَمَّا قَوْلُ المَفْسَّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ: [الكافرِ والمؤمن] ففيه نَظَرٌ، يعني: كأنه يريد أن يقول: إِنَّ الْأَعْمَى هو الكافرِ والبصيرِ هو المؤمن، وَلَكِنَّا نَقُولُ: لا، الْآيَةُ يُرَادُ بِهَا نَفْيُ المُسَاوَةِ في الْأُمُورِ الحِسِّيَّةِ الظَّاهِرَةِ التي لا يُنْكَرُهَا أَحَدٌ، إِذْ إِنَّ الكافرِ والزَّنْدِيقِ والمُعَانِدِ والمُسْتَكْبِرِ لا يُمَكِّنُ أَنْ يَدَّعُوا تَسَاوِي الْأَعْمَى والبصيرِ، لكن قد يَدَّعُونَ تَسَاوِي المؤمنِ والكافرِ.



## الآية (٢٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ ﴾ ﴾ [فاطر: ٢٠].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [﴿ وَلَا الظُّلُمْتُ ﴾ الكُفْرُ ﴿ وَلَا النُّورُ ﴾ الإيمان] وهذا أيضًا فيه نظر، والظاهر أن الله سبحانه وتعالى أراد الظلمات الحسيّة والنور الحسيّ؛ لأنّ نفى الاستواء بين هذين أمرًا لا يمكن إنكاره؛ لأنّه مُدْرَكٌ بِالْحِسِّ، فالظلمات لا تستوي والنور، ولكن لا شكّ أنّ المراد بذلك ظلمات الكُفْرِ ونور الإيمان؛ يعني أنّها إشارة إلى هذا؛ ولذلك جمع الظلمات وأفرد النور؛ لأنّ سُبُلَ الكُفْرِ كثيرةٌ، وأمّا الإيمان فسبيله واحدٌ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وإنّما كان الكُفْرُ ظلماتٍ؛ لأنّ فيه الجهل بالله عَزَّجَلَّ، وبما يجب له، وفيه أيضًا أنّ الإنسان يسير على غير هدى، ويسير في اتجاهات متعدّدة منحرفة، فقلبه مُتَشَعَّبٌ في كلّ وادٍ؛ ولهذا تجد الكافرين أشدّ الناس قلقلًا وأبعدهم عن الثبات على خطّ مُسْتَقِيمٍ.

بخلاف المؤمن؛ فالمؤمن مؤمنٌ، خطّه مُسْتَقِيمٌ، وعارفٌ أنّه يريد الوصول إلى الله، فتجدّه يُحوّل جميع الأفعال إلى طريق واحد وهو الوصول إلى الله؛ حتى إنّ إذا لیس ثوبه يشعر أنّه ينال بذلك مَرَضَاةَ الله، إذا أكل، أو شرب، أو نام، أو سافر،

أو تكلم، أو أحجم، كل ذلك يرى أنه في الطريق إلى الله.

لكن الكافر متشعب، ولذلك كان منهجه ظلمات؛ لأنه متشعب، ليس هناك هدف واحد يسعى إليه، أهدافه كثيرة، مغرور في الدنيا، مغرور في رؤسائه، مغرور في الناس، لا يهتم إلا برضاهم، نسأل الله السلامة والعافية، ولا يهتم أن يرضى الله عز وجل، فلهذا كان مستحقاً أن تجعل طريق الكافر على سبيل الجمع لتشعبها وتفرقها.



## الآية (٢١)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحُرُورُ ﴾ [فاطر: ٢١].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [الجنة والنار] يعني: المراد بالظلّ - عند المفسر رحمه الله - الجنة، والمراد بالحُرورِ النار، ولكن كما قلتُ: الظاهر أنّ هذا مثلٌ لأمرٍ حسيّ لا يُمكن إنكاره، لكن يَنْتَقِلُ منه إلى أمرٍ مَعْنَوِيٍّ.

والظلُّ والحُرورُ لا يستويان، وأيهما أَحْسَنُ؟

الجواب: الظلُّ؛ فالظلُّ مَعْرُوفٌ، وهو الفَيْءُ الذي تَقَلَّصَتْ عنه الشَّمْسُ وإن شئتَ فقل: الظلُّ هو المكان الذي ليس فيه أشعةٌ للشَّمْسِ، وإنّما نقول ذلك؛ لأنّ الجنةَ ليس فيها شَمْسٌ، قال الله تعالى: ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠] مع أنّه ليس فيها شَمْسٌ.

وأما (الحُرورُ) فهو على وزن (فَعُول) وهو الهواء الحارُّ، وبعضهم يقول: إنّهُ الهواء الحارُّ في النَّهَارِ، والسَّمُومُ: الهواء الحارُّ في اللَّيْلِ، وبعضهم يقول: كلاهما بِمَعْنَى واحدٍ، فالحُرورُ والسَّمُومُ هما الهواء الحارُّ، وهذا مَعْرُوفٌ، يكون في أَيَّامِ الصَّيْفِ، وإذا كان معه شَمْسٌ ازداد شدّةً في الحرارة.

الآن عندنا: الأعمى والبصيرُ، والظلمات والنور، والظلُّ والحُرور، على كَلَامِ المفسر رحمه الله نقول: هذا النَّفْيُ في المواضع الثلاثة: الأوّل يعود إلى ذاتِ المُؤْمِنِ

والكافِر، والثَّانِي يعود إلى عَمَلِ الْمُؤْمِنِ والكافِر، والثَّالِثُ يعود إلى مُسْتَقَرِّ الْمُؤْمِنِ  
والكافِر، فالأوَّلُ نَفْيٌ لِلذَّوَاتِ، والثَّانِي نَفْيٌ لِلأَفْعَالِ والمنهَج، والثَّالِثُ نَفْيٌ لِلْمُسْتَقَرِّ  
والمأوى.





## الآية (٢٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

•••••

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ هذا هو الرابع، قال المفسر رحمه الله: [المؤمنون ولا الكفار] فعلى كلام المفسر يكون في الآية تكرار؛ لأنه فسر الأول ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ بالكافر والمؤمن، وهنا قال: ﴿الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [المؤمنون والكفار] ولو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: ﴿الْأَحْيَاءُ﴾ ذوو العلم و﴿الْأَمْوَاتُ﴾ ذوو الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولأن الله تعالى جعل الوحي رُوحًا تحيا به القلوب والنفوس، ولكنني لا أسلك مسلكه، إنما لو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: (الأحياء والأموات: العلماء والجهال)، لأنني إذا سلكت هذا المسلك فعندي على ذلك البرهان، وهو قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فإذا سلكت هذا المسلك سلمت الآية من التكرار.

ونحن نعلم جميعاً أن من القواعد المعروفة في الكلام أنه إذا دار الأمر بين حمل الكلام على التأسيس أو على التوكيد وجب حمله على التأسيس؛ لأنه هو الأصل، فالأصل في الكلام أن يكون مستقلاً مؤسساً لا مؤكداً.

والتأسيسُ معناه الأصل والأساس؛ يعني: هذا معنى جديدٌ غيرُ المعنى الأول، فإذا قال قائلٌ مثلاً: هذه الجملةُ مؤكدةٌ للأولى، وقال الثاني: هذه الجملةُ مُستقلةٌ بنفسها، فإنه يُحمَلُ على أنَّها مُستقلةٌ بنفسها.

وأقول: الأحياءُ والأمواتُ يُرادُ به الحياةُ الحسيَّةُ والموتُ الحسيُّ، فكلُّ يَعْرِفُ الفرقَ بين الحَيِّ والمَيِّتِ، حتى الكُفَّارُ يَعْرِفُونَ الفرقَ بين الحَيِّ والمَيِّتِ، والذي يماثل هذه الأشياءَ النَّفْسِيَّةَ من الأمورِ المعقولةِ هو مثَلُها.

وقولُ المُفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [وزيادةٌ (لا) في الثلاثةِ تأكيدٌ] هذه الجملةُ أفادت أن لدينا زيادةً، وأنَّ الفائدةَ من الزيادةِ التَّوكِيدُ، فالزيادةُ في هذه الثلاثةِ: ﴿وَلَا الظُّلْمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحرُّورُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ﴾ ف(لا) خمسُ مراتٍ، لكنَّ جَعَلَهَا المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ ثلاثةً؛ لأنَّ المُتقابِلَ فيها ثلاثة، (الظُّلْمَاتُ والنُّورُ) هذه يريد أن تكون واحدةً، و(الظُّلُّ والحرُّورُ) واحدةً، و(الأحياءُ والأمواتُ) واحدةً، المُهمُّ أنَّ الزيادةَ التي جاءت في المواضعِ كُلِّها سواء قلنا: ثلاثة أو خمسة فهي للتوكيد؛ إذ لو قيل: (وما يستوي الأعمى والبصير، والظُّلْمَاتُ والنُّورُ، والظُّلُّ والحرُّورُ، والأحياءُ والأمواتُ) استقام الكلامُ، لكنَّ يُؤْتَى بـ(لا) الزائدة للتوكيد.

وفيها أيضًا فائدةٌ ثانيةٌ: وهي عَدَمُ السَّامَةِ والمَلَلِ؛ لأنَّها لو حُذِفَتْ لطالت المعطوفاتُ بَعْضُها مع بعضٍ، فكَرَّرَ فيها عامِلَ النَّفْيِ ليكون أبعَدَ عن السَّامَةِ.

فإن قلت: هل لذلك نظيرٌ في كتاب الله؟

فالجواب: نعم، لهذا نظيرٌ في مواضعٍ كثيرة، منها ما نقرؤه في كل صلاة: وهي

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] إذ لو قال: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَالضَّالِّينَ) استقام، لكن زِيدَتْ (لا) للتوكيد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ هِدَايَتَهُ فَيُجِيبُهُ] أي: الْمُسْمِعُ [بالإيمان]؛ يعني أَنَّ الله تعالى يدعو إلى دار السَّلَامِ؛ كما قال في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] دُعَاءُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى دَارِ السَّلَامِ هل يَسْمَعُهُ كُلُّ أَحَدٍ؟

الجواب: أمَّا من حيث الإدراكِ الْحَسِّيِّ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَسْمَعُهُ، أمَّا من حيث الإجابة فلا، فمن النَّاسِ من يُجِيبُ، ومنهم من لا يُجِيبُ؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فالله تعالى يُسْمِعُ من يشاء؛ بِمَعْنَى: من يكون أَهْلًا لِاتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾: (ما) هنا حِجَازِيَّةٌ، واسْمُهَا الضَّمِيرُ ﴿أَنْتَ﴾ والباءُ في ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ زائدةٌ للتوكيد، و(مُسْمِعٍ): خَبَرُهَا مَنْصُوبٌ بِفَتْحَةِ مُقَدَّرَةٍ عَلَى آخِرِهِ منع من ظُهُورِهَا حَرَكَةُ حَرْفِ الْجَرِّ الزَّائِدِ.  
﴿مَنْ﴾: مفعول لـ(مُسْمِعٍ)؛ لأن (مُسْمِعٍ) اسمُ فاعلٍ.

قال المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: الكُفَّارَ، شَبَّهَهُم بِالْمُوتَى؛ فَيُجِيبُوا] قَوْلُهُ: [فيجيبوا]، في بعض النُّسخ: (فيجيبون) وهذا خطأ؛ لأنَّ النون يَجِبُ أَنْ تُحذَفَ؛ لِأَنَّهُ جِوَابُ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ وفي بعض النُّسخ: (فلا يجيبون)، فهي مُفَصَّلَةٌ عَمَّا قَبْلَهَا؛ أي: فهم في عَدَمِ إِسْمَاعِهِمْ لَا يُجِيبُونَ.

على كُلِّ حَالٍ: الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ بِقَوْلِهِ: [أي: الكُفَّارَ] والذي يظهر لي أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُوتَى حَقِيقَةً، وَالرُّسُولُ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُسْمَعُ الْمَوْتَى حَقِيقَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]، فلو أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ ذَهَبَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ مَقْبَرَةِ الْكُفَّارِ، وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْبُدُوهُ»، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ هَلْ يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ فَيَتَّفِعُونَ بِهَا؟

الجواب: لا، ما يسمعونها فَيَتَّفِعُونَ بِهَا، وَلَكِنَّا نَقُولُ: نَتَّقِلُ مِنْ هَذَا إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُسْمَعُ الْكُفَّارَ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَيِّتَةٌ، وَمَنْ قَلْبُهُ مَيِّتٌ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَإِنَّهُ لَا يَتَّفِعُ بِهَا يَسْمَعُ مِنَ الْمَوَاعِظِ، فَكَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فَسَّرَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿إِنْ﴾ بِ(مَا) فَقَالَ: [﴿إِنْ﴾] مَا ﴿أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مُنْذِرٌ لَهُمْ] وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ﴿إِنْ﴾ نَافِيَةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مِنْ عِلَامَاتِ ﴿إِنْ﴾ النَّافِيَةِ الْإِسْتِثْنَاءُ بِأَنَّ تَتَّبَعُ بِ﴿إِلَّا﴾، وَالْمَعْنَى: مَا أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ لَهُمْ، وَالنَّذِيرُ كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ الْمُعْلِمُ إِعْلَامًا يَتَّضَمَّنُ التَّخْوِيفَ، فَالْإِعْلَامُ الْمُتَّضَمِّنُ التَّخْوِيفَ يُسَمَّى إِنْدَارًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هَلْ هَذَا الْحَضْرُ حَقِيقِيٌّ أَوْ إِضَافِيٌّ؟

الجواب: إِضَافِيٌّ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ؛ لَكِنِ الْمَقَامَ هُنَا يَقْتَضِي أَنَّ يُذَكَّرَ الْإِنْدَارُ فَقَطْ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَارَعَةِ الْكُفَّارِ، وَمُقَارَعَةِ الْكُفَّارِ تَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْدَارِ أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَاجُ إِلَى التَّبَشِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ تَكُونُ مُقَابِلَةً بَيْنَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَالْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوصَلَ الْهُدَايَةَ إِلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَلَكِنْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْذِرَهُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَقَامُكَ، مَقَامُكَ إِنْدَارٌ، أَمَّا أَنْ تُوصَلَ الْهُدَايَةَ إِلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ الْمَوْتَى فَهَذَا لَيْسَ إِلَيْكَ.

وصدق الله عَزَّجَلْ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَهْدِيََ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَشْفَقَ النَّاسِ إِلَيْهِ وَهُوَ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَشَاءَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يَهْدِيََ أَقْوَامًا مِنْ فَارِسٍ وَالرُّومِ مِنْ أْبَعَدِ النَّاسِ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَسَبًا وَمَكَانًا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّجَلْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

### من فوائد الآيات الكريمة (١٩-٢٢):

الفائدة الأولى: بلاغة القرآن؛ حيث ينتقل بسامعه وقاربه من الأمثال الحسيّة إلى الأمثال المعنويّة؛ ذلك لأنّ الأمثال الحسيّة لا يمتري فيها أحدٌ، وليس لأحد أن يجادل فيها؛ لأنك إذا قلتَ مثلاً: (هذه لمبة، وهذا نورها) لا أحد ينازعك فيها؛ لأنه انتقل من المحسوس إلى المعقول المعنويّ.

الفائدة الثانية: فضيلة البصر؛ لأنّ نفى الاستواء بين الأعمى والبصير معناه تفضيل البصير؛ ولهذا أكثر من دعاء الله عَزَّجَلَّ: «اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا»<sup>(١)</sup>.

وكذلك أيضاً نقول في: ﴿وَلَا الظُّلْمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ فإن فيها من بلاغة القرآن ما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وفيها: الانتقال من المثل الحسيّ إلى المثل المعنويّ.

الفائدة الثالثة: تفضيل النور على الظلمة؛ لأنّ نفى الاستواء فيها معناه تفضيل النور على الظلمة.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِذَا انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَثَلِ الْحِسِّيِّ إِلَى الْمَعْنَوِيِّ فَإِنَّ طَرِيقَ الْهُدَى وَاحِدٌ وَطُرُقُ الضَّلَالِ مُتَفَرِّقَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ وذكرنا شاهداً من الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَرَى الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فَهناكَ طَاغُوتٌ يُجْرُّهُمْ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ، وَهَذَا مَثَلٌ حِسِّيٌّ، انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى الْمَثَلِ الْمَعْنَوِيِّ، وَهُوَ ظِلُّ الْجَنَّةِ وَحَرُّ النَّارِ وَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟  
الجواب: ظِلُّ الْجَنَّةِ؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ وَإِيَّاكُمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْاِسْتِواءِ بَيْنَ الظُّلِّ وَالْحَرِّ أَمْرٌ مَعْلُومٌ، وَتَأْذِي الْإِنْسَانِ بِالْحَرِّ أَيْضًا أَمْرٌ مَعْلُومٌ؛ فِيهِ: التَّحْذِيرُ مِنْ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ.

وَهَلْ يُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ: لَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ الظِّلَّ، وَأَنْ يَطْلُبَ النُّورَ؟ الْجواب: نَعَمْ؛ لِأَنَّ مَا دَمْنَا ذَكَرْنَا أَنَّ هَذَا النَّفْيَ مَعْنَاهُ تَفْضِيلُ النُّورِ عَلَى الظُّلِّمَاتِ وَتَفْضِيلُ الظِّلِّ عَلَى الْحَرِّ فَلَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ الْأَفْضَلَ، بَلْ قَدْ يَجِبُ أَحْيَانًا؛ وَهَذَا لِمَا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ زَحَامًا وَرَجُلًا يُظَلِّلُ عَلَيْهِ وَالزَّحَامُ عَلَيْهِ، لَمْ يَقُلْ: (لَا تُظَلِّلُوا عَلَيْهِ)، وَلَكِنْ قَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَنْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ وَاشْتَدَّ الْحَرُّ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ»، رَقْمٌ (١٩٤٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ جَوَازِ الصَّوْمِ وَالْفَطْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لِلْمَسَافِرِ، رَقْمٌ (١١١٥)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فِيهَا أَيْضًا سَبَبٌ فِي نَظَائِرِهَا، وَفِيهَا فَضِيلَةُ الْعِلْمِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وَالْعِلْمُ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ عَلَى الْأَصَحِّ: الْعِلْمُ سِلَاحٌ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَحْمِلُ الْعِلْمَ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَلَا يَنْفَعُ غَيْرَهُ، فَهُوَ سِلَاحٌ، لَكِنْ إِذَا نَفَعَتْ نَفْسَكَ وَغَيْرَكَ صَرْتَ مُجَاهِدًا بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فَالْعِلْمُ سِلَاحٌ يَتَوَصَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فِيهِ الْحَثُّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ حَيَاةُ الْأُمَّةِ كَمَا أَنَّهُ حَيَاةُ الْفَرْدِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَحْيَا الْأُمَّةُ حَيَاةً - لَا أَقُولُ حَيَاةً بَهِيمِيَّةً، يُمَكِّنُ أَنْ تَحْيَا حَيَاةً بَهِيمِيَّةً بَدُونَ عِلْمٍ - لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَكُلُّ النَّاسِ يَنْشُدُونَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لَكِنْ مَا طَيَّبَهَا؟

الجواب: الْعِلْمُ، إِذَا أُنْمِرَ ثَمَرَتَهُ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ؛ حَتَّى أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسْمِعَ أَحَدًا، بَلِ الْمُسْمِعُ هُوَ اللَّهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فِيهِ إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فِيهِ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ مَشِيئَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَشِيئَةَ الْمُطْلَقَةَ هُنَا وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ جَاءَتْ مُطْلَقَةً مُقَيَّدَةً بِالْحِكْمَةِ؛ لِقَوْلِهِ

تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

الفائدة الثانية عشرة: أنه ينبغي للإنسان، بل يجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ وحده، في جلبِ المنافع ودفعِ المضارِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإذا كان يُسمِعنا الله، فلا تُسألُ من غيرِه، لا تُسألُ إلا من الله.

ولهذا ينبغي لنا دائماً أن نكون داعينَ لله عزَّ وجلَّ ونحنُ نشعرُ بأننا مُفتَقرون إلى الله، وأن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يحقق لنا ما نرجوه وما ندعوه به، لا تعتمدُ على نفسك وتنسى الله، افزعْ إلى الله دائماً في الدُّعاء، في السُّجود، وبين الأذان والإقامة، وفي كلِّ مواطنِ الإجابة الرميَّة والمكانيَّة والحاليَّة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ثم اعلم أيضاً أنَّ الدُّعاء مع كونك تطلب حاجتك من الله هو نفسه أيضاً عبادةً تتقرب بها إلى الله، فتكسبُ بهذا الدُّعاء ثمرتين: الثمرة الأولى: الثواب على هذه العبادة، والثمرة الثانية: حصولُ المطلوبِ أو دفعُ المكروه.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يستطيعُ أن يُسمعَ من في القبور؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ فلو أنَّ الرُّسولَ ﷺ ذهب إلى أهلِ المقبرة ودعاهم وقال: (يا أهلِ القبورِ؛ آمنوا بالله ورسولِهِ، يا أهلِ القبورِ، اعملوا صالحاً) لا يسمعونَ.

فإن قلت: ما الجوابُ عما ثبتَ في الحديث الصحيح من أنَّ النبيَّ ﷺ وقف على قتلى المشركين في قلبِ بدرٍ، وجعلَ يدعوهم بأسمائِهِم وأسماءِ آبائِهِم، فقال: (يا أبا جهلِ بنِ هشام، يا شيبَةَ بنَ ربيعة، يا عتبَةَ بنَ ربيعة، يا أميَّةَ بنَ خلفٍ: هل وجدتم ما وعد ربُّكم حقاً فإنِّي وجدتُ ما وعدني ربي حقاً؟) قالوا: كيف تكلم



قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»<sup>(١)</sup>؛  
يعني: أأنهم يسمعون، فما الجواب؟ قال قتادة: «أحيأهم الله حتى أسمعهم قوله  
توبيخًا وتصغيرًا»<sup>(٢)</sup> ومعنى كلامه أنه خاص بهؤلاء.

فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في الحديث الصحيح أيضًا من أن النبي ﷺ  
قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»<sup>(٣)</sup>؟  
فالجواب: أن هذا عند الدفن، وأيضًا لا يلزم من سماع قرع النعال أن يسمع  
الكلام والدعوة.

وإن قلت: ما الجواب عما رواه أبو داود وغيره وصححه ابن عبد البر<sup>(٤)</sup>  
ولم يخالفه ابن القيم رحمه الله<sup>(٥)</sup> من أنه: «ما من مسلم يسلم على قبر كان يعرفه في  
الدنيا إلا رد الله عليه روحه فردَّ عليه السلام».

فالجواب: أن يقال: هذا في حال مخصوصة دل عليها الحديث، ولا يلزم من  
هذا، إذا سمع (السلام عليك) وهو دعاء له أن يرُدَّ السلام على من سلم، أن يسمع  
كل من تكلم عنده.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤)، من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في

عذاب القبر، رقم (١٣٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب  
الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، رقم (٢٨٧٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (١/١٨٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) الروح (ص ٥).

فإن قلت: ما الجواب عما قاله الفقهاء من أن الميت يتأذى بقول المنكر عند قبره أو فعل المنكر عند قبره؟

فالجواب: أن قول الواحد من الناس غير الرسول ﷺ ليس بحجة، وإنما يُحتج له لا به، ثم على رأيهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَحْمِلُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: بِمُسْمِعٍ مَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُهُمْ سَمَاعًا يَسْتَجِيبُونَ لَهُ، وَهَذَا هُوَ الْجَوَابُ الْأَخِيرُ عَنِ قَوْلٍ مَن يَقُولُ: إِنَّ الْمَوْتَى يَسْمَعُونَ مَا يُقَالُ عِنْدَهُمْ وَيُحَاطَبُونَ بِهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: سَمَاعًا يَسْتَجِيبُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ نَحْوَ هَذِهِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّصُّ فَقَطْ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، فَلَا يَجْزِمُ بِالنَّفْيِ، وَلَا يَجْزِمُ بِالِاثْبَاتِ، نَعَمْ، لَهُ أَنْ يَجْزِمَ بِالنَّفْيِ وَيَجْعَلَ مَا ثَبَتَ بِهِ الْحَدِيثُ مِنَ السَّمَاعِ مُحْصَصًا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ إِلَّا مُبَلِّغًا وَمُنذِرًا، وَلَيْسَ فِي يَدِهِ جَلْبُ الْهِدَايَةِ لِأَحَدٍ، وَلَا دَفْعُ الضَّرَرِ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يَعْنِي: مَا أَنْتَ هَادٍ لِلنَّاسِ هِدَايَةَ تَوْفِيقٍ وَإِرْشَادٍ، وَلَكِنَّكَ مُنذِرٌ فَأَنْتَ هَادٍ هِدَايَةَ بَيَانٍ فَقَطْ.



## الآية (٢٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

•••••

قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ الإرسال بمعنى الأمرِ بالتبليغ أو بقضاءِ الحاجة؛ فمثلاً تقول: (أَرْسَلْتُ غلامي يُخْبِرُ فلانًا بكذا وكذا؛ يعني أَمَرْتُهُ بالتبليغ) أَرْسَلْتُ غلامي يشتري كذا وكذا؛ أي: أَمَرْتُهُ أَنْ يَشْتَرِيَ الحاجة.

قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الباءُ لِلتَّعْدِيَةِ؛ أَي أَنَّا أَعْطَيْنَاكَ حَقًّا وَأَرْسَلْنَاكَ بِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ وَصْفًا لِلرِّسَالَةِ؛ يَعْنِي: أَرْسَلْنَاكَ رِسَالَةً حَقًّا، وَالْمَعْنَى يُخْتَلِفُ.

فعلى المعنى الثاني يكون معنى الآية أن رِسَالَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ، وَعَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ يَكُونُ مَعْنَاهَا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بِالْحَقِّ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى مَتَلَاذِمِينَ، لَكِنَّهُمَا مُخْتَلِفَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَوْرَدُ؛ فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ مَوْرَدُ الْوَصْفِ الرِّسَالَةَ نَفْسَهَا، وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ مَوْرَدُ الْوَصْفِ الْمُرْسَلَ بِهِ.

قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: أَعْطَيْنَاكَ حَقًّا تُبَلِّغُهُ لِلنَّاسِ ﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي إِنَّ رِسَالَتَنَا إِلَيْكَ حَقٌّ، فَيَكُونُ وَصْفًا لِلرِّسَالَةِ نَفْسَهَا؛ يَعْنِي: لَسْتُ بِكَاذِبٍ بَلْ أَنْتَ صَادِقٌ، هَذَا عَلَى جَعْلِنَا الْوَصْفَ عَائِدًا لِلرِّسَالَةِ أَمَّا إِذَا جَعَلْنَاهُ عَائِدًا عَلَى

المُوصوفِ به، فالمعنى أن ما جئت به ليس بباطلٍ، بل هو صدقٌ في الأخبارِ وعدلٌ في الأحكامِ.

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿بَشِيرًا﴾]: من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ إليه [﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾] يعني أنك تُبَشِّرُ وتُنذِرُ، لكن تُبَشِّرُ بالخيرِ من أجاب، وتُنذِرُ بالعقوبة من لم يُجِبْ وعصى؛ وذلك لأنَّ الشَّرْعَ يَتَضَمَّنُ أوامِرَ ونواهيَ، فمن ارتكَبَ النَّوَاهِيَ أو تَرَكَ الأوامِرَ واجهناه بالإنذارِ، ومن فعل الأوامِرَ واجتَنَبَ النَّوَاهِيَ قابلناه بالبشارةِ.

قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: ﴿وَإِنْ﴾ نافية، و﴿مِنْ﴾ حرف جرٌّ زائدٌ زائدٌ - ويجوز أن نقول: (زائدٌ زائدًا) على أن (زائدًا) حالٌ من الضَّمير المُسْتَتِرِ في (زائد) الأولى - المِهْمُ أَنَّهُ زَائِدٌ لَفْظًا زَائِدٌ مَعْنَى، و﴿أُمَّةٍ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَجُمْلَةٌ ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ خَبَرُهَا.

والأُمَّةُ هي الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ التي على مَنَهَجٍ واحدٍ؛ كدين واحد، أو قَوْمِيَّةٍ واحدَةٍ، أو ما أشبه ذلك، فهذه الأُمَّةُ، وليس كُلُّ طَائِفَةٍ تُسَمِّيها أُمَّةً؛ فمثلًا: أنتم الآن لا تُسَمِّيكم أُمَّةً إِلَّا لِأَنَّكُمْ على طريقٍ واحدٍ، لكن لو اجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ في مكانٍ مُتَشَتِّينَ، كُلُّ واحدٍ له مَنَهَجٌ لا نقول: هؤلاء أُمَّةٌ، إلا إذا كانوا من قبيلةٍ واحدَةٍ، أو ما أشبه ذلك.

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾] سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نَبِيٌّ يُنذِرُهَا].

يعني: كُلُّ الأُمَّمِ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا؛ لتقوم عليهم الحُجَّةُ؛ لأنَّه إذا لم يَكُنْ للنَّاسِ نَذِيرٌ فَإِنَّ لَهُمْ حُجَّةً على رَبِّهِمْ، يقولون: يَا رَبَّنَا مَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رُسُلًا.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- الكلام على ما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من الإشكالات، والجواب عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ، والإرسالُ هو تحمُّيلُ المرسلِ شيئًا يُبلِّغُه إلى المرسلِ إليه؛ والجملةُ مؤكِّدةٌ بـ(إن)، وتوكيدُ الجملةِ يدلُّ على الاهتمامِ بها؛ من أجلِ أن يؤمنَ الإنسانُ بها إيمانًا كاملاً.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الباءُ هنا إمَّا أن تكونَ للتَّعديَّةِ، تقول: (أرسلته بكذا) لبيانِ المرسلِ به، وإمَّا أن تكونَ للمُصاحبةِ.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ [بألهدى] وكأنه أخذ هذا التفسيرَ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، ولكنَّ الصَّحيحَ في الآية أن المرادَ بالحقِّ ضدُّ الباطلِ، فيشملُ الصِّدقَ في الخبرِ والعَدْلَ في الأحكامِ؛ أي: بالصِّدقِ في الأخبارِ والعَدْلَ في الأحكامِ، وليس الهدى فقط، بل الهدى والصِّلاحَ، والإصلاحَ، وغير ذلك.

وأما في قوله تعالى: ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فنعم، ممكِنٌ أن نقول: المرادُ بألهدى هناك العِلْمُ النَّافِعُ؛ لأنَّه ذَكَرَ الهدى وذكرَ الدِّينَ، فذَكَرَ العِلْمَ والعَمَلَ، أمَّا هنا فلا يَنْبَغِي أن نَقْتَصِرَ على قولنا: (الحقُّ)؛ أي: الهدى، بل نَجْعَلُهُ أَعَمَّ من ذلك؛ لِيَشْمَلَ الهدى الذي هو العِلْمُ، ويشملُ دِينَ الحَقِّ الذي هو الرُّشْدُ والصِّلاحُ

والإصلاح، فالرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد تَضَمَّنَتْ رسالته العلوم النَّافِعَةَ كُلَّهَا والصَّلَاحَ لِلخَلْقِ فِي معاشِهِمْ ومعادِهِمْ، وما جاء به فقد تَضَمَّنَ الصِّدْقَ فِي الأَخْبَارِ والعَدْلَ فِي الأَحْكَامِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ حال من الكافِ فِي ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ بِمَعْنَى: (مُبَشِّر).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ من أَجَابَ إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ إليه] والبِشَارَةُ هي الإخبار بما يَسُرُّ، وقد تُسْتَعْمَلُ فِي الإخبار بما يَسُوءُ كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وأما الإِنذارُ فهو التَّخْوِيفُ؛ أَي: الإِغْلَامُ بما يُخَوِّفُ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت رسالته بشارَةً وإِنذارًا؛ لأنَّها إمَّا أمرٌ مُبَشِّرٌ فاعِلُهُ بما يَفْتَضِيهِ ذلك الأمرُ، وإمَّا نهيٌ مُخَوِّفٌ صاحِبُهُ من ارتكابه، فالشَّرِيعَةُ كُلُّهَا بِشَارَةٌ وَنَذارَةٌ.

وقَوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ من أَجَابَ إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ] قد يُقال: إنَّ الأوَّلَى إِبْقَاءُ الآيَةِ على عُمومِها؛ أَي: بِشِيرًا لِمَن أَجَابَ إليه وَنَذِيرًا له فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ؛ لأنَّ من أَجَابَ أيضًا يَحْتَاجُ إلى إِنْذارٍ، فتكون البِشَارَةُ والإِنذارُ شامِلَةً لِمَن أَجَابَ وَمَن لم يُجِبْ، حتَّى من لم يُجِبْ مُبَشِّرٌ إن أَجَابَ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: ﴿وَإِن﴾ بِمَعْنَى (ما) فِيهِ نَافِيَةٌ، وقد ذَكَرنا لـ (إن) النَّافِيَةَ ضابطًا، لَكِنَّهُ لا يُحِيطُ بِجَمِيعِ مَوادِدِها، وهو أَنَّهُ: إِذا أَتَتْ بِعَداها (إِلا) فِيهِ نَافِيَةٌ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِن هَذَا إِلَّا خَلْقُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] ومنها أيضًا هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ

إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

﴿مَنْ﴾ زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ؛ زَائِدَةٌ إِعْرَابًا، زَائِدَةٌ مَعْنَى.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَكُونُ زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ؟

قلنا: لِأَنَّ زَادَ يُسْتَعْمَلُ لِأَزْمًا وَمُتَعَدِّيًا، فيقال: (زاد الطَّيْنُ بِلَّةً) هذا مُتَعَدِّ،

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] هذا مُتَعَدِّ أَيْضًا، وتقول: (زاد المَالُ) فهذا لازم، فل(زائِدَةٌ)

الأولى من النَّاقِصِ الَّذِي لَا يَتَعَدَّى، و(زائِدَةٌ) الثانية من المُتَعَدِّي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُمَّةٌ﴾: وَأُمَّةٌ مُبْتَدَأٌ مَرْفُوعٌ بِضَمَّةٍ مُقَدَّرَةٌ عَلَى آخِرِهَا مَنَعٌ مِنْ

ظَهْوَرِهَا اشْتِغَالُ الْمَحَلِّ بِحَرَكَةِ حَرْفِ الْجُرِّ الزَّائِدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿خَلَا﴾ بِمَعْنَى سَلَفَ

﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نَبِيٌّ يُنذِرُهَا] وَالْأُمَّةُ هُنَا بِمَعْنَى الطَّائِفَةِ، وَتَأْتِي فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ

أَوْجُهٍ:

فَتَكُونُ بِمَعْنَى (الطَّائِفَةِ) كَمَا هُنَا.

وَتَكُونُ بِمَعْنَى (الزَّمَنِ) مِثَالِهَا: ﴿وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

وَتَكُونُ بِمَعْنَى (الدِّينِ وَالْمِلَّةِ) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وَتَكُونُ بِمَعْنَى (الإمام) مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾

[النحل: ١٢٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ أَي: سَلَفَ وَمَضَى ﴿نَذِيرٌ﴾ يُنذِرُهَا؛

وَذَلِكَ لِتَقْوَمِ الْحُجَّةُ عَلَى الْعِبَادِ؛ لِأَنَّ الْعُقُولَ مِمَّا بَلَّغَتْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَعْرِفَ مَا يَجِبُ

الله عَزَّجَلَّ من الحُقوق، كما لا يُمكن أن تُعرَف ما يُجِبُّ له من الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ على سبيل التَّفْصِيلِ، وإن كان العَقْلُ يُدْرِكُ أَنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أن يَعْْبُدَ خَالِقَهُ، ويُدْرِكُ أَنَّ الخَالِقَ لا بُدَّ أن يكون مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الكَمَالِ، لكنَّ على سبيل الإِجْمَالِ لا على سبيل التَّفْصِيلِ، فمن أَجْلِ ذلك أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ؛ لتقوم الحُجَّةُ على العباد.

فما من أُمَّةٍ إِلا خَلا فيها نَذِيرٌ، قد يكون الأنبياءُ في وقتٍ واحِدٍ في أُمَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وقد يكون الأنبياءُ في وقتٍ واحِدٍ في مكانٍ واحِدٍ، أَمَّا أن يوجد مكانٌ واحِدٌ لم يكن فيه نبيٌّ فهذا لا يُمكن، لا بُدَّ أن تكون جميعُ الأُمَمِ قد بعث إليها الرُّسُلُ، ونظير هذا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بُتوتُ رِسالَةِ النَّبِيِّ ﷺ على وَجْهِ مُؤَكَّدٍ لا مَرِيَّةَ فيه، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾.

الفائدة الثانية: فَضِيلَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِكَوْنِهِ رِسُولَ رَبِّ العالَمِينَ، فَإِنَّ الرِّسالَةَ مَقامٌ عَظِيمٌ لا يَنالُها إِلا من هو أَهْلٌ لها؛ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويقولُ عَزَّجَلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وهم؛ أَي: الرُّسُلُ مُفَضَّلونَ على من سواهم من الخَلْقِ، فِفي الآيَةِ فَضِيلَةٌ وَمَنْقَبَةٌ لِرِسُولِ اللهِ ﷺ.

الفائدة الثالثة: بَيانُ ما يَشتمَلُ عليه دينُ الرُّسُولِ ﷺ من الحَقِّ الذي ضِدُّه الباطلُ، والباطلُ إن كان في الأَخْبَارِ فهو الكَذِبُ، وإن كان في الأَحْكامِ فهو الجورُ والظُّلم.



وعليه فرسالة النبي ﷺ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْحَقِّ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ؛ ففيه بيان فضيلة هذه الشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ.

الفائدة الرابعة: أن كل ما كان حَقًّا فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِهِ سِوَاءَ نَصَّتْ عَلَيْهِ بِمَعْنَاهِ الْخَاصِّ أَوْ بِالْمَعْنَى الْعَامِّ، وَمِنْ ثَمَّ أُثْبِتَ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ أَوْ بَعْضَ الْأُصُولِيِّينَ مَا يُسَمَّى بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ، وَجَعَلُوهَا دَلِيلًا مُسْتَقْلَلًا، وَالصَّوَابُ أَنَّهَا لَيْسَتْ دَلِيلًا مُسْتَقْلَلًا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَصَالِحَ إِنْ شَهِدَ الشَّرْعُ لَهَا فَهِيَ مِنَ الشَّرْعِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نَجْعَلَهَا دَلِيلًا مُسْتَقْلَلًا، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهَا فَلَيْسَتْ بِمَصْلَحَةٍ، وَصَاحِبُهَا الَّذِي زَعَمَهَا مَصْلَحَةً يُعْتَبَرُ وَاهِمًا؛ فَكُونَنَا نُثْبِتُ دَلِيلًا خَامِسًا نُسَمِّيهِ الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ هَذَا خَطَأً؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَصْلَحَةَ إِنْ شَهِدَ لَهَا الشَّرْعُ فَهِيَ مِنَ الشَّرْعِ دَلٌّ عَلَيْهَا الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهَا فَلَيْسَتْ بِمَصْلَحَةٍ، فَلَا تُعْتَبَرُ.

ومن ذلك أيضًا زعمُ بعضهم استحداثَ دليلٍ سادسٍ: وهو استصحابُ الحال؛ بِمَعْنَى أَنَّ الْأَمْرَ يَبْقَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّى يَتَيَّنَ ارْتِفَاعُهُ وَانْتِفَاؤُهُ، هَذَا أَيْضًا لَيْسَ بِصَوَابٍ؛ يَعْنِي: لَا يَصِحُّ أَنْ نَجْعَلَهُ دَلِيلًا مُسْتَقْلَلًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ.

فقد شكِّيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الرَّجُلُ يُحِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»<sup>(١)</sup>.

إذن: نُبْنِي عَلَى بَقَاءِ الْأَصْلِ وَاسْتِصْحَابِ الْحَالِ، وَحِينَئِذٍ لَا نَحْتَاجُ أَنْ نَجْعَلَ هَذَا دَلِيلًا مُسْتَقْلَلًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على من يقن الطهارة ثم شك في الحدث..، رقم (٣٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنما جعل بعض العلماء هذين الدليلين مُستَقَلِّين؛ لأنَّ الإنسانَ يَنقَدِحُ في ذهنه أنَّ هذا شيءٌ مُنفَصِلٌ عن دَلالةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فيذْهَبُ ويَجْعَلُهُ دليلاً مُستَقِلاً، وإلا فلو تَأَمَّلَ لوجد أنَّ ذلك موجودٌ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وأنَّه لا حاجةَ إلى أن تُثبِتَهُ دليلاً مُستَقِلاً.

ولقد نَجَّرَ بعضُ المتأخِّرينَ على الدليلِ الأوَّلِ وهو المصالحُ المُرسَلَةُ حتى أدخل فيه ما شهد الشَّرْعُ بِبُطْلانِهِ، ومن ذلك قَوْلُهُم بِإِجازَةِ الرِّبَا البَنَكِيِّ، وأنَّه يجوزُ بناءً على ما تَوَهَّموه من المصالحِ المُرسَلَةِ، وقالوا: إن اِقْتِصادِيَّاتِ العالَمِ في العَصْرِ الحاضِرِ لا تَتِمُّ إلا باستعمالِ هذه الطَّرِيقَةِ، فالألفاظُ والأَساليبُ إذا جاءت على غيرِ ما جاء في الكِتَابِ والسُّنَّةِ يحصلُ بها مَفْسَدَةٌ.

فهنا أدخلوا شيئاً شهد الشَّرْعُ بِبُطْلانِهِ، وإذا شهد الشَّرْعُ بِبُطْلانِهِ فإننا نَشْهَدُ أنَّه ليس فيه مَصْلَحَةٌ، وأنَّ المَصْلَحَةَ المَوْهُومَةَ منه يَحْلُفُها مَفاسِدُ كثيرةٌ؛ فلهذا نحن نرى ألاَّ تُجْعَلُ دليلاً مُستَقِلاً، وإلا فليسَ من الشَّرْعِ وليس فيه مَصْلَحَةٌ، والمصالحُ المَوْهُومَةَ فيه إذا كانت مُخالِفةً للشَّرْعِ فلا بُدَّ أن يَحْلُفُها مَفاسِدُ كثيرةٌ.

الفائدةُ الخامسةُ: أنَّ رِسالَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَتَضَمَّنُ من حيثِ الجِزاءِ أمرينِ؛ هما: البِشارةُ والإِنْذارُ؛ فالبِشارةُ لمن أطاعَ، والإِنْذارُ لمن خالَفَ سِواهُ كانت تلك الطَّاعَةُ عامَّةً أو في بَعْضِ الأشياءِ، وكذلك نقولُ في المُخالِفةِ.

الفائدةُ السادسةُ: أنَّ الإنسانَ يَجْتَمِعُ فيه خَصْلَتانِ مُتضادَّتانِ في المعنى وإن كانتا مُتَّفِقَتينِ في المرادِ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لأنَّ المَبْشُرَ هو الذي يَعِدُ النَّاسَ بِالْحَيْرِ وَيَفْتَحُ لَهُم بابَ الرَّجاءِ، والمُنْذِرُ هو الذي يُخَوِّفُهُم مِنَ الصَّارِ، فبينهما من حيثِ المعنى تَقابُلٌ، وهما يَجْتَمِعانِ في عَيْنِ واحِدَةٍ.

وهل ننتقل من هذه الفائدة إلى: أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال الإيمان وخصال الكفر؟

الجواب: إذا رأيت جيشاً مُقبلاً على البلد فأنا نُذِرُهُم لا أُبَشِّرُهُم، لكن إذا رأيت الجيش قد انصرف فأنا أُبَشِّرُهُم.

وعلى كُلِّ حالٍ: المعلوم من مذهب السُّنَّة والجماعة - وهو الحق - أن الإنسان قد تجتمع فيه خصال الإيِّان وخصال الكفر، فيكون مؤمناً من وَجِهٍ وكافراً من وَجِهٍ.

كقوله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم كُفْرٌ؛ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيْتِ»<sup>(١)</sup>، وقال النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(٢)</sup> مع أن قتاله لا يُخْرِجُهُ من الإيِّان؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٩٠﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

الفائدة السابعة: أن مآل الناس إما إلى جنة وإما إلى نارٍ، وليس ثمة دارٌ ثالثة؛ لأنَّ البشارة بالجنة والإنذار بالنار، وليس هناك دارٌ ثالثة يصل الناس إليها.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيِّان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب، رقم (٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيِّان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيِّان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفائدة الثامنة: التَّرعِيبُ في طاعة الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ والتَّخْوِيفُ من مُخَالَفَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

الفائدة التاسعة: لُطْفُ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ يَعْنِي: إِلَّا لِنَرْحَمَ بِكَ الْعَالَمِينَ، وَلَيْسَ الرَّسُولُ نَفْسُهُ هُوَ الرَّحْمَةُ، وَلَكِنَّهُ أُرْسِلَ لِنَرْحَمَ اللَّهُ الْخَلْقَ بِرِسَالَتِهِ.

الفائدة العاشرة: بُطْلَانُ الْاِحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَلَوْ كَانَ الْاِحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ لَوْ كَانَ ثَابِتًا لَمْ يَرْتَفِعْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ لَا يَرْتَفِعُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، فَالرُّسُلُ أُرْسِلَتْ لَهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَرَحْمَةً بِهِمْ أَيْضًا، لِهَذَا وَلِهَذَا.

الفائدة الحادية عشرة: بَيَانُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ حَتَّى تُنْكَرَ رِسَالَتُهُ، وَيُقَالُ: كَيْفَ جَاءَ هَذَا الرَّجُلُ بِرِسَالَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَيَشْهَدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

الفائدة الثانية عشرة: قُصُورُ الْعُقُولِ عَنِ مَعْرِفَةِ مَا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهَا لَوْ اسْتَقَلَّتْ بِذَلِكَ مَا احْتَاجَتْ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

الفائدة الثالثة عشرة: بُطْلَانُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ الَّذِينَ بَنَوْا عَقِيدَتَهُمْ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ، وَقَالُوا: مَا اقْتَضَى الْعَقْلُ إِثْبَاتَهُ لِلَّهِ أَثْبَتْنَاهُ سِوَاهُ كَانَ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَمْ لَمْ يُذْكَرْ، وَمَا نَفَاهُ الْعَقْلُ وَجَبَ عَلَيْنَا نَفْيُهُ وَإِنْ ذُكِرَ فِي

الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وما لم يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَى نَفْيِهِ وَإِثْبَاتِهِ فَإِنَّا نَتَوَقَّفُ فِيهِ، وَأَكْثَرُهُمْ قَالُوا: نُنْفِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دَلَالَةِ الْعَقْلِ عَلَى إِثْبَاتِهِ، إِذَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى إِثْبَاتِهِ وَجَبَ نَفْيُهُ لِعَدَمِ وُجُودِ الدَّلِيلِ.

وهذا يؤخذ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْعُقُولُ هِيَ الْمَرْجِعَ مَا احْتَجَّ إِلَى إِزْسَالِ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ مُشَارَكَةٌ فِيهِ حَتَّى أَعْظَمَ النَّاسَ مَنْزِلَةً لَا يَشَارِكُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا يَخْتَصُّ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَقَامَ الْمُرْسَلِ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الْمُرْسَلِ.



الآية (٢٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [فاطر: ٢٥].

•••••

قال المفسر رحمه الله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي: أهل مكة [هذا تفسير لـ (الواو) في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني: فليس يدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من قبلهم كذبوا الرُّسُلَ، وهذا كقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا ﴾ [الأنعام: ٣٤]؛ يعني: ليس الأمر مُقتَصِرًا على التَّكْذِيبِ فقط، بل تكذيبٌ وأذيةٌ بالقول وأذيةٌ بالفعل، بل أعظمُ من ذلك القتل؛ فإن كثيرًا ممن أرسل الله إليهم الرُّسُلَ قتلوهم.

وخصه رحمه الله بأهل مكة، والصحيح أنه ليس خاصًا بأهل مكة، بل أهل مكة وغيرهم، فالرُّسُلُ كذَّبه أهل مكة وكذَّبه أهل الطائف<sup>(١)</sup> وغيرهم من المشركين، فالصواب العموم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: فاعل، والمفعول محذوف؛ أي: فقد كذب الذين من قبلهم رُسُلهم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وانظر: سيرة ابن هشام (١/٤١٩-٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ومع ذلك كفروا ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هذه الباء للمصاحبة؛ يعني: جاؤوا مُصْطَحِينَ هذه الأشياء، ويُحْتَمَلُ أَنَّهَا لِلتَّعْدِيَةِ، كما تقول: (أَتَيْتُ بِدِرْهَمٍ، أَتَيْتُ بِشَرَابٍ)، وما أشبه ذلك؛ يعني: أتوا بالبيِّنة التي تُبَيِّنُ صِدْقَهُمْ، وَتَفْسِيرُ الْمُفَسِّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْبَيِّنَاتِ بِالْمُعْجَزَاتِ، هذا هو تعبيرٌ كثيرٌ من المتأخِّرين، ولكنَّ الصَّوَابَ أن يُقال: (بالآيات)، وأنَّ البيِّناتِ هذه هي صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: (بالآياتِ البيِّناتِ)؛ أي: الظَّاهِرَةِ.

والآياتُ التي جاءت بها الرُّسُلُ حِسِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ، فمن الآياتِ الحِسِيَّةِ: ما جاء به موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من العصا، واليد، وغير ذلك، ومن الآياتِ المَعْنَوِيَّةِ: ما جاء به من التَّوْرَةِ، وكذلك عيسى وغيرهما من الرُّسُلِ، كلُّ رسولٍ لم يأتِ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ.

وقد ثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»<sup>(١)</sup>، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا مِنَ الْحُجَّةِ وَلَا مِنَ الرَّحْمَةِ أَنْ يُرْسَلَ رَسُولٌ إِلَى الْخَلْقِ يَسْتَبِيحُ دِمَاءَ الْمُخَالِفِينَ لَهُ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ بَدُونَ بَيِّنَةٍ حَتَّى لَوْ فُرِضَ أَنْ أَحَدًا كَذَّبَهُ وَهُوَ لَمْ يَأْتِ بِبَيِّنَةٍ لَكَانَ الْمَكْذُوبُ مَعْذُورًا؛ لِأَنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِقَامَةِ حُجَّتِهِ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ الرُّسُلِ آيَاتٍ تَشْهَدُ بِصِدْقِ مَا جَاؤُوا بِهِ.

وقد ذكر أهلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ الْآيَاتِ التي جاء بها الرُّسُلُ -ولا سيَّما الْآيَاتِ الحِسِيَّةِ- تكونُ مناسِبَةً لِأَبْرَزِ الْأُمُورِ فِي عَصْرِهِمْ، وَضَرَبُوا لَذَلِكَ مِثْلًا بِأَنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

موسى ﷺ جاء بالعصا واليد؛ لأنه اشتهر في عصره وبرز في عصره صناعة السحر؛ فجاء بأمرٍ فوق ما تَجِيءُ به السحرة؛ السحرة إنما يُمَوِّهونَ ويُحَيِّلونَ، وهو جاء بالحقيقة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقَوْنَا إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُحَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّا نَعْلَمُ [طه: ٦٦] يُحَيِّلُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، هُوَ أَلْقَى عَصَاهُ فَصَارَ حَقِيقَةً فِعْلِيَّةً تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ.

قالوا: وعيسى ﷺ أتى في وقتٍ تَرَقَّتْ فيه صناعة الطَّبِّ، فجاء بأمرٍ يَعْجِزُ عنه الأَطْبَاءُ ولا يَسْتَطِيعُونَهُ؛ جاء بإبراء الأَكْمَةِ، والأَبْرَصِ، وإحياء الموتى، وخلق صورة من الطِّينِ يَنْفُخُ فيها فتطير؛ أي: تكون طيراً حَقِيقِيًّا.

وهذا يَعْجِزُ عنه الطَّبُّ، فلا يُمَكِّنُ لأَيِّ طَبِيبٍ يكون أَمَامَهُ رَجُلٌ مَيِّتٌ، فيقول: (قم) فيقوم، أبداً، لا يُمَكِّنُ لأَيِّ طَبِيبٍ يأتي إلى المقابرِ وَيَقِفُ على القَبْرِ ويقول: (اخرج) فيخرج، وعيسى يفعل ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: ١١٠] فهو يُخْرِجُهُمْ من مَدَافِنِهِمْ، ولا يُمَكِّنُ لأَيِّ إِنْسَانٍ من الأَطْبَاءِ أو غَيْرِهِمْ أن يَخْلُقَ من الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فيه فيطير، أبداً.

فالأَكْمَةُ والأَبْرَصُ لا يُمَكِّنُ لأَحَدٍ أن يُبْرِئَهُ من المَرَضِ الذي أصابه بِمِثْلِ ما يُبْرِئُهُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ يُؤْتَى إِلَيْهِ بِذَوِي العاهاتِ وَيَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ وَيَبْرَأُ، يزول؛ يعني: هذا البَرَصُ الذي مَلَأَ الجِلْدَ أو أَكْثَرَهُ يُبْرِئُ يَدَهُ عَلَيْهِ فلا تتعدى يَدُهُ مكاناً إلا عاد على طَبِيعَتِهِ، هذا لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ من الأَطْبَاءِ مَهْمَا بَلَغَ في الطَّبِّ أن يصل إلى هذه الحال.



قالوا: وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتى إلى قومٍ قد بَلَغُوا في البَلَاغَةِ ذِرْوَتَهَا، فجاء بكَلَامٍ لا يَسْتَطِيعُونَ مُبَارَاتَهُ أَبَدًا، وهو كَلَامُ اللَّهِ، وتَحَدَّاهُم اللهُ تَعَالَى في عِدَّةِ آيَاتٍ أن يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، أو بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، أو بِحَدِيثٍ مِنْهُ، فلم يَسْتَطِيعُوا.

المُهْمُّ: أن جَمِيعَ ما جَاءت به الرُّسُلُ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾: كَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ [الزُّبُرُ جَمْعُ زُبُورٍ، وهو ما يُزْبَرُ وَيُؤَثَّرُ، يعني: الكِتَابُ، ولو أن المُفَسِّرَ رَحِمَهُ اللهُ قال: (كَزْبُورٍ دَاوُدَ) لكان أَنَسَبَ لِلآيَةِ؛ لأنَّ صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ ما ذَكَر اللهُ عنها أَنَّها زُبُرٌ، ولكن ذَكَرَ: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ هو التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ [الصَّوَابُ أنَّ الكِتَابَ المُنِيرَ ليس التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، بل كُلُّ كِتَابٍ بَعَثَ اللهُ به الرُّسُولَ يُنِيرُ الطَّرِيقَ لِأُمَّتِهِ، فيشمل التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَالزُّبُورَ، وَصُحُفَ إِبْرَاهِيمَ، وغير ذلك، ما من رَسولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلا مَعَهُ كِتَابٌ، قال تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فلا يُمكن أن نقول: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرْسِلَ بدون كِتَابٍ أَبَدًا، لا بُدَّ أَنَّهُ أُرْسِلَ بِكِتَابٍ، لكن لا يَلْزَمُ من كونه أُرْسِلَ به أن يُذَكَرَ لنا هذا الكِتَابُ.

قوله: [فاصبر كما صبروا] وهل صَبَرَ الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجواب: نعم، صبر صَبْرًا لا يَصْبِرُهُ إِلا أُولُو العِزْمِ.

### من فوائد الآية الكريمة :

الفائدة الأولى: أن تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بيدع من البشر؛ فقد كذبت الأمم قبله ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾.

الفائدة الثانية: عناية الله تعالى بالرسول ﷺ بذكر ما يسئله ويهون عليه الأمر.

وذكر المصيبة الماثلة تقتضي تسليّة الإنسان وتهوين الأمر عليه؛ ولهذا لو جئت إلى مريض وقلت: (والله أنت اليوم طيب، ومرضك أهون من مرض فلان، فلان أصيب بمرض كذا وكذا) فإنه يتسلى بلا شك وكذلك لو أصيب بحادث، وقلت: إن فلانا أصيب بحادث أعظم فإنه يتسلى.

الفائدة الثالثة: إنذار المكذبين لرسول الله ﷺ؛ لأن الله ذكر كيف كان ﴿عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك، وقد أشار الله إلى هذا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠] يعني: لا تظنوا أن الدمار الذي لحق المكذبين السابقين؛ لا تظنوا أنه خاص بهم، بل إذا كذبتكم أصابكم ما أصابهم.

الفائدة الرابعة: أن الله عز وجل لم يترك الرسل هملاً، بل آتاهم من البيّنات ما يؤمن على مثله البشر؛ لقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

الفائدة الخامسة: تمام حكمة الله عز وجل ورحمته وإقامة حجته، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لأنه إنما أعطى هؤلاء الرسل البيّنات لتمام إقامة الحجّة والرحمة والحكمة.

الفائدة السادسة: أن من أعظم البيّنات ما جاءت به الرسل من الشرائع التي

تَضَمَّتْهَا الْكُتُبُ؛ وجه ذلك: التَّنْصِيصُ عَلَيْهَا مَعَ أَنَّهَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيْضًا هُوَ تَنْصِيصٌ أُعِيدَ مَعَهُ الْعَامِلُ ﴿بِالْيَنِّتِ وَيَالْزُبْرِ﴾ فَكَأَنَّهَا مُسْتَقِلَّةٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلنُّورِ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخَذَ بِهَا فَقَدْ أَخَذَ بِنُورٍ يَمْشِي بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَالْزُبْرِ وَيَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْمُفْرَدَ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْجِنْسُ صَارَ عَامًّا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَالْكِتَابِ﴾ هَذَا مُفْرَدٌ، وَلَكِنْ هَلِ الْكُتُبُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ كِتَابٌ وَاحِدٌ؟

الجواب: لا، بل هي كتبٌ كثيرةٌ بحسبِ الرُّسُلِ.



الآية (٢٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر: ٢٦].

•••••

قال المفسر رحمه الله: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بتكذيبهم [الباء للسببية في كلام المفسر رحمه الله، لكن بماذا أخذهم؟

بالعقاب، فقوم نوح أغرقهم، وقوم هود أتلّفهم بالريح، وقوم صالح بالرجفة والصيحة، وقوم لوط جعل عالي قراهم سافلها، فكلّ المكذّبين أخذهم الله عزّوجلّ؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

قول المفسر رحمه الله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك؛ أي: هو واقعٌ موقّعه [يعني: أن الاستفهام هنا للتقرير؛ يعني: فكان نكيري؛ أي: إنكاري عليهم بالعقوبة كان واقعاً موقّعه؛ ولهذا لو سُئلت: كيف كان إنكارُ الله لهم؟

الجواب: أن نقول: كان شديداً، وكان واقعاً موقّعه، فهو مطابقٌ للحكمة تماماً، وهو عقابٌ شديدٌ لم يُبقِ منهم أحداً.

•••••

## الآية (٢٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا  
الْوَانِعًا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧].

•••••

الاستفهام هنا للتقرير، وهذا هو الغالب فيما إذا أتى حرف النفي، أو إذا أتت  
أداة النفي بعد همزة الاستفهام؛ أن يكون للتقرير كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾  
[الشرح: ١]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، وقوله تعالى:  
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وأمثال ذلك، فإذا أتت أداة النفي بعد همزة  
الاستفهام فالغالب أن يكون الاستفهام للتقرير.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ﴾ حُذِفَتِ الْأَلِفُ لِلْجَازِمِ؛ لأن (لم) تَجْزِمُ، والفِعْلُ الْمُعْتَلُّ  
يُجْزَمُ بِحَذْفِ حَرْفِ الْعِلَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبْرٌ، والخبر فيها مُقَدَّمٌ وهو قوله  
تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾: صِفَةٌ لـ ﴿جُدَدٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿سُودٌ﴾  
قيل: إِنَّهُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ؛ أَي: وَسُودٌ غَرَايِبٌ، وقيل: إِنَّهُ عَلَى الْأَصْلِ، وَأَنَّ  
﴿سُودٌ﴾ تَقَعُ مَوْقِعَ التَّوَكِيدِ لِمَا قَبْلُهَا؛ لِأَنَّ الْغَرِيبَ هُوَ: الشَّدِيدُ السَّوَادِ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَعَلَّمَ] فَالرُّؤْيَةُ هُنَا عِلْمِيَّةٌ، وَعُلِّقَتْ

عن العَمَلِ بـ (أَنَّ) وما دَخَلَتْ عليه، فَإِنَّ (أَنَّ) وما دَخَلَتْ عليه تُعَلِّقُ أفعالَ القلوبِ عن العَمَلِ، ويُحْتَمَلُ أن تكون الرُّؤْيَةُ هنا بَصْرِيَّةً؛ يعني: (ألم تَنْظُرْ وَتُبْصِرْ)؛ لأنَّ ما ذُكِرَ يُرَى بالعينِ، وما كان يُرَى بالعينِ فَإِنَّه يجوز أن يُرادَ به الرُّؤْيَةُ بالعينِ، لكن إذا جعلناها علميَّةً كان ذلك أعمَّ؛ لأنَّ هذا الأمرُ قد لا تراه بعَيْنِكَ ولكن تَسْمَعُهُ في بلادٍ أخرى غيرَ بلادِكَ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ هنا العُلُوُّ، وَالْمُرَادُ بِالمَاءِ الْمَطَرُ، وليس المرادُ بِالسَّمَاءِ الأَجْرَامَ السَّامِيَّةَ المَعْرُوفَةَ؛ لأنَّ المَاءَ إِنَّمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ، وَالسَّحَابُ عَالٍ، وَلِكِنِّهَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [فيه التَّفَاتُ عن الغَيْبَةِ] لو كان الكَلَامُ على نَسَقٍ واحدٍ لِقَالَ: (فَأَخْرَجَ بِهِ) بِضَمِيرِ الغَيْبَةِ، لَكِنَّه صار فيه التَّفَاتُ عن الغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ.

والالتفاتُ فيه فوائِدُ:

الأولى: فائِدَةٌ مُشْتَرِكَةٌ في جميعِ موارِدِهِ ومواضِعِهِ، وهي: تَنْبِيهُ المَخاطَبِ؛ لأنَّ الكَلَامَ إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ اسْتَمَرَّ الإِنْسَانُ معه ولم يكن هناك شَيْءٌ يُوجِبُ أن يَنْتَبِهَ وَيَتَقَطَّنَ، فإذا اختلف السِّيَاقُ من غَيْبَةٍ إِلَى تَكَلُّمٍ، أو إلى خطابٍ، أو ما أشبه ذلك، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَنْتَبِهُ؛ يعني: كأنه يكون عالِمًا على تَغْيِيرِ الأُسْلُوبِ لِيَنْتَبِهَ المَخاطَبُ.

الفائِدَةُ الثَّانِيَّةُ هنا: قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ فَإِنَّ (نا) هذه تَفِيدُ التَّعْظِيمَ؛ لأنَّ الإِخْرَاجَ أَعْظَمُ مِنَ الإِنْزَالِ بِالنِّسْبَةِ لِلنُّعْمَةِ عَلَيْنَا، فَإِنَّه لو نزل المطر ولم يَخْرُجِ النباتُ لم نَسْتَفِدْ مِنَ المطرِ كما جاء في الحديثِ الصَّحِيحِ الذي رواه مُسْلِمٌ: «لَيْسَتْ

السَّنةُ بِالْأَلْمُطَّرُوعِ، وَلَكِنَّ السَّنةَ أَنْ تُمَطَّرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا<sup>(١)</sup>، فلما كان إِنْعَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ أَعْظَمَ صَارَ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى التَّكَلُّمِ أُولَى لِعِظَمِ الْمِنَّةِ فِيهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ فهنا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ ولم يقل: (أَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتًا)، وقد قاله في آيةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩] لكن هنا قال: ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ لأنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذَا الْخَارِجِ هُوَ الثَّمَرَةُ، فَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَايَةَ الْمَقْصُودَةَ وَهِيَ الثَّمَرَاتُ.

قال المفسر رحمه الله: [مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا] كَأَخْضَرَ وَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَغَيْرَهَا] وهذا يدلُّ على قُدْرَةِ اللَّهِ، فهذه الثَّمَرَاتُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا، وَكَلِمَةُ (أَلْوَانٌ) يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ اللَّوْنُ الْمُخْتَلِفُ بِالْحُمْرَةِ، وَالصُّفْرَةِ، وَالخَضْرَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ الْمُرَادُ بِالْأَلْوَانِ الْأَصْنَافُ، فَإِنَّ الْأَلْوَانَ تُطَلَّقُ عَلَى الْأَصْنَافِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ قَالَ: «رُويَ فِي ذَلِكَ أَلْوَانٌ»<sup>(٢)</sup> أي: أَنْوَاعٌ وَأَصْنَافٌ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْخَارِجِ مِنَ الْأَرْضِ وَجَدْتَ أَنَّهُ ذُو أَلْوَانٍ فِي شَكْلِهِ، وَذُو أَلْوَانٍ فِي أَنْوَاعِهِ وَأَصْنَافِهِ، مَا بَيْنَ حُلُوِّ وَمَرٍّ وَمُتَوَسِّطٍ وَحَامِضٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ.

وهذا الأخير إذا قلنا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَلْوَانِ مَا يَعُمُّ الْأَنْوَاعَ؛ أَشْمَلٌ مِمَّا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَلْوَانِ اخْتِلَافُ الشَّكْلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قَاعِدَةٌ: بِأَنَّهُ كَلِمًا كَانَ الْمَعْنَى أَشْمَلٌ فِي بَابِ التَّفْسِيرِ كَانَ أُولَى؛ لِأَنَّ الْأَشْمَلَ يَعُمُّ الْأَخْصَّ وَغَيْرَهُ، بِخِلَافِ الْأَخْصِّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم

(٢٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية الكوسج (٧٥٦/٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ هذه جملة استثنائية يبين الله عز وجل فيها كمال قدرته أيضًا بالنسبة للأرض وطبقاتها.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ جمع جُدَّة: طريق في الجبل وغيره] من الجبال جُدَدٌ؛ يعني: شيء يشبه الطُّرُق لاختلافه عن بقية الجبل، وهو مُخْتَلِفٌ في اللون، ومختلفٌ في الماهية أيضًا.

نحن نرى بعض الجبال الآن ولا سيَّما إذا فُتِحَ الجبلُ نرى في أثنائه خطوطًا قد تكون سوداء، وقد تكون حمراء، وقد تكون بيضاء، وقد تكون بيضاء، المهمُّ أننا نجد فيه خطوطًا مُخَالِفٌ بقية الجبل، هذه الجُدَد التي ذكرها الله عز وجل هنا، فالجبالُ مُخْتَلِفٌ ألوانها أيضًا، وهذا الاختلاف في اللون؛ يعني: الاختلاف في الماهية والحقيقة، ليست الحصة السوداء كالحصة البيضاء أو الحمراء أو ما أشبهها بما يخالفها في اللون، بل لا بُدَّ أن يكون هناك اختلافٌ في طبيعة هذه الحصة كما كان اختلاف الثمرات في ألوانها يدلُّ على اختلافها في طعمها وفي ماهيتها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ﴾ ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿بَيْضٌ وَحُمْرٌ﴾ وكان المتوقع أن يقول: (بيضٌ وسودٌ)؛ لأنَّ هذا هو المعروف في مُقَابَلَةِ البياض؛ أن يُقَابَلَ بالسَّوَادِ، لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿وَحُمْرٌ﴾ لأنَّ الحُمْرَ أَقْرَبُ إِلَى البياضِ مِنَ السُّودِ، وَسُتَذَكَّرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَرَايِبُ سُوْدٌ﴾.

هذه الجُدَد بِيضٌ وَحُمْرٌ، قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [وَصُفْرٌ] وَنَحْنُ رَبَّاهَا نَقُولُ أَيْضًا: (وَرُزُق) وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَذْكُرْ هَذَيْنِ اللَّوْنَيْنِ لِلْحَضَرِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ.



قال المفسر رحمه الله: ﴿تَخْتَلِفُ أَلْوَانَهَا﴾ بالشدة والضعف [هنا فسر المفسر رحمه الله الألوان بالماهية وليس بالأشكال؛ لأنه قال: [بالشدة والضعف] ولم يقل: [باللون الأحمر أو الأبيض].

على كل حال: (الألوان) كما سبق تُطلق على الأنواع أحيانا.

وهذا الاختلاف في ألوان أحجار الجبال كالإختلاف في ألوان الثمار.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَابِيْبُ سُودٌ﴾ [عطف على جدد؛ أي: صخورٌ شديدة السواد، يقال كثيرا: أسود غريب، ويقال قليلا: غريب أسود]، فالغرابيب جمع غريب، والغريب: شديد السواد.

وكان مقتضى التركيب أن يقال: (وسود غرابيب)، ولكن الله تعالى قدّم فقال (وعرابيب سود) فعلى هذا زعم بعضهم أن في الكلام تقديرا وتأخيرا، وقال بعضهم: بل هو على ترتيبه، ليس فيه تقديم وتأخير، ولكن الله سبحانه وتعالى بين الأسود الشديد السواد قبل بيان مطلق السواد، هذا أيضا مشاهد؛ نجد في الجبال طرقا يعني كالطريق أو كالحظ أسود خالصا، وإلى جانبه طريق أبيض، أو أحمر، أو ما أشبه ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله عز وجل.

فنجد نحن أن هذا الإختلاف في الجبال هو كالإختلاف في الثمرات.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: التنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يتفكر في خلق الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ فإن هذا تقرير، والتقرير لا يكون إلا بعد أن ينظر المقرّر فيما قرّر به حتى يُقرّ به ويعترف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ وَذَلِكَ بِإِنزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، فِيهِ قُدْرَةٌ عَظِيمَةٌ؛ أَنْ يَنْزِلَ هَذَا الْمَاءُ الَّذِي يَكُونُ بِحَارًا أحيانًا يُدْمِرُ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنَ الْبِنَاءِ وَيَحْتَرِفُ الْأَرْضِيَّ مَعَ أَنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ هَذَا السَّحَابِ الرَّقِيقِ الَّذِي تَخْتَرِقُهُ الطَّائِرَةُ كَمَا نَشَاهِدُ، وَيَتَمَزَّقُ عِنْدَمَا يَمُرُّ بِالْجِبَالِ وَبِالْبِنَاءِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ تَنْزِلُ مِنْهُ هَذِهِ الْمِيَاهُ الْعَظِيمَةُ، هَذَا تَمَامُ الْقُدْرَةِ.

وَتَمَامُ الرَّحْمَةِ: مَا يَحْصُلُ مِنْ هَذَا الْمَطَرِ مِنَ الْآثَارِ النَّافِعَةِ لِلْعِبَادِ.

وَتَمَامُ الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَطَرَ يَنْزِلُ مِنْ أَعْلَى حَتَّى يَشْمَلَ الْمُرْتَفِعَ وَالْمُنْخَفِضَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ يَمْشِي مَشْيًا كَالْأَنْهَارِ لَكَانَ الْأَسْفَلَ مِنَ الْأَرْضِ يَرَوِي بِالْمَاءِ بَلْ يَغْرِقُ، أَمَّا الْأَعْلَى فَلَا يُصِيبُهُ شَيْءٌ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ أَنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ فَإِنَّ الْبَاءَ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ، فِي الْآيَةِ إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَرَنَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ حِكْمَتِهِ؛ أَنْ تَكُونَ الْأَسْبَابُ وَالْمُسَبَّبَاتُ مُتَلَازِمَاتٍ، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ بَدُونَ مَاءٍ، وَلَكِنْ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا.

إِذْنًا: فِي الْآيَةِ إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ؛ وَلِذَلِكَ لَزِمَ عَلَيْنَا الْقَوْلُ بِوُجُوبِ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمُسَبَّبِ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تُوجِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَوُجُودَ الْمُسَبَّبِ لَوْجُودِ السَّبَبِ.

فَعَلَمَاءُ الْكَلَامِ كَالْجَبْرِيَّةِ مَثَلًا أَنْكَرُوا حِكْمَةَ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لِأَنَّنا لَوْ قَلْنَا بِثُبُوتِ الْحِكْمَةِ وَالسَّبَبِيَّةِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تُوجِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ كَمَا قَالَ ذَلِكَ خُصُومُهُمْ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ، فَالْمُعْتَزَلَةُ يَقُولُونَ بِوُجُوبِ الْأَصْلَحِ، بَعْضُهُمْ يَقُولُ بِوُجُوبِ

الصَّالِحِ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لَأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، وَأَوْلَاكَ الْجَزِيرَةَ بِالْعَكْسِ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَخْلُقُ الشَّيْءَ بَدُونَ سَبَبٍ وَبَدُونَ حِكْمَةٍ؛ لِأَنَّكَ لَوْ أَثَبْتَ السَّبَبَ وَالْحِكْمَةَ لَزِمَ إِيجَادُ الْمَسَبِّبِ أَوْ الْفِعْلِ الَّذِي يَكُونُ مَسَبِّبًا لِهَذَا السَّبَبِ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ نُوَجِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِعْلَ الشَّيْءِ، فَمَا الْجَوَابُ؟

نقول: إِنَّ إِثْبَاتَ الْحِكْمَةِ أَوْ السَّبَبِ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ نُوجِبَ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ مُقْتَضَى كَوْنِهِ حَكِيمًا أَنْ يَفْعَلَ وَأَنْ يُوجِدَ الْمَسَبِّبَ عِنْدَ وُجُودِ السَّبَبِ، وَنَحْنُ لَا نُوجِبُهُ، وَلَكِنَّ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ اللَّهُ بِمُقْتَضَى اسْمِهِ (الْحَكِيمِ) وَوَصَفِهِ بِالْحِكْمَةِ، وَإِيجَابُ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ كَمَا أَنْ تَحْرِيمَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»<sup>(١)</sup>.

فَلِلَّهِ أَنْ يُحَرِّمَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا شَاءَ، أَمَا نَحْنُ فَلَا، فَإِذَا قِيلَ مَثَلًا: هَذَا مَصْلَحَةٌ فَإِنَّا نَقُولُ: نَعَمْ، وَنَلْتَزِمُ بِهَذَا، وَلَكِنْ هَلْ نَحْنُ الَّذِينَ أَوْجَبْنَا عَلَى اللَّهِ؟

الجواب: لا، بل الله هو الذي أوجبه على نفسه، وهذا لا ينافي كماله، بل هو من مقتضى كماله، إلا أن المحذور هنا في هذا الباب أن نظن أن المصلحة في كذا، وحقيقة الأمر أن المصلحة في عدمه، هذا هو الذي يُخشى منه، وحينئذ نعتقد أن هذا واجب على الله وهو لم يجب، نعتقد أنه واجب على الله بمقتضى فهمنا أن هذا مصلحة وخير ثم نوجب على الله، هذا هو المحذور.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما إذا تحققت المصلحة فلا مانع من أن نقول: إن الله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه أن تكون المصلحة؛ لأن هذا هو مقتضى اسم الله (الحكيم)، وفي هذه الحال لم يحصل منا أيُّ عدوانٍ أو ظلم، بل قلنا بمقتضى حكمة الله سبحانه وتعالى.

الفائدة الرابعة: بيان قدرة الله عز وجل بإخراج هذه الثمرات المختلفة الألوان مع أنها في أرض واحدة وتُسقى بماء واحد، ويظهر ذلك لك جلياً إذا نظرت إلى الزهور كيف نجد هذا الاختلاف العجيب بينها مع أنها تُسقى بماء واحد.

الفائدة الخامسة: الحكمة في اختلاف هذه الثمرات؛ لأنه لو كانت هذه الثمرات طبيعتها واحدة لملَّ الناس منها ولم يحصل لهم كمال اللذة، فإذا اختلفت حصل كمال اللذة وعدم الملل والسامة.

الفائدة السادسة: بيان قدرة الله عز وجل ورحمته وحكمته فيما نرى في الجبال من الجدد المختلفة؛ لأن هذا دليل على القدرة؛ حيث جعل هذا بين هذا، ودليل على الحكمة؛ لأن الغالب أن ما في بطون هذه الجبال يكون معادن مفيدة للإنسان، كذلك بيان الرحمة بالخلق لإيداع هذه الأشياء في بطون هذه الجبال.

الفائدة السابعة: بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث إنه يجعل بعض الجبال فيها السواد الخالص، وقد يكون الجبل كله أسود، وأحياناً نرى جبلاً أسود وإلى جانبه جبلاً أبيض، فهذا كله من تمام قدرة الله عز وجل.

الفائدة الثامنة: ما يترتب على النظر في هذه المخلوقات من الاعتبار والاستدلال بها على ما تتضمنه من صفات الله سبحانه وتعالى.



## الآية (٢٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

•••••

جُمْلَةٌ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ﴾ جُمْلَةٌ خَيْرِيَّةٌ قُدِّمَ فِيهَا الْخَبْرُ عَلَى الْمُبْتَدَأِ، وَ﴿ أَلْوَنُهُ ﴾: فَاعِلٌ ﴿ مُخْتَلِفٌ ﴾ لِأَنَّ ﴿ مُخْتَلِفٌ ﴾ اسْمُ فَاعِلٍ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ يَعْمَلُ عَمَلٍ فِعْلُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ ﴾ صِفَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مُخْتَلِفٌ ﴾ يَعْنِي: مُخْتَلِفٌ كَاخْتِلَافٍ مَا ذَكَرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ هِيَ جُمْلَةٌ أَيْضًا مُكَوَّنَةٌ مِنْ فِعْلِ وَفَاعِلٍ وَمَفْعُولٍ بِهِ، وَفِيهَا حَضْرٌ، وَطَرِيقُهُ: ﴿ إِنَّمَا ﴾ وَجُمْلَةٌ: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ كَالْتَعْلِيلِ لِمَا قَبْلَهَا، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ ﴾ النَّاسُ هُمُ الْبَشَرُ، وَأَصْلُهَا (أُنَاسٌ) وَلَكِنْ حُذِفَتْ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا لِكثْرَةِ الْاسْتِعْمَالِ كَمَا حُذِفَتْ مِنْ (شَرٌّ) وَ(خَيْرٌ)، وَأَصْلُهَا: (أَشْرٌ) وَ(أَخَيْرٌ)، وَحُذِفَتْ أَيْضًا مِنْ (اللَّهُ) عَلَى قَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ اللَّغَةِ، وَأَصْلُهَا: (الِإِلَه) وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ: بَنُو آدَمَ، وَسُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْتُسُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

قوله تعالى: ﴿وَالدَّوَابِّ﴾ جمع دابة، وتُطلق على عدة معانٍ، تُطلق على كل ما دبَّ على الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ﴾ [هود: ٦] يَشْمَلُ كُلَّ ما دبَّ على الأرض من إنسان وحيوان وحشرات، وغير ذلك.

وتُطلق الدَّابَّةُ على ما يدبُّ على بطنه؛ مثل: الحيات، وتُطلق الدَّابَّةُ على ذوات الأربع كالحمير، فما المراد بها في هذه الآية؟

نقول: المراد بها ما عدا النَّاسَ والأنعامَ، فَشَمَلُ كُلِّ ما دبَّ على الأرض إلا النَّاسَ والأنعامَ.

فإن قلت: لماذا لا تجعلها شاملةً وتجعل هذا من بابِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ بالنسبة للنَّاسِ، ومن بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ بالنسبة للأنعام؟  
يعني: لو قال قائلٌ: المراد بالدَّوَابِّ: كُلُّ ما دبَّ على الأرض، لكنَّها عَطِفَتْ على النَّاسِ من بابِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ، وعَطِفَتْ الأنعامُ عليها من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؟

قلنا: هذا ممكِنٌ، لكنَّ التَّقْسِيمَ يُبْعِدُهُ، فيكون المرادُ بالدَّوَابِّ ما عدا النَّاسَ والأنعامَ، والمرادُ بالأنعام ما يَنْتَفِعُ النَّاسُ به؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعِفُونَ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

فيكون المرادُ بالأنعام هنا ما يَنْتَفِعُ النَّاسُ به كالإبل، والغنم، والبقر، والطيور الحلال، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿تَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُ﴾ هل المراد باللون الشكل أو الصنف أيضًا؟

الجواب: يَشمَل؛ فالنَّاسُ مثلاً تَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُمْ؛ هذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أحمر، وهذا بين ذلك، واختلافُ اللَّوْنِ ظاهِرٌ، وقد تَخْتَلِفُ أَجْنَاسُهُمْ أيضًا؛ هذا ذَكَرَ وهذه أنثى، هذا عالم وهذا جاهل، هذا أحمق وهذا حليم، وعلى هذا فقس.

الدَّوَابُّ كذلك تَخْتَلِفُ أَلْوَانُهَا بِالشَّكْلِ، وَتَخْتَلِفُ أَصْنَافُهَا وَأَنْوَاعُهَا، منها المؤذي، ومنها الضَّارُّ، ومنها النَّافِعُ، ومنها ما ليس بضرٍّ ولا نافعٍ ولا مُؤذٍ، فهي أربعة أصنافٍ.

مثالُ النَّافِعِ: الأَنْعَامُ، ومثال الضَّارِّ: الحَيَّاتُ والعقاربُ والسَّباعُ وما أشبهها، ومثال المؤذي: الصَّرَاصِيرُ، والحُنْفُساءُ، والجُعْلانُ، وما أشبه ذلك، ومثال ما ليس بِمُؤذٍ ولا ضارًّا: النَّمْلُ، وغيره أيضًا من الدَّوَابِّ الكَثيرة التي نراها؛ نرى مثلاً طيورًا تَطِيرُ في الجَوِّ ليست حلالًا مثلاً ولكنَّها لا تَضُرُّ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [كاختلافِ الثَّمارِ والجبالِ] فصار الاختلافُ في مخلوقاتِ الله تعالى شاملاً للحيوانِ ولما يَنْتَفِعُ به الحيوانُ من الثَّمارِ وغيرها ولطبقاتِ الأرضِ كالجبالِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ لما ذَكَرَ هذه الأصنافَ وفيها ما يدلُّ على كمالِ الله عَزَّجَلَّ في صِفَاتِهِ التي تَتَضَمَّنُهَا هذه الأصنافُ المذكَورةَ بَيْنَ أَنْ العالمِ بذلك هو الذي يَخْشَى الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يعني: لا يَخْشَى الله إلا العلماءُ.

والْحَشِيَّةُ هي أعلى الخوفِ، أو إن شئتَ فقل: هي الخوفُ المَبْنِيُّ على العِلْمِ،

وَبَعْضُهُمْ قَالَ: هِيَ الْخَوْفُ الْمَبْنِي عَلَى عِظَمِ الْمَخُوفِ، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ الْحَشِيَّةُ هِيَ الْخَوْفُ بِكُلِّ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ؛ يَعْنِي: هِيَ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْخَوْفِ، أَوْ الْخَوْفُ الْمَبْنِي عَلَى الْعِلْمِ، أَوْ الْخَوْفُ الْمَبْنِي عَلَى عِظَمِ الْمَخُوفِ.

أَمَّا الْخَوْفُ الْمَجْرَدُ عَنِ الْحَشِيَّةِ فَقَدْ يَكُونُ عَنِ جَهْلٍ، يَخَافُ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ بِهِ وَإِلَّا فَلَيْسَ أَهْلًا لِأَنْ يُخَافَ مِنْهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلِمُوا﴾ بِخِلَافِ الْجُهَّالِ كَكُفَّارِ مَكَّةَ]، وَصَدَقَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: [بِخِلَافِ الْجُهَّالِ] وَأَمَّا التَّمَثِيلُ بِكُفَّارِ مَكَّةَ فَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْحَضَرِ، بَلْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، فَكُلُّ كَافِرٍ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ جَاهِلٌ.

وَهَلْ هَذِهِ الْجَهَالَةُ جَهَالَةُ عِلْمٍ أَوْ جَهَالَةُ تَصَرُّفٍ؟

الْجَوَابُ: هِيَ جَهَالَةُ تَصَرُّفٍ فِي الْغَالِبِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْكَافِرَ يَكُونُ عِنْدَهُ عِلْمٌ؛ لَكِنَّهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - يَسْتَمِرُّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَلَا يُؤْمِنُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ أَي: ذُو عِزَّةٍ، قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وَالْعِزَّةُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ؛ عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ، وَعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ.

فَأَمَّا عِزَّةُ الْقَدْرِ فَمَعْنَاهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذُو قَدْرِ عَزِيزٍ، وَالْقَدْرُ مَعْنَاهُ الْمَكَانَةُ وَالشَّرَفُ وَالسُّؤْدُودُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

عِزَّةُ الْقَهْرِ؛ أَي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَالِبٌ غَيْرٌ مَغْلُوبٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أَي: غَلَبَنِي.



وعِزَّة الامتناع؛ أي إنَّ الله تعالى يَمْتَنِعُ عليه النَّقْصُ في ذاته، أو في صِفاته، ومنه قَوْلهم: (أَرَضْ عَزَاؤُ)؛ أي: شديدةٌ صُلْبَةً، لا يتجاوزها شيءٌ لِصَلَابَتِهَا، ولا يُؤَثِّرُ فيها شيءٌ، لِقُوَّتِهَا وشِدَّتِهَا.

فالعِزَّةُ إذن لها ثلاثة معانٍ عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّةُ الامْتِنَاعِ.

قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مَغْفِرَةٍ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، والمَغْفِرَةُ سِتْرُ الذَّنْبِ والتَّجَاوُزُ عنه، يدلُّ لذلك اشتقاقها؛ فإنَّها مُشْتَقَّةٌ من المِغْفَرِ وهو ما يُعْطَى به الرَّأْسُ وتُنْقَى به السَّهَامُ، وفي المِغْفَرِ سِتْرٌ ووقايةٌ، وعلى هذا فنقول: (الغفور) ذو المَغْفِرَةِ، وهي: سِتْرُ الذَّنْبِ والتَّجَاوُزُ عنه.

ويدل لهذا المعنى -زيادةً على دلالة الاشتقاق- ما ثبت في الحديث الصَّحِيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُمَا عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»<sup>(١)</sup>؛ يعني: أَتَجَاوَزُ عنها، وفي الدُّنْيَا سَتَرْتُمَا الله على العبد.

ومُنَاسَبَةٌ ذكر العِزَّةِ والمَغْفِرَةِ هنا بعد ذِكْرِ الحَشِيَّةِ: الإِشَارَةُ إلى أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَهْلٌ لِّأَنَّ يُحْشَى؛ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ؛ وَأَنَّهُ إِذَا نَقَصَ شَيْءٌ مِنَ الحَشِيَّةِ فَإِنَّهُ يُقَابَلُ بِالمَغْفِرَةِ، فَهُوَ عَزِيزٌ فَلِذَلِكَ كَانَ أَهْلًا لِلحَشِيَّةِ، وَهُوَ غَفُورٌ إِذَا نَقَصَ شَيْءٌ مِمَّا يَجِبُ لَهُ مِنَ حَشِيَّتِهِ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال المفسر رحمه الله: [إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴿١﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿٢﴾ غَفُورٌ ﴿٣﴾ لذنوب عباده المؤمنين].

هذا مبني على أن العِزَّةَ بِمَعْنَى الغَلْبَةِ كما يُفَسِّرُهَا كثيرٌ من المفسرين بذلك، فيقول: العزيز؛ أي: الغالب، ولكن هذا التفسير الذي ذكرناه ما نُطْلِقُهُ فِي مُلْكِهِ، تقول: (هو عزيز) ولا نُقَيِّدُهُ فِي المُلْكِ؛ لأنَّ الله تعالى عزيزٌ فِي مُلْكِهِ، وعزيزٌ فِي صِفَاتِهِ كُلِّهَا، وعزيزٌ فِي سُرْعِهِ، فالعِزَّةُ عامَّةٌ، ما دمنا نقول: إِنَّهَا عِزَّةُ الامْتِنَاعِ والقَدْرِ والقَهْرِ.

وأما [﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده المؤمنين] فتَقْيِيدُهَا بِذَلِكَ أيضًا فِيهِ نَظَرٌ، ولو قال المفسر رحمه الله: (غفورٌ لمن تاب إليه) أو (لمن استغفره) لكان أشمل؛ لأنَّ الله تعالى يَغْفِرُ حَتَّى لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ لو تابوا إلى الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فالتعميم أولى من التخصيص.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى باختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام؛ أي: أصنافها وأشكالها؛ لأنَّ اختلاف هذه الألوان - وهي نوعٌ واحدٌ - دليلٌ على القدرة، فبنو آدم مثلاً لا يُمكنُ أن يَشْرَكَ شخصان أو أن يتماثل شخصان في كلِّ شيءٍ أبداً، وإن قُدِّرَ تماثلُهما في الخِلقَةِ فَسَيَخْتَلِفَانِ فِي الخُلُقِ، والتساوي في الخُلُقِ أمرٌ مُسْتَحِيلٌ؛ لأنَّ النَّاسَ يَتَبَايَنُونَ فِيهِ تَبَايُنًا عَظِيمًا، يَتَبَايَنُونَ فِيهِ تَبَايُنًا أَشَدَّ مِنَ التَّبَايُنِ الخِلْقِيِّ وإن كان التَّبَايُنُ الخِلْقِيُّ أَظْهَرَ؛ لِأَنَّهُ يُشَاهَدُ وَيُرى، لكنَّ التَّبَايُنَ الخِلْقِيُّ أَشَدُّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمكنُ أن يَتَّفِقَ النَّاسُ فِيهِ أو أن يتساوى النَّاسُ فِيهِ أبداً؛ لِأَنَّ أَيَّ كَلِمَةٍ

تَحْصُلُ مِنْ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ يَحْصُلُ فِيهَا التَّبَاطُؤُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضِيلَةُ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ لَا يَتَّصِفُ بِهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: فَضِيلَةُ الْعِلْمِ لِكَوْنِهِ سَبَبًا فِي خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْحَشْيَةِ صِفَةً لَهَا  
أَثَارٌ حَمِيدَةٌ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَشِيَ رَبَّهُ فَإِنَّهُ يَتَجَنَّبُ مَعَاصِيَهُ وَيَفْعَلُ أَوْامِرَهُ خَوْفًا مِنْهُ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا لما ذكر الله عز وجل ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَّأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ  
عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٧-٨] قال:  
﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ وهو دليل على أن الخشية تُوجِبُ الإيمان والعمل الصالح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْبَاتُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَهُمَا (العزیز) و(الغفور)، وإثبات

ما تَضَمَّنَاهُ مِنَ الصِّفَةِ، وَهِيَ الْعِزَّةُ وَالْمَغْفِرَةُ، وَإِثْبَاتُ مَا تَضَمَّنَاهُ مِنَ الْحُكْمِ وَهُوَ  
الْأَثَرُ؛ أَمَّا الْغُفُورُ فَنَعَمٌ، لَهَا أَثَرٌ وَحُكْمٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى آخِرُ سُورَةِ (البقرة): ﴿فَيَغْفِرُ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وهل العزيز لها حكم؟

الجواب: قلنا: إن من معانيها الغلبة، وإذا كانت (عز) بمعنى غلب صارت

مُتَعَدِّيَّةً فَيَكُونُ لَهَا حُكْمٌ؛ أَي: (أثر).

إذن: إثبات ما تَضَمَّنَهُ الْأَسْمَاءُ مِنَ الصِّفَةِ وَالْحُكْمِ الَّذِي نُعَبِّرُ عَنْهُ أحيانًا بِالْأَثَرِ،

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِمَّا لِأَزْمَةٍ وَإِمَّا مُتَعَدِّيَّةً، فَالْأَزْمَةُ يَثْبُتُ مِنْهَا الْأِسْمُ  
وَالصِّفَةُ، وَالْمُتَعَدِّيَّةُ يَثْبُتُ مِنْهَا الْأِسْمُ وَالصِّفَةُ وَالْأَثَرُ.

الآية (٢٩)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ يَقْرَءُونَ ﴿ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أداموها ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ زكاةً وغيرها ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ تَهْلِكُ].

الإِعْرَابُ في هذه الآية واضح ليس فيه إشكال، إلا أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ تحتاج إلى خبر، فما هو الخبر؟ الخبر هو جملة ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ هذا هو الصحيح من أقوال المعربين؛ يعني: أن هؤلاء فعلوا ذلك يرجون تجارة لن تبور، فجملة ﴿ يَرْجُونَ ﴾ هي خبر ﴿ إِنَّ ﴾.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [يَقْرَءُونَ] والصواب أن التلاوة أعم من القراءة، فالتلاوة نوعان: تلاوة لفظية وهي القراءة، وتلاوة عملية وهي اتباع القرآن تصديقاً للخبر وامتيثاً للأمر؛ ولهذا يقال: (تلاه بمعنى تبعه)؛ أي: جاء بعده، فالتلاوة أعم من القراءة، والتلاوة العملية تستلزم فهم المعنى؛ لأنه لا يمكن أن يُعمل إلا بما يفهم، وعلى هذا يكون فعل الصحابة رضي الله عنهم تطبيقاً لهذه الآية تماماً؛ لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما

فيها من العِلْمِ والعَمَلِ، قالوا: «فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿تَلَوْتُمْ﴾ فعلٌ مُضارعٌ يدلُّ على الاستمرار، بخلاف ما لو قال:

(إِنَّ الَّذِينَ تَلَوْنَا) بالماضي، فإنه لا يُفيدُ المعنى الذي يُفيدُهُ المضارعُ ﴿تَلَوْتُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ هل هو القرآنُ أو هو أعمُّ من ذلك؟

الجواب: هو أعمُّ من ذلك، كِتَابَ اللَّهِ: الكُتُبُ التي أنزلها الله تعالى على الرُّسُلِ،

فَيَشْمَلُ جَمِيعَ الكُتُبِ؛ لأنَّ هذا الحُكْمَ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ من هذه الأُمَّةِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِمَّا

سَبَقَهُمْ، فيكون المرادُ هنا: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ كل كِتَابٍ أنزله الله تعالى على رُسُلِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوفةٌ على ﴿تَلَوْتُمْ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ:

[أداموها] والصَّوَابُ خلاف ما قاله المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ، يعني: معناه أَنَّا نختار كَلِمَةَ

أَشَدَّ مُطَابَقَةً لِلْفِطْرِ؛ فـ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أتوا بها مُسْتَقِيمَةً؛ فَيَشْمَلُ فِعْلَ الصَّلَاةِ

تَامَّةً بِشُرُوطِهَا، وَأَرْكَانِهَا، وَوَجِبَاتِهَا، وَمُسْتَحَبَّاتِهَا، وَيَشْمَلُ الإِدَامَةَ، أَيضًا؛ لأنَّ الإِدَامَةَ

مِنَ الإِقَامَةِ، وعلى هذا نقول: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فَعَلَوْهَا قَائِمَةً؛ أي: مُسْتَقِيمَةً

على الوَجْهِ المطلوبِ منهم.

لو أَنَّ الإنسانَ أدامَ الصَّلَاةَ لكنْ يُحِلُّ بأركانها أو واجباتها، فهل يقال: إِنَّهُ أقامَ

الصَّلَاةَ؟ الجواب: لا، فالرُّجُلُ الذي جاء يُصَلِّي ولا يَطْمِئِنُّ كان يصلي هذه الصَّلَاةَ

منذ أسلم، والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال له: «صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»<sup>(٢)</sup> مع أَنَّهُ يُدِيمُ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/٤١٠)، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب

النبي ﷺ... فذكره.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم:

كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الصَّلَاةُ وَيُصَلِّي لِكَيْتَهُ لَمْ يُصَلِّ؛ حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِهَا قَائِمَةً عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، فَالْصَّوَابُ أَنَّ الْإِقَامَةَ هُنَا بِمَعْنَى أَنْ يَفْعَلَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ.

وَالصَّلَاةُ مَعْرُوفَةٌ لِلْجَمِيعِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ؛ لِأَنَّهَا عِبَادَةٌ ذَاتُ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ مَعْلُومَةٍ، مُفْتَتِحَةٌ بِالتَّكْبِيرِ مُحْتَمَّةٌ بِالتَّسْلِيمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

﴿وَأَنْفَقُوا﴾ بِمَعْنَى بَدَلُوا وَأَخْرَجُوا، ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مِمَّا أُعْطَيْنَاهُمْ؛ لِأَنَّ الرِّزْقَ بِمَعْنَى الْعَطَاءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ هَلْ (مِنْ) لِبَيَانِ الْجِنْسِ أَوْ هِيَ لِلتَّبْعِيضِ؟ الْأَوَّلَى أَنْ نَجْعَلَهَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ؛ لِتَشْمَلْ مَا لَوْ أَنْفَقُوا جَمِيعَ أَمْوَالِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الْوَصْفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: ﴿سِرًّا﴾ مَصْدَرٌ، وَلَكِنَّهَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ؛ أَي: مُسْرِينَ وَمُعْلِنِينَ، فَالْإِسْرَارُ أَنْ يُخْفُوا الْإِنْفَاقَ، فَلَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا الْمُتَّفِقُ عَلَيْهِ، وَالْإِعْلَانُ أَنْ يُظْهِرُوهُ لِلنَّاسِ إِمَّا إِظْهَارًا كَامِلًا شَامِلًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِظْهَارًا نِسْبِيًّا يَعْلَمُ بِهِ مَنْ حَوْلَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُمَدِّحُونَ عَلَيْهِ، وَسِيَّاتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي ذِكْرِ الْفَوَائِدِ أَنَّ هَذَا يَكُونُ بِحَسَبِ الْحَالِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ زَكَاةً وَغَيْرَهَا] غَيْرَ الزَّكَاةِ: كَالْإِنْفَاقِ الْوَاجِبِ عَلَى الْأَقْرَبِ وَكَصَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ، فَالْإِنْفَاقُ هُنَا شَامِلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَرْجُونَ نَجْرَةَ لَنْ تَكُونَ﴾.

﴿يَرْجُونَ﴾ يعني: يُؤمّلون ويطلبون من هذه التجارة ﴿تَجَرَّةً لَّن تَكُورَ﴾ أي: لن تهلك، كما قال المفسر رحمه الله.

وما هذه التجارة؟

التجارة ذكرها الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَجَرَفِ شُجَيْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمَتُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿[الصف: ١٠-١٢]﴾ فهنا عَوْضٌ وَمُعَوِّضٌ، العَوْضُ: الإيثار بالله والجهاد في سبيله، المعوّضُ: ﴿يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ ﴿[الصف: ١٢]﴾ هذه التجارة لا شك أنّها أربح التجارات، وأنّها أبقى التجارات.

أربح التجارات؛ لأنّ الربح فيها العشر مئة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وأبقى كذلك؛ فهي أبقى التجارات بلا شك؛ لأنّها في جنات عدن؛ أي: في جنات إقامة لا ظعن فيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فضل تلاوة كتاب الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّن تَكُورَ﴾.

الفائدة الثانية: أنّ الرجاء ينبغي أن يكون في محلّه، بحيث يكون الإنسان قد عمّل عملاً يرجو الثواب عليه، أمّا الرجاء بدون عمل فهو من التمني الذي لا ينفع العبد، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع

نَفْسُهُ هَوَاهَا وَتَمَّتْ عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ»<sup>(١)</sup> فلا رجاء إلا بعمل.

وفي الحديث الصَّحِيحُ أَيضًا: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»<sup>(٢)</sup>،  
وفي الحديث الصَّحِيحُ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»<sup>(٣)</sup>.

وكل هذه النصوص وما أشبهها إنما تكون فيمن يَعْمَلُ ما يُمَكِّنُ أن يرجو به ذلك وأن يُحْسِنَ به الظَّنَّ.

فلو أن أَحَدًا أَسَاءَ واستكَبَرَ عن عِبَادَةِ اللَّهِ، وقال: (أنا أَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ) لكان هذا ظنَّ وَهْمٍ، لا بُدَّ من شَيْءٍ يَبْنِي عليه هذا الظَّنَّ، لو قال: (أنا أرجو رَحْمَةَ اللَّهِ).

قلنا: هذا وَهْمٌ حتى تَعْمَلَ؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوَلَّيْتِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] هؤلاء هم الذين يرجون، وهنا أيضًا مثلها.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ الثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ لَا يَنْقَطِعُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَكُورَ﴾ بل ربِّنا نقول: إن هذا أَعْمٌ؛ بحيث يُثَابُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا ثَوَابًا مُسْتَمِرًّا إِلَى الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الْحَسَنَاتِ قَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ ثَوَابَهَا فِي الدُّنْيَا، وَثَوَابَهَا فِي الدُّنْيَا يَسْتَمِرُّ إِلَى الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣١) الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه:

كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَدِّثُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿النحل: ٣١-٣٢﴾.

الفائدة الرابعة: فضل إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهو شامل لفرض الصلاة ونفلها، فما تقام به الفريضة تقام به النافلة، وما تقام به النافلة تقام به الفريضة إلا بدليل يدل على الفرق بينهما.

وقد جمعنا الفروق بين فرض الصلاة ونفلها فبلغت ثمانية وعشرين فرقاً؛ منها ما هو واضح دلت عليه السنة، ومنها ما هو دون ذلك.

المهم: أن الأصل أن إقامة الفريضة إقامة للنافلة، وأن إقامة النافلة إقامة للفريضة، هذا الأصل، فما ثبت في أحدهما ثبت في الثاني إلا بدليل.

الفائدة الخامسة: فضيلة الإنفاق؛ لأنه أعقب الصلاة به فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا﴾ وهو يدل على أن هذا الإنفاق يشمل الزكاة وغير الزكاة؛ لأن الله تعالى يقرن دائماً في الذكر بين الصلاة والزكاة.

الفائدة السادسة: أن المنفق ليس مانئاً على الله عز وجل؛ لأنه إنما ينفق مما رزقه الله، فمهما بلغت بك نفسك من الإعجاب والكبرياء على إنفاقك فاذكر قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ كل شيء تنفقه فليس لك فيه منة على الله عز وجل، بل لله المنة عليك به في إيجاده وفي إنفاقه؛ ففي إيجاده؛ لأنه لولا أن الله عز وجل رزقك ما حصل لك، وفي إنفاقه؛ لأن كثيراً من الناس يبخلون بما آتاهم الله من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. فمن نعمة الله عليك أن يمن عليك بالإنفاق بعد أن من عليك بالرزق والعطاء.

الفائدة السابعة: أن الإنفاق لا نقول: إن الإسرار فيه أفضل، ولا إن الإعلان

فيه أفضل، بل هو بحسب الحال، فتارة يكون الإنفاق سرًّا أفضل، وتارة يكون الإنفاق علنًا أفضل؛ حسب ما تقتضيه الحال، بخلاف الصدقة فالأصل فيها السر، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَأَصْدَقْتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتَوْتُوها أَلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]؛ لأن الصدقة فيها نوع منة على المعطى، فربما ينكسر أمام الناس إذا أعلنت الصدقة له، فصار إخفاؤها أفضل، وفي الحديث الصحيح في الذين يظلمهم الله في ظله: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا»<sup>(١)</sup>.

أما الأشياء العامة والمعلنة كما لو أردنا أن نُنْفِقَ في مشروع خيري عام لا يظهر فيه المنة على شخص معين فهنا قد يكون الإعلان فيه أفضل، وكذلك لو أن شخصًا جاء إلينا، وقال: (أرجو أن تجمعوا لي من الناس) فهنا قد يكون الإعلان فيه أفضل من أجل أن يقتدي بك غيرك، وهذا الرجل الذي طلب منا أن نجتمع له لا يهيمه أن يعلم الناس بأنه يتصدق عليه أو لا يتصدق.

فالمهم أن نقول: إن السر والإعلان في الإنفاق كله خير، لكن الصدقة الأفضل فيها السر لما في إظهارها من كسر قلب المعطى، وأما الأشياء العامة أو الصدقة على شخص معين هو الذي طلب منا أن نجتمع له مثلًا، فهذا قد يكون الإعلان فيه أفضل.

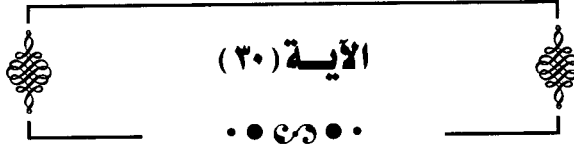
الفائدة الثامنة: التنبيه على الإخلاص؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ لا يريدون تجارة تبور وتهلك؛ يعني: لا يريدون مثلًا سمعة؛ لأن السمعة والجاه بين الناس لا شك أنه كسب للمرأة، ويعتبر تجارة، لكن هذه تجارة هالكة تزول بزوال

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم:

كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الشَّخْصِ، أو تزول بزوالِ ما اشتهرَ به؛ لأنَّ من حُمِدَ على شيءٍ ذُمَّ على فقْدِهِ، لكن الذي يرجو ثوابَ الله ويحسُنُ النِّيَّةَ والقصدَ هذا هو الذي حصل على تجارةٍ لن تبور.  
 ففيه: التَّنبُّهُ على الإخلاصِ، وأَنَّهُ يَنْبَغِي على الإنسانِ أن يكون مُخْلِصًا لله تعالى في عَمَلِهِ اللَّازِمِ أو القاصِرِ والمُتَعَدِّي؛ فالقاصر كالصَّلَاةِ، والمتعدي كالصَّدَقَةِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٠].

• • •

قوله تعالى: ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: يُعْطِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَايَةً كَامِلَةً، وضميرُ الفاعل يعود على (الله)؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ ﴾ هَذِهِ اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، وَقِيلَ: لِلتَّلْغِيلِ.

فعلِي الْقَوْلِ بِأَنَّهَا لِلْعَاقِبَةِ تَكُونُ مُتَعَلِّقَةً بِ﴿ يَرْجُونَ ﴾ ف﴿ يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّنْ تَكْبُورَ ﴾ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ يُوفِّيَهُمُ اللَّهُ أُجُورَهُمْ.

وَعَلَى أَنَّهَا لِلتَّلْغِيلِ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿ يَتْلُونَ ﴾ وَ﴿ وَأَقَامُوا ﴾ وَ﴿ وَأَنْفَقُوا ﴾ يَعْنِي: يَتْلُونَهَا لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ، أَقَامُوا الصَّلَاةَ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ، أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ؛ يَعْنِي: قَصَدُوا مَا رَتَّبَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْأُجُورِ.

وَهَذَا الْفِعْلُ يَنْصَبُ مَفْعُولِينَ: أَحَدُهُمَا هُنَا: الْهَاءُ، وَالثَّانِي: (أُجُور)، وَهُوَ مِنْ أَخْوَاتِ (كَسَا)، وَ(أَعْطَى)؛ لِأَنَّهُ نَصَبَ مَا لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً وَخَبْرًا، وَكُلُّ فِعْلِ يَنْصَبُ مَفْعُولِينَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا خَبْرًا عَنِ الْآخَرِ فَهُوَ مِنْ بَابِ (كَسَا).

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: ثَوَابَ أَعْمَالِهِمُ الْمَذْكُورَةَ [وهذه التَّوْفِيَةُ هَذِهِ مَعْرُوفَةٌ لَنَا جَمِيعًا، وَهِيَ أَنَّ الْحَسَنَةَ بَعْشِرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ

إلى أضعافٍ كثيرة؛ فمثلاً الصلاة حَسَنَةٌ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سبع مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، ومع الجماعة تكون سبعمائة وعشرين حَسَنَةً، كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ ﴿مَعْطُوفَةٌ عَلَى (يُوفِّيهِمْ)؛ يعني: يزيدهم عطاءً وأَجْرًا من فضله، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ ﴿يَشْمَلُ الْفَضْلَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَمَلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ مُخْلِصًا لِلَّهِ بِهِ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْعَمَلَ حَتَّى يَزِيدَ فِي الْعَمَلِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُّشَاهِدٌ، كَذَلِكَ إِذَا أُعْطِيَ وَأَنْفَقَ زَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]؛ أي: يأتي بخلفه.

فالزِّيَادَةُ إِذْنٌ: تشمل زيادةَ الأَجُورِ، وزيادةَ الأَعْمَالِ، وزيادةَ المَالِ الْمُنْفَقِ مِنْهُ؛ فزِيَادَةُ الأَعْمَالِ؛ لِأَنَّهُ الْإِنْسَانُ كُلَّمَا عَمَلَ صَالِحًا حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْعَمَلَ وَزَادَهُ فِيهِ، وَزِيَادَةُ الْمَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ ﴿أي: عطائه الذي يتَمَصَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إِنَّهُ، غَفُورٌ ﴿لذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿شَكُورٌ﴾ لَطَاعَتِهِمْ].

هذا تعليل لما سبق من تَوْفِيَةِ الأَجُورِ وَالزِّيَادَةِ مِنَ الْفَضْلِ؛ يعني أن الله عَزَّوَجَلَّ لِكَوْنِهِ غَفُورًا رَحِيمًا صَارَ يُوفِّيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَفِي هَذَا: إِشَارَةٌ إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْعَامِلِ وَإِلَى شُكْرِهِ إِيَّاهُ.

الـ ﴿غَفُورٌ﴾ صيغة مبالغة أو صفة مُشَبَّهة، مأخوذة من الغفر، وهو السُّرّ مع الوقاية؛ لأنَّ أَصْلَ هذه المادة المِغْفَر، والمِغْفَر يَحْصُلُ به السُّرّ والوقاية، إِذْ نَ ما مَعْنَى أَنَّ اللهَ غفورٌ؟

معناه: أَنَّ اللهَ يَسْتُرُ الذُّنُوبَ ويتجاوزُ عن العُقُوبَةِ، وما أَكْثَرَ ما تُذْنِبُ فيما بيننا وبين رَبِّنا ومع ذلك يَسْتُرُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان يومُ القِيَامَةِ عفا عن عُقُوبَتِها، وبذلك تتَحَقَّقُ المِغْفَرَةُ.

أما الـ ﴿شَكُورٌ﴾ فنقول في تَصْرِيْفِهِ كما قلنا في غفور: إِنَّهُ إِمَّا صِيغَةٌ مُبَالَغَةٌ، وَإِمَّا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شِكُورٌ؛ أَي: يَشْكُرُ من عَمَلِ العَمَلِ الصَّالِحِ، وَمِنْ شُكْرِهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ يُضَاعِفُ لَهُ الأَجْرَ؛ فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، وانظر إلى كمالِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْكَ في صِفَتِهِ أَنَّهُ هو الَّذِي يَمُنُّ عَلَيْكَ بِالْعَمَلِ، ثم يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الأِحْسَنِ إِلَّا الأِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] سبِحانِ اللهُ العَظِيمِ! رَبُّنا يُحَسِّنُ لِنَا ثم يقول: (ما جِزَاءُ إِحْسَانِكُمْ إِلَّا أَنْ أُحْسِنَ إِلَيْكُمْ) وهو الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ أَوَّلًا، وهذا يدلُّ على سَعَةِ كَرَمِ اللهُ، والْحَمْدُ للهِ، وَأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ واسِعُ الكَرَمِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ طلب الإنسانِ للثوابِ غايةٌ عَظِيمَةٌ؛ لأنَّ اللّامَ - كما أشرنا إليه آنفًا - للتَّعْلِيلِ، هذا إذا قلنا: إِنَّها للتَّعْلِيلِ، وهي صالحةٌ للتَّعْلِيلِ، فكون الإنسانِ يَعمَلُ من أجلِ الأجرِ فإن هذا لا يُعَدُّ نَقْصًا، خِلافًا للصُّوفِيَّةِ الَّذين يقولون: (لا تَعْبُدِ اللهُ لثوابِ اللهِ، ولكن اعْبُدِ اللهُ اللهُ) فنقول لهم: هذا خطأ، فالله تعالى وَصَفَ أَشْرَفَ هذه الأُمَّةِ وَخَيْرَ هذه الأُمَّةِ بِأَتَمِّهم يريدون فضلًا من اللهِ وَرِضْوانًا، قال اللهُ تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ومع ذلك لا نقول: (إنك لا تعبد الله الله) بل اعبد الله الله ولثواب الله؛ فإنك لن تصل إلى الله إلا بعد وصولك إلى ثواب الله، فإن لقاء الله - اللقاء الذي هو الرضا التام - إنما يحصل في الجنة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] هذا الفوز الكامل، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الرعد: ٢٢] متى يرون وجه الله؟

الجواب: إذا دخلوا الجنة، رؤيته وجه الله الرؤية التامة بعد دخول الجنة.

الحاصل: أن في هذه الآية وأمثالها ما يدل على ضعف ذلك المسلك الذي سلكه أولئك الصوفية بالأعتد الله لثواب الله ولكن اعبد الله الله، فنقول: ما أكثر الآيات الدالة على أن العبادة تكون لفضل الله وثوابه.

الفائدة الثانية: ضمان الثواب؛ يعني أن الثواب مضمون للعامل الذي يتعامل مع الله عز وجل بناء على أن اللام للعاقبة؛ أي: إن هذا العمل سوف يوفى: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ وفيه أيضا وجه آخر لضمان الثواب؛ أن الله سباه أجرا، والأجر لا بد أن يدفع لمن قام بالعمل.

بل جاء في الحديث الصحيح، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي ثُمَّ عَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»<sup>(١)</sup>.

فإذا كان الله خصما لهؤلاء؛ لأنهم لم يعطوا الأجر فإنه يدل على أن الأجر الذي ضمنه الله لعباده سوف يحصل قطعا، ولكن لا بد أن يكون العمل صحيحا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، إثم من باع حرا، رقم (٢٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

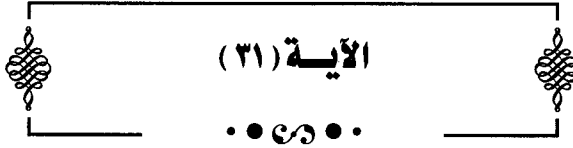
الفائدة الثالثة: أن جزاء الحسنات أكثر مما يجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وزيادة الفضل شرحناها في التفسير.

الفائدة الرابعة: إثبات الأسمين الكريمين: (الغفور) و(الشكور)، وما تَضَمَّنَاهُ من صفة، وهي: المغفرة والشكر، وما تَضَمَّنَاهُ أيضًا من أثر وهو الحكم، فإن (غفور) يُؤخَذُ منها أنه يغفر، و(شكور) يؤخذ منها أنه يشكر من يستحقُّ الشكر.

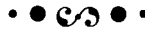
الفائدة الخامسة: دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ﴾ و﴿وَيَزِيدَهُمْ﴾ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يُثبتون لله تعالى الأفعال الاختيارية؛ أي: التي تقع بمشيئته، فإنه تعالى فعَّال لما يريد خلافاً لمن زعم أن الله تعالى لا يُوصَفُ بشيء حادثٍ أبداً.







﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].



جُمْلَةٌ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ جاءت بالصيغة الاسميّة المحصورة، وطريق حصرها أمران:

الأمر الأول: تعريف رُكْنَيْهَا وهما المبتدأ والخبر، ف﴿وَالَّذِي﴾ مُبْتَدَأٌ، و﴿الْحَقُّ﴾ خبر، وقد قال أهل البلاغة: إنَّ تعريف الرُّكْنَيْنِ من الجُمْلَةِ الاسميّة يفيد الحصر. الأمر الثاني: من طُرُق الحصر هو ضمير الفصل وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ وضمير الفصل من فوائده: الحصر، وله فائدة ثانية: التوكيد، وله فائدة ثالثة: الفصل بين الخبر والصفة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ الوحي: إعلام الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورُسله بشريعة من شرائعه، هذا هو الوحي شرعاً، أمّا في اللغة فقالوا: إنَّ الوحي هو الإعلام بسرّعة وخفاء؛ يعني: مثل الإشارة، والهمس، وما أشبههما، تُسَمَّى وحيًا.

أما السُّنَّة فإنَّها نوعان: منها وحيٌّ، ومنها ما ليس بوحى، أحياناً يُسأل النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن شيءٍ ولا يُجيبُ، فيُنزِلُ عليه الوحي فيجيب بحديثٍ نبويٍّ؛ مثل

قصة يعلى بن أمية الذي كان أحرم بالعمرة وهو متصمخ بالخلق، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، ولكنّه لم يجبه حتى جاءه الوحي<sup>(١)</sup>، وأحياناً يُسأل عن الشيء ثم ينزل به الوحي على أنه كلام الله (قرآن) فيبلغه النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المراد به هنا القرآن قطعاً؛ بدليل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأن ﴿مِنَ﴾ بيانية، تبيّن الإبهام في اسم الموصول ﴿وَالَّذِي﴾ لأنَّ اسْمَ الموصول فيه إبهامٌ، فإذا جاءت من بعد اسم الموصول فهي تبيينية.

قال المفسر رحمه الله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [القرآن] وهو كتاب بمعنى مكتوب؛ لأن صيغة (فعال) تأتي كثيراً بمعنى مفعول، وأمثلتها: (غراس، بناء، فراش) بمعنى: مغروس، ومبني، ومفروش، فالكتاب بمعنى مكتوب، مكتوب في أي شيء؟ مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنذَكْرَةٌ ۖ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦]، مكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

إذن: هو مكتوب على ثلاثة أوجه: اللوح المحفوظ، الصحف التي بأيدي الملائكة، الصحف التي بأيدينا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾: ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، و﴿الْحَقُّ﴾ خبر ﴿وَالَّذِي﴾ فالذي أوحى الله إلى رسوله ﷺ هو الحق، أكد الله ذلك بمؤكدين: ضمير الفصل، وتعريف ركني الجملة.

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ﴾: يعني: الشيء الثابت صدقاً في الأخبار وعدلاً في

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب غسل الخلق ثلاث مرات، رقم (١٥٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة، رقم (١١٨٠)، من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه.

الْأَحْكَامَ، فَأَحْكَامُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا عَدْلٌ، وَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ، لَيْسَ فِيهَا كَذِبٌ بِوَجْهِهِ  
 مِنَ الْوَجْهِهِ، وَلَيْسَ فِي أَحْكَامِهِ جَوْرٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَحْكَامَهُ  
 وَجَدْتَهُ قَدْ أُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلِهَذَا كَانَ عَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ  
 وَجَدْتَهَا كُلُّهَا صِدْقًا، وَهَذَا هُوَ الصِّدْقُ فِي الْأَخْبَارِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ  
 رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَقَدَّمَ مِنَ الْكُتُبِ]؛  
 يَعْنِي: مُصَدِّقًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكُتُبِ؛ لِأَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي سَبَقَتْهُ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَلَا تَرَى  
 إِلَى الرَّجُلِ يَكُونُ أَمَامَكَ فَهُوَ قَدْ سَبَقَكَ، وَتَقُولُ: (إِنَّ الرَّجُلَ بَيْنَ يَدَيْكَ)، وَرَبِّمَا  
 يُقَالُ لِمَا بَيْنَ الْيَدَيْنِ لِلشَّيْءِ الْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّهُ أَمَامَكَ أَيْضًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا  
 بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أَي: مُسْتَقْبَلُهُمْ وَمَاضِيَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كَيْفِيَّةُ التَّصْدِيقِ لِلْكُتُبِ السَّابِقَةِ مِنْ  
 وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّهُ صَدَّقَهَا؛ أَي: أَثَبَّتَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، فَالْقُرْآنُ يُثَبِّتُ صِحَّةَ التَّوْرَةِ  
 وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُتُبِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهَا صِدْقٌ.

الوجه الثاني: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لِأَنَّ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ أَخْبَرَتْ بِهِ، فَتَزْوُلُهُ  
 يَكُونُ تَصْدِيقًا لَهَا، فَهُوَ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّهُ صَدَّقَ مَا سَبَقَهُ؛ أَي: قَالَ: إِنَّهَا كُتُبٌ صَادِقَةٌ ثَابِتَةٌ وَأَوْجِبُ  
 الْإِيمَانَ بِهَا.

والوجه الثاني: أَنَّهُ صَدَّقَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ؛ أَي: نَزَلَ مُطَابِقًا لِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ كَمَا قَالَ

الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، القرآن؛ زُبُرِ الْأَوَّلِينَ كُتِبَهُمْ؛ يعني أنه موجود في كُتِبَهُمْ، وأنه سوف ينزل؛ كما أن مُحَمَّدًا ﷺ كذلك قد أخذ العهد والميثاق على كُلِّ نَبِيٍّ أَنْ يُصَدِّقَ بِهِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبوطنِ والظواهرِ [هذه الجملة تعلّقها بما قبلها أمّا تفيد تحذيرًا وإنذارًا وترغيبًا، فهي ترغيبٌ وترهيبٌ؛ لأنّه لما أخبر بأنّ هذا القرآن هو الحقّ، فقد انقسم الناس في هذا الحقّ إلى قسمين: قسمٌ صدّق به، وقسمٌ كفر به.

وكلّ هؤلاء نقول لهم: إنّ الله تعالى بكم خبيرٌ بصيرٌ، فالذين صدّقوا به لن يضيعَ تصديقهم وعملهم بما جاء به؛ لأنّ الله خبيرٌ به وبصيرٌ به، وسوف يجازيهم عليه، والذين كذبوا به أيضًا لن تخفى حالهم على الله عزّ وجلّ، فسوف يعاقبهم بما يقتضي تكذيبهم وإنكارهم واستكبارهم، فالجملة إذن: هي باعتبار المصدّقين لهذا القرآن للبشارة وباعتبار المكذّبين للإنذار والتحذير.

وقوله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾: ﴿لَخَبِيرٌ﴾ اسمٌ فاعلٍ على صيغة مبالغة، وإن شئت فقل: إنّهُ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وهو أحسن بالنسبة لما يتعلّق بالعلم، الأحسن في هذا أن نقول: (إنّه من باب الصّفة المُشَبَّهَة)؛ لأنّ الصّفة المُشَبَّهَة تدلُّ على الثبوت، لكنّ صيغة المبالغة قد تدلُّ على الحدوث، وحدوث الخبر في جانب الله عزّ وجلّ مُستحيلٌ؛ لأنّه لم يزل ولا يزال خبيرًا.

إذن نقول: إنّهُ يتعيّن أن نجعل ﴿لَخَبِيرٌ﴾ صِفَةً مُشَبَّهَةً؛ لأننا لو جعلناها صيغة

مُبَالَغَةٍ مِنْ (خَابِرٍ) لَكَانَتْ مُوهِمَةً لِتَجَدُّدِ الْخِبْرَةِ وَالْعِلْمِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُسْتَحِيلٌ فِي جَانِبِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَصِيرٌ﴾ كَلِمَةٌ «بَصِيرٌ» قَدْ يَرَادُ بِهَا الْعِلْمُ، وَقَدْ يَرَادُ بِهَا الْإِدْرَاكُ بِالرُّؤْيَى، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ لَا يَنَاقِضُ بَعْضُهُمَا بَعْضًا وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْآيَةَ إِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ لَا يَتَنَاقِضَانِ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَوْسَعُ فِي مَعْنَاهَا وَأَبْلَغُ، فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ بَصِيرٌ بِعِبَادِهِ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ وَالرُّؤْيَى، وَمِنْ حَيْثُ الْعِلْمُ؛ فِي جَانِبِ الْمَعْمُولَاتِ الْمَفْعُولَاتِ الظَّاهِرَةِ تَكُونُ الرُّؤْيَى وَالْعِلْمُ أَيْضًا، وَفِي جَانِبِ الْمَسْمُوعَاتِ يَكُونُ الْعِلْمُ.

#### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبَاتُ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وَالْوَحْيُ إِعْلَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَدَ أَنْبِيَائِهِ بِشَرِيْعَةٍ مِنْ شَرَائِعِهِ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً بِحُرُوفِهِ وَبِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، لَكِنَّهُ لَا يُشْبِهُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: فَضِيلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: اشْتِهَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْحَقِّ فِي أَخْبَارِهِ وَفِي أَحْكَامِهِ؛ فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ وَأَحْكَامُهُ كُلُّهَا عَدْلٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مَا خَالَفَ الْقُرْآنَ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ فَحَصَرَ الْحَقَّ فِيهِ، وَالْحَصْرُ إِثْبَاتُ الْحُكْمِ فِي الْمَذْكُورِ وَنَفْيُهُ عَمَّا سِوَاهِ، فَكُلُّ مَا خَالَفَ الْقُرْآنَ فَهُوَ بَاطِلٌ بِلَا شَكٍّ.

الفائدة الخامسة: إنذار المخالفين لهذا القرآن وبشارة الموافقين له، تُستفاد هذه الفائدة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

الفائدة السادسة: إثبات هذين الاسمين لله عزَّوجلَّ وما تَضَمَّنَاهُ من صفةٍ وحُكْمٍ: خير وبصير.

الفائدة السابعة: عُمومُ عِلْمِ الله وشموله حتى لما يقوم به العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

الفائدة الثامنة: علم الله تعالى بما تُكِنُّهُ الصُّدُور، تؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌ﴾ وربِّما نقول أيضاً: و﴿بَصِيرٌ﴾ لأنَّ (بصير) بمعنى العليم والمُبْصِر.

الفائدة التاسعة: أنَّ جميع الخلق عابدون لله، فالخلق كُلُّهم عبادُ الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فلا حَقَّ لأحدٍ من المخلوقين في شيء من خصائص الرَّبِّ، بل كُلُّ عَبْدٍ ذليلٌ لله سُبحانَهُ وتعالى.



## الآية (٣٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا آلَ كِنَانٍ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

•••••

كَلِمَةٌ (أَوْرَثَ) هُنَا نَصَبَتْ مَفْعُولِينَ لَيْسَ أَصْلُهَا الْمُبْتَدَأُ وَالْخَبْرُ، وَعَلَى هَذَا فَهِيَ مِنْ بَابِ (كَسَا وَأَعْطَى)، وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ هُوَ ﴿الَّذِينَ﴾ وَالثَّانِي هُوَ ﴿الْكِنَانِ﴾ فَلَيْسَ الْكِتَابُ وَارِثًا لـ ﴿الَّذِينَ﴾ بَلْ ﴿الَّذِينَ﴾ هُمُ الَّذِينَ وَرِثُوا الْكِتَابَ، يَعْنِي: أَوْرَثْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا الْكِتَابَ، وَمَعْنَى أَوْرَثْنَا هُمْ إِيَّاهُ؛ أَي: جَعَلْنَا هُمْ يَرِثُونَهُ؛ فَالَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ الْكِتَابَ؛ أَي: جَعَلَهُمْ يَرِثُونَهُ.

وَكَلِمَةٌ ﴿الْكِنَانِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الْقُرْآنَ] وَيَنْبَغِي أَنْ نَجْعَلَهُ أَعَمًّا؛ لِأَنَّ لَوْ قُلْنَا: (إِنَّ الْكِتَابَ هُوَ الْقُرْآنُ)، وَقُلْنَا: إِنَّهُ مَوْرُوثٌ عَمَّنْ سَبَقْنَا لَكَانَ الْقُرْآنُ قَدْ نَزَلَ عَلَى مَنْ سَبَقْنَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ هُنَا الْجِنْسُ، لَا خِصُوصُ الْقُرْآنِ؛ يَعْنِي أَنَّ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ كُلَّ مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ، فَنَحْنُ وَرِثْنَا عَمَّنْ سَبَقْنَا كُلَّ مَا أُوتِيَ مِنْ خَيْرٍ، فَالْأُصُولُ الَّتِي تَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ، وَالشَّرَائِعُ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأُمَمِ وَبِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ هَذِهِ تَخْتَلِفُ عَمَّنْ سَبَقَ؛ قَدْ يَجِبُ عَلَيْنَا مَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يُحَرِّمُ عَلَيْنَا

ما لا يُحَرِّمُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، أمَّا الأُصُولُ فقد ورثناها عنهم، فالأصول التي هي أمُّ الدِّينِ قد ورثناها عمَّن سَبَقْنَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخترنا، وهو مأخوذٌ من الصَّفْوَةِ، وأصله (اصْتَفَيْنَا) لكن لِعَلَّةٍ تَصْرِيْفِيَّةٍ قَلِبَتِ التَّاءُ طَاءً، فقيل: (اصطفينا من عبادنا)؛ أي: اخترناهم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عِبَادِنَا﴾ هل المرادُ بذلك العُبُودِيَّةُ العامَّةُ أو الخاصَّةُ؟ يعني الذين اصطفيناهم من المؤمنين، أو اصطفيناهم من جميع العباد؟

الذي يظهر أنَّها من العُبُودِيَّةِ العامَّةِ؛ يعني: الذين اختارهم الله تعالى من عباده الذين يُخَصَّصُونَ لَهُ كَوْنًا، والمرادُ بهم هذه الأُمَّةُ، بدليل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فالذين اصطفاهم الله من عباده هم هذه الأُمَّةُ لِلآيَةِ التي سُقِنَاها وهي في آل عمران، وللدليلِ آخَرَ من هذه الآيةِ نَفْسِهَا؛ لأنَّ هذه الأُمَّةُ هي آخِرُ الأُمَّمِ، إذن فلا يُمكنُ أن يُورَثَ ما عندها من الكِتَابِ، فهي وارثَةٌ غَيْرُ موروثَةٍ، وإذا كانت وارثَةٌ غَيْرُ موروثَةٍ فهي التي اصْطُفِيَتْ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتَّقْصِيرِ فِي الْعَمَلِ بِهِ]؛ أي: بالكِتَابِ ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يَعْمَلُ بِهِ أَغْلَبَ الأَوْقَاتِ ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ يَضُمُّ إِلَى الْعَمَلِ التَّعْلِيمَ وَالْإِرْشَادَ إِلَى الْعَمَلِ ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ.

قسَّم اللهُ تَعَالَى هذه الأُمَّةَ التي أورثها الكِتَابَ إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالأقل في الرتبة فالأقلُّ، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾.



فالظالم لنفسه هو الذي ترك شيئاً من الواجبات أو فعل شيئاً من المحرمات؛ ترك صلاة الجماعة مع وجوبها عليه، ترك بعض الزكاة لم يخرجها، ترك الحج على الفور مع وجوبه عليه على الفور، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه؛ فعل المحرمات، شرب الخمر، زنا، سرق، نظرًا محرماً، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه.

ومعنى الظالم في الأصل هو الناقص؛ لأن الظلم هو النقص، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا الْجَنَيْنِ ءِأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]؛ يعني: لم تنقص، وكل من أساء فقد نقص فيما يجب عليه؛ ولهذا كل عمل سيئ يُعتبر نقصاً فيما يجب عليك؛ لأن الواجب عليك لنفسك أن ترعاها حق رعايتها، فأنت مسؤول أول ما تُسأل عن نفسك، قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»<sup>(١)</sup>، فبدأ بالنفس، فكما يجب عليك أن ترعى مصالح ولدك، ومالك، وأهلك، يجب عليك أن ترعى مصلحة نفسك، بل هو الواجب الأول من حقوق المخلوقين بعد حق الله ورسوله.

إذن: من فعل محرماً فقد ظلم نفسه؛ لأنه نقصها حقها في الأمانة، أنت مؤتمن عليها يجب أن ترعاها حق رعايتها، ومن ترك واجباً فقد ظلم نفسه؛ لأن الواجب عليه أن يفعل الواجب ليقوم بحق الأمانة فيما يتعلق في نفسه، هذا الظالم لنفسه.

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ المقتصد هو الذي لم يقع منه ظلم لنفسه ولا تقدم في الخير؛ أي: قائم بالواجبات تارك للمحرمات، لكنه لا يكثر من النوافل، ولا يحرص على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم (١٩٦٨)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري: كتاب التهجد، رقم (١١٥٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صيام الدهر، رقم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إكمال الواجبات على الوجه الأكمل، ولا يتجنب المكروهات، فهو مُقْتَصِدٌ، لا نَقْصَ ولا زَادَ.

يُصَلِّي مع الجماعة، وَيُزَكِّي بدون نَقْصٍ، لكن لا يأتي بالنوافل ولا بِصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، يُوَدِّي فريضة الحج لكن لا يعود، يَصُومُ رَمَضَانَ لكن لا يصوم نَفْلًا، وهكذا، يؤدي ما عليه من المعاملات بين الناس على الوجه الواجب فقط، لا يتسامح عن فقير، ولا يُنْزِلُ من قِيمَةٍ أو ثَمَنٍ، لَكِنَّه ماشٍ على ما يَجِبُ عليه، نقول: هذا مُقْتَصِدٌ، هذا لا له ولا عَلَيْهِ؛ يعني: ليس له ثوابٌ إلا ثوابُ فِعْلِ الواجبِ فقط.

﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ هذا يأتي بالواجبات ويزيد ما شاء الله تعالى من الخيرات، ويأتي بالواجبات أيضًا على الوجه الأكمل الأتم؛ فالصلاة مثلاً لا يُقْتَصِرُ فيها على تَسْبِيحَةٍ واحدة بل يزيد، لا يُقْتَصِرُ على الفاتحة بل يزيد، لا يُقْتَصِرُ على أن يضع يديه مثلاً مُطْلَقَةً هكذا، بل يضعها في مَوْضِعِهَا في حال القيام، وفي حال الرُّكُوعِ، وفي حال السُّجُودِ، وهكذا.

نقول: هذا سابق بالخيرات، يؤدي الزكاة ويتصدق، يحج الواجب ويتطوع، يصوم رمضان ويتنفل بغيره من الصيام، هذا نقول: إنه سابق بالخيرات. أما قول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ إِنَّ مَعْنَى [﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾] يَضُمُّ إِلَى الْعَمَلِ التَّعْلِيمَ وَالْإِرْشَادَ إِلَى الْعَمَلِ [ففي هذا نظرٌ ظاهر؛ لأنَّ التَّعْلِيمَ قد يكون واجبًا، وإذا قام بالتَّعْلِيمِ الواجبِ صار من المُقْتَصِدِ، وإن تركه صار من الظالم لنفسه، وكذلك نقول في الإرشاد: الإرشادُ الواجبُ إذا قام به صار مُقْتَصِدًا، وإن تركه صار ظالمًا لنفسه، ولكن ما قلنا هو الصوابُ.

واختلف المفسرون في هذه الآية؛ فمنهم من يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾

كالمنايع للزكاة ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ﴾ كالمقتصر عليها ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ كالزائد عليها.

وآخر يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ مؤخر للصلاة عن وقتها ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ﴾ فاعل لها في وقتها، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فاعلها في أول وقتها؛ أي: في الوقت الذي يستحب أن تقام فيه، فهل بين القولين خلاف؟

الجواب: لا، ليس بينها خلاف، هذا يسمى اختلاف تنوع؛ يعني أن كل واحد من القائلين ذكر نوعاً، فيكون هذا على سبيل التمثيل، ولا يعد هذا خلافاً في الواقع، ولكنه تمثيل، هذا مثل بالزكاة، وهذا مثل بالصلاة.

قال المفسر رحمه الله: [﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ بإرادته] لكن هل المراد الكونية أو الشرعية؟

الظاهر أننا نعلب هنا الكونية؛ يعني أن هذه الأقسام الثلاثة: الظالم، والمقتصد، والسابق، كلهم يفعلون هذا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي أذن للظالم نفسه أن يظلم نفسه، وللمقتصد أن يقتصر على ما يجب، وللسابق أن يزيد.

وتقييد هذا بإذن الله؛ لئلا يفتخر مفتخر بكونه سابقاً بالخيرات، فيضيف الشيء إلى نفسه، ويمن به على ربه، كما قال الله تعالى عن بعض بني آدم: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُوهَا لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

فأنت إذا من الله عليك بسبق في الخيرات لا تظن أن هذا من نفسك، لو وكلت إلى نفسك لكنت ظالماً لنفسك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[الأحزاب: ٧٢] هذه حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ: الظُّلْمُ وَالْجَهَالَةُ، لَكِنْ مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ فَهُوَ مِنْ فَضْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ذَلِكَ] أَي: إِزْنُهُمُ الْكِتَابَ ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

صَدَقَ اللَّهُ، الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا يُدَانِيهِ فَضْلٌ هُوَ مِثْلُهُ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِالْعِلْمِ بِهَذَا الْكِتَابِ، هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ، لَيْسَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ بِأَنْ يُعْطَى الْإِنْسَانُ قُصُورًا أَوْ مَرَائِبَ فَخْمَةً أَوْ زَوْجَاتٍ حَسَنًا أَوْ أَبْنَاءَ كَثِيرِينَ، لَا، الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أَنْ يُورَثَ هَذَا الْكِتَابَ، كُلُّ مَنْ وَرِثَ هَذَا الْكِتَابَ عِلْمًا وَعَمَلًا وَدَعْوَةً فَهُوَ الَّذِي حَازَ الْفَضْلَ الْكَبِيرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ﴾ فِيهَا أَدَاءُ حَضْرٍ، وَهُوَ ضَمِيرُ الْفَضْلِ، وَضَمِيرُ الْفَضْلِ هُوَ ضَمِيرٌ يَأْتِي مُطَابِقًا لِلسِّيَاقِ، يَأْتِي بِصُورَةِ الْغَائِبِ كـ(هُوَ)، وَبِصُورَةِ الْمُخَاطَبِ كـ(أَنْتَ)، وَبِصُورَةِ الْمُتَكَلِّمِ كـ(أَنَا)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] هَذَا أَتَى بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَتَقُولُ لِمَنْ تَخَاطَبُهُ: (إِنَّكَ أَنْتَ الْقَائِلُ) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] هَذَا فِي صِيغَةِ الْمُخَاطَبِ، وَفِي صِيغَةِ الْغَائِبِ كَثِيرٌ، مِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

إِذْنِ: فَضْمِيرُ الْفَضْلِ ضَمِيرٌ يُؤْتَى بِهِ مُطَابِقًا لِلسِّيَاقِ مِنْ حَيْثُ التَّكَلُّمُ وَالْخِطَابُ وَالْغَيْبَةُ، وَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ لَا مَحَلَّ لَهُ.

أما من حيث المعنى فيفيد ثلاثة أمور: يفيد التوكيد، والحصر، والتمييز بين الخبر والصفة.

فتقول مثلاً: (زيدُ الفاضلُ) ليس فيها ضميرُ فضل، فهنا يُحتمل أن تكون (الفاضلُ) خبراً، ويُحتمل أن تكون صفةً والخبرُ لم يأت، ويُمكن أن نقول: تقدير الكلام: زيدُ الفاضلُ قائمٌ، فتكون الفاضلُ صفةً، فإذا قلت: (زيدُ هو الفاضلُ) تعين أن تكون الفاضلُ هنا خبراً، ولا يُمكن أن تكون صفةً، إذن فهو يُميز بين الصفة والخبر، فيكون ما بعده خبراً لا صفةً، ولولاه لكان مُحتملاً أن يكون خبراً أو صفةً؛ هذا شرح قولنا: (التمييز بين الخبر والصفة).

فيفيد الحصر؛ فإذا قلت: زيدُ فاضلٌ، هل يمنع أن يكون غيره فاضلاً؟ لا يمنع.

إذا قلت: زيدٌ هو فاضلٌ، أو زيدٌ هو الفاضلُ؛ نعم، تعني أن يكون (زيدٌ) وحده هو الفاضلُ.

أما التوكيد فلا شك أن قولك: (زيدُ الفاضلُ) تريد المبتدأ والخبر، لا شك أنّها جملة تامّة ومعناها واضحٌ، لكن إذا قلت: زيدٌ هو الفاضلُ كأنك اتكأت عليه وزدتها توكيداً.

﴿الْفَضْلُ﴾ بمعنى العطاء من الله، ﴿الْكَبِيرُ﴾ من حيث الحجم فهو كبيرٌ في كَيْفِيَّتِهِ، ونحن نعلم من جهة أخرى أنه كثيرٌ في كَمِّيَّتِهِ فيجتمع في هذا العطاء الكَمِّيَّة والكَيْفِيَّة، فهو فضلٌ كبيرٌ في ذاته وكَيْفِيَّتِهِ، وفضلٌ كثيرٌ أيضاً في عَدَدِهِ وكَمِّيَّتِهِ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

### من فوائد الآية الكريمة :

الفائدة الأولى: أن القرآن كتاب؛ أي مكتوب، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

الفائدة الثانية: أن هذا القرآن مُصَدِّق لما سَبَقَهُ من الكتب؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن الذي يُؤْمِنُ بهذا القرآن مُؤْمِنٌ بالكتب السابقة؛ لأنَّ هذا القرآن مُصَدِّقٌ لها فيكون الإيمانُ به إيمانًا بما سبق من الكتب.

الفائدة الثالثة: الاستشهادُ بالأمرِ الواقعِ حتى وإن كان من عند الله؛ بمعنى أن الله تعالى يَسْتَشْهِدُ بالأمرِ الواقعِ؛ ليزدادَ إيمانُ المؤمنين؛ وَجْهُ ذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على أَحَدِ الْمَعْنَيْنِ، وهما أَنَّهُ وَقَعَ مُطَابِقًا لما أَخْبَرَتْ به، فَإِنَّهُ إِذَا أَخْبَرَتْ به ثم جاء فهذا دليلاً على صِدْقِهِ، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُوَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، فاستشهد الله تعالى بعلمِ علماء بني إسرائيل زيادةً في التَّشْبِيهِ وإقامةً لِلْحُجَّةِ على الْمُنْكَرِينَ من أَهْلِ الْكِتَابِ.

الفائدة الرابعة: رَحْمَةُ اللهِ تعالى بعباده؛ حيث لم يَدْعُهُمْ هَمَلًا، بل أنزل إليهم الكتب التي يَسْتَتِيرُونَ بها في سَيْرِهِمْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الفائدة الخامسة: سَعَةُ التَّعْبِيرِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ الْمَعْنَى دُونَ مَجْرَدِ اللَّفْظِ؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لَأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: وَهَلْ لِلْقُرْآنِ يَدٌ؟

فالجواب: أن هذا من بابِ التَّوَسُّعِ فِي التَّعْبِيرِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الْمَعْنَى، وَالْأَلْفَاظُ قَوَالِبُ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى؛ إِذْ قَوَالِبُ الشَّيْءِ يَعْنِي: أَوَانِيهِ الَّتِي يُجْعَلُ

فيها، فأنت مثلاً إذا قُدِّمَ إليك (كرتون) مُزَخَرَفٌ مُزَيَّنٌ بِالذَّهَبِ تَسْتَدِلُّ بِهَذَا عَلَى مَا فِي بَاطِنِهِ وَأَنَّهُ شَيْءٌ غَالٍ قِيمٌ، فالألفاظُ في الواقعِ قَوَالِبُ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَعَانِي، وليس لها -أي للألفاظ- مَعْنَى ذَاتِيٌّ حَتَّى لَا تَتَغَيَّرَ بِأَيِّ تَرْكِيبٍ كَانَتْ بَلْ هِيَ تَتَغَيَّرُ بِحَسَبِ التَّرَكِيبَاتِ وَالصِّيغِ.

الفائدة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فَضَّلَ اللهُ عَزَّجَلَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ أَوْرَثَهَا هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ حَقٌّ وَأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ أَوْرَثَهُ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ؛ فَبَيَّنَ ذَلِكَ بَيَانٌ فَضَّلَ اللهُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْإِرْثِ.

الفائدة السابعة: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ الْأُمَمِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وَهِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَاسْتَدَلَّلْنَا لِذَلِكَ أَيْضًا بِآيَةٍ أُخْرَى وَهِيَ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الفائدة الثامنة: الإِشَارَةُ إِلَى الْفَتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى وَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ تَوْخِذٌ مِنْ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّرَاخِي، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَلَا نَعْلَمُ فِتْرَةً أَطْوَلَ مِنْهَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا بَيْنَ الرِّسَالَاتِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ أَطْوَلَ مَا كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَشْكُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، لَكِنْ مَا بَيْنَ عِيسَى وَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِوَالِي سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ.

وإِنَّمَا طَالَتِ الْفِتْرَةُ لِتَشْتَدَّ حَالُ النَّاسِ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ، فَتَأْتِي الرِّسَالَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ إِلَى قَوْمٍ فِي غَايَةِ الضَّرُورَةِ إِلَى الرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ، وَيَكُونُ لِرِسَالَتِهِ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ؛ حَيْثُ جَاءَتْ كَالْمَطَرِ يَنْزِلُ عَلَى أَرْضٍ مُجْدِبَةٍ فَتَكُونُ أَشَدَّ قَابِلِيَّةً لَهُ وَأَشَدَّ تَأْتُرًا بِهِ.

الفائدة التاسعة: تَقْسِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمُقْتَصِدٌ،

وسابق بالخيرات.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الرَّدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وَجَعَلُهُمْ مِنَ الَّذِينَ اضْطَفَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ خَرَجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُضْطَفَيْنِ.

وقد يقول قائل: يُمكن أن يعارض الخوارج والمعتزلة هذا الاستدلال بأن يقولوا بأن المراد بالإثم هنا ما دون الكبائر؟

فيقال: إن ما دون الكبائر يقع مغفوراً بفعل الطاعات؛ كالصَّلواتِ الحَمْسِ والجمُعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، وحينئذ ينتفي الظلم بمجرد فعل هذه الطاعات.

ثم نقول قولاً آخر: بأن الآية مُطلقةٌ تشمل الظلم الأصغر والظلم الأكبر. ففيها ردُّ على الخوارج والمعتزلة الذين يُكفرون أو يُخرجون الإنسان بالكبيرة من الإسلام، وحينئذ لا يكون من العباد الذين اضطفوا.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ فَهُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَإِرَادَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ؛ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَتْرُكُ بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ، بَلْ هُوَ مُسْتَقِلٌّ بِمَشِيئَتِهِ وَفِعْلِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ: كَبْحُ النَّفْسِ عَنِ اسْتِعْلَاءِ وَالْفَخْرِ بِالطَّاعَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حَتَّى لَا يَقُولَ الْإِنْسَانُ: فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا الَّذِي فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ، وَهَذَا خِلَافًا لِمَا يَسِيرُ عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا فَعَلَ الْمَعْصِيَةَ كَانَ جَزِيئًا وَإِذَا فَعَلَ الطَّاعَةَ كَانَ قَدَرِيًّا؛ إِذَا فَعَلَ الطَّاعَةَ قَالَ هَذَا مِنِّي وَأَنَا الَّذِي فَعَلْتُ وَأَنَا الَّذِي فَعَلْتُ، وَإِذَا



فعل المَعْصِيَّة قال هذا من الله وأنا مُجْبَرٌ عليه، فبعض النَّاسِ يَسْأَلُكَ هذا الْمَسْأَلَةَ، وهذا مسلكٌ بَعِيدٌ من العَدْلِ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: إِبْطَاتُ عُمُومِ مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ حَتَّى فِي أَعْمَالِ الْعَبْدِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾.

الفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: تَفَاضُلُ النَّاسِ فِي الْعَمَلِ، وَيَتَفَرَّغُ عَلَيْهِ: تَفَاضُلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى تَفَاضُلِهِمْ فِي الْعَمَلِ تَقْسِيمُهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، وَيَلْزَمُ مِنْ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْعَمَلِ أَنْ يَتَفَاضَلُوا فِي الْإِيمَانِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْقَائِلِينَ بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِ الْإِيمَانِ.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ أَكْبَرَ فَضْلِ يَتَفَضَّلُ اللَّهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَنْ يُوقِّعَهُ لِلْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ إِفْضَالَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ يَتَفَاضَلُ؛ فَمِنْهُ الْكَبِيرُ وَمِنْهُ الصَّغِيرُ، وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ، فَفَضْلُ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ أَعْلَى مِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَعْلَى مِنْ فَضْلِهِ عَلَى الصِّدِّيقِينَ، وَعَلَى الصِّدِّيقِينَ أَعْلَى مِنْ فَضْلِهِ عَلَى الشُّهَدَاءِ، وَعَلَى الشُّهَدَاءِ أَعْلَى مِنَ الصَّالِحِينَ، وَهَذَا لَا شَكَّ فِيهِ.



الآية (٣٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ  
وَلَوْلُؤًا وَّلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣].

•••••

هذا بيانٌ لثوابِ هؤلاء الأَصْنافِ الثلاثة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [ ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ ﴾ إقامَةٌ ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي الثلاثة، بالبناء  
للفاعِلِ والمفعولِ؛ خبرٌ ﴿ جَنَّتٌ ﴾ المبتدأ].

بالبناء للفاعل يَدْخُلُونَهَا، وبالبناء للمفعولِ: (يَدْخُلُونَهَا)، وهم إذا أُذخِلُوا  
فقد دَخَلُوا، فكأنَّ القراءَتَيْنِ واحِدٌ، ولكن يُسْتَفَادُ منها من كَلِمَةِ يَدْخُلُونَهَا بيانٌ  
أنَّهم يُعْطَوْنَ كرامةً، فَتَقَدَّمُ إليهم حتى يَدْخُلُوها، لكن يَدْخُلُونَهَا بدون أن يقال  
يَدْخُلُونَهَا، فإنَّ الدَّاخِلَ قد يدخل كرامةً وقد يدخل من ذاتِ نَفْسِهِ، لكن إذا أُذخِلَهَا  
كأَنَّهَا قُدِّمَتْ له على سبيلِ الكرامةِ حتى يَدْخُلُوها.

وقوله تعالى: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ ﴾ جناتٌ أصلها جمع جَنَّةٍ، قال العلماء رَحِمَهُ اللهُ:  
والجَنَّةُ البُستانُ الكثيرُ الأشجارِ، وسُمِّيَ بذلك لأنَّه يَسْتُرُ من كان داخِلَه، والله  
أعلم.

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ عَدْنٌ بِمَعْنَى إقامَةٍ، يعني أنَّ هذه الجِنَاتِ جناتٌ  
إقامَةٌ لا ظَعْنٌ فيها، بل هم خالدون فيها أبداً، ومع ذلك ليس أَحَدٌ منهم يَتَمَنَّى أن

يَتَحَوَّلُ عَمَّا هُوَ فِيهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] بخلاف الجنة فإنَّ الإنسانَ لو كان في أَحْسَنِ ما يكون من البساتين لَتَمَنَّى أن يَتَحَوَّلَ إلى ما هو أَحْسَنُ منه وأفضل منه، لكن في الآخرة كُلُّ إنسان من كل واحدٍ منهم يرى أَنَّهُ في مكان إقامةٍ لا يريدُ أن يَتَحَوَّلَ عنه.

وهذا لا شكَّ أَنَّهُ مِنْ كَمالِ النِّعَمِ؛ أن يَسْتَقِرَّ الإنسانُ وأن يرى أَنَّهُ في أَكْمَلِ ما يكون حتى لا تَتَشَوَّفَ نَفْسُهُ إلى نعيمٍ أعلى فَيَتَنَغَّصُ نعيمه؛ لأنَّهُ من المعلوم أَنَّ الإنسانَ إذا رأى أَنَّهُ دونَ غَيْرِهِ وإن كان في مقامٍ أمينٍ وإن كان في مقامٍ مُنعمٍ فيه، لكن يَتَنَغَّصُ عليه ذلك لكونه يرى أن غَيْرَهُ أَفْضَلُ منه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ بالبناء للفاعلِ وللْمَفْعُولِ، خَبْرٌ، جناتٌ: المُبتدأُ، وجملةٌ يَدْخُلُونَهَا أو يَدْخُلُونَهَا خَبْرٌ.

[﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثانٍ] ولا تَصِحُّ أن تكون حالاً من الفاعل؛ وذلك لأنَّ تَحْلِيَتَهُمْ بذلك بعد الدُّخولِ، ولو قلنا: إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ حالَ كَوْنِهِمْ يُحَلَّوْنَ لِلزَّمِ من ذلك أن يكون التَّحْلِيَةُ حينَ الدُّخولِ أو قَبْلَها.

[﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثانٍ] وهل يَجُوزُ أن يَتَعَدَّدَ الخَبْرُ؟

الجواب: نعم، وهذا في القرآن كثيرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [البروج: ١٤-١٥] الخَبْرُ الآنُ أربعة: الغفور والودود وذو العرش والمجيد؛ فتَعَدَّدَ الأخبارُ جائزٌ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في هذه الجناتِ ﴿مِنْ﴾ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [بَعْضُ] فأفادنا أن مِنْ هنا ليست بَيانِيَّةٌ بل هي تَبْعِيضِيَّةٌ، ولو قيل إِنَّها بَيانِيَّةٌ لكان له وجهٌ جَيِّدٌ؛

لأنَّ التَّحْلِيَةَ لَا تَتَعَيَّنُ فِي الْأَسَاوِرِ؛ إِذْ قَدْ يُحْتَمَلُ الْإِنْسَانُ بِالْخِرْصَانِ<sup>(١)</sup> مَثَلًا أَوْ بِالْقَلَائِدِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَجَعَلَهَا بَيَانِيَّةً أُولَى مِنْ جَعْلِهَا تَبْعِيضِيَّةً؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: يُحَلُّونَ بَعْضَ أَسَاوِرَ لَمْ تَكُنِ التَّحْلِيَةُ بِالْأَسَاوِرِ، وَإِنَّمَا يُحَلُّونَ بَعْضُهَا، إِلَّا إِذَا قُلْتَ: نَعَمْ، أَقُولُ إِنَّهَا عَلَى التَّبْعِيضِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْأَسَاوِرَ الْمَذْكُورَةَ هُنَا نَوْعَانِ فَقَطْ: ذَهَبٌ وَلَوْلُؤٌ، مَعَ أَنَّ لَهُمْ حَلِيَّةً أُخْرَى وَهِيَ الْفِضَّةُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ فَإِذَا جَعَلْتَهَا تَبْعِيضِيَّةً بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْأَسَاوِرَ الْمَذْكُورَةَ مِنْ نَوْعَيْنِ وَبَقِيَ نَوْعٌ ثَالِثٌ لَمْ يُذَكَّرْ: فَصَارَ الْقَوْلُ بِأَنَّهَا لِلتَّبْعِيضِ لَهُ وَجْهٌ.

وقد ذكرنا مرارًا كثيرةً أَنَّهُ إِذَا احْتَمَلَ اللَّفْظُ مَعْنَيْنِ لَا يَتَنَافِيانِ فَإِنَّهُ يُحْتَمَلُ عَلَيْهِمَا فَيُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَ ﴿مِنْ﴾ هُنَا مُشْتَرِكَةً بَيْنَ كَوْنِهَا بَيَانِيَّةً وَبَيْنَ كَوْنِهَا تَبْعِيضِيَّةً؛ بَيْنَ كَوْنِهَا بَيَانِيَّةً لِأَنَّ التَّحْلِيَةَ تَكُونُ مِنَ الْأَسَاوِرِ وَغَيْرِهَا، فَتَكُونُ ﴿مِنْ﴾ هُنَا مَبِينَةً مَا يُحَلُّونَ بِهِ؛ وَتَبْعِيضِيَّةً؛ لِأَنَّهُ ذُكِرَ مِنَ الْأَسَاوِرِ هُنَا نَوْعَانِ، وَبَقِيَ نَوْعٌ ثَالِثٌ لَمْ يُذَكَّرْ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ (أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤٍ) مُرْصَعٍ بِالذَّهَبِ ]: (مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤٍ) أَمَّا ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فَهِيَ مَجْرُورَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ، وَأَمَّا ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ فَهِيَ عِنْدِي مَنْصُوبَةٌ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ: [ مُرْصَعٍ ] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مَجْرُورَةٌ، كَمَا هِيَ الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَّةُ؛ وَهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نُنْصَحَّ فِي الْمُصْحَفِ الْمَفْسَّرِ ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ وَنَجْعَلَهَا بِالْجُرِّ بِنَاءٍ عَلَى تَفْسِيرِ الْجَلَالِ.

وما الدليل على أنَّها (ولؤلؤ)؟

الجواب: لِأَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: [ مُرْصَعٍ ] لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ قِرَاءَةَ النَّصْبِ لَقَالَ مُرْصَعًا.

(١) الحلقة الصغيرة من حلِّي الأذن، واحدها: خُرْصٌ، وجمعها أخراص وخرصان. تاج العروس (١٧/٥٤٦)، مادة: (خرص).

إذن: نقول: (ولؤلؤ) فيها قراءتان سَبْعِيَّتَانِ؛ إحداهما بالنَّصْبِ ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ وعلى هذا تكون معطوفة على محَلِّ ﴿أَسَاوِرَ﴾ يعني يُحَلَّوْنَ فيها أساورَ ولؤلؤًا؛ أساورَ من ذَهَبٍ، ويُحَلَّوْنَ لؤلؤًا أيضًا؛ وأمَّا بالجرِّ (ولؤلؤ) فهي معطوفة على ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ يعني يُحَلَّوْنَ فيها أساورَ من نَوْعَيْنِ: من ذهبٍ ولؤلؤٍ.

أَضِفْ إليها ﴿وَحَلَّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] تكون أساورهم من ثلاثة أنواع: من الذَّهَبِ، واللُّؤْلُؤِ، وَمِنَ الْفِضَّةِ.

ولا نَشْكُ أَنَّ السَّوَارَ مِنَ الذَّهَبِ مُجْمَلٌ وفيه جمالٌ بذاته، وكذلك السَّوَارُ مِنَ الْفِضَّةِ، وكذلك السَّوَارُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ، فكلُّ واحدٍ منها على حِدَةٍ فيه جمالٌ وتَجْمِيلٌ، فإذا اجْتَمَعَتِ الثَّلَاثَةُ وَصِفَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ تَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ تَجْمِيلٌ أَكْبَرُ.

ولا أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ كَيْفَ تُجْمَعُ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ؛ هل يَكُونُ اللُّؤْلُؤُ بَيْنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، أَوِ الذَّهَبُ بَيْنَ اللُّؤْلُؤِ وَالْفِضَّةِ، أَوِ اللُّؤْلُؤُ بَيْنَهُمَا؟!.

المُهْمُّ: أَنَّ تَرْتِيبَهَا هَذَا لَا أَحَدٌ يَتَصَوَّرُهُ الْآنَ، لَكِنِ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ تُجْمَعُ، أَمَّا كَيْفَ تُجْمَعُ، فَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ، لَكِنَّا أَيْضًا نَعْلَمُ أَنَّ جَمْعَهَا - أَيِ الثَّلَاثَةِ - لَهُ زِيَادَةٌ فِي التَّجْمِيلِ.

وَاعْلَمُ أَنَّ الذَّهَبَ الَّذِي يُذَكَّرُ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَالْفِضَّةُ وَاللُّؤْلُؤُ لَيْسَتْ كَالذَّهَبِ الَّذِي نَشَاهِدُهُ الْآنَ أَوِ الْفِضَّةُ أَوِ اللُّؤْلُؤُ، بَلْ هُوَ ذَهَبٌ أَعْظَمُ، ذَهَبٌ يَلِيقُ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا أَنَّ النَّخْلَ وَالرَّمَانَ وَالْفَاكِهَةَ وَالْعَسَلَ وَاللَّبْنَ وَالْحَمْرَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَيْسَ كَالَّذِي يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ النَّعِيمَ يَنَاسِبُ الدَّارَ، فَإِذَا كَانَتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لَا تُشَابِهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ؛ فَالنَّعِيمُ الَّذِي فِي الْآخِرَةِ لَا يُسَاوِيهِ النَّعِيمُ الَّذِي فِي الدُّنْيَا، هَذَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْقُولِ.

أما من حيث المنقول ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث القدسي: «أعددت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»<sup>(١)</sup>.

وأنتم تُشاهدون الآن أنه لو دعاكم رجلٌ فقيرٌ وصنع لكم أعلى ما يُمكنه من الطعام الذي هو أحسن شيء عنده، ودعاكم رجلٌ غنيٌ وصنع لكم أعظم ما يجد من الطعام عنده لَعَرَفْتُمْ بِالْفَرْقِ؛ فالفرق العظيم بين هذا وهذا، مع أن كُلَّ واحدٍ منهما أتى بِكُلِّ ما يَسْتَطِيعُ؛ كذلك الفَرْقُ بين نعيم الآخرة ونيعم الدنيا.

فَالذَّهَبُ إِذْنٌ: يوافقُ الذَّهَبُ في الدُّنْيَا في الاسم ولا يوافقُه في الحَقِيقَةِ؛ قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «ليس في الآخرة مِمَّا في الدنيا إِلَّا الأَسْمَاءُ فقط»<sup>(٢)</sup>، أمَّا الحَقَائِقُ فَتَخْتَلِفُ.

يقول رَحْمَةُ اللهِ: [(من ذهبٍ ولؤلؤٍ) مرصع بالذهب] وقوله: [مرصع بالذهب] قد يعارض المفسر رَحْمَةُ اللهِ في ذلك، إذ قد يقال: إِنَّ اللُّؤْلُؤَ حَلِيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، ويدل لذلك قِرَاءَةُ النَّصْبِ: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ يعني يُحَلَّوْنَ لَوْلُؤًا، أمَّا على قِرَاءَةِ الجَرِّ فما ذهب إليه المفسر رَحْمَةُ اللهِ مُحْتَمَلٌ غَيْرٌ مُتَعَيِّنٌ؛ فهو يرى رَحْمَةُ اللهِ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ ليس مُسْتَقِلًّا بل هو مُرْصَعٌ بِالذَّهَبِ كما يوجد في حُلِيِّ الدُّنْيَا، ولكننا لا نُسَلِّمُ لما قال، فالظَّاهِرُ من الآية الكريمة أَنَّ اللُّؤْلُؤَ سِوَاؤُ مُسْتَقِلٍّ، وَيُبَيِّنُ هذا قِرَاءَةُ النَّصْبِ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ يعني يُحَلَّوْنَ لَوْلُؤًا، فَجَعَلَ حَلِيَّةَ اللُّؤْلُؤِ حَلِيَّةً مُسْتَقِلَّةً.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب

الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤١٦/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦/١)، وأبو نعيم في صفة

الجنة رقم (١٢٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لَمَا ذَكَرَ مَا يُلبَسُ فِي اليَدِ ذَكَرَ اللِّبَاسَ العَامَّ عَلَى جَمِيعِ البَدَنِ؛ فَقَالَ: لِبَاسُهُمْ فِي الجَنَّةِ حَرِيرٌ، وَحَرِيرُ الجَنَّةِ لَيْسَ كَحَرِيرِ الدُّنْيَا الَّذِي تُفَرِّزُهُ أَوْ تَصْنَعُهُ دَوْدَةُ القَزِّ؛ فَهُوَ قَابِلٌ لِكُلِّ آفَةٍ، بَلْ حَرِيرُ الآخِرَةِ حَرِيرٌ لَا يُبَايِلُهُ شَيْءٌ مِنْ حَرِيرِ الدُّنْيَا أَبَدًا.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن جزاء أولئك القوم الذين أورثوا الكتاب على اختلاف طبقاتهم الثلاث؛ أن جزاءهم جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أو (يَدْخُلُونَهَا) على قراءتين.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى كمال نعيم الجنة لكونها جنات بهيجة، وكونها محل إقامة لا ظعن منها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾.

الفائدة الثالثة: ما يُنعم الله على عباده في هذه الجنات من أنواع الفواكه والمطاعم بدخوله في كلمة ﴿جَنَّاتٌ﴾ وكذلك من الملابس؛ لقوله تعالى: ﴿يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

الفائدة الرابعة: أن الجنة ليست دار تكليف؛ أي: داراً يُمنع منها العبد مما يتنعم به، بل يتنعم بكل ما شاء؛ لأننا نعلم جميعاً أن تحلي الرجال في الدنيا بالذهب ممنوع وحرام، لكنّه في الجنة مباح وممنوح، وليس بممنوع؛ لأن الجنة لهم فيها ما يشاؤون بل أكثر مما يشاؤون ويريدون.

الفائدة الخامسة: ومنها ما يحصل من الجمال بتنوع الحلي؛ لكونه من ذهب ولؤلؤ، وفي الآية الأخرى فضة، وهنا لم يذكر الله تعالى تحديد هذه الحلية، لكن

جاءت بها السنة؛ حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام: «تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»<sup>(١)</sup>.

الفائدة السادسة: نعومة لباسهم وأنه أنعم ما يكون من اللباس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، حرير لا يخلق ولا يتدنس، ودائماً على جدته ونظافته.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



## الآية (٢٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾﴾  
[فاطر: ٣٤].

•••••

قالوا يعني: أهل الجنة، ويقولون ذلك بعد دخول الجنة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الْحَمْدُ له سببان: الأول كَمَالُ الْمُحْمودِ، والسبب الثاني إِنْعَامُ الْمُحْمودِ بِخِلَافِ الشُّكْرِ بل إنه ليس له إلا سببٌ واحدٌ، وهو إِنْعَامُ المُشكورِ، ولعلنا نَتَطَرَّقُ إلى الفَرْقِ بين الحَمْدِ والشُّكْرِ:

فالْحَمْدُ قلنا له سببان، فهو أَعَمُّ من الشُّكْرِ من حيث السَّبَبُ فَإِنَّ سببه كَمَالُ الْمُحْمودِ وإِنْعَامُ الْمُحْمودِ، الشُّكْرُ ليس له إلا سببٌ واحدٌ وهو إِنْعَامُ المُشكورِ، فالْحَمْدُ أَعَمُّ؛ لَأنَّه يكون على هذا وهذا، والشُّكْرُ يكون بالقلْبِ واللِّسانِ والجوارح؛ بالقلْبِ أن يَعْتَرِفَ الإنسانُ بِقَلْبِهِ بِنِعْمَةِ المُنْعَمِ؛ وباللِّسانِ أن يَشْكُرَهُ بِلسانِهِ ويُثْنِيَ عليه بِلِسَانِهِ؛ وبالجوارح أن يَقومَ بِطاعَتِهِ فلا يُجَالِفُهُ، وعليه قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَفَادَتِكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةٌ      يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا<sup>(١)</sup>

أَمَّا الْحَمْدُ فلا يكونُ إلا باللِّسانِ؛ لأنَّ الْحَمْدَ وَصَفُ الْمُحْمودِ بِالْكَمالِ فلا يكونُ إلا باللِّسانِ.

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/٣٤٦)، والفاائق للزمخشري (١/٣١٤).

إذن: فالشُّكْرُ أَعْمٌ مُتَعَلِّقًا؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَالْحَمْدُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ، وَرَبِّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ لِكِنَّةِ لَا يَسْمَى حَمْدًا، يَعْنِي مَنْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ الشُّنَاءَ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَا يُقَالُ حَمْدَ اللَّهِ؛ إِذْ إِنَّهُ لَمْ يُظْهَرْ وَرَبِّمَا يَتَعَدَّى، وَرَبِّمَا يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّهُ يَكُونُ بِالْقَلْبِ، لِكِنَّةِ لَيْسَ بظَاهِرٍ.

﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ الكائِنَ فِي النَّفُوسِ وَهُوَ الْعَمُّ بِمَا مَضَى وَالْحَوْفُ الْهَمُّ لَمَّا يُسْتَقْبَلُ، فَهِنَا هَلْ نَقُولُ إِنَّ الْحَزْنَ يَشْمَلُ الْعَمَّ بِمَا مَضَى وَالْهَمَّ بِمَا يُسْتَقْبَلُ؟

نعم، فكذلك في الجنة جميع ما مضى عليهم من الأحزان والهموم وغيرها ينسوتها كما جاء في الحديث الصحيح أن الإنسان يُغَمَسُ فِي الْجَنَّةِ؛ يُصْبَغُ صَبْغَةً وَاحِدَةً يُغَمَسُ فِيهَا، فيقال له: هل رأيت شراً قط فيقول: لا<sup>(١)</sup>، فكل ما مضى: من الشرور والأحزان والهموم كلها.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [جَمِيعَهُ] يُشِيرُ إِلَى أَنْ (أَل) هُنَا لِاسْتِغْرَاقِ الْعُمُومِ، وَ(أَل) تَكُونُ لِاسْتِغْرَاقِ الْعُمُومِ إِذَا صَحَّ أَنْ يَحْتَلَّ مَحَلَّهَا كُلٌّ؛ فَهِيَ لِلِاسْتِغْرَاقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] فَلَيْسَتْ لِلِاسْتِغْرَاقِ، فَمَا كُلُّ رَجُلٍ قَوَّامٌ، فَأَحْيَانًا تَكُونُ الْمَرْأَةُ قَوَّامَةً عَلَى الرَّجُلِ!! فَهَذِهِ لِبَيَانِ الْحَقِيقَةِ فَقَطْ، الْحَقِيقَةُ فَقَطْ.

أفادنا المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: [جَمِيعَهُ] أَنْ (أَل) هُنَا لِلِاسْتِغْرَاقِ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لِغَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ﴾ لِلطَّاعَةِ؛ هَذِهِ الْجُمْلَةُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، رقم (٢٨٠٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُؤَكَّدَةً بِمُؤَكَّدَيْنِ؛ بـ(إن) واللام، فهم أَكَّدُوا بِالشَّاءِ هَذَا عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَفْوَرٌ  
لِلذُّنُوبِ شُكُورٌ لِلطَّاعَةِ.

فَالْعَفْوَرُ هُنَا هَلْ هِيَ صِيغَةٌ مُبَالَغَةٌ أَمْ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ؟

هي تشمل الأمرين جميعًا، هي صيغة مُبَالَغَةٌ لِكثْرَةِ عَفْرَانِ اللَّهِ تَعَالَى لِلذُّنُوبِ  
وَكَثْرَةِ مَنْ يَغْفِرُ لَهُمْ؛ فَهُوَ كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِلذُّنُوبِ؛ إِذْ إِنَّ الذُّنُوبَ تَتَكَرَّرُ مِنَ الْإِنْسَانِ عِدَّةً  
مَرَّاتٍ فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ، وَالَّذِينَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ كَثِيرُونَ أَوْ قَلِيلُونَ؟ كَثِيرُونَ، وَمِنْ جِهَةٍ  
أُخْرَى بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ غَفُورًا نَقُولُ هِيَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شُكُورٌ﴾ نَقُولُ فِيهَا كَمَا قُلْنَا فِي ﴿لُغْفُورٌ﴾ بَأَنَّهُ عَزَّجَلَّ لَمْ يَزَلْ  
شُكُورًا عَلَى طَاعَةِ عِبَادِهِ وَامْتِثَالِهِمْ أَمْرَهُ، وَمِنْ شُكْرِهِ أَنَّهُ يُعْطِي الْعَامِلَ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ  
أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَهُوَ أَيْضًا شُكُورٌ بِاعْتِبَارِهَا صِيغَةٌ مُبَالَغَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَلَّمَ كَثُرَ الْعَمَلُ كَثُرَ الشُّكْرُ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فَضِيلَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِشَتَائِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ عَلَى إِعْنَامِهِ وَإِفْضَالِهِ وَعَلَى كِمَالِ صِفَاتِهِ  
وَهُنَا قَالُوا: ﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شُكُورٌ﴾ فَحَمِدُوا اللَّهَ عَلَى إِعْنَامِهِ  
عَلَيْهِمْ وَعَلَى كَوْنِهِ غَفُورًا شُكُورًا.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: كِمَالُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا  
الْحَزْنَ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ السَّلْبِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى كِمَالِ ضِدِّهَا فَإِذَا كَانَ الْحَزْنَ مَنْفِيًّا عَنْهُمْ

كان ذلك دليلاً على كمال سُرورِهِم وأنه سرورٌ لا يُشَابُ بِحَزَنِ أَبَدًا بخلاف سرورِ الدُّنيا؛ فإنَّ سرورِ الدُّنيا مهما عَظُمَ مَشُوبٌ بالكَدْرِ ولهذا يقول الشَّاعِرُ الحَكِيمُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْعَصَةً      لَذَاتُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ<sup>(١)</sup>

فالإنسانُ مهما كان في الدُّنيا من النِّعَمِ، فإنه إذا تَذَكَّرَ أن أمامه شَيْئَيْنِ لا بُدَّ منهما؛ لا بُدَّ من أَحَدِهِمَا قطعاً، فإن طالت به الحياة فلا بُدَّ من الأَمْرَيْنِ جَمِيعاً، وهو الهَرَمُ والمَوْتُ، وحينئذٍ تَنَغَّصُ عليه حياته، وهو حينئذٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ كُلُّ يَوْمٍ يَمْضِي عليه فإنه يُبْعِدُهُ من الدُّنيا وَيُقَرِّبُهُ من الآخِرَةِ، وهذا تنغيصٌ آخَرَ؛ ولهذا قال الشاعر:

والمَرْءُ يَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ يَقْطَعُهَا      وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجْلِ<sup>(٢)</sup>

على كُلِّ حالٍ: في الآخِرَةِ نعيمٌ لا كَدَرَ فيه؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾.

الفائدةُ الرَّابِعَةُ: أن نعيمَ الآخِرَةِ يُؤَسِّبِي كُلَّ ما سبقه من حَزَنِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى:

﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وَذَهَابُ الْحَزَنِ هُنَا ذَهَابٌ لِمَا قَدْ وُجِدَ، وَلِمَا يُتَوَقَّعُ وَجُودُهُ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَمَسَّهُ فِيهَا حَزْنٌ.

الفائدةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ اسْمَيْنِ من أسماءِ الله وهما: الغفورُ والشكورُ، فالغفورُ

في جانبِ المعاصي، والشكورُ في جانبِ الطَّاعَاتِ، أمَّا في المعاصي فإنه عَزَّجَلَّ قال في الحديثِ القُدْسِيِّ: «يا ابنَ آدمَ، لو بَلَغْتَ ذُنُوبَكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/٢٧٤)، همع الهوامع (٤٢٨/١).

(٢) ذكره الأصمعي في قصة له مع أعرابي، انظر: نثر الدر في المحاضرات (٦/٣٧)، وزهر الآداب (٢/٤٥٦). وقريب منه بيت أبي العتاهية:

تظل تفرح بالأيام تقطعها      وكل يوم مضى يدني من الأجل

انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/٣٩٦).

شَيْئًا لَعَفَرْتُ لَكَ»<sup>(١)</sup>. وَأَمَّا فِي الطَّاعَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ  
 أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ فَاعِلَ الْحَسَنَةِ تُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ  
 حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.  
 (٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب  
 الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

## الآية (٣٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٥].

•••••

قوله تعالى: ﴿الَّذِي﴾ هنا يجوز أن تكون صفة لما سبق وهو الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ ويحتمل أن تكون استثناءً؛ يعني أنها في محل رفع على القطع؛ لأن المنعوت إذا علم وتعددت النعت له جاز في النعت الثاني القطع والإثبات، كما قال ابن مالك رحمه الله:

وَإِنْ نُعُوتٌ كَثُرَتْ وَقَدْ تَلَّتْ مُفْتَقِرًا لِذِكْرِهِنَّ أُتْبِعَتْ<sup>(١)</sup>

وإن لم يكن مُفْتَقِرًا جاز القطع.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ أي أنزلنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾.

﴿الْمُقَامَةِ﴾ هنا بمعنى الإقامة فهي إذن ظرف مكان، أو أنها مصدر ميمي دخلته التاء، ودار المقامة هي دار الجنة ووصفت بذلك لأن ساكنيها مقيمون فيها أبدًا ولأنهم لا يريدون الإقامة بغيرها، كل واحد منهم لا يبغى حولا عما هو فيه؛ لأنه يرى أنه أكمل أهل الجنة؛ بل إن الله أفنعهم بما هم عليه من النعيم حتى لا يتطلّعوا إلى نعيم أكثر فيحتقروا ما هم فيه، بخلاف أهل النار فإن أهل النار كل واحد منهم يرى أنه أشد أهل النار عذابا؛ لأنه لو يرى أن غيره أشد منه لكان عليه العذاب.

(١) الألفية (ص ٤٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾.

﴿مِن﴾ سَبَبِيَّةٌ هُنَا؛ أَي: بِسَبَبِ فَضْلِهِ؛ أَي تَفَضُّلِهِ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَا وَصَلُوا إِلَى هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ، فَكُلُّ مَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ خَيْرٍ وَنِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

فِإِحْلَانُهُمْ دَارَ الْمُقَامَةِ هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ شُكْرِهِمْ لِلَّهِ حَيْثُ اعْتَرَفُوا لَهُ بِالْفَضْلِ، بِخِلَافِ الَّذِي إِذَا أَصَابَتْهُ النَّعْمَاءُ قَالَ: هَذَا لِي، أَوْ: هَذَا مِنْ عِنْدِي، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إِعْيَاءٌ مِنَ التَّعَبِ].

لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ؛ أَي: تَعَبٌ، وَمَعْنَى يَمْسُنَا؛ أَي: يُصِيبُنَا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَوْهُمْ<sup>٥٠</sup> وَإِن تَصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠] فَالْمَسُّ بِمَعْنَى الْإِصَابَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿لُغُوبٌ﴾ إِعْيَاءٌ [لَأَنَّ هُنَاكَ تَعَبًا مُبَاشِرًا يَنَالُ الْإِنْسَانَ حِينَ الْفِعْلِ، وَإِعْيَاءٌ يَكُونُ أَثْرًا لِلتَّعَبِ، فَأَنْتَ إِذَا مَارَسْتَ عَمَلًا شَاقًّا فَإِنَّكَ حِينَ مُمَارَسَتِهِ تَتَّعَبُ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَائِهِ تَعْيًا؛ يَعْنِي: تَضَعُفٌ وَتَحُلْدٌ إِلَى الرَّاحَةِ وَإِلَى النَّوْمِ، فَالْجَنَّةُ لَيْسَ فِيهَا ﴿نَصَبٌ﴾ يَعْنِي: تَعَبًا بَدَنِيًّا حِينَ مُزَاوَلَةِ الْأَعْمَالِ وَلَا ﴿لُغُوبٌ﴾ أَي إِعْيَاءٌ وَهُوَ النَّاتِجُ عَنِ التَّعَبِ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [إِعْيَاءٌ مِنَ التَّعَبِ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِيهَا] هَذَا تَعْلِيلٌ عَلِيلٌ لِأَنَّ

التكليف حتى في الدنيا غالبه ليس فيه تعبٌ، بل إن بعضه يكون راحةً للبدن وراحةً للقلب وتنشيطاً للبدن وصحةً له، وليس هذا هو المقصود الأول في العبادات، لكنه يحصل من ممارسة العبادة، يحصل من ذلك النشاط والصحة كما هو موجود مثلاً في الصلاة، وموجود في الصيام، وموجود في الحج، فليس هناك تعبٌ في الأعمال الصالحة.

بل نقول ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ هذا من باب الصفات السلبية المتضمنة لكمال ضدها، فلا يمسهم فيها نصبٌ ولا يمسهم فيها لغوب؛ لكمال نعيمهم وراحتهم وأنسهم وفرحهم، وما أشبه ذلك.

يقول رحمه الله: [لعدم التكليف فيها، وذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه].

ذكر الثاني - وهو اللغوب - التابع للأول - وهو التعب - لأن اللغوب - كما قلنا قبل قليل - نتيجة التعب، فكان المفسر رحمه الله أجاب عن سؤال؛ كأنه قيل: إذا انتفى التعب انتفى اللغوب الذي هو نتيجته، فلماذا لم يقتصر على نفي التعب، وقيل لا يمسنا فيها نصبٌ وإذا انتفى النصب انتفى اللغوب؟  
أجاب على ذلك: بأنه ذكر من أجل التصريح بنفيه.

هذا ما ذهب إليه المفسر رحمه الله، ولا شك أنه وجه حسن، ولكن ربنا نقول: إن الإنسان أحياناً يجِدُ إعياءً وكسلاً وموت قوى بدون عمل وبدون تعب، وهذا مُشاهد؛ وعليه فيكون نفي اللغوب أمراً ليس تأكيداً، وإنما هو أمرٌ أساسي؛ أي: إن الإنسان قد يجِدُ إعياءً أحياناً وهو ما اشتغل.



إذن نقول: إِنَّ ذِكْرَهُ أَسَاسِيٌّ، وليس من باب التَّصْرِيحِ بِنَفِيهِ الذي لا يُقْصَدُ منه إلا مُجَرَّدُ التَّوَكُّيدِ.

المهمُّ: أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِكَمَالِ نَعِيمِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّهُمْ فِيهَا لُغُوبٌ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فَضِيلَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِإِضَافَتِهِمُ النَّعِيمَ إِلَى الْمُنْعَمِ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فَنَسَبُوا الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى فَضْلِهِ: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَهَذَا غَايَةُ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ.

الفائدة الثانية: أَنَّ دَارَ الْجَنَّةِ دَارُ إِقَامَةٍ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ لا يَتَمَنَّى أَنْ يَزُولَ عَنْ مَكَانِهِ مِنْهَا حَتَّى مَن كَانُوا فِي الدَّرَجَاتِ غَيْرِ الْعَالِيَةِ يَرُونَ أَنََّّهُمْ فِي أَكْمَلِ النَّعِيمِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾.

الفائدة الثالثة: تَأْيِيدُ الْجَنَّةِ؛ لِإِطْلَاقِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمَقَامَةِ﴾ وَلَمْ تُقَيَّدْ بِزَمَنِ.

الفائدة الرابعة: أَنَّ بُلُوغَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ لَيْسَ بِحَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَلَكِنْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾.

الفائدة الخامسة: إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ ﴿مِنْ﴾ هُنَا سَبَبِيَّةٌ؛ أَي: بِفَضْلِ اللَّهِ، ففِيهَا رَدٌّ عَلَى مَنْ يَنْكُرُونَ الْأَسْبَابَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأَسْبَابَ لا تَأْثِيرَ لَهَا وَإِنَّمَا يَخْضُلُ الشَّيْءُ عِنْدَهَا لا بِهَا.

الفائدة السادسة: أَنَّ الْإِنْسَانَ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَلَكِنْ قَدْ يُشْكَلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]،

وأشابهها من الآيات، وقد جمع العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ بينهما بأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسَّبَبِيَّةِ، وأنَّ الباءَ في قولِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»<sup>(١)</sup> لِلْعَوَاضِ؛ يعني أنَّ دُخُولَ الْإِنْسَانِ الْجَنَّةَ ليس بعمله؛ إذ لو أنه أُريدَتِ المَعَاوِضَةُ هَلَكَ الْإِنْسَانُ؛ فلو أنَّ الْإِنْسَانَ نُوقِشَ فِي عَمَلِهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ لَكَانَتْ نِعْمَةٌ وَاحِدَةً تُقَابِلُ كُلَّ الْعَمَلِ، بل لكان الْعَمَلُ نَفْسُهُ نِعْمَةً يَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ؛ لأنه من توفيقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِلْعَبْدِ؛ كما قيل:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً      عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ      وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ<sup>(٢)</sup>

وهذا حقٌّ؛ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ تُوقِّقُ لَهُ فَهُوَ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكَ يَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ، فَإِنْ شَكَرْتَهُ صَارَ الشُّكْرُ نِعْمَةً يَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ آخَرَ، ثم لا تستطيعُ أَنْ تُشْبِيَّ عَلَى رَبِّكَ بل تَقِفُ تقول: سُبْحَانَكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ.

الفائدة السابعة: كمال الراحة في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وكمال القوة والنشاط؛ لأنَّ التَّعَبَ إِنَّمَا يَلْحَقُ الْبَدَنَ الضَّعِيفَ.

فإذا قال قائل: من أين عرفنا الكمال؟

فالجواب: من النفي؛ لأنَّ نفي النقص إثبات لكمال ضده.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص ٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص ٢٣٢).

وهل يُؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الجنة ليس فيها نوم؟

الجواب: أخذ نفي النوم من هذه الآية فيه شيء من الإشكال، لكن إذا أردنا أن نتوسع في الاستدلال يُمكن أن نقول كما قلت: إن النوم إنما يحتاج إليه لراحة من تعب سابق وتجديد نشاطٍ لعملٍ لاحق، وإذا كان الإنسان في محل إقامته لا يمسه التعب ولا اللغوب، فإنه لا يحتاج إلى النوم.

يرد علينا: الأكل والشرب؛ فالأكل والشرب في الجنة ثابت مع أنه يحتاج إليه في الدنيا لحاجة البدن إلى النمو وإلى العمل، فيقال إن أكلهم في الآخرة ليس للحاجة، ولكن على سبيل التلذذ، ولهذا يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون، إنما يخرج ذلك رشحاً - يعني عرقاً - أطيّب من ريح المسك<sup>(١)</sup>؛ ولهذا يأكلون دائماً، ولكن في الدنيا إذا امتلأ الإناء وقف فلا تأكل أكثر.

على كل حال: لا شك أنهم لا ينامون من نصوصٍ أخرى، والعلماء رحمهم الله يقولون: إن النوم أخو الموت، وقد نفى الله عنهم الموت فإذا انتفى الموت فإن النوم ينتفي أيضاً، لأنه وفاة صغرى.

ثم إنهم لو كانوا ينامون لأدى ذلك إلى تعطّل نعيمهم وقت نومهم، والجنة نعيمها دائم مستمر، فالنوم ليس مُتعة إلا لمن يحتاجه فقط، أمّا من لا يحتاجه فليس فيه فائدة، وله أدلة صريحة من السنة؛ أن الرسول أخبر أنهم لا ينامون.

الفائدة الثامنة: أن أهل الجنة لا يتعبون في مزاولة الأعمال ولا يلحقهم إعياء بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَبَسٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ولا يتعبون

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسييحهم فيها بكرة وعشيا، رقم (٢٨٣٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

قَطْعًا كَمَا فِي الْآيَةِ، لَكِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].  
 يَعْمَلُونَ فِي نَعِيمِهِمْ، يُفَجِّرُونَ الْأَنْهَارَ وَيَجْنُونَ الشَّارِبَ؛ إِلَّا أَنَّهُ بَدُونَ كُلْفَةٍ وَلَا مَشَقَّةَ،  
 كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُطِّفْتُهَا دَائِمَةً﴾ [الحاقة: ٢٣].



## الآية (٣٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦].

•••••

ثم قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ فنتى بِذِكْرِ عِقَابِ أَهْلِ النَّارِ؛ لأنَّ الْقُرْآنَ مَثَانٍ، كُلُّ مَا ذُكِرَ فِيهِ مَعْنَى ذُكِرَ فِيهِ مَا يُقَابَلُهُ، وَلَا تَكَادُ تَمُجِّدُ آيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ يُذَكَّرُ فِيهَا مَعْنَى إِلَّا وَذُكِرَ مَا يُقَابَلُهُ لِثَلَا تَتَمَادَى النَّفْسُ فِي الرَّجَاءِ، فَإِذَا ذُكِرَ النَّعِيمُ وَحَدَهُ فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَمَادَى فِي الرَّجَاءِ، وَحِينَئِذٍ تَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ، وَلَوْ ذُكِرَ الْوَعِيدُ وَحَدَهُ لَتَمَادَتِ النَّفْسُ فِي الْخَوْفِ وَقِنَطَتْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذَكُرُ هَذَا تَارَةً، وَهَذَا تَارَةً حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ سَائِرًا مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى الرَّجَاءِ وَمِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى الْقَنُوطِ.

وهذه المسألة اختلف العباد فيها: هل الأولى أن يسير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء فيكون خائفًا راجيًا، أو الأولى أن يغلب الرجاء إحسانًا في الظن بالله عزَّوجلَّ، أو الأولى أن يغلب الخوف؟

في هذا خلاف بين العلماء رحمهم الله؛ فالإمام أحمد<sup>(١)</sup> رحمه الله روي عنه أنه قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأثيما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] [٥/٣٥٩].

الرَّجَاءُ أَمِنَ الْإِنْسَانَ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَإِنْ غَلَبَ الْخَوْفَ فَنِطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَيَكُونُ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا.

قالوا: فالخوفُ والرَّجاءُ كالجنَّاحينِ للطَّائرِ إنْ هَبَطَ أَحَدُهُمَا مالَ الطَّائرِ إليه واختلَّ توازنُهُ، وإنْ تساويا استقامَ الطَّائرُ واستقامَ واعتدلَّ توازنُهُ.

وقال بعض أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: بل هذا يَحْتَلِفُ باختلاف الأحوال؛ فإذا فعل الإنسان الطَّاعةَ فَلْيُغَلِّبِ الرَّجَاءَ، وأنَّ الذي وفَّقَهُ لها سوف يَقْبَلُهَا منه وَيُشْبِهُهَ عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فإذا وُفِّقَتَ للدُّعاءِ وُفِّقَتَ للإجابة، وإذا وُفِّقَتَ للعملِ وُفِّقَتَ للقبُولِ.

وإذا عمِلَ المَعْصِيَةَ فَلْيُغَلِّبْ جَانِبَ الْخَوْفِ وَلِيَرْجِعْ إِلَى رَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ غَلَبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ بَعْدَ فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ فَلَا يَتُوبُ مِنْهَا، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ويقول الله غفورٌ رحيمٌ وما أشبه ذلك، فيكون تَغْلِيْبُ الرَّجَاءِ فِي حَالٍ، وَتَغْلِيْبُ الْخَوْفِ فِي حَالٍ أُخْرَى.

وقال بعض العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يُغَلِّبُ الْخَوْفَ فِي حَالٍ، وَالرَّجَاءَ فِي حَالٍ أُخْرَى، لَكِنْ لَا بِاعْتِبَارِ الْعَمَلِ بَلْ بِاعْتِبَارِ الْحَالِ، فَإِذَا كَانَ مَرِيضًا فَلْيُغَلِّبْ جَانِبَ الرَّجَاءِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>، وَإِنْ كَانَ صَاحِحًا فَلْيُغَلِّبْ جَانِبَ الْخَوْفِ.

والمُنَاسِبَةُ قالوا: لِأَنَّ الْمَرِيضَ تَضَعُفُ نَفْسُهُ وَتَنْكَسِرُ وَلَا يَمِيلُ إِلَى الدُّنْيَا وَلَكِنَّهُ يَهْتَمُّ بِمَا أَمَامَهُ فَلْيُغَلِّبْ جَانِبَ الرَّجَاءِ، لَيْسَ هُنَاكَ نَفْسٌ تَتَطَلَّعُ إِلَى الدُّنْيَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَتَنَعِمُ فِي التَّرَفِ بِلِ نَفْسِهِ قَد رَقَّتْ وَأَوْتَتْ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَحِيحًا فَإِنَّ النَّفْسَ الْآنَ فِيهَا شِرَّةٌ وَتَطَّلَعُ لِلدُّنْيَا وَإِتْرَافِهَا؛ فَيُغْلَبُ جَانِبَ الْخَوْفِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: إِذَا وُجِدَتْ أَسْبَابُ يَخَافُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ تَغْلِيْبِ جَانِبِ الرَّجَاءِ فَلْيُقَدِّمِ الْخَوْفَ، وَإِنْ وُجِدَتْ أَسْبَابُ تَقْتَضِي أَنْ يَخَافَ الْإِنْسَانُ وَيَبْتَاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَلْيُغْلَبْ جَانِبَ الرَّجَاءِ؛ يَعْنِي إِذَا فَعَلَ أَسْبَابَ الرَّجَاءِ فَلْيُغْلَبْ الرَّجَاءَ، وَإِذَا وُجِدَتْ أَسْبَابُ الْخَوْفِ فَلْيُغْلَبْ جَانِبَ الْخَوْفِ.

وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فهنا قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى أولاً بالْمُبْتَدَأِ ثُمَّ أَنَّى بِمُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ آخِرٍ، وَهَذَا يَفِيدُ التَّوَكِيدَ؛ فَهُوَ أَشَدُّ تَوَكِيدًا مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾ [الملك: ٦] لَمَّا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِقِيِّ الذَّهْنِ مُتَشَوِّفًا مُتَطَلِّعًا إِلَى الْخَبَرِ: مَا الَّذِي يَكُونُ لِهَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أَعُوذُ بِاللَّهِ! يَعْنِي لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا ذَلِكَ: نَارُ جَهَنَّمَ.

وهذا من بابِ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ؛ لِأَنَّ النَّارَ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالنَّارِ وَحَدَهَا أَحْيَانًا: ﴿وَأَنْقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وَأَحْيَانًا يُعَبَّرُ بِجَهَنَّمَ عَنِ النَّارِ مِثْلَ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَسُّوا الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦] مِثْلَ هَذَا مُضَافَةً، وَأَحْيَانًا تُضَافُ النَّارُ إِلَى جَهَنَّمَ؛ وَحَيْثُ يَقَعُ الْإِنْسَانُ فِي إِشْكَالٍ؛ يَقُولُ: كَيْفَ يُضَافُ الشَّيْءُ إِلَى ذَاتِهِ أَوْ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَالنَّارُ هِيَ جَهَنَّمُ وَجَهَنَّمُ هِيَ النَّارُ؟

ونقول: إِضَافَتُهَا هُنَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ؛ وَلِهَذَا لَا يُقَالُ جَهَنَّمُ نَارٌ، وَلَكِنْ يُقَالُ: نَارُ جَهَنَّمَ؛ فَجَهَنَّمُ عَلَمٌ مِنْ بَابِ اللَّقْبِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَلَمَ اسْمٌ وَكُنْيَةٌ وَلَقَبٌ، فَجَهَنَّمُ اسْمٌ عَلَمٌ، لَكِنَّهُ مِنْ بَابِ اللَّقْبِ، وَالْعَلَمُ اللَّقْبُ بِمَنْزِلَةِ الصِّفَةِ؛

يعني: بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ؛ لأنَّ اللَّقَبَ عندما أُشْعِرَ بِمَدْحٍ أو ذَمٍّ؛ وبناءً على ذلك يَتَبَيَّنُ أَنَّ مثل هذا التَّرْكِيبِ (نارِ جَهَنَّمَ) من باب إِضَافَةِ المَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ، فَالنَّارُ هِيَ هَذَا الجَوْهَرُ الحَارُّ المَعْرُوفُ، وَجَهَنَّمَ أَصْلُهَا مِنَ الجَهْمَةِ وَهِيَ الظُّلْمَةُ لِئَعْدِ قَعْرِهَا وَخُلُوقِهَا مِنَ النُّورِ.

ومن هنا نَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الاسمَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الاِشْتِقَاقِ فيكون دالًّا عَلَى وَصْفِهِ.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ قال رَحِمَهُ اللهُ: [﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ بِالْمَوْتِ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ يَسْتَرِيحُوا]؛ قال الله تعالى فِي ذلك ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] فلا هو مَيِّتٌ فَيَسْتَرِيحُ وَلَا حَيٌّ حَيَاةً يَتَنَعَّمُ فِيهَا، بل هو فِي شِقَاءٍ دَائِمٍ، يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ وَلَكِنْ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ؛ قال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال إِنَّكُمْ مَنَكُوتٌ ﴿ [الزخرف: ٧٧].

فهنا يقول: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أَي: لَا يُقْضَى عَلَيْهِمُ بِالْمَوْتِ فَيَمُوتُوا وَيَسْتَرِيحُوا، وَالفَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فَاءُ السَّبَبِيَّةِ، وَالفِعْلُ بَعْدَهَا مَنْصُوبٌ بِحَذْفِ النُّونِ وَالواوِ فاعِلٌ؛ لوقوعه بَعْدَ النَّفْيِ الكَائِنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ طَرْفَةٌ عَيْنٍ] فهم فِي عَذَابٍ مُسْتَمِرٍّ لَا يَسْتَرِيحُونَ مِنْهُ لَا بِمَوْتٍ وَلَا بِنَوْمٍ وَلَا بِتَخْفِيفٍ، وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فَانظُرِ الذُّلَّ، وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ كَأَنَّهُمْ آيسُونَ أَنْ يَدْعُوا اللهَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]،



فَيَطْلُبُونَ الْوَسَائِطَ: ادعوا ربكم، ثم هذا دُعَاءُ اسْتِجْدَاءٍ ضَعِيفٍ؛ فقالوا: يُخَفِّفْ، ولم يقولوا: يَمْنَعْ فطلبوا التَّخْفِيفَ يَوْمًا ولم يقولوا دَائِمًا، فهنا يَظْهَرُ أَثَرُ الضَّعْفِ عَلَيْهِمِ وَالذُّلَّ وَالهُوَانَ مِنْ ثَلَاثَةِ وَجُوهِ:

أولاً: أَنَّهُمْ طَلَبُوا الشُّفْعَاءَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا.

ثانياً: طَلَبُوا التَّخْفِيفَ دُونَ الْمَنْعِ النَّهَائِيِّ.

ثالثاً: أَنَّهُمْ طَلَبُوا ذَلِكَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ لَا دَائِمًا.

وَمُجِيبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالتَّوْبِخِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوبُوا وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

فهم لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا، وَلَا تُجَابُ دَعْوَتُهُمْ بِذَلِكَ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا وَلَا يَوْمًا وَاحِدًا؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أُنذِرُوا وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿بِجَزَى كُلِّ كَفُورٍ﴾ كَافِرٍ؛ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ مَعَ كَسْرِ الزَّايِ وَنَضْبِ ﴿كُلِّ﴾ [

المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أَجْمَلَ فِي بَيَانِ هَاتَيْنِ الْقِرَاءَتَيْنِ إِجْمَالًا مُخْلًا؛ فَالْقِرَاءَتَانِ ﴿كَذَلِكَ﴾ بِجَزَى كُلِّ كَفُورٍ ﴿بِالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ وَالزَّايِ الْمَكْسُورَةِ وَنَضْبِ ﴿كُلِّ﴾ وَوَجْهٌ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ ظَاهِرٌ بِأَنَّ ﴿بِجَزَى﴾ فِعْلٌ مُضَارِعٌ، وَفَاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ وَ﴿كُلِّ﴾ مَفْعُولٌ بِهِ.

الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ: (يُجَزَى كُلُّ كَفُورٍ) وَصَنِعُ الْمَفْسَرِ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يُؤَدِّي هَذَا الْمَعْنَى، بَلْ ظَاهِرُهُ أَنَّ (كُلِّ) مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ، وَأَيْضًا ظَاهِرُهُ أَنَّ الزَّايَّ مَكْسُورَةٌ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ وَأَنَّ الْيَاءَ مَفْتُوحَةٌ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ.

ونرجع إلى كَلِمَةِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ تَرِدُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيَقُولُ الْمُعْرَبُونَ: إِنَّ الْكَافَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، وَإِنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ نَجْزِي، وَعَامِلٌ هَذَا الْمَفْعُولِ الْمَطْلَقِ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْفِعْلِ؛ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ؛ أَي: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ نَجْزِي الظَّالِمِينَ، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ؛ أَي: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ كَافُورٍ﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَافِرٍ] يَعْنِي أَنَّ صِغَةَ الْمُبَالَغَةِ هُنَا لَا تُرَادُ، بَلْ مُطْلَقُ الْكُفْرِ مُوجِبٌ لِهَذَا الْجَزَاءِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ اعْتَبَرْتَ صِغَةَ الْمُبَالَغَةِ بظَاهِرِ مَعْنَاهَا لَكَانَ لَا يُجْزَى هَذَا الْجَزَاءَ إِلَّا مِنْ تَكَرَّرَ كُفْرُهُ وَلَكِنْ لَا يَمْنَعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ (كَافُورًا) هُنَا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى كُلٌّ مِنْ اتَّصَفَ بِالْكَفْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

#### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ النَّارُ، وَهَذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ.

الفائدة الثانية: أَنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ﴾ فَاتَى بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثَّبُوتِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

الفائدة الثالثة: أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَلَّمُونَ مِنْهَا وَمِنْ عَذَابِهَا وَعِقَابِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا﴾ لِأَنَّهُمْ لَوْ مَاتُوا لاسْتَرَا حَوَا، فَيَكُونُ فِي هَذَا رَدٌّ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ - مِنَ الْمُعْتَرِّلَةِ وَغَيْرِهِمْ -: إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَكُونُونَ أَوْ تَكُونُ النَّارُ فِيهِمْ طَبِيعَةً فَلَا يَحْتَرِقُونَ فِيهَا وَلَا يَتَأَلَّمُونَ مِنْهَا، وَهَذَا خِلَافٌ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَخِلَافٌ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ.

أَمَّا الْقُرْآنُ فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] أَي:

ذُوقُوا الْعَذَابَ الَّذِي يُحْرِقُكُمْ، وَيَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿ [النساء: ٥٦]، وهذا نص صريح في أن الجلود تحترق، ولكن تبذل لأجل أن يذوقوا العذاب، ففيها دليل على أنها لو احترقت وبقيت محترقة فإنها لا تحس بالعذاب فيفرق بينها وبين ما إذا بدلت.

فالصواب بلا شك أن أهل النار يتألمون من عذابها، وأنه لا تكون النار طبيعة لهم فلا تهمهم بعد ذلك.

الفائدة الرابعة: حُسنُ بلاغة القرآن؛ إذا ذكّر شيئاً ذكر ما يقابله حتى تكون النفس بين هذا وهذا، فإذا ذكّر ثناءً على أهل الخير ذكّر ثناءً على أهل الشر، وإذا ذكر جزاء أهل الخير ذكر جزاء أهل الشر.

الفائدة الخامسة: أن هؤلاء - أعني أهل النار - لا يُخفف عنهم من عذاب النار أبداً لا في كَيْفِيَّتِهِ ولا في نَوْعِهِ ولا في زَمَنِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾.

الفائدة السادسة: دليل على كمالِ قُدرةِ الله عَزَّجَلَّ؛ حيث تبقى هذه النار أبداً الأبدية - والعياذ بالله - لا تتغير، والمعروف في نار الدنيا أنها مع طول الزمن تتغير وتنقص وتطفأ حتى لا يكون لها أثر، أما في نار جهنم فإنها تبقى أبداً الأبدية، لا ينقص عذابها ولا حرارتها.

الفائدة السابعة: أن هذا الجزاء ثابت لكل من اتصف بالكفر، يعني لا تختص به قبيلة دون أخرى، فلا يقال مثلاً إنه خاص بقريش المكذبين لرسول الله ﷺ أو بالقبيلة الفلانية أو القبيلة الفلانية، بل كل كفور حتى وإن كان من قرابة الرسول.

الفائدة الثامنة: إثبات الأسباب وربط مسيئاتها بها؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ أَهْلَ النَّارِ تَتَفَاوَتُ مَنَازِلُهُمْ وَعَذَابُهُمْ؛ تَأْخُذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ و﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ووجه الأخذ: أَنَّ  
كلُّ مُعَلَّقٍ عَلَى وَصْفٍ فَإِنَّهُ يَزْدَادُ بِزِيَادَةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ وَيَنْقُصُ بِنُقْصَانِهِ.



## الآية (٣٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

•••••

قال المُفسِّر رحمَهُ اللهُ: [﴿يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ يَسْتَعِيثُونَ بِشِدَّةٍ وَعَوِيلٍ].

قوله تعالى: ﴿يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ هذه من الصَّراخ، والصَّراخُ معروفٌ وهو رَفْعُ الإنسانِ صَوْتَهُ أَشَدَّ مَا يُرْفَعُ، وأصلها: (يَصْتَرِحُونَ) أَيْ بِالتَّاءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الصَّراخِ، كما يقال خَطَبَ وَاخْتَطَبَ، وَاخْتَطَبَ أَبْلَغُ مِنْ خَطَبَ، صَرَخَ وَاضْطَرَخَ، فَاضْطَرَخَ أَبْلَغُ مِنْ صَرَخَ.

وقد ذكروا قاعِدَةً أَغْلِييَّةً فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَقَالُوا إِنَّ زِيَادَةَ الْمَبْنِيِّ تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى، لَكِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ أَغْلِييَّةٌ؛ لِأَنَّهَا تَنْتَقِضُ بِشَجَرَةٍ وَشَجَرٍ وَبِقَرَةٍ وَبِقَرٍ؛ فَإِنَّ شَجَرَةَ زَائِدَةَ الْمَبْنِيِّ عَلَى شَجَرٍ نَاقِصَةٌ الْمَعْنَى؛ يَعْنِي شَجَرَةٌ تَدُلُّ عَلَى وَاحِدٍ، وَشَجَرٍ عَلَى جَمْعٍ، لَكِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَا زَادَ فِي الْمَبْنِيِّ زَادَ فِي الْمَعْنَى، فَاضْطَرَخَ لَا شَكَّ أَنَّهَا أَبْلَغُ مِنْ صَرَخَ؛ فَهَمَّ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يَصْطَرِحُونَ هَذَا الصَّراخَ الْعَظِيمَ فِي النَّارِ، يَصْطَرِحُونَ فِيهَا يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا﴾ فَالآنَ يَقْرَأُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَأَنَّهُ لَا يُغِيثُهُمْ مِنَ الشَّدَّةِ إِلَّا اللَّهُ،

وكانوا في الدنيا يَسْتَعِيثُونَ بِمَنْ؟

بغير الله؛ بأصنامهم وما يعبدون من دون الله، أمّا الآن فقد عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ  
أَنْ يُنَجِّيَهُمْ مِمَّا فِيهِ إِلَّا اللَّهُ.

وَقَوْلِهِمْ: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أَتَتْ ﴿نَعْمَلْ﴾ بِالْجَزْمِ؛ لِأَنَّهَا جَوَابٌ لِلطَّلَبِ فِي  
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وَإِذَا كَانَ جَوَابًا لِلطَّلَبِ كَانَ كَالشَّرْطِ الْمُقَدَّرِ: أَخْرِجْنَا إِنْ  
تَخَرَّجْنَا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هَكَذَا يَقُولُونَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا يَعْنِي  
مِنَ النَّارِ نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، وَلَكِنْ هَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ  
اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وَهَذَا كَلَامُ اللَّهِ  
عَزَّوَجَلَّ الْعَالِمِ بِمَا سَيَكُونُ لَوْ أَخْرَجَهُمْ.

فهؤلاء يقولون ذلك من باب الاعتذار وإلا فقلوبهم خاربة، خربت بالأول  
وستخرب في الثاني، فإذا نجوا من النار عادوا إلى ما كانوا عليه.

وقال الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾  
الأولى نَعْمَلُ: مجزومة على أنها جوابُ الطَّلَبِ، والثانية مرفوعة لتجردها من النَّاصِبِ  
والجازم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ مَا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ؟

كانوا يعملون عملاً سيئاً؛ لأنهم يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنِ عِبَادَتِهِ،  
وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَهَذَا قِيلَ لَهُمْ: [أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا؟] أَيْ  
وَقْتًا ﴿بِتَذْكَرٍ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَ كُمْ النَّذِيرُ﴾ الرَّسُولُ، فَمَا أَجَبْتُمْ.

يقال لهم توبيخاً وتنديباً وإقامة للحجة: أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ، فَمَنْ الْقَائِلُ؟

إِنَّ نَظَرْنَا إِلَى ظَاهِرِ الْفِعْلِ قَلْنَا: إِنَّ الْقَائِلَ هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّ الَّذِي عَمَّرَهُمْ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ هُوَ الْمَلَائِكَةُ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَقُولُ بِأَمْرِ اللَّهِ صَارَ كَأَنَّ الْقَائِلَ هُوَ اللَّهُ، فَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِأَنَّهُمْ جُنُودُ اللَّهِ: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ وَأَيًّا كَانَ فَالْمَقْصُودُ بِهَذَا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَتَوْبِيخُهُمْ وَتَنْدِيمُهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ﴾ هَذَا السِّيَاقُ يُوجَدُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، فَتَأْتِي هَمْزَةٌ الْاسْتِفْهَامِ وَبَعْدَهَا حَرْفُ الْعَطْفِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُعْرَبُونَ فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ.

فَقِيلَ: إِنَّ الْهَمْزَةَ دَاخِلَةً عَلَى مُقَدَّرٍ يُسْتَفَادُ مِنَ الْكَلَامِ، وَهَذَا الْمَقْدَرُ عَطِفَتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ إِنَّ الْهَمْزَةَ دَاخِلَةً عَلَى الْجُمْلَةِ الْمَوْجُودَةِ لَا عَلَى شَيْءٍ مَحْدُوفٍ، لِكِنَّهَا قُدِّمَتْ عَلَى حَرْفِ الْعَطْفِ؛ لِأَنَّ لَهَا الصَّدْرَةَ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ﴾: (وَأَلَمْ نَعْمَرِكُمْ) وَتَكُونُ الْوَاوُ هُنَا عَاطِفَةً عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هَذَا مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ.

أَمَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى فَكَمَا أَشْرْنَا أَوْلًا إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ التَّوْبِيخُ وَالتَّنْدِيمُ وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ؛ يَعْنِي: قَدْ عَمَّرْنَاكُمْ تَعْمِيرًا وَاسِعًا وَوَقْتًا طَوِيلًا يَنْذَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ جَاءَتْهُمْ وَأَمْهَلَتْهُمْ وَدَعَتْهُمْ، وَلَكِنْ أَبَوْا وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أُرْسِلَ مِنَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمَاذَا يَقُولُ لَهُ قَوْمُهُ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَوْا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧] يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ لئَلَّا يَسْمَعُوا وَأَسْتَفْسَوْا نِيَابَهُمْ لئَلَّا يَرَوْا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ كِرَاهَتِهِمْ لِمَا يَقُولُ، لَا يُحِبُّونَ أَنْ

يَسْمَعُوهُ وَلَا أَنْ يَرَوْا نَوْحًا وَهُوَ يُلْقِيهِ عَلَيْهِمْ؛ ثُمَّ أَصْرُوا؛ يَعْنِي: بَقُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرُّوا فِيهِ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا - يَعْنِي اسْتِكْبَارًا عَظِيمًا - عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ، هَذَا أَوَّلُ الرُّسُلِ.

وَآخِرُ الرُّسُلِ قَالُوا إِنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَقَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وَأَدُّوا الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بَلِ اسْتَبَاحُوا أَنْ يُقَاتِلُوهُ وَرَضُوا أَنْ يَبْذُلُوا رِقَابَهُمْ لِلسُّيُوفِ مَعَارِضَةً لِدَعْوَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَهؤُلاءِ الَّذِينَ تَبَلَّغَ بِهِمْ هَذِهِ الْحَالُ بَعْدَ أَنْ عُمِّرُوا مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ: هَلْ يَرْجِي مِنْهُمْ لَوْ خَرَجُوا مِنَ النَّارِ أَنْ يَعُودُوا إِلَى الْحَقِّ؟ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَاحِدٌ.

لَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَيْسَ الْحَبْرُ كَالْمَعَانِينَةِ؛ فَالنَّارُ الَّتِي تُوعَدُ بِهَا أَدْرَكُوهَا عَنْ طَرِيقِ الْحَبْرِ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، أَمَا لَمَّا كَانُوا فِيهَا فَقَدْ عَرَفُوهَا عَنْ طَرِيقِ الْحَسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ؟

فَالجَوَابُ: أَنَّ خَبَرَ الرُّسُلِ الْمُؤَيَّدَةِ بِالآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِمْ يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ مَا جَاءَتْ تَدْعُو النَّاسَ وَتُنذِرُهُمْ وَتُبَشِّرُهُمْ إِلَّا بِآيَاتٍ يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ، وَهؤُلاءِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - طَبِيعَتُهُمُ التَّكْذِيبُ وَالْإِنْكَارُ، فَلَنْ يُؤْمِنُوا وَلَوْ خَرَجُوا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ النَّذِيرُ، يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الرَّسُولُ] وَالْمُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ؛ لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ قَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ وَحَذَّرَهُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَبَشَّرَهُمْ وَرَغَّبَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، أَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ.



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ذوقوا: الأمرُ هنا للإِهَانَةِ، ومفعول ذوقوا مَحْذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: ذوقوا عَذَابَكُمْ أَوْ ذوقوا عَاقِبَةَ تَكْذِيبِكُمْ.  
وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عَنْهُمْ].

(ما للظالمين من نصير) الجُمْلَةُ مُكوْنَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، وَالخَبَرُ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وَالْمُبْتَدَأُ ﴿نَصِيرٍ﴾ وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ﴾ الزَّائِدَةُ لِتَوْكِيدِ التَّنْمِي، وَ(ما) هُنَا لَا تَعْمَلُ عَمَلَ لَيْسَ؛ لِتَقَدُّمِ الْخَبَرِ، وَهِيَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ لَيْسَ إِلَّا مَعَ التَّرْتِيبِ، فَنَقُولُ مِثْلًا: مَا زَيْدٌ قَائِمًا، وَلَوْ قُلْتُ: مَا فِي الدَّارِ زَيْدٌ، فَهَذَا صَحِيحٌ، لَكِنْ لَا نَجْعَلُ (فِي الدَّارِ) فِي مَحَلِّ نَصْبٍ؛ لِتَقَدُّمِ الْخَبَرِ.

قال تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [يَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ] وَالنَّصِيرُ بِمَعْنَى النَّاصِرِ، وَالنَّاصِرُ هُوَ الْمَانِعُ مِنَ الشَّرِّ، الْمُعِينُ عَلَى الْخَيْرِ، فَكُلُّ مَنْ مَنَعَ الشَّرَّ عَنْكَ فَهُوَ نَاصِرٌ لَكَ، وَكُلُّ مَنْ أَعَانَكَ عَلَى الْخَيْرِ فَهُوَ نَاصِرٌ لَكَ.

ويدل لهذا قول رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْمَظْلُومُ -يعني: نَصْرُ الْمَظْلُومِ بِدَفْعِ الشَّرِّ عَنْهُ- فَكَيْفَ نَصْرُ الظَّالِمِ؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»<sup>(١)</sup>.

وَمَنْعُ الظَّالِمِ مِنَ الظُّلْمِ لَيْسَ خَيْرًا إِلَيْهِ، لَكِنْ هُوَ مَنْعُهُ مِنَ الشَّرِّ، فَالنَّصْرُ إِذَنْ: إِذَا أَنْ يَكُونَ بِجَلْبِ خَيْرٍ، وَإِذَا أَنْ يَكُونَ بِدَفْعِ شَرٍّ.

(١) أخرج البخاري: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٤٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «تأخذ فوق يديه».

## من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان شدة عذاب أهل النار؛ وجه ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

الفائدة الثانية: إقرارهم واعترافهم بأنه لا يملك دفع الضر عنهم إلا الله عز وجل؛ لتوجيههم النداء إلى الله سبحانه وتعالى والاستغاثة به في قوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

الفائدة الثالثة: إقرارهم بأن أعمالهم في الدنيا غير صالحة؛ لقولهم: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وهم كما يُقَرُّونَ بأن أعمالهم في الدنيا غير صالحة يُقَرُّونَ بأنهم غير عقلاء أيضاً؛ لقولهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ولكن لا ينفعهم هذا لأنه بعد فوات الأوان؛ وانظر إلى جوابهم ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ...﴾ إلى آخره.

الفائدة الرابعة: أن الله عز وجل أقام على الكافرين الحجّة من وجهين: أولاً: أنه عمّرهم وقتاً يُمكنهم أن يتذكروا فيه.

ثانياً: أنه جاءتهم رُسُلٌ فلا عُذر لهم.

الفائدة الخامسة: توبيخ أهل النار بمثل هذا الكلام؛ لأن هذا الكلام قد يكون أشد عليهم من العذاب لما فيه من التنديم وتجديد الحزن عليهم والتّمني الذي لا ينفعهم.

الفائدة السادسة: الرّد على الجبريّة الذين يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعَاصِي؛ ويقولون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]

وَجْهَ الرَّدِّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمَ نَعْمَرِكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ<sup>ط</sup> فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ولو كان القَدْرُ حُجَّةً لَمْ يَكْفِ مَا ذُكِرَ فِي الْاِخْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ.

الفائدة السابعة: إثبات رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وإِعْذَارِهِ لِحَلْفِهِ؛ حيث أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ، فَإِنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ فِيهِ رَحْمَةٌ، وَفِيهِ أَيْضًا إِعْذَارٌ وَإِقَامَةٌ حُجَّةٍ.

الفائدة الثامنة: إهانة هؤلاء الذين في النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا﴾ فَإِنَّ الْأَمْرَ هُنَا لِلإِهَانَةِ فِيهِائُونَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، بِالْعَذَابِ وَالتَّوْبِيخِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الإِهَانَاتِ.

الفائدة التاسعة: تَيْئِسُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْخِلَاصِ مِنَ النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الفائدة العاشرة: بَيَانُ أَنَّ الْكُفْرَ ظَلَمٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: الإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: فَمَا لَكُمْ مِنْ نَّصِيرٍ فَذُوقُوا؛ وَلَوْ أَنَّ السِّيَاقَ جَرَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ لَقَالَ: فَمَا لَكُمْ، لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: التَّفَنُّنُ فِي الْأَسْلُوبِ أَوْ اخْتِيَارِ الْوَصْفِ الَّذِي يَكُونُ أَبْلَغَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ؛ لِأَنَّهُ عَدَلَ عَنِ قَوْلِهِ (فَمَا لِلْكَافِرِينَ) إِلَى ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّفَنُّنِ فِي التَّعْبِيرِ حَتَّى لَا يَلْحَقَ الْمُخَاطَبَ السَّامِعُ بِتَكَرُّرِ الْأَلْفَاظِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ بَابِ الْعُدُولِ عَنِ الْوَصْفِ إِلَى وَصْفِ آيِنَ مِنْهُ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ؛ وَالثَّانِي أَقْوَمُ فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ هُنَا مَا قَالَ: (فَمَا لِلْكَافِرِينَ) لَمْ يُبَيِّنْ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا بِكُفْرِهِمْ، لَكِنْ لَمَّا قَالَ: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ صَارَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ صَارُوا

ظَلَمَةٌ غَيْرَ مَظْلُومِينَ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

الفائدة الثالثة عشرة: يُمكن أن نقول فيه دليلٌ على أن الكُفَّارَ لا تُنفع فيهم الشِّفاعةُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهذا عامٌّ؛ يعني لا أحد يدافع عنهم، ولا يشفعُ لهم.



## الآية (٢٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [فاطر: ٣٨].

•••••

صِلَةُ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَحْوَالَ الطَّائِعِينَ وَمُثُوبَتَهُمْ وَأَحْوَالَ الْعَاصِينَ وَعُقُوبَتَهُمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ تَامٍّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَالِمٌ مَا فِي الصُّدُورِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ ﴾ أَي مَا غَابَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ غَيْبًا مُطْلَقًا عَنْ كُلِّ أَحَدٍ.

وَقَوْلُنَا: (غَيْبًا مُطْلَقًا) احْتِرَازٌ مِنَ الْغَيْبِ النَّسْبِيِّ؛ فَإِنَّ الْغَيْبَ النَّسْبِيَّ لَا يَخْتَصُّ عِلْمَهُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، وَمَنْ عِلْمُهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

مِثَالُ الْغَيْبِ النَّسْبِيِّ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الظَّاهِرُ بِالنَّسْبَةِ لِقَوْمٍ خَفِيًّا بِالنَّسْبَةِ لِآخَرِينَ، فَنَحْنُ هُنَا نَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا، لَكِنْ لَا نَعْلَمُ مَا كَانَ فِي السُّوقِ أَوْ فِي الْبُيُوتِ، وَهَذَا نُسَمِّيهِ غَيْبًا نَسْبِيًّا؛ لِأَنَّ الَّذِينَ فِي الْبُيُوتِ أَوْ فِي السُّوقِ يَعْلَمُونَهُ.

فَالْغَيْبُ الْمَطْلُوقُ هَذَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ مُطْلَقًا، حَتَّى الْأُمُورُ الْمُسْتَقْبَلَةَ يَعْلَمُهَا عَزَّوَجَلَّ، يَعْلَمُهَا مَتَى تَكُونُ وَأَيْنَ تَكُونُ وَكَيْفَ تَكُونُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ؛ أَي:

بصاحبة الصدور، وهي القلوب، والقلوب هي محلُّ العقل والتفكير والإرادة، فهو عليهم بها عزَّجَلَّ، وإخبارُ الله تعالى بأنه عالمٌ غيبِ السموات والأرض يُقصد منه التحذيرُ من المخالفة، والترغيبُ في الموافقة.

فأنت إذا وافقتَ الله عزَّجَلَّ فلن يضيعَ عملك؛ لأنه معلومٌ لله، وإن خالفتَ فلن يضيعَ؛ لأنه معلومٌ لله؛ لكنَّه بشارَةٌ بالنسبة للطائعين، وإنذارٌ بالنسبة للمُخالفين العاصين.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثباتُ عمومِ علمِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الفائدة الثانية: إثباتُ علمِ الله بها في قلوب بني آدم وغير بني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَدَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الفائدة الثالثة: التحذير من أن يُضمَرَ الإنسان في قلبه ما لا يرضاه الله ثم مُحَدِّثُه نفسه بأن هذا لا يطلعُ عليه إلا الله، فيعترُّ بامهالِ الله له؛ وَجَهٌ ذلك: ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَدَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الفائدة الرابعة: العكس: وهو أن الإنسان إذا أضمرَ في قلبه خيراً فإنَّ الله يعلمُه وسوف يُثبِّه عليه.

الفائدة الخامسة: الإشارةُ إلى أنَّ المدار على ما في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿بَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ وذات الصدور هي القلوب؛ لأنَّها الساكنة فيها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

## الآية (٢٩)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

•••••

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال المفسر رحمه الله: [جمع خليفة؛ أي يخلف بعضهم بعضًا].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ الضمير يعود على الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾ صيركم خلائف، وخلائف جمع خليفة، والخليفة بمعنى الخالف الذي يخلف من سبقه، وهذه الخلافة تشمل خلافة القرون بعضها بعضًا كالشباب مثلاً يخلف الشيوخ والكبار، والأحياء يخلفون الأموات.

وتشمل الخلافة خلافة السلطة بأن يذهب سلطان شخص إلى سلطان شخص آخر، فيستقل الملك من شخص إلى شخص بالقوة مع بقاء الأول؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فالخلافة إذن: خلافة القرون بعضها بعضًا، وخلافة الملوك بعضهم بعضًا الذين يخلف بعضهم بعضًا في السلطة والإمرة على الخلق.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ من كفر فعليه كُفْرُهُ ولا يُضَرُّ غَيْرَهُ شَيْئًا ولا يُضَرُّ اللهُ شَيْئًا أَيْضًا، وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] فَكَفَرُ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ وليس يُضَرُّ غَيْرَهُ شَيْئًا.

أما قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فَإِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَعْمِيمِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي لَا يَخْلُو مِنْهَا تَقْصِيرُ بَعْضِ أَهْلِ الْإِحْسَانِ، أَمَّا لَوْ قَامُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ لَا تَعْمُهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَابَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

ولأنَّ الْوَاقِعَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ؛ فَنُوحٌ وَهُودٌ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الرُّسُلِ أَنْجَاهُمْ اللهُ مَعَ أَنَّهُ أَخَذَ أَقْوَامَهُمُ بِالْعُقُوبَةِ.

يقول عَرَجَلٌ: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَي: وَبِأَلِ كُفْرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾؛ كُفْرُ الْكَافِرِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا مَقْتًا، لَا يَزِيدُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مُحَابَاةَ لَهُمْ أَوْ رَحْمَةً بِهِمْ؛ لِأَنَّ الْحُجَّةَ قَامَتْ عَلَيْهِمْ، فَكُلَّمَا ازْدَادُوا كُفْرًا ازْدَادُوا مَقْتًا.

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ فِي ﴿مَقْتًا﴾: [غَضَبًا] وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْمَقْتَ أَشَدُّ الْبُغْضِ؛ قال اللهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُسَادَوْنَ لَمَقَتِ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وهذا يدلُّ على أَنَّ الْمَقْتَ هُوَ الْبُغْضُ، لَكِنَّهُمْ قالوا: إِنَّهُ أَشَدُّ الْبُغْضِ فَتَفْسِيرُ الْمُفسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ لَهُ بِالْغَضَبِ فِيهِ نَظَرٌ.



قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿فَبَيْنَ هُنَا أَنَّ الْكُفْرَ سَبَبٌ لِشَيْئَيْنِ: الشَّيْءَ الْأَوَّلِ: نَزُولِ مَرْتَبَةِ الْكَافِرِ؛ فَإِنَّ كُفْرَهُ لَا يَزِيدُهُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بُغْضًا.

والثاني: العُقُوبَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ، وَذَلِكَ بِالْخَسَارَةِ؛ إِذْ يُخْسِرُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُمِينُ﴾ [الزمر: ١٥] هُوَ خَسِرَ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ آمَنَ لَرَبِحَ وَنَالَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا رِبْحٌ؛ أَمَّا الْآنَ فَقَدْ أَهْلَكَ نَفْسَهُ فَفَاتَتْ عَلَيْهِ، فَخَسِرَ أَهْلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ آمَنَ وَاتَّبَعَهُ أَهْلُهُ بِالْإِيمَانِ صَارُوا فِي الْجَنَّةِ فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ وَجُودِهِ فِي الدُّنْيَا شَيْئًا، بَلْ اسْتَفَادَ الْخَسَارَةَ وَالْعَمَلَ السَّيِّئَ، وَخَسِرَ الْآخِرَةَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ فَاتَهُ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ فِي الْآخِرَةِ وَصَارَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.

فَلَا أَحَدٌ أَعْظَمَ خَسَارَةً مِنَ الْكَافِرِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مُنْعَمًا نِعْمَةً جَسَدٍ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُعَذَّبٌ عَذَابَ قَلْبٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَ الْكَافِرِ انْتِشَاحُ صَدْرِهِ كَمَا عِنْدَ الْمُسْلِمِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ﴿[الزمر: ٢٢] يَعْنِي: فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ عَلَى ظُلْمَةٍ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تَمَامُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَسُلْطَانِهِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ خَلْقَهُ بِجَعْلِهِمْ خَلَائِفَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: بَشَارَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْدَارُ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْخِلَافَةِ أَنْ يُخْلَفَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ فِي أَرْضِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٧﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ففي هذا إشارة للمؤمن فلا ييأس من أن الله سبحانه وتعالى يجعل له الخلافة في الأرض، وإنذاراً للكافر بأن يُجتاح أرضه على أيدي المؤمنين.

الفائدة الثالثة: حكمة الله عز وجل في توارث الأمم بعضها بعضاً، فإنه لو لا ذلك لضاعت الأرض بأهلها، فلو كان كل من أوجده الله بقي، فكم يكون عدد العالم؟ لا يُحصون، وحينئذ تضيق بهم الأرض ويسق عليهم تحصيل الأزراق وإن كان الله عز وجل قد يجعل لهم من الرزق ما لا يحطّر بالبال، لكن لا شك من أن الناس يخلف بعضهم بعضاً، هذا يموت وهذا يحيا، هي الحكمة والرحمة.

الفائدة الرابعة: بيان سُؤْم الكُفْرِ وعاقبته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾.

الفائدة الخامسة: أن كفر الكافر على نفسه لا على غيره، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨] وأوردنا على هذه الجملة إشكالاً وأجبنا عنه.

الفائدة السادسة: إثبات صفة البُغْضِ لله عز وجل، بل إثبات صفة المقت الذي هو أشدُّ البُغْضِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَقْنًا﴾ والمقت من صفات الله الفعلية؛ لأن كل صفة تُقرن بسبب، فهي من الصفات الفعلية لأنها حينئذ تتعلق بمشيئة الله؛ إذ إنَّ السبب واقع بمشيئته، والسبب هو الذي عُلقت به الصفة فتكون الصفة إذن واقعة بمشيئته.

وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَكُونُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تُسَمَّى صِفَةً  
فِعْلِيَّةً.

وَذَكَرْنَا أَنَّ الصِّفَاتِ ذَاتِيَّةً وَفِعْلِيَّةً وَخَبَرِيَّةً:

فَالذَّاتِيَّةُ هِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي لَا يَنْفَكُ اللَّهُ عَنْهَا لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا، مِثْلُ:  
الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

وَالصِّفَاتُ الفِعْلِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَهَا وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْهَا  
سِوَاءً كَانَتْ صِفَةً ظَاهِرَةً أَمْ غَيْرَ ظَاهِرَةً؛ مِثْلُ: الْمَحَبَّةِ وَالْكَرَاهَةِ وَالرِّضَا وَالْبُغْضِ  
وَالضَّحِكِ وَالِاسْتِوَاءِ وَالتَّزْوُلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالصِّفَاتُ الخَبَرِيَّةُ هِيَ الَّتِي نَظِيرُ مُسَمَّاها أَعْضَاءُ لَنَا؛ مِثْلُ: الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ  
وَالْعَيْنِ وَالسَّاقِ وَالْأُصْبَعِ وَمَا أَشْبَهَهَا، وَهِنَا لَا نَقُولُ إِنَّهَا أَجْزَاءٌ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ، وَهِيَ  
لَنَا أَجْزَاءٌ، وَلَكِنْ نَتَحَاشَى أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا أَجْزَاءٌ، بَلْ نَقُولُ: نَظِيرُ مُسَمَّاها أَجْزَاءٌ لَنَا.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً؛ إِذْ لَوْ قُلْنَا بِأَنَّهَا صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً  
لَسَاوِينَا أَهْلَ التَّعْطِيلِ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ كَلَّمَا أَزْدَادَ الْإِنْسَانَ كُفْرًا أَزْدَادَ عِنْدَ اللَّهِ مَقْتًا؛ وَجِهَ ذَلِكَ  
القَاعِدَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاها - وَنَكَرَّرْهَا دَائِمًا - وَهِيَ: أَنَّ الْحُكْمَ الْمُعَلَّقَ عَلَى وَصْفٍ يَزْدَادُ  
بِزِيَادَتِهِ وَيَنْقُصُ بِنُقْصَانِهِ، وَهِنَا الْحُكْمُ مُعَلَّقٌ عَلَى الْكُفْرِ، فَإِذْ يَزْدَادُ مَقْتُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ  
عَلَى الْكَافِرِ بِزِيَادَةِ كُفْرِهِ، وَيَنْقُصُ بِنُقْصَانِ كُفْرِهِ.

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْكَافِرَ أَيْضًا خَاسِرٌ؛ خَاسِرٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا قَالَ:  
﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ

ولا عند الله بل أُلْتَقَ، فأخسرُ النَّاسُ هم الكُفَّارُ؛ خسروا - كما قلنا في التَّفْسِيرِ -  
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَخْرَجَتْهُمْ، وشخصُ خَسِرَ كُلُّ هذه الجهات ليس له رِبْحٌ،  
فأعظَمُ النَّاسُ خُسْرَانًا هم الكافرون.

فإذا قال قائل: هل نَسْتَعْمِلُ هنا قياسَ العكس؛ فنقول: إذا كان الكافرُ أَخْسَرَ  
النَّاسِ، فأرْبِحُ النَّاسِ الْمُؤْمِنُ؟

فالجوابُ: نعم؛ نَسْتَعْمِلُ هنا قياسَ العكس؛ لأنَّ قياسَ العكس جاءَتْ به  
السُّنَّةُ؛ قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله،  
أَيُّاتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ  
عَلَيْهِ وَزْرٌ؟» قالوا: نعم، قال: «كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»<sup>(١)</sup>.

فكُلُّ عَمَلٍ حَلَالٍ تَسْتَعْنِي بِهِ عَنْ حَرَامٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ أَجْرٌ.

إذن: الْمُؤْمِنُ رَابِحٌ فِي مُقَابِلِ أَنْ الْكَافِرِ خَاسِرٌ.

وإن شئتَ تَلَوْنَا آيَةً صَرِيحَةً فِي هَذَا؛ قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ  
خَسِرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ١-٣] يعني فليسوا في خُسْرٍ بل في رِبْحٍ ﴿وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وتجارةُ الْمُؤْمِنِينَ تجارةُ رابِحَةٍ  
﴿يَرْجُونَ بَحْرَةَ لَنْ تَجْبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] لَنْ تَهْلِكَ وَلَنْ تَحْسُرَ شَيْئًا.

وقال النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي طَلْحَةَ لَمَّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى:  
﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم  
(١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإِنِّي أَضَعُهَا - يعني عند الرَّسُولِ ﷺ - صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بِخٍ بَخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ»<sup>(١)</sup>.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم (١٤٦١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، رقم (٩٩٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(الآية ٤٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنِ بِعِذِ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠].

•••••

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ ﴾ ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: غيره، وهم الأصنام الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ يعني أخبروني و﴿ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ مفعولٌ أوَّلٌ، يعني (أَرَأَيْتَ) تَنْصِبُ ثَلَاثَةَ مَفَاعِيلَ، مفعولٌ أوَّلٌ صرِيحٌ مُنطَوِّقٌ به والمفعولُ الثَّانِي والثَّالِثُ مُعَلَّقٌ بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ، فهنا ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ لكنْ هنا قال: ﴿ أَرُونِي ﴾ من باب التَّحَدِّيِّ؛ أخبروني عن شُرَكَائِكُمْ، وقوله تعالى: ﴿ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ يعني الذين جَعَلْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ، فالإضافةُ هنا باعتبارِ جَعْلِهِمْ؛ أي: جَعَلَ العابدين لها شريكةً مع الله.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ نَدَّعُونَ ﴾ قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [تَعْبُدُونَ] فَحَوَّلَ الدُّعَاءَ إِلَى مَعْنَى العِبَادَةِ، ولا شَكَّ أَنَّ الدُّعَاءَ يَأْتِي بِمَعْنَى العِبَادَةِ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر: ٦٠] ولم يقل عن دعائي، فهذا دليلٌ على أَنَّ الدُّعَاءَ بِمَعْنَى العِبَادَةِ.

ولكن لو قال قائلٌ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَدْعُونَ﴾ شَامِلٌ لِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ، وَهُوَ طَلَبُ الْحَاجَةِ وَدُعَاءِ الْعِبَادَةِ؛ لَكَانَ أَوْلَى لَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَدْعُونَهَا، فَأَحْيَانًا يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِيرْكَعُونَ لَهَا وَيَسْجُدُونَ وَيَذْبَحُونَ وَيَنْذِرُونَ وَأَحْيَانًا يَدْعُونَهَا دُعَاءً، وَأَحْيَانًا يَجْمَعُونَ بَيْنَ بَيْنِ الْأَمْرَيْنِ؛ فَالْأَوْلَى أَنْ نَجْعَلَ الْآيَةَ شَامِلَةً لِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءِ الْعِبَادَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وَالخَطَابُ بِقُلِّ هُنَا خَطَابٌ لِمُفْرَدٍ، وَإِذَا جَاءَ مِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ فِيمَا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَالْأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّح: ١]، ﴿يَتَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَمَا أَشْبَهَهَا فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّسُولِ.

وَإِذَا جَاءَ مُفْرَدًا وَلَيْسَ خَاصًّا بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَعْنِي لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِهِ - فَهَلْ نَقُولُ إِنَّ الخَطَابَ مُوجَّهٌ لِكُلِّ مَنْ يَتَأْتَى خَطَابُهُ، أَوْ إِنَّهُ مُوجَّهٌ إِلَى الرَّسُولِ وَأُمَّتِهِ تَبِعٌ لَهُ، وَإِنَّمَا وَجَّهَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ بِاعْتِبَارِهِ الْإِمَامَ الْمَتَّبِعَ؟

الجواب: فِي هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَالخِلَافُ هُنَا قَرِيبٌ مِنَ اللَّفْظِيِّ لِأَنَّ الْكُلَّ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ يَشْمَلُ الْأُمَّةَ؛ إِذْ لَا دَلِيلَ عَلَى اخْتِصَاصِ الرَّسُولِ ﷺ بِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّسُولِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَهُ.

فَهُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ الخَطَابُ هُنَا لِمُفْرَدٍ، فَهَلْ هُوَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَتَأْتَى خَطَابُهُ؟

قيل: إِنَّهُ لِكُلِّ مَنْ يَتَأْتَى خَطَابُهُ، وَقِيلَ: لِلرَّسُولِ بِاعْتِبَارِهِ الْإِمَامَ، وَغَيْرِهِ مِثْلُهُ،

حتى في زَمَننا هذا نقول للمُشْرِكِينَ: أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ.

وَسَبَقَ أَنْ الْمَفْسَّرَ رَحْمَةُ اللَّهِ فَسَّرَ الدُّعَاءَ هُنَا بِالْعِبَادَةِ، وَقَلْنَا إِنَّهُ تَفْسِيرٌ نَاقِصٌ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ لِلْعِبَادَةِ وَيَكُونُ لِلْمَسْأَلَةِ، وَالْمُشْرِكُونَ أَشْرَكُوا بِشُرَكَائِهِمْ بِالنُّوعَيْنِ جَمِيعًا؛ فَقَدْ يَدْعُونَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ وَقَدْ يَعْبُدُونَهُمْ.

وَسَبَقَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الْأَصْنَامَ شُرَكَاءَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَتَّىٰ إِنْ الْمُشْرِكِينَ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ.

يَقُولُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿أَرُونِي﴾ أَخْبِرُونِي ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ يَجُوزُ فِيهَا وَجْهَانِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنْ نُعْرِبَ (مَاذَا) جَمِيعًا عَلَى أَنَّهَا اسْمٌ اسْتِفْهَامٌ مَفْعُولٌ مُقَدَّمٌ لـ (خَلَقُوا).

وَالثَّانِي: أَنْ نُعْرِبَ (مَا) وَحْدَهَا عَلَى أَنَّهَا اسْمٌ اسْتِفْهَامٌ، وَ(ذَا) بِمَعْنَى الَّذِي، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي ﴿خَلَقُوا﴾ ضَمِيرٌ مَحْذُوفٌ هُوَ الْعَائِدُ لِاسْمِ الْمَوْصُولِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَاذَا خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ.

وَالْمَعْنَى لَا يَخْتَلِفُ، فَهَؤُلَاءِ يُتَحَدَّثُونَ وَيُقَالُ أَرُونَا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟ هَلْ خَلَقُوا الْجِبَالَ؟ هَلْ خَلَقُوا الْأَشْجَارَ؟ هَلْ خَلَقُوا الرَّمَالَ وَالْأَنْهَارَ وَالْبِحَارَ؟  
الجواب: مَا خَلَقُوا شَيْئًا مِنْ هَذَا.

وَنَنْتَقِلُ إِلَى أَعْلَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وَهُنَا مَا قَالَ: أَمْ خَلَقُوا شَيْئًا مِنَ السَّمَوَاتِ، بَلْ قَالَ: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ؛ لِأَنَّ السَّمَوَاتِ لَيْسَتْ فِي مُتَنَاوَلِ أَيْدِيهِمْ،



لكن يُحْتَمَلُ أن يكون لهم فيها مُشَارَكَةٌ، فالذي لهم مُتَنَاوَلٌ فيه قيل: ماذا خلَقُوا؛ لجواز أن يقول قائلٌ: لهم شِرْكٌ في الأَرْضِ، فهذا مثلاً له فسحة يأتي النَّاسُ إليه وهي حريمٌ قَبْرِهِ مثلاً؛ فنقول هل خَلَقُوا هذا؟ فإذا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هذه الأَرْضَ مثلاً له وأنها أُوقِفَتْ على هذا القَبْرِ لِزائريهِ أو ما أشبه ذلك، فهل خلَقوها؟!

لكن في السَّمَوَاتِ ما قال: ماذا خلَقُوا في السَّمَوَاتِ، بل قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ لا على سبيل الخَلْقِ ولا على سبيل التَّمَلُّكِ، أم لهم شِرْكٌ؛ شِرْكَةٌ مع الله في خَلْقِ السَّمَوَاتِ.

وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحْمَةُ اللَّهِ: [في خَلْقِ السَّمَوَاتِ] فيه نَظَرٌ، بل الصَّواب أن نقول: في السَّمَوَاتِ سواءً كان ذلك عن طريق التَّمَلُّكِ أو عن طريق الخَلْقِ.

والجواب: لا، لا هذا ولا هذا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾؟

قال المُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [بأنَّ لهم معي شِرْكَةٌ]، يعني: أو عندهم، إذا قُلْتُمْ لم يَخْلُقُوا شيئاً من الأَرْضِ وليس لهم شِرْكَةٌ في السَّمَوَاتِ، فنقول: وهل عندهم كِتَابٌ وَهُمْ على بَيِّنَةٍ؛ حُجَّةً بِأَتَمِّ شُرَكَاءِ مع الله؟

والجواب: لا؛ فَكُلُّ هذه التَّفْسِيحَاتِ كُلُّها مُتَّفِيَةٌ بِالنَّسْبَةِ لِلأَصْنَافِ، فلم يَخْلُقُوا شيئاً من الأَرْضِ، وليس لهم شِرْكَةٌ في السَّمَوَاتِ، وليس معهم بَيِّنَةٌ من الله؛ كِتَابٌ بِأَتَمِّ شُرَكَاءِ مع الله، وإذا انْتَفَتْ هذه الأُمُورُ الثَّلَاثَةُ، لا خَلْقٌ ولا مُشَارَكَةٌ ولا وِثِيقَةٌ؛ بَيِّنٌ بَطْلَانُهَا.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿بَلْ إِنْ﴾ (ما)] يعني أَنَّ (إِنْ) نافية هنا بِمَعْنَى (ما).

[يَعِدُّ الظَّالِمُونَ] الكافرون ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلاً لقولهم: الأضنام تشفع لهم] يعني: أن ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً فهو غرور، أي تغريرٌ وخداعٌ، وليس له حقيقةٌ، والوعدُ الذي يعدُّ به الظالمون بعضهم بعضاً أنهم يقولون هذه الأضنام تشفع لكم عند الله؛ فاعبدوا محمداً ﷺ! اعبدوا جبريل! اعبدوا الشجر! اعبدوا اللات! اعبدوا العزى! فإتيا تشفع لكم؛ قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فكيف يعبدونهم ثم يقولون شفعاء؟

الجواب: الشافعُ درجته دون درجة المشفوع إليه، إذ لو كان مساوياً -أو أعلى- ما احتاج أن يشفع؛ فإن كان أعلى أمر أمراً، وإن كان مساوياً غالبه فأبهما غلب تكون السلطنة له.

وعلى كل حال نقول: إن الظالمين يغرب بعضهم بعضاً بالباطل حتى يتخذوا ويظنوا أن الباطل حق وأن الحق باطل.

والتغريير: تارة يكون بالأقوال الكاذبة الملققة التي ليس لها أصل، وتارة يكون بالألقاب السيئة التي تُشوه السمعة، فأما الأقوال الكاذبة فمثل قولهم -فيما حكى الله عنهم-: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا﴾ بها هذا كذبٌ وزورٌ؛ ولهذا قال الله تعالى مُبطلاً لهذه الدعوى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا من جملة التغرير: أن يدعوا قولاً كذباً وزوراً.

أو بالألقاب السيئة، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَجِدًّا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌّ﴾ [ص: ٤-٥] فأتوا بالألقاب

السَّيِّئَةِ: سَاحِرٌ وَكَذَّابٌ.

فالعامة إذا قيل لهم -ولا سيما إذا كان القائل زعماء-: هذا ساحرٌ أو كذاب؛ لا يتبعونه، وإذا قيل لهم -أي للعامة- إنكم إذا عبدتم الوليَّ الفلانيَّ أو القبر الفلاني فإن ذلك ينفعكم فإنَّ العامة تنخدع؛ لأنه ليس عندها علم، وليس عندها عقل ولُبٌّ، فتنخدع.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: قُوَّةُ الْقُرْآنِ فِي أُسْلُوبِ الْمُنَازَرَةِ، وَذَلِكَ بِالْتَّرْدِيدِ وَالتَّقْسِيمِ، وَجْهُهُ أَنَّ اللَّهَ تَحَدَّاهُمْ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ: هَلْ خَلَقُوا شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ؟ هَلْ شَارَكُوا اللَّهَ فِي السَّمَاءِ؟ هَلْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ تَنْفَعُهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ شَرِيكَةً لِلَّهِ فِي السَّمَوَاتِ وَلَمْ تَخْلُقْ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ؟

والجواب: لا، ولو خلقت شيئاً من الأرض لكان لها الحقُّ لآئها تخلق، ولو شاركت الله في ملكه في السماء لكان لها الحقُّ لآئها شريكةً لله عزَّ وجلَّ في ملكه، ولو كان الله أنزل كتاباً يقول بأنَّ هذه الأصنام لها الحقُّ أن تُعبد وتُدعى من دون الله لكان لهم شبهة أو حجة، فلما انتفت الأُمور الثلاثة تبينَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ.

الفائدة الثانية: أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي الْمُنَازَرَةِ أَنْ تَذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَرِدَ فِي الدُّهْنِ ثُمَّ تُبْطَلْ؛ احْتِرَازًا مِمَّا لَوْ ذَكَرْتَ شَيْئًا وَاحِدًا ثُمَّ بَيَّنْتَ بُطْلَانَهُ فَقَدْ يُورَدُ عَلَيْكَ شَيْءٌ آخَرٌ؛ لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ الْحَقُّ لَا يَنْحَصِرُ إِثْبَاتُهُ بِدَلِيلٍ وَاحِدٍ، فَكَذَلِكَ الْبَاطِلُ لَا يَنْحَصِرُ إِيرَادُ الشُّبْهِ فِيهِ فِي شُبْهَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفْحِمَ حَصْمَكَ لَا تَأْتِ بِشُبْهَةٍ وَاحِدَةٍ، ائْتِ بِجَمِيعِ مَا يُمَكِّنُ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً لِتُبْطِلَهُ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَكَ الْقُوَّةُ الْكَامِلَةُ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُورَدَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهَا خِلَافًا.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَخْلُقُ مَعَ اللَّهِ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ فَإِنْ قُلْتَ: يَرِدُ عَلَيْكَ أَنَّ اللَّهَ أَثَبَّتَ أَنَّ هُنَاكَ خَالِقِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وَفِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «يُقَالُ لَهُمْ - أَيِ الْمَصُورِينَ - أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»<sup>(١)</sup>؟

فالجواب: أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا هَذَا، وَلَكِنْ حَوَّلُوهُ مِنْ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْهُمْ إِيجَادٌ، بَلْ تَحْوِيلٌ مِنْ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ، فَالْمَصُورُ مِثْلًا الَّذِي أَخَذَ الطِّينَ وَجَعَلَ مِنْهُ صُورَةً عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ أَوْ صُورَةَ طَيْرٍ أَوْ صُورَةَ دَابَّةٍ؛ مَا خَلَقَ هَذَا الشَّيْءَ لَكِنْ حَوَّلَهُ مِنْ كَوْنِهِ كُتْلَةً مِنَ الطِّينِ إِلَى كَوْنِهِ صُورَةً وَلَيْسَ خَلْقًا جَدِيدًا.

وَكذَلِكَ النَّجَّارُ مِثْلًا إِذَا أَتَى عَلَى الْحَشَبِ وَنَجَّرَهُ عَلَى صُورَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَا نَقُولُ إِنَّهُ خَلَقَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يُوَجِّدْهُ، لَكِنَّهُ حَوَّلَهُ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بُطْلَانُ أَلْوَهِيَّةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَمِنْ بَابِ أَوْلَى رُبُوبِيَّتِهَا؛ وَجْهٌ هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَحَدَّى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامُ صَالِحَةً لِلْمُشَارَكَةِ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ: الْخَلْقِ وَالْمُشَارَكَةِ وَالْوَيْقَاقِ؛ كُلُّ هَذِهِ مُتَّفِقَةٌ إِذَنْ؛ فَيَبْطُلُ جَعْلُهَا إِلَهًا مَعَ اللَّهِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الظَّالِمِينَ - وَيَشْمَلُ الْكَافِرِينَ وَمَنْ دُونَهُمْ - لَا يَعِدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا وَخِدَاعًا، فَيَشْمَلُ ذَلِكَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ الْكُفْرَ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ أَهْلَ الْخِلَاعَةِ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ الْخِلَاعَةَ، وَيَشْمَلُ أَهْلَ اللَّهْوِ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ اللَّهْوَ؛ فَكُلُّ بَاطِلٍ يُزَيِّنُهُ أَصْحَابُهُ نَقُولُ فِيهِ: لَا يَعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الْحَدْرُ مِنْ أَنْ يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ، بَلِ الَّذِي يُنْبَغِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٩٦/٢١٠٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

-أي يَجِبُ- أن يكون الإنسانُ فِطْنًا كَيْسًا حَازِمًا؛ كما يُرَوَى عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:  
«الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى  
على اللَّهِ الْأَمَانِيَّ»<sup>(١)</sup> فالوعود التي يُوعَدُ بها الْإِنْسَانُ من قِبَلِ الظَّالِمِينَ أو من قِبَلِ نَفْسِهِ  
إذا كانت مُخَالِفَةً لِلشَّرْعِ؛ فما هي إلا غُرُورٌ وَبَاطِلٌ، فَلْيَحْذَرِ الْإِنْسَانُ مِنْهُ.



(١) أخرجه أحمد (١٢٤/٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب  
الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

•••••

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَيِّنًا تَمَامَ قُدْرَتِهِ وَمِثَّتِهِ عَلَى عِبَادِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يَمْنَعُهُمَا مِنَ الزَّوَالِ].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الإِمْسَاكُ بِمَعْنَى الْقَبْضِ عَلَى الشَّيْءِ وَالتَّمَكُّنُ مِنْهُ، وَفَسَّرَهُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْمَنْعِ وَهُوَ لَا زِمٌ لِلْإِمْسَاكِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ أَنَّ هَذِهِ مَصْدَرِيَّةٌ حُذِفَ مِنْهَا حَرْفُ الْجَرِّ؛ لِأَنَّهُ يَطْرُدُ حَذْفُ حَرْفِ الْجَرِّ مَعَ (أَنَّ) وَ(أَنْ) إِذَا أُمِّنَ اللَّبْسُ، وَهَذَا اللَّبْسُ مَأْمُونٌ، وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ (مِنْ) فَحَوَّلَ (أَنَّ) وَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا إِلَى مَصْدَرٍ يَكُنُ سَبْكُ الْكَلَامِ: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنَ الزَّوَالِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تَرِدُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ جَمْعُ السَّمَوَاتِ وَإِفْرَادُ الْأَرْضِ، وَلَمْ تَأْتِ الْأَرْضُ مَجْمُوعَةً فِي الْقُرْآنِ بِلَفْظِهَا، وَلَكِنْ جَاءَتْ بِلَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى التَّعَدُّدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فَإِنَّ الْمِثْلِيَّةَ هُنَا تَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ فِي الْعَدَدِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ

مِثْلَ السَّمَوَاتِ فِي الْحَجْمِ وَلَا مِثْلَهَا فِي الصِّفَةِ، وَإِذَا امْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ مُمَاتِلَةً لِلسَّمَاءِ فِي الْحَجْمِ وَفِي الصِّفَةِ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ مُمَاتِلَةً لِلسَّمَاءِ فِي الْعَدَدِ.

وَالسُّنَّةُ جَاءَتْ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ مِنْ أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لَامِ قَسَمٍ] اللَّامُ لَامُ الْقَسَمِ وَ(إِنْ) شَرْطِيَّةٌ وَ﴿زَالَتَا﴾ الْفِعْلُ هُنَا فِعْلٌ الشَّرْطِ، وَ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ الْجُمْلَةُ جَوَابُ الشَّرْطِ وَ﴿إِنْ﴾ هُنَا يَقُولُ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَا] أَي تَكُونُ نَافِيَةً ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يُمَسِّكُهُمَا] إِشَارَةً إِلَى أَنَّ ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ فِعْلٌ مَاضٍ لَكِنَّهُ بِمَعْنَى الْمَضَارِعِ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ جَوَابًا لِلشَّرْطِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ يَكُونُ لِلْمُسْتَقْبَلِ وَلَا يَكُونُ لِلْمَاضِي؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تَحَقُّقِ الشَّرْطِ، وَتَحَقُّقُ الشَّرْطِ أَمْرٌ مُسْتَقْبَلٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ﴾: (مَنْ) هَذِهِ زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ؛ زَائِدَةٌ فِي الْإِعْرَابِ وَلَكِنَّهَا تَزِيدُ فِي الْمَعْنَى.

وَ(زَائِدَةٌ) اسْمٌ فَاعِلٌ مِنْ زَادَ يَزِيدُ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ زَادَ يَأْتِي مُتَعَدِّيًا وَيَأْتِي لِازِمًا، فَإِذَا قُلْتَ: زَادَ الشَّيْءُ؛ يَعْنِي: ارْتَفَعَ وَكَثُرَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهِيَ لِازِمَةٌ، وَإِذَا قُلْتَ زِدْتُهُ خَيْرًا صَارَتْ مُتَعَدِّيًا؛ لِهَذَا نَقُولُ: هِيَ زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ - إِذَا رَأَى هَذَا الْكَلَامَ - : هَذَا تَنَاقُضٌ كَيْفَ يَكُونُ الشَّيْءُ (زَائِدًا زَائِدًا)؟!

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ، رَقْمٌ (٣١٩٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَغَضَبِ الْأَرْضِ وَغَيْرِهَا، رَقْمٌ (١٦١٠)، مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونقول: (من) زائدة إعراباً زائدة معنى؛ فتزيد في المعنى وهو تأكيد النفي.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَحَدٌ﴾ فاعِلٌ أَمْسَكَ مَرْفُوعٌ بِضَمَّةٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى آخِرِهِ مَنَعٌ مِنْ  
 ظُهُورِهَا اشْتِغَالُ الْمَحَلِّ بِحَرَكَةِ حَرْفِ الْجَرِّ الزَّائِدِ.

والمعنى: لئن قدر أن تزول السموات والأرض فإنه لا أحد يستطيع أن  
 يمسكها سوى الله عز وجل وهو كذلك؛ وهذا هو الواقع، بل لو زال ما دون السموات  
 والأرض من النجوم والكواكب والشمس والقمر ما استطاع أحد أن يمسكه  
 سوى الله عز وجل، بل لا يستطيع أحد أن يصرف شيئاً من هذه الكواكب أو النجوم  
 أو الشمس أو القمر؛ أن يصرفه عن جهة سيره إلا الله عز وجل، ولا أن يمنعه من  
 سيره إلا الله عز وجل.

قال في الإعراب هنا: قلنا إن اللام في (لئن) لام القسم و(إن) شرطية و(إن  
 أمسكها) جواب القسم؛ لأن لدينا قاعدة: إذا اجتمع الشرط والقسم حذف جواب  
 المتأخر منهما، قال ابن مالك رحمه الله مقررًا هذه القاعدة:

وَاحْدُفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخْرَجَتْ فَهِيَ مُلْتَزِمٌ<sup>(١)</sup>

إذن: فالمؤخر هنا الشرط، فيكون جوابه هو المحذوف؛ دل عليه جواب

القسم.

يقول رحمه الله: ﴿إِنَّهُ، كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي في تأخير عقاب الكفار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ، كَانَ حَلِيمًا﴾ هذه الجملة مناسبتها لما قبلها أنها تعليل لما قبلها،  
 فارتباطها به ارتباط العلة بالمعلول؛ يعني أنه في إمساكه للسموات والأرض كان



حليماً غفوراً، ولولا حِلْمُهُ وَمَغْفِرَتُهُ لزالَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَهَلَكَ مِنْ فِيهِمَا.

و(الحليم) اسمٌ من أسماء الله، ومعناه ذو الحِلْمِ، والحِلْمُ هو تأخير العقوبة عن مُسْتَحِقِّهَا، تأخيرُ عِقُوبِيَّةٍ وليس ترك عقوبة؛ لأنَّ تَرَكَ العُقُوبَةَ عَفْوٌ، ولكنَّ تأخيرَ العُقُوبَةَ عن المُسِيءِ يُسَمَّى هذا حِلْمًا؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ      بِعُقُوبَةٍ لِيُتُوبَ مِنْ عِصْيَانٍ<sup>(١)</sup>

فِيحِلْمِهِ عَزَّجَلَّ تَتَأَخَّرُ العُقُوبَاتُ؛ لَعَلَّ النَّاسَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَفُورًا﴾ هَذَا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَمْحُو أَثْرَهُ بِالكُلِّيَّةِ، وَسَبَقَ لَنَا: أَنَّ المَغْفِرَةَ هِيَ سِتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مَأخُودَةٌ مِنَ المَغْفَرِ الَّذِي يُعْطِي الرَأْسَ وَيَقِيهِ السَّهَامَ، وَلَيْسَتْ - كَمَا قِيلَ - مُجَرَّدَ السِّتْرِ؛ لِأَنَّ مُجَرَّدَ السِّتْرِ لَا تَحْصُلُ بِهِ الوِقَايَةُ، بَلْ لَا بُدَّ مَعَ السِّتْرِ مِنَ الوِقَايَةِ.

وَيَدُلُّ لِهَذَا المَعْنَى قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعَبْدِهِ إِذَا خَلَا بِهِ وَقَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ يَقُولُ: «كُنْتُ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»<sup>(٢)</sup>؛ فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّتْرَ غَيْرُ المَغْفِرَةِ، وَأَنَّ المَغْفِرَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ عَدَمِ المُواخِذَةِ وَعَدَمِ العُقُوبَةِ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ عَلَى إِمْسَاكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهَذِهِ الأَجْرَامُ العَظِيمَةُ أَمْسَكَهَا اللهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ بِدُونِ مَعَانَاةٍ وَبِدُونِ تَعَبٍ وَإِنَّمَا يَقُولُ

(١) النونية (ص ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)،

ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

لِلشَّيْءِ: (كن) فيكون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، قال الله تعالى: ﴿أَفَتَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١].

الفائدة الثانية: بيان رَحْمَةِ الله عَزَّجَلَّ بعباده؛ حيث سَخَّرَ لَهُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - بل سَخَّرَ لَهُمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْضًا - وهذا من كَمَالِ رَحْمَتِهِ، فَلَوْلَا رَحْمَةُ الله عَزَّجَلَّ بعباده لَوَقَعَتِ السَّمَوَاتُ عَلَى الْأَرْضِ وَهَلَكَ النَّاسُ وَمَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ.

الفائدة الثالثة: أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَخْلُوقَتَانِ مِنْ جُمَّلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، مُسَخَّرَتَانِ بِأَمْرِ اللهِ؛ فِيهِ رَدٌّ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَقَدَمِ الْأَفْلَاقِ وَأَنَّ الْفَلَكَ التَّاسِعَ - كما يزعمون - هو الْمُدَبَّرُ لِمَا تَحْتَهُ!!

بل نقول: هذه الْأَفْلَاقُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ مُسَخَّرَةٌ بِأَمْرِهِ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ عَزَّجَلَّ أَنْ تَزُولَ لَزَالَتْ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُمَسِّكَهَا؛ وَجِهَ الْفَائِدَةُ: أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ فَلَيْسَتْ قَدِيمَةً، فَإِنَّ إِمْسَاكَهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِأَمْرِهِ.

الفائدة الرابعة: أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدَبِّرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ الْكَبِيرَةَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

الفائدة الخامسة: تَوْجِيهِ الْخَلْقِ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِذَا رَأَوْا مَا يُزْعِجُهُمْ وَيُقَلِّقُهُمْ أَلَّا يَرْجِعُوا إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَى اللهِ عَزَّجَلَّ.

فَالزَّلَازِلُ وَالْبَرَائِكُنُ وَالْكَسُوفُ وَالصَّوَاعِقُ وَغَيْرُهَا مِمَّا يُخَوِّفُ الْعَالَمَ لَا نَرْجِعُ فِيهِ إِلَّا إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَا أَحَدٌ يُمَسِّكُهُمَا إِذَا زَالَتَا إِلَّا اللهُ.

ولكن كيف نلجأ إلى الله في هذه الأمور؛ هل نلجأ إليه بالصفة التي أرشدنا إليها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الكسوف؟ أو نلجأ إلى الله تعالى بالصفة التي أرشدنا إليها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الكُسُوفِ فقط وما عداه فإننا نلجأ إلى الله تعالى بالدعاء المطلق؟

هذا محل خلاف بين العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ؛ فمنهم من قال إنه إذا وُجِدَتْ آيَاتُ أُفُقِيَّةٍ تُخِفُّ الْعِبَادَ فَإِنَّهُ يُشْرَعُ لِلْعِبَادِ أَنْ يُصَلُّوا صَلَاةَ الْكُسُوفِ حَتَّى يَذْهَبَ مَا بِهِمْ.

فالذين قالوا بالأول؛ أَنَّهُ يُصَلَّى لِكُلِّ آيَةٍ تُخَوِّفُ الْعِبَادَ، اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا - يَعْنِي كَاسِفَتَيْنِ - فَصَلُّوا وَاذْعُوا...»<sup>(١)</sup> إلخ.

قالوا: وتخويفُ العبادِ بالصَّواعِقِ وَالزَّلَازِلِ أَشَدُّ وَقَعًا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْكُسُوفِ، فَإِذَا شُرِعَتِ الصَّلَاةُ لِلْكُسُوفِ فَمُشْرُوعِيَّتُهَا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ بَابِ أُولَى.

وهذا اختيارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ<sup>(٢)</sup> رَحِمَهُ اللهُ، وَاسْتَدَلَّ بِفِعْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْكُسُوفِ فِي زَلْزَلَةٍ<sup>(٣)</sup>.

ولكن في المذهب<sup>(٤)</sup> يقولون: إِنَّهُ لَا تُصَلَّى صَلَاةُ الْكُسُوفِ إِلَّا لِكُسُوفِ أَوْ لَزَلْزَلَةٍ؛ احْتِجَاجًا بِفِعْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب

الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٦/٩٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) الاختيارات العلمية (٣٥٨/٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠١/٣)، وابن أبي شيبة (٤٣٢/٥)، والبيهقي (٣/٣٤٣).

(٤) انظر: الهداية (ص ١١٥)، والإنصاف (٤٤٩/٢).

ولكنَّ الصَّوابَ ما اختاره شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنَّ هذا الذي ذهب إليه يدلُّ عليه التَّعليلُ في الحديث: «آيتانِ مِنْ آياتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ». **الفائدةُ السَّادِسَةُ:** إثباتُ العِلَّةِ والسَّبَبِ في أفعالِ اللهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وإثباتُ العِللِ في أفعالِ اللهِ أو في أَحكامِهِ يدلُّ على كمالِهِ لا على نَقْصِهِ خلافاً لِلنَّاقِصِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ إِثْبَاتَ الحِكْمَةِ في أفعالِ اللهِ تعالى وَأَحكامِهِ تدلُّ على النقص؛ ولهذا نَفَوْا الحِكْمَةَ عن أفعالِ اللهِ وَأَحكامِهِ؛ يقولون: لأنَّ ذلك يَنْقُضِي النِّقْصَ وَأَنَّهُ فَعَلَ لِغَرَضٍ أو حَكَمَ لِغَرَضٍ، والفاعلُ لِغَرَضٍ ناقِصٌ بدونِهِ، وعلى هذا فيكون نَفْيُ الحِكْمَةِ عن أفعالِ اللهِ وَأَحكامِهِ مِنْ تَنْزِيهِ اللهِ تعالى عَنِ النِّقْصِ!

وفي الحقيقة: أَنَّ أَيَّ إنسانٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ إِثْبَاتَ الحِكْمَةِ في أفعالِ اللهِ تعالى وَأَحكامِهِ نَقْصٌ فهو النَّاقِصُ، حتى إنَّ الإنسانَ بِمُجَرَّدِ ما يتأمَّلُ في المسألة يَعْرِفُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ لِغَيْرِ حِكْمَةٍ فقد أتى سَفَهًا، ومن فَعَلَ لِحِكْمَةٍ فقد أتى رُشْدًا؛ لأنَّ الرَّشيدَ هو الذي يَفْعَلُ الشَّيْءَ لِحِكْمَةٍ وَحُسْنٍ تَصَرَّفَ والسَّفِيهَ بالعكس؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

وعلى هذا ففي الآية هذه وغيرها من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة والعقل الصريح ما يدلُّ على إثباتِ الحِكْمَةِ لِه عَزَّجَلَّ، وَأَنَّ الحِكْمَةَ مِنْ أَجْلِ صفاتِ اللهِ سُبْحانَهُ وَتعالى، وبيانها في أَحكامِ اللهِ وأفعاله مِنْ أعظَمِ الأمورِ وأظهِرِها.

**الفائدةُ السَّابِعَةُ:** إثباتُ الحِكْمَةِ لَأَنَّهُ عَلَّلَ إِمساكَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ بِكَوْنِ ذلك مُقْتَضِي حَلِيمِهِ وَمَغْفِرَتِهِ.

الفائدة الثامنة: إثبات هذين الاسمين لله وهما (الحليم) و(الغفور) وإثبات ما  
تضمّن ما تضمّناه من الصّفة؛ لأنّ كل اسمٍ من أسماء الله فهو مُتضمّنٌ لصفةٍ؛ ليس  
في أسماء الله اسمٌ جامدٌ أبدًا حتى اسم الجلالة (الله) ليس بجامد بل هو مُشتقٌّ من  
الألوهية، وكذلك بقيّة الأسماء كلّها ليست جامدة بل هي مشتقةٌ من معانٍ تدلُّ  
عليها، والمعاني التي تدلُّ عليها أسماء الله قد تكون متعدّدة في اسمٍ واحد، كما تقدّم  
في الدلالة أنّها تكون دلالةٌ مطابقةٌ ودلالةٌ تضمّنٍ ودلالةٌ التزامٍ.



الآية (٤٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢].

•••••

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أقسموا؛ قال المفسر رحمه الله: [أي كُفَّار مَكَّة] وهذا يَحْتَمِلُ ما قاله رحمه الله من أن الصَّمِير يعود على كُفَّار مَكَّة، ويَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَعْمُ وَأَنَّ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَقْسَمُوا وَهُمْ مِنْ غَيْرِ كُفَّارِ مَكَّة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي حَلَفُوا به، وقوله تعالى: ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي غَايَةَ الْأَيَّانِ؛ يعني: الأيمان التي بذلوا فيها الجهد وهي أَيْبَانٌ مُغْلَظَةٌ بصيغتها كَمِّيَّةٌ وَكَيْفِيَّةٌ، فالأَيَّانُ الْمُغْلَظَةُ بصيغتها كَمِّيَّةٌ وَكَيْفِيَّةٌ هي الأيمان التي بَلَغَتْ الجُهْدَ؛ أيك غَايَةَ الطَّاقَةِ بالنِّسْبَةِ لِلْمُقْسَمِ.

والأَيَّانُ - كما قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ - تُغْلَظُ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكَيفِيَّةِ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالهَيْئَةِ؛ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ:

- ١- بِالْكَمِّيَّةِ؛ مثل: أن يقول: والله والله الذي لا إله إلا هو العظيم العزيز الغالب، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تدلُّ على الانتقام فيما لو كان الإنسان كاذبًا.
- ٢- بِالْكَيفِيَّةِ؛ بأن يأتي بها يعني بانفعالٍ شديدٍ يدلُّ على تأثره بالقسم.

٣- وأما في الزّمان؛ فإن تكون بعد صلاة العَصْرِ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] أي: من بعد صلاة العَصْرِ.

٤- وفي المكان؛ بحيث يكون الإقسامُ في مكانٍ فاضِلٍ، وأفضَلُ الأماكنِ في البلدانِ المساجِدُ، قالوا: وتكون عند المِحْرَابِ أو المِنْبَرِ في الجوامِعِ وعند الكَعْبَةِ؛ بَعْضُهُمْ قال نَحْتُ الميزابِ وفي الرّوَضَةِ في المدينة.

٥- وفي الهيئَةِ؛ بأن يكون قائماً لآثِهِ يَحْلِفُ وهو قائم، قال العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ: لأنَّ العُقُوبَةَ أَقْرَبُ إلى القَائِمِ منها إلى القاعِدِ. فهذه خَمْسَةُ أَشْيَاءٍ في تَغْلِيظِ اليمينِ.

لكن هل هؤلاء الكُفَّارُ أَقْسَمُوا جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ على هذه بهذه التَّغْلِيظَاتِ الحَمْسَةِ؟ اللهُ أعلم.

وعلى كُلِّ حالٍ: هم بذلوا أَقْصَى ما يَسْتَطِيعُونَ من اليمينِ: ﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ هذه الجُمْلَةُ نقول في إغرابها كما قلنا في الجُمْلَةُ الأولى ﴿وَلَيْنَ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ اجتمع فيها شَرْطٌ وَقَسَمٌ وحُذِفَ جواب الشَّرْطِ، ولهذا جاءتِ اللَّامُ في الجواب: ﴿لِيَكُونُنَّ﴾ ولو كان المَحذُوفُ جوابَ القَسَمِ لم تأتِ اللَّامُ في الجوابِ؛ لأنَّ جوابَ الشَّرْطِ لا يَحْتَاجُ إلى اللَّامِ وإنَّما يُرْبِطُ بالفاءِ في محَلِّهِ ويَحذُفُها ولا يَحْتَاجُ إلى رابِطٍ إذا لم يكن من المواضعِ السَّبْعَةِ المَعْرُوفَةِ.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ بِمَعْنَى مُنذِرٍ، وهو الرَّسُولُ ﴿لِيَكُونُنَّ﴾

أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمِّ ﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيَكُونَنَّ﴾ بِضَمِّ النَّوْنِ وَهُوَ مُشْكِلٌ: كَيْفَ ضُمَّتِ  
النون، والمعروف أن الفعل المضارع مع نون التوكيد يُبنى على الفتح؛ كما في قوله  
تعالى: ﴿لَيُبَدَنَّ فِي الْخَطْمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] وهنا قال: ﴿لَيَكُونَنَّ﴾؟

والجواب على ذلك: أن نون التوكيد لا يُبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة  
له لفظاً وتقديراً، والنون هنا مباشرة للفعل لفظاً لكنّها غير مباشرة له تقديراً؛ لأنّ  
الفعل هنا للجماعة وليس للمفرد، وأصله (يكونونن) فحذفت النون لتوالي الأمثال؛  
لأنّهم يقولون إنّ العرب يكرهون أن تجتمع ثلاث كلمات من نوع واحد بعضها إلى  
بعض فيحذفون أوّلاها بالحدف، وأولاهها بالحدف على حسب قياسهم نون الرفع؛  
لأن حذفها معتاد، ولأن نون التوكيد جاءت لمعنى لو حذفت لا اختل ذلك المعنى؛  
لأنّها جاءت للتوكيد فلا نحذفها، لكن نحذف نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد؛ فحذفنا  
نون الرفع، وهي النون الأولى من الثلاثة؛ بقيت الواو تلي النون، والنون حرف مُشدّد  
في هذا التركيب والحرف المُشدّد أوّله ساكن فحذفنا الواو لالتقاء الساكنين فصارت  
﴿لَيَكُونَنَّ﴾ حذفت الواو التي بين نون الفعل؛ لأنّ النون في (يكونن) نون الفعل؛ ولهذا  
ما حذفناها لأنّها أصيلة، وحذفنا الواو لالتقاء الساكنين.

فإن قال قائل: عندنا الآن ثلاث نونات، فلماذا لا تحذفوا واحدة منها؟

فالجواب: أوّلاً: أن هذه النونات ليست متصلة تقديراً، يعني ليس بعضها  
متصلاً ببعضها الآخر من حيث التقدير؛ لأنّ كان قد فصل بينهما الواو التي حذفناها  
لالتقاء الساكنين.

ثانياً: أن النون التي بعد الواو في ﴿لَيَكُونَنَّ﴾ النون الموجودة الآن نون الفعل  
فهي من بنية الكلمة ولا يمكن أن تُحذف.



على كُلِّ حالٍ: يَجِبُ أن نَعْرِفَ الفَرْقَ بين (لَيَكُونَنَّ) وبين (لَيَكُونَنَّ)؛ ففي القرآن (لَيَكُونَنَّ) كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].  
 ففرق بين لَيَكُونَنَّ وبين لَيَكُونَنَّ:

فَقَوْلُهُ: (لَيَكُونَنَّ) هذه للواحد؛ ولهذا بُنِيَ الفِعْلُ معها على الفَتْحِ لاتصاله بنون التَّوَكِيدِ لفظًا وتَقْدِيرًا، و(لَيَكُونَنَّ) للجماعة؛ ولهذا لم يُبْنَ الفِعْلُ معها؛ لأن نون التَّوَكِيدِ لم تُبَاشِرْهُ تَقْدِيرًا.

إذن: نون التَّوَكِيدِ لا يُبْنَى معها الفِعْلُ إلا إذا كانت مباشرةً له لفظًا وتَقْدِيرًا، وفي هذه الجُمْلَةِ: ﴿لَيَكُونَنَّ﴾ لم تُبَاشِرْهُ تَقْدِيرًا، أمَّا لفظًا فقد بَاشَرَتْهُ، وإنَّما قلنا لم تُبَاشِرْهُ تَقْدِيرًا؛ لأنَّهُ حُذِفَ منها واو الجماعة، فلم تُبَاشِرْهُ تَقْدِيرًا.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾: ﴿أَهْدَىٰ﴾ هذه خَبَرٌ (يكون) فهي منصوبةٌ به بالفتحة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وهو اسم تفضيل.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ قال المفسر رحمه الله: [اليهود والنصارى وغيرهم؛ أي: أي واحدة منها؛ لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضًا؛ إذ قالت اليهود لئست النصارى على شيءٍ وقالت النصارى لئست اليهود على شيءٍ].

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ فأتوا بـ ﴿إِحْدَى﴾ الدالة على الإبهام، فلم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من اليهود، بل قالوا: أهدى من إحدى الأمم؛ لأن الأمر التيسر عليهم؛ حيث إن اليهود يقولون لئست النصارى على شيءٍ والنصارى يقولون لئست اليهود على شيءٍ، وهؤلاء المشركون -كفار مكة- أمة جاهليّة لا يدرون من الحقُّ معه، فلم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من

اليهود، بل قالوا: أهدى من إحداهما؛ أهدى من أيِّ واحِدَةٍ؛ لأنَّ الأمرَ عندهم التَّبَسُّ.

ولكن يبقى النَّظَرُ: ما هو الدَّلِيلُ على تَخْصِيصِ كَلِمَةِ ﴿الْأُمَّمِ﴾ بِالْأُمَّتَيْنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، ولماذا لا يقال إِنَّهَا أَعَمُّ من اليهود والنصارى، فهناك مجوسٌ يدينون بعبادة النيران، ويُمْكِنُ أن يُوجَدَ أناسٌ آخرون يدينون بديانةٍ أخرى؟

الجواب: إمَّا أن نَلْتَزِمَ بالعموم ونقول: إنَّهم يقولون أهدى من إحدى الأمم؛ من أيِّ أُمَّةٍ كَانَتْ من اليهود أو النَّصارى أو المجوس أو الوَثْنِيِّينَ الذين يعتقدون أنَّهم على دينٍ أو ما أشبه ذلك، فكأنَّهم يقولون أهدى من كُلِّ الأُمَّمِ، لكن لم يُعَيَّنُوا لِأَنَّهم لم يَدْرُوا مَنْ هو الذي على حَقِّ.

وإما أن يُقَالَ خُصَّ هذا الجانبُ بِأُمَّتَيْنِ فقط لأنَّ المَعْرُوفَ أنَّهم على دينٍ هُمُ اليهود والنصارى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ هنا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ولم يَقُلْ: فلما جاءهم الرَّسُولُ؛ ليطابق ما قالوه حتى يكون أبلَغَ في إلزامهم بما قالوا؛ لأنَّهم قالوا: إن جاءهم نذيرٌ ليَكُونُنَّ، فلما جاءهم نذيرٌ على حَسَبِ ما فرضوه وما قَدَّرُوهُ: جاء الأمرُ كذلك؛ فلما جاءهم نذيرٌ كما يقولون هم، والمُرَادُ به مُحَمَّدٌ ﷺ بلا شكٍّ، ولكن - كما أشرت - نَكَّرَ ولم يُعَرِّفْ متابَعَةً لِكَلَامِهِمْ؛ حيث قالوا لئن جاءنا نذيرٌ؛ يعني: فلَمَّا جاءهم نذيرٌ، وكما طلبوا تمامًا وباللَّفْظِ: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ هنا شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿جَاءَهُمْ﴾ وجوابه ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

و(لَمَّا) تأتي في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ على أَوْجُه:

أَحَدُهَا - كما هنا - : شَرَطِيَّةٌ .

والثاني: أن تأتي جازِمةً كـ (لَمْ) إلا أنه بينها فروقاً ليس هذا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا؛ لَأَنَّا لَا نَتَكَلَّمُ عَنِ النَّحْوِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوْفُوا عَدَابٍ﴾ [ص: ٨] أي: بل لم يذوقوا عذابي، وَلَكِنَّهُمْ حَرِيْوْنَ بِأَنْ يَذُوْقُوهُ .

والثالث: أن تكون بِمَعْنَى (إِلَّا) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛

أي: إلا عليها حافظ.

والرابع: أن تكون بِمَعْنَى (حين) مُجَرَّدَةً عَنِ الشَّرْطِ؛ مثل أن تقول: زُرْتُكَ لَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ؛ أي: حين طَلَعَ الصُّبْحُ .

فهذه أربعة معانٍ لـ (لَمَّا) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [مَجِيئُهُ]

يعني أَنَّهُمْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ كَمَا فَرَضُوا وَلَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ، بَلْ لَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا نُفُورًا عَنِ الْحَقِّ وَبُعْدًا عَنِ اتِّبَاعِهِ؛ قال: [تَبَاعَدًا عَنِ الْهَدْيِ] وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

وهذا أمرٌ مُشَاهِدٌ؛ فَإِنَّ قَرِيْشًا لَمَّا بُعِثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ نَفَرُوا مِنْهُ وَأَذَوْهُ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، وَوَصَمُوهُ بِكُلِّ عَيْبٍ، وَكَانُوا قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ يُجِلُّونَهُ وَيَحْتَرِمُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ (الْأَمِينِ) فَلَمَّا بُعِثَ لَمْ يَكُنْ أَمِينًا وَكَانَهُ رَجُلٌ غَيْرُ الرَّجُلِ الَّذِي كَانُوا يَعْرِفُونَهُ!! كُلُّ هَذَا يُكْذِبُ قَوْلَهُمْ: ﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] .



الآية (٤٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

• • • • •

قال رحمه الله: [﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ عن الإيوانِ مفعولٌ له] يعني أن كلمة ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ مفعولٌ له؛ أي منصوبة على أنها مفعولٌ له؛ أي ما زادهم إلا نفورًا لأجل الاستكبار في الأرض، وهذا أحد الاختياليين في الآية الكريمة.

والاحتمال الثاني: أن ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ بدلٌ من كلمة ﴿نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم إلا نُفُورًا، وهذا النُفُور هو الاستكبار في الأرض، وهو احتمالٌ قويٌّ جدًا: أن تكون استكبارًا بدلًا أو عطفَ بيانٍ من كلمة ﴿نُفُورًا﴾؛ إذن ما زادهم هذا الكلام، هذا المجيء، إلا البُعد عن الحق والاستكبار في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ معطوفٌ على ﴿اسْتِكْبَارًا﴾.

﴿وَمَكْرَ﴾ قال المفسر رحمه الله: [العملِ السَّيِّئِ﴾ من الشُّركِ وغيره] فقدّر العمل قبل السيئ ليكون الشؤء موصوفًا به العمل، والعمل السيئ يكون مكرًا، هذا ما ذهب إليه المفسر رحمه الله، فجعل المكر مضافًا إلى شيءٍ محذوفٍ وهو العمل، وجعل السيئ صفةً لذلك الشيء المحذوف؛ أي: مكر العمل السيئ، بمعنى: أنهم

ما زادهم إلا نفورا واستكبارا في الأرض وأن يمكروا مكر العمل السيئ.  
والمكر هو الخديعة وهو التوصل بالأسباب الحقيية إلى الإيقاع بالخصم والعدو،  
وأما التوصل بالأسباب الظاهرة فليس بمكر.

فإن قلت: هذا المعنى لا ينطبق على عمل هؤلاء؛ لأن هؤلاء يُظهرون عملهم  
السيئ؟

فالجواب: أن هؤلاء تارة يُظهرونه، وتارة يُخفونه كما في اجتماعهم بدار الندوة  
ماذا يصنعون بالرَّسُولِ ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ  
أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وإنما ذكِرَ المكر  
دون الشيء المُعلن الظاهر؛ لأنه أعظم قُبْحًا من الشيء المُعلن الظاهر فصار هؤلاء  
جمعوا إلى الكذب المكر والخداع، والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ قال المُفسر رحمه الله: [وهو  
الماكر... إلخ؛ يعني أن هؤلاء مكروا السوء وعملوا السوء بِصِفَةِ عَلَانِيَةٍ وَصِفَةِ  
خَفِيَّةٍ، وهل الماكر بغيره ينجو؟

الجواب: إذا كان مكرًا سيئًا فإنه لا ينجو، بل سيحقيق به مكره ويهلكه ويدمره؛  
كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] أما إذا كان المكر بحق  
فإنه لا يحيق بأهله، بل يحيق بعدوه؛ ذلك لأن المكر بحق ممدوح وليس بمذموم.

وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهنا لم يقل إلا بالماكر بل قال  
إلا بأهله؛ إشارة إلى بيان الاستحقاق لهذه الجريمة التي وقعت منه وأنه أهل لأن  
يحقق به مكره، فكل ماكر بغير حق أهل لأن يحيق به مكره.

قال: [وَوَصَفُ الْمَكْرِ بِالسَّيِّئِ أَضْلٌ، وإضافته إليه قَبْلُ اسْتِعْمَالٍ آخَرَ قَدَّرَ فِيهِ مُضَافٌ حَذْرًا مِنَ الْإِضَافَةِ إِلَى الصِّفَةِ] هذا كلام قليل الفائدة مُعَقَّدُ الْمَعْنَى فِي الْوَاقِعِ.

فَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [أَضْلٌ] يعني جارٍ على الأضل؛ لأنَّ الأضلَّ أنَّ الوصفَ يَنْفَصِلُ عَنِ الْمَوْصُوفِ وَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ الْمَوْصُوفُ؛ فَأَنْتَ تَقُولُ: مَرَزْتُ بَزِيدَ الْفَاضِلِ، فَتَجْعَلُ الصِّفَةَ مُنْفَصِلَةً عَنِ الْمَوْصُوفِ تَابِعَةً لَهُ، وَلَيْسَ مُضَافًا إِلَيْهَا.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ مَكَرَ السَّيِّئِ، فهنا لم يُوصَفِ الْمَكْرُ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ أُضِيفَ الْمَكْرُ إِلَى السَّيِّئِ، وَقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ قَبْلُ] مَعْنَى (قَبْلُ) يَعْنِي: قَبْلَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَيَعْنِي بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾.

وَقَوْلُهُ: [اسْتِعْمَالٌ آخَرُ] عَلَى خِلَافِ الْأَضْلِ؛ لِأَنَّ الْأَضْلَ أَنَّ الصِّفَةَ تَقَعُ تَبَعًا لِلْمَوْصُوفِ لَا أَنَّ الْمَوْصُوفَ يُضَافُ إِلَى الصِّفَةِ.

لكن يجوز أن يُضَافَ الْمَوْصُوفُ إِلَى الصِّفَةِ؛ وَلِهَذَا يَمُرُّ بِكُمْ دَائِمًا قَوْلُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ: «هَذَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ» مِثْلَ قَوْلِهِمْ: هَذَا مَسْجِدُ الْجَامِعِ؛ أَصْلُهُ: (هَذَا الْمَسْجِدُ الْجَامِعُ) لَكِنْ أُضِيفَ إِلَى صِفَتِهِ وَهُوَ كَثِيرٌ، كَمَا أَنَّ -أَيْضًا- الصِّفَةُ تَضَافُ إِلَى الْمَوْصُوفِ أَحْيَانًا؛ مِثْلَ: طَاهِرِ الْقَلْبِ؛ هَذِهِ صِفَةٌ مُضَافَةٌ إِلَى مَوْصُوفِهَا؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْأَلْفِيَّةِ:

كَطَاهِرِ الْقَلْبِ جَمِيلِ الظَّاهِرِ<sup>(١)</sup>

فهذا من باب إضافة الموصوف إلى الموصوف.

إذن: نأخذ من هنا أنه يجوز إضافة الصفة إلى الموصوف، وإضافة الموصوف

إلى صِفَتِهِ؛ والأصل من ذلك أن تقع الصِّفَةُ تَبَعًا لِلْمَوْصُوفِ على أَنَّهَا نَعَتْ له وتُعْرَبُ بإعرابه.

وفي الآية الكَرِيمَةِ: إضافة المَوْصُوفِ إلى الصِّفَةِ وَوَصَفُ المَوْصُوفِ بِالصِّفَةِ في أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا؛ إضافة المَوْصُوفِ إلى الصِّفَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ ولو كان في غَيْرِ القُرْآنِ وأردنا أن نُحَوِّلَهُ إلى أن تكون الصِّفَةُ تَبَعًا لِلْمَوْصُوفِ لقلنا: استكبارًا في الأَرْضِ والمَكَرَ السَّيِّئِ؛ لكن هنا صار من بابِ الإِضَافَةِ.

وفيها أيضًا وَصَفُ المَوْصُوفِ بِالصِّفَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِيقُ المَكَرَ السَّيِّئُ﴾ أَيُّهَا الأَصْلُ هنا بين المُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: [وَوَصَفُ المَكَرِ بِالسَّيِّئِ أَصْلٌ] لو قال بَدَل [أصل]: جارٍ على الأَصْلِ؛ لكان أَوْضَحَ وهذا هو مُرَادُهُ، قال: [وإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ قَبْلُ] يعني به إضافة المَوْصُوفِ إلى الصِّفَةِ في قَوْلِهِ: مَكَرَ السَّيِّئِ؛ يقول: [استعمالٍ آخَرَ] يعني جارٍ على استعمالٍ آخَرَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ لأنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ أحيانًا تُضَيِّفُ المَوْصُوفَ إلى صِفَتِهِ؛ وَاضِحٌ؟

قال: [قُدِّرَ فِيهِ مُضَافٌ] حَسَبَ شَرْحِهِ هو وتفسيره؛ حيث قال: [﴿وَمَكَرَ﴾ العَمَلِ السَّيِّئِ] حَذْرًا من الإِضَافَةِ إلى الصِّفَةِ].

وهذا الذي قاله الأخير يُنَازِعُ فِيهِ، وذلك لأنَّهُ لا دَاعِيَّ إلى ذلك، فلا حاجة إلى أن نُقَدِّرَ مَحْدُوفًا لِأَجْلِ أن نَمْنَعَ إضافة المَوْصُوفِ إلى الصِّفَةِ؛ لأنَّ إضافة المَوْصُوفِ إلى الصِّفَةِ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ كثيرٌ شائعٌ ليس هذا أمرًا محذورًا في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ حتى نقول نَحْتَاجُ إلى تَقْدِيرِ ما يُصَحِّحُهُ؛ ولهذا نقول: (مَكَرَ السَّيِّئِ) جارٍ على أَصْلِهِ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ لا حاجة إلى أن يُقَدَّرَ فِيهِ شَيْءٌ مَحْدُوفٌ.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [يَتَنَظَّرُونَ] هذا تَفْسِيرٌ

لِيَنْظُرُونَ بِمَعْنَى يَنْتَظِرُونَ، وهناك ضابطٌ - وليس قاعدةً -: أَنَّ (يَنْظُرُ) إِنْ تَعَدَّتْ بِ(إِلَى) فَهِيَ بِمَعْنَى النَّظَرِ بِالْعَيْنِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] وَإِنْ تَعَدَّتْ بِ(فِي) فَهِيَ بِمَعْنَى النَّظَرِ الْفِكْرِيِّ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وَإِنْ تَعَدَّتْ بِنَفْسِهَا فَهِيَ بِمَعْنَى الْإِنْتِظَارِ، مِثْلًا هُنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ معناها: (هل يَنْتَظِرُونَ) مِنَ الْإِنْتِظَارِ وَهُوَ التَّرَقُّبُ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ؛ يَنْتَظِرُونَ يَعْنِي يَتَرَقَّبُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّةٌ بِمَعْنَى الطَّرِيقَةِ، وَالْإِضَافَةُ هُنَا إِلَى ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ مِنْ بَابِ الْأَخْتِصَاصِ؛ يَعْنِي إِلَّا السُّنَّةَ الَّتِي جَرَتْ لِلْأَوَّلِينَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ السُّنَّةَ الَّتِي فَعَلَهَا الْأَوَّلُونَ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ مَفْعُولٌ بِهِمْ وَلَيْسُوا هُمُ الْفَاعِلِينَ، وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [سُنَّةَ اللَّهِ فِيهِمْ مِنْ تَعْدِيهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ] يَعْنِي مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ ﷺ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ، وَهِيَ - أَي سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ - تَعْدِيهِمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا بَرَفْعَهَا أَوْ تَبْدِيلًا بِتَحْوِيلِهَا إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ؛ يَعْنِي أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ سَتَقَعُ فِي أَعْيَانِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّوهَا، فَلَنْ تُبَدَّلَ فُتْرَفَعَ وَلَنْ تُحَوَّلَ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ فَيَسَلَّمَ مِنْهَا مَنْ اسْتَحَقُّوَهَا، بَلْ هِيَ وَاقِعَةٌ عَلَى مَنْ اسْتَحَقُّوَهَا عَيْنًا.

مِثَالُ ذَلِكَ: الْمُشْرِكُونَ - مِنْ قَرِيشٍ - كَذَّبُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ التَّحْوِيلُ مَعْنَاهُ أَنَّ مُحَوَّلَ عُقُوبَتِهِمْ إِلَى بَنِي تَمِيمٍ مِثْلًا، هَذَا لَا يُمَكِّنُ؛ لِأَنَّ هَذَا ظُلْمٌ؛ أَنْ يُؤَاخَذَ قَوْمٌ بِجَرِيمَةِ آخَرِينَ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.



ومثال آخر: كَذَّبَتْ قَرِيشُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ نَعَمَهُمْ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فالعذاب لن يُبدَّلَ بنعيمٍ، ولن يُحوَّلَ عن مُستحقِّه إلى قومٍ آخرين.

فَسُنَّةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَا بُدَّ أَنْ تَقَعُ فِي مَنْ يَسْتَحِقُّهَا بَدُونَ تَبْدِيلٍ لَهَا بِنِعْمَةٍ وَبَدُونَ تَحْوِيلٍ لَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ كَامِلُ الْحِكْمَةِ، كَامِلُ الْعَدْلِ، فَهُوَ كَامِلُ الْحِكْمَةِ فَلَنْ يُبَدِّلَ النِّعْمَةَ بِنِعْمَةٍ عَلَى مَنْ اسْتَحَقَّهَا، وَكَامِلُ الْعَدْلِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحوَّلَ الْإِنْتِقَامَ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَهُ.

فهذه الصِّفَةُ ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا...﴾ الخ، هي من بابِ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ لَكِنَّهَا تَتَّصِفُنَّ كَمَا لِعَدْلِ اللَّهِ وَكَمَا لِحِكْمَتِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: وَتَمَامُ سُلْطَانِهِ أَيْضًا بِحَيْثُ لَا يُكْرِهُهُ أَحَدٌ إِلَى أَنْ يُحوَّلَ النِّعْمَةُ إِلَى آخَرِينَ أَوْ أَنْ يُبَدَّلَهَا بِنِعْمَةٍ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيُّ لَا يُبَدِّلُ بِالْعَذَابِ غَيْرُهُ وَلَا يُحوَّلُ الْعَذَابُ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ].

### من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ فِي عَافِيَةٍ أَوْ إِذَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ الْأَمْرُ قَدْ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِهِ فَإِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ؛ وَجَهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّذِيرُ تَغَيَّرَتْ حَالُهُمْ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا لِلْبَشَرِ، فَمَا دَامَ الْإِنْسَانُ لَمْ يَنْزَلْ بِهِ الْأَمْرُ يَظُنُّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَإِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ عَجَزَ عَنْهُ؛ وَهَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يَتَعَجَّلَ فِيحْكُمَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا سَالِمًا مِنْ نَزْوِلِ الْأَمْرِ بِهِ، بَلْ يَنْتَظِرُ حَتَّى يَنْزَلَ بِهِ الْأَمْرُ، فَكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلًا يَقُولُ أَنَا أَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَى الْحُجِّ مِثْلًا وَسَاحُجٌّ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا

يحين الأمر يُجِدُ من نفسه العَجَزَ، أو يقول: أنا أستطيع أن أقومُ ثُلثَ اللَّيْلِ الآخِرِ كُلِّهِ، ولكن إذا جَدَّ الجِدُّ وجدَ نَفْسَهُ عاجزًا.

فالمهمُّ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَلَّا يَكُونَ مُتَسَرِّعًا فَيَقِيسُ حَالَهُ فِي حَالِ الرَّخَاءِ عَلَى حَالِهِ بِحَالِ نُزُولِ الأَمْرِ بِهِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ بَشَرٌ مُخْتَلِفٌ حَالُهُ بَيْنَ سَلَامَتِهِ مِنَ الأَمْرِ وَبَيْنَ وَقُوعِ الأَمْرِ فِيهِ

الفائدةُ الثَّانِيَةُ: دَلِيلٌ عَلَى عُمُوِّ هَؤُلاءِ المُكذِّبِينَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ حَيْثُ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِمْ يُقْسِمُونَ أَغْلَظَ الأَيَّانِ بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ أَهْدَى مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا زَادَهُمْ حَجِيئُهُ إِلَّا نُفُورًا.

الفائدةُ الثَّالِثَةُ: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ النَّذْرُ - أَي أَنْ يَنْذِرَ الطَّاعَةَ - لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَوْفِقُ فِي القِيَامِ بِهَا، فَهَؤُلاءِ أَقْسَمُوا وَلَمَّا وُجِدَ مُوجِبُ الطَّاعَةِ لَمْ يَقُومُوا بِالطَّاعَةِ.

وهذا نظيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَّاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] فَهَمَّ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَنْ لَوْ أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ لَخَرَجُوا فَنَهَاَهُمُ اللهُ بَلْ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ لَا تُقْسِمُوا.

ونظير ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ. ﴿[التوبة: ٧٥-٧٦].

ولهذا جاء النَّهْيُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ، وَبَيَانُ أَنَّهُ «لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ» (١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ رَدُّوا الْحَقَّ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ - أَي يَرِيدُونَ  
الاسْتِكْبَارَ - وَهَذَا عَلَى وَجْهِ إِعْرَابِهَا بِأَنَّهَا مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ؛ أَي إِنَّهُ مَا رَدُّوا الْحَقَّ إِلَّا أَنْ  
يَكُونَ لَهُمُ الْكِبْرِيَاءُ وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: تَسْمِيَةُ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ مَكْرًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾  
وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي التَّفْسِيرِ: أَنَّ أَعْمَالَ الْكَافِرِينَ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٍ يَجَاهِرُونَ فِيهِ  
بِكُفْرِهِمْ وَلَا يَأْتُونَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَكْرِ، وَقِسْمٍ آخَرَ يَأْتُونَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَكْرِ، وَالثَّانِي  
أَشَدُّ؛ وَهَذَا مَا مَكَرَ قَوْمٌ بِأَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَأَخْرَجَهُمُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ حَيْثُ اجْتَمَعَ  
الْقَوْمُ فِي دَارِ النَّدْوَةِ يَتَشَاوَرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ بِهِ فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى<sup>(١)</sup>.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مَنْ أَرَادَ الشُّوَاءَ حَاقَ بِهِ الشُّوءُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِيقُ  
الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وَمِنْ قَوَاعِدِ الْعَامَّةِ يَقُولُونَ: (مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا)  
فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَرَادَ الْمَكْرَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَإِنَّ مَكْرَهُ يَحِيقُ بِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْمَكْرَ يَكُونُ سَيِّئًا وَيَكُونُ حَسَنًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وَقَوْلِهِ قَبْلُ ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ  
مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَعْدَائِهِ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ بِهِ مَكْرٌ حَسَنٌ يُثْنَى عَلَيْهِ بِهِ، وَمَكْرُ أَوْلِيكَ  
سَيِّئٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْفَاعِلَ لِلسَّبَبِ مُنْتَظَرٌ لِلْمُسَبَّبِ شَاءَ أَمِ أَبِي، فَالْإِنْسَانُ  
الْعَاصِي نَقُولُ لَهُ: أَنْتَ مُنْتَظَرُ الْعُقُوبَةِ الْآنَ مُتَرَقِّبٌ لَهَا حَتَّى وَإِنْ كَانَ لَا يَطْرَأُ عَلَى بَالِهِ  
أَنَّهُ سَيُعَاقَبُ؛ لِأَنَّ الْفَاعِلَ السَّبَبِ مُنْتَظَرٌ لِلْمُسَبَّبِ وَلَا بُدَّ.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/٤٨٠)، تفسير الطبري (١١/١٣٤).

الفائدة التاسعة: ثبوت القياس - أو إن شئت فقل: استعمال القياس - لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ فيقيس حال هؤلاء بحال الأولين الذين كذبوا فعوقبوا.

الفائدة العاشرة: ومن فوائد الآية الكريمة أن سنة الله عز وجل في عباده واحدة فكل من أطاع الله أثابه وكل من عصى الله عاقبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ولا يقال مثلاً إننا أمة شرفنا الله عز وجل وعظمتنا وكرمنا فلا يؤاخذنا كما آخذ من قبلنا، بل نقول: إن مقتضى التشریف أن نكون نحن أشد عبادة له ممن سبقنا؛ لأن الإنسان إذا كرم ينبغي أن يقوم بمقتضى هذا التكریم، وليس إساءة من لم تكرمه إليك كإساءة من أكرمه بلا شك؛ ولهذا كل من كان مغتبطاً بنعمة الله عز وجل وجب عليه من شكر نعمة الله ما لا يجب على من سواه.

الفائدة الحادية عشرة: كمال قدرة الله عز وجل وحكمته؛ حيث إن سنته لا تبدل ولا تغير؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وجه كونها من كمال القدرة: أن العاجز لا يستطيع أن يجعل أفعاله على وتيرة واحدة، بل قد تتخلف وتتغير لعجزه عن الاطراد، وأما كونه من تمام الحكمة فلأن معاينة السابقين كان لسبب، وهذا السبب إذا وجد في الآخرين فإنه يعمل عمله لأن مقتضى الحكمة أن الأسباب لا تتخلف عنها مسبباتها؛ ففي قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ولن تجد لسنت الله تحويلاً فيها إثبات تمام القدرة وتمام الحكمة.

الفائدة الثانية عشرة: أن الشيء الذي يستمر ويؤخذ به يسمى سنة، يقال: هذه سنة فلان؛ أي طريقته؛ ولهذا يفرق بين السنة وبين العارض؛ فالعارض لا يمكن

أَنْ يُجْعَلَ طَرِيقَةً مُتَّبَعَةً، وَالشَّيْءُ الْمَطْرُدُ يُسَمَّى سُنَّةً، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّفْرِيقِ قَوْلُهُ ﷺ: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ» ثُمَّ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «لَمَنْ شَاءَ»<sup>(١)</sup> كَرَاهِيَةً أَنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً؛ يَعْنِي سُنَّةَ مَطْرَدَةٍ يَفْعَلُونَهَا دَائِمًا.



(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الصلاة قبل المغرب، رقم (١١٨٣)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

### الآية (٤٤)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

ثم قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ الهمزة هنا للاستفهام، والمراد به التوبيخ والتفريع، وهذه الهمزة الاستفهامية هل هي داخلة على الجملة الموجودة المذكورة، أو على جملة محذوفة يُعَيِّنُهَا السِّيَاقُ؟

في هذا قولان لأهل العلم في النحو؛ فمنهم من يقول: إنها داخلة على هذه الجملة المذكورة، وعلى هذا القول يقولون: إن التقدير (وَأَلَمْ يَسِيرُوا) فيجعلون الواو مقدمة على الهمزة؛ لأنه لا يمكن أن تجعل الهمزة مقدمة على الواو، والواو حرف عطف تقتضي معطوفاً عليه، فيقولون: إن الهمزة متأخرة والواو حرف عطف، وهذه الجملة معطوفة على ما سبق.

وهذا الوجه لا شك أنه أسهل وأيسر؛ إذ لا يتكلف الإنسان فيه العناء في ذلك الشيء المحذوف المقدّر.

وهو القول الثاني: أن الهمزة داخلة على محذوف يُعَيِّنُ السِّيَاقُ، ففي مثل هذه الآية، نقول: تقدير الكلام: أغفلوا ولم يسيروا في الأرض أو كلمة نحوها، وهذا

التَّقْدِيرُ قد يكون سهلاً في بَعْضِ المواضعِ، بِمَعْنَى أن بعضَ المواضعِ قد يكون المعنى فيها ظاهراً ويُمْكِنُكَ بِكُلِّ سهولَةٍ أن تُقَدِّرَ ذلكَ المَحْدُوفَ، لكن أحياناً يَصْعُبُ عليك أن تُقَدِّرَ ذلكَ المَحْدُوفَ لاحتمالِ السِّيَاقِ لأَوْجِهٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ لهذا نقول: إِنَّ القَوْلَ الآخَرَ أَقْرَبُ وَأَسْهَلُ أن نَجْعَلَ الواوَ حَرْفَ عَطْفٍ والجُمْلَةَ هذه معطوفة على ما سبق، والأصلُ تقديمُ ذلكَ الحرفِ العاطِفِ على الجُمْلَةِ، والتَّقْدِيرُ: وألمَ يسيروا.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السَّيْرُ هنا هل هو سَيْرُ القُلُوبِ أو سَيْرُ

الأَقْدَامِ أو كِلَاهُمَا؟

نقول: الأوَّلَى أن نقول إنه شاملٌ فيكون سَيْرُ القُلُوبِ هو سَيْرُ الأَقْدَامِ، أمَّا سَيْرُ القُلُوبِ فَإِنَّهُ بالنظرِ في تاريخِ الأُمَّمِ السَّابِقَةِ وما جرى عليهم وما جرى لأَهْلِ الحَيْرِ العاملين بالقِسْطِ، فيسيرُ الإنسانُ بِقَلْبِهِ في أرجاءِ العالمِ وهو جالسٌ على كُرْسِيِّهِ لا يَتَحَرَّكُ.

وأمَّا السَّيْرُ بالأَقْدَامِ فهو أن يَتَقَدَّمَ الإنسانُ إلى هذه المواضعِ لِيَعْتَبِرَ، ومن ذلك قولُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رُزُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»<sup>(١)</sup> فَإِنَّ زيارَةَ القُبُورِ سَيْرٌ بالأَقْدَامِ، يذهب الرَّجُلُ إلى المَقْبَرَةِ وَيَقِفُ ويشاهد هذه القُبُورَ وَيَعْتَبِرُ بهؤلاءِ القومِ الذين كانوا أشدَّ منه قُوَّةً وكانوا أكثرَ منه مالاً، ومع ذلك أَلُوا إلى ما أَلُوا إليه حتى يَعْرِفَ أَنَّهُ سوف يُوُؤَلُ إلى ما آلَ إليه هؤلاءِ، طالَتِ المُدَّةُ أم قَصُرَتْ.

إذن: السَّيْرُ في الأَرْضِ يكون بالقَلْبِ وبالقَدَمِ، وأيهما أَنْفَعُ للمرءِ: السَّيْرُ

بالقَلْبِ أم السَّيْرُ بالقَدَمِ؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزَّ وجلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧)،

من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الجواب: السَّيْرُ بِالْقَلْبِ أَشْمَلُ وَأَهْوَنُ؛ لَأَنَّهُ بِإِمْكَانِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَطُوفَ الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَسْهَلُ؛ وَالسَّيْرُ بِالْقَدَمِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا لِأَنَّهُ يَشَاهِدُ؛ (فَمَا رَأَى كَمَنْ سَمِعَ) وَهَذَا أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا دَخَلْنَا عَلَى دِيَارِ الْمُعَذِّبِينَ، أَمَرْنَا أَلَّا نَدْخُلَ إِلَّا وَنَحْنُ بِأَكُونُ أَنْ يُصَيِّبَنَا مَا أَصَابَهُمْ<sup>(١)</sup> حَتَّى نَعْتَبِرَ وَنُصَحِّحَ الْمَسِيرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿فِي﴾ هُنَا قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهَا بِمَعْنَى (عَلَى) وَلَا تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ لِلظَّرْفِيَّةِ؛ لِأَنَّ الظَّرْفِيَّةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِرُ فِي جَوْفِ الظَّرْفِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّائِرَ فِي الْأَرْضِ لَا يَسِيرُ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ، هَلْ هُوَ يَفْتَحُ نَفَقًا لِيَسِيرَ فِيهِ؟ لَا، بَلْ يَسِيرُ عَلَى ظَهْرِهَا؛ قَالُوا (فِي) بِمَعْنَى (عَلَى) وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَي عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: (أَل) يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الْعَهْدُ، فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالسَّيْرِ فِي جِنْسِ الْأَرْضِ الَّتِي أَصِيبَتْ بِغَضَبٍ وَالَّتِي لَمْ تُصَبَّ، وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَصِيبَتْ بِالغَضَبِ، فَتَكُونُ (أَل) هُنَا لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ؛ لِأَنَّ الْعَهْدَ الذِّكْرِيَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَذْكُورٌ تَعُودُ عَلَيْهِ (أَل) أَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَذْكُورٌ فَهُوَ عَهْدٌ ذِهْنِيٌّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فَيَنْظُرُوا الْفَاءُ هُنَا قِيلَ إِنَّهَا عَاطِفَةٌ، وَقِيلَ إِنَّهَا سَبَبِيَّةٌ؛ فَعَلَى أَنَّهَا عَاطِفَةٌ يَكُونُ الْفِعْلُ بَعْدَهَا مَجْرُومًا، وَعَلَى أَنَّهَا سَبَبِيَّةٌ يَكُونُ الْفِعْلُ بَعْدَهَا مَنْصُوبًا؛ فَعَلَى كَوْنِهَا سَبَبِيَّةً يَكُونُ التَّقْدِيرُ: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



فَبَسَّبِ سَيْرِهِمْ يَنْظُرُوا، وعلى أَنَّهَا عَاطِفَةٌ يَكُونُ الْمَعْنَى: أَوَّلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ وَلَمْ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟

وَالنَّظْرُ هُنَا هَلْ هُوَ نَظْرُ الْقَلْبِ أَوْ نَظْرُ الْعَيْنِ؟

الجواب: إِذَا قُلْنَا إِنَّ السَّيْرَ سَيْرَ الْقَدَمِ فَالنَّظْرُ نَظْرُ الْعَيْنِ، وَإِذَا قُلْنَا إِنَّ السَّيْرَ سَيْرَ الْقَلْبِ فَالنَّظْرُ نَظْرُ الْقَلْبِ؛ إِذَنْ: تَكُونُ شَامِلَةً لِلْأَمْرَيْنِ حَسَبًا نَفْسُ السَّيْرِ فِيهَا سَبَقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْاسْتِفْهَامِيَّةُ عَلَّقَتْ (يَنْظُرُوا) عَنِ الْعَمَلِ، يَعْنِي: فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَتُهُمْ؛ يَعْنِي أَيَّ عَاقِبَةٍ كَانَتْ لَهُمْ: هَلْ نَعْمُوا وَأُكْرِمُوا أَوْ عُدُّبُوا وَأُهْلِكُوا فَيَنْظُرُوا، فَإِذَا نَظَرَ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ فَسَوْفَ يَعْتَبِرُ وَيُقَيِّمُ الْحَاضِرَ عَلَى الْغَائِبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾: (عَاقِبَةُ) الشَّيْءِ مَالُهُ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الْهَلَاكُ؛ وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ رُحْمَةٌ عَلَيْنَا فَمُنْصِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الصافات: ١٣٧-١٣٨]﴾ فَانظُرُوا إِلَى آثَارِهِمْ كَانَتْ الدَّمَارُ إِذَا كَانَتْ الدَّمَارُ وَسَبَبُهُ التَّكْذِيبُ وَالِاسْتِكْبَارُ فَإِنَّ السَّبَبَ الَّذِي كَانَ فِيهَا سَبَقُ مُؤَدِّيًّا إِلَى هَذَا الْهَلَاكِ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ مُؤَدِّيًّا إِلَيْهِ فِيهَا لِحَقِّ وَلَا فَرْقَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: (كَانُوا) الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى السَّابِقِينَ ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يَعْنِي: أَقْوَى مِنْهُمْ قُوَّةً، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَنْفَعَهُمْ قُوَّتُهُمْ وَلَمْ تَمْنَعَهُمْ، وَأُهْلِكُوا، وَانظُرْ إِلَى قَوْلِ عَادٍ: مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَتْ بَرًّا أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وَكَانَتْ عَادٌ مِنْ أَقْوَى الْأُمَّمِ أَجْسَامًا وَصَلَابَةً وَعِزْمًا، حَتَّى إِتَمَّ نَحْدُوا وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ؛ فَقَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وَأَهْلَكَهُمْ بِالطَّفِّ الْأَشْيَاءِ؛ أَهْلَكَهُمْ بِالرَّيْحِ؛ قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فافتخر بجريان الأنهار وهي المياه من تحته، فأهلك بالغرق بالماء الذي كان يفتخر به.

فالإنسان العاقل إذا رأى حال هذه الأمم وقوتها وأن هذا لم ينفعهم ولم يمنعهم من عقاب الله فلا بُدَّ أن يعْتَبِرَ.

قال: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الواو هنا في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا﴾ يُحْتَمَلُ أن تكون عاطفةً ويحتمل أن تكون للحال والتقدير: وقد كانوا أشدَّ منهم قُوَّةً.

قال المفسر رحمه الله: [فأهلكهم الله بتكذيبهم رُسُلَهُمْ] ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ هنا إذا تأمل الإنسان الآية، يقول: إن الله تعالى لم يذكر عاقبة هؤلاء المكذِبِينَ في الآية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلماذا لم يذكرها؟

الجواب: اعتماداً على هذا السائر الذي يسير فينظر، فمعناه: احْكُم أنت بنفسك على هؤلاء؛ فلا حاجة لأن أُخبرك بأن الله أهلكهم؛ لأنه سوف تحكم على هذا بما تراه من آثارهم.

قال رحمه الله: [﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَسْبِقُهُ وَيَفُوتُهُ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِنَّهُ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ اللام هنا يُسَمِّيها النَّحْوِيُّونَ لام الجُحُودِ وهو النَّفْيُ؛ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ بَعْدَهُ -أي بعد النَّفْيِ- وضابطُ لام الجحود أن تقع بعد كَوْنٍ مَنفِيٍّ، وإذا أردنا أن نُقَرِّبَهَا إلى المبتدئ نقول: أن تقع بعد (ما كان) أو (لم يكن) قال

تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْزِرْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧] اللّام تُسَمِّيها لامَ الجُحودِ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] اللّام لامُ الجُحودِ.

فإذا وقعت اللّام بعد (ما كان) أو (لم يكن) داخلَةً على الفعل المضارع فإنّها تَنْصِبُ الفعل المضارع أو نَنْصِبُهُ بـ(أن) مُقَدَّرَةً بعد اللّامِ على الخلاف، إنّها تُسَمِّي هذه اللّامَ لامَ الجُحودِ، لكنَّ الضّابطَ الذي قُلْتُ أولاً: وهي الواقعة بعد كونٍ مَنفِيٍّ أَعْمٌ من قولنا هي المُسْبوقَةُ بـ(ما كان) أو (لم يكن)؛ لأنّه يُمكِنُ أن تأتي بعد (كائِنٍ) تقول: لَسْتُ بكائِنٍ لِأَعَذِّبَكَ؛ مثلاً، أو غَيْرِ كائِنٍ ليكون وما أشبه ذلك، فإذا قلنا بعد كونٍ منفي كانت أعمّ، لكن إذا كنا نَخاطِبُ شَخْصًا مُبْتَدِئًا في النَّحو فقد يصعب عليه تَصَوُّرَ كَلِمَةِ (كونٍ مَنفِيٍّ) فنقول له: إذا وَقَعَتْ بعد ما كان أو لم يكن، فهي لام الجُحودِ.

وتنصب الفعل المضارع إمّا بِنَفْسِها كما هو مَذْهَبُ الكُوفِيّينَ، وإمّا بأن مُضْمَرَةً بعد اللام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعْزِرَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جَرٍ زائِدٌ زائِدٌ؛ زائد في الإعرابِ، زائدٌ في المعنى أي أنّه يزيِدُ في المعنى، وما هي زيادة المعنى؟  
توكيدُ النَّفي، يعني أنّ هذا النَّفيَ مُؤَكَّدٌ.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعْزِرَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ إذا قلنا ﴿مِنْ﴾ حرف جَرٍ زائِدٌ فنُعْرِبُ ﴿شَيْءٍ﴾ على أنّها فاعِلٌ مرفوع بضمّة مُقَدَّرَةٌ على آخره مَنَعَ من ظهورها اشتغالُ المَحَلِّ بحركة حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [يَسْبِقُهُ وَيَفُوتُهُ] وهذا تَفْسِيرٌ لا بأس بِبَعْضِ اللّوازمِ،

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] ولكن العجز في الواقع هو عدم القدرة على الشيء، وهذا أولى من تفسير المفسر رحمه الله.

يقول: ما كان الله تعالى ليحول بينه وبين ما يريد عجز في قدرته بل هو قادر على كل شيء من إيجاد معدوم أو إيجاد معدوم أو تغيير حال أو غير ذلك، فالله تعالى لا يعجزه شيء؛ لا في السموات ولا في الأرض؛ لأن أمره عز وجل إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون، بدون أي عمل، كلمة واحدة تجعل الشيء على حسب مراده تبارك وتعالى، فلا يعجزه شيء لا في السموات ولا في الأرض، وإذا كان لا يعجزه شيء، لا في السموات ولا في الأرض فإنه لن يعجز عن إهلاك المكذبين الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

يقول رحمه الله: [إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا] أي بالأشياء كلها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها [الجملة موقعها مما قبلها أنها تعليل؛ فلما قال ما كان الله ليُعجزه علل هذا الحكم المنفي بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه، والقدرة التمكن من الفعل بلا عجز، والقوة التمكن من الفعل بلا ضعف، فهي أخص من القدرة من وجه، وأعم منها من وجه آخر كما سنذكره.

فما هو وجه كونه عز وجل لعلمه وقدرته لا يعجزه شيء؟

الجواب: لأن العاجز عن الشيء إما أن يكون لعدم علمه للأسباب التي يغيرها به، وإما أن يكون لعدم قدرته، فلو تأملت عجز أي عاجز لوجدت السبب في عجزه إما أنه لا يعلم وإما أنه لا يقدر.

فلو قيل لرجلٍ: تُريد أن تُصلِحَ هذه السَّاعَةَ الحَرِيبَةَ قال: أعطني إِيَّاهَا، وهو لا يَعْرِفُ أَبَدًا وما دَرَسَ، وعنده آلاَتٌ لِإِصْلَاحِهَا وعنده قُوَّةٌ بَدَنِيَّةٌ، فهل يَقْدِرُ أن يُصْلِحَهَا؟

والجواب: لا؛ لِأَنَّهُ ليس عنده عِلْمٌ، فلا يقدر أن يُصْلِحَهَا بل يُمَكِّنُ أن يُفْسِدَهَا أَكْثَرَ.

ورجل آخر: عنده عِلْمٌ وقد درس عِلْمَ تَصْلِيحِ السَّاعَاتِ مِثْلًا، لكن ليس عنده قُدْرَةٌ بَدَنِيَّةٌ وهو مشلول، فهل يُمَكِّنُ أن يُصْلِحَهَا؟

الجواب: لا يُمَكِّنُ؛ لِعَدَمِ القُدْرَةِ.

إذن: انتفاء عجزِ الله عَزَّوَجَلَّ لِكِمَالِ عِلْمِهِ وَكِمَالِ قُدْرَتِهِ، وبهذا نعرف أَنَّهُ لا يوجَدُ نَفْيٌ مَحْضٌ في صِفَاتِ الله، بل كُلُّ نَفْيٍ في صِفَاتِ الله فهو مُتَضَمِّنٌ لِثُبُوتِ كِمَالِهِ، ولا يُمَكِّنُ أن يوجد نَفْيٌ مَحْضٌ؛ ولهذا لما نَفَى العَجْزَ بَيْنَ السَّبَبِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّا يَنْبَغِي أن نَنْظُرَ إلى عاقِبَةِ السَّابِقِينَ نَنْظَرَ اعْتِبَارٍ بِمَآلِهِمْ حين كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ وليس اعتبارًا بقُوَّتِهِمْ وصِنَاعَتِهِمْ وطِرَازِهِمْ وما أشبه ذلك، وإذا طَبَّقْنَا هذا على واقعِ النَّاسِ اليومِ الذين يَذْهَبُونَ إلى ديارِ ثَمُودَ؛ وجدنا أَنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إليها لا لِيَعْتَبِرُوا بما صَنَعَ اللهُ بهم من العُقُوبَةِ لتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، ولكن لِيَنْظُرُوا كيف كانت قُوَّتُهُمْ وصِنَاعَتُهُمْ وزخارفُهُمْ وما أشبهه، وهذا حرامٌ، فلا يجوز أن يذهب الإنسان إلى ديار هؤلاء المُكْذِبِينَ لهذا الغرضِ؛ لِقَوْلِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تَدْخُلُوا على

هؤلاء المعدِّين إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.

مَسْأَلَةٌ: السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ لِلْإِعْتِبَارِ لَا بَأْسَ بِهِ، وَإِذَا كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْصِهِ كَانَ مَحْمُودًا، وَإِنْ كَانَ نَقْصُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي، فَمِثْلًا لَوْ ذَهَبَ يَنْظُرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ وَفِي الْأَنْهَارِ وَفِي الْبِحَارِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذَا حَسَنٌ مَحْمُودٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ يُكَلِّفُ مِنَ النَّفَقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يُنْهَى عَنْهُ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِضَاعَةَ الْمَالِ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ النَّفَقَةُ قَلِيلَةً أَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ لَا يَتَضَرَّرُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فَلَا بَأْسَ بِهِ

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ فِي التَّارِيخِ عِبْرًا يَعْتَبَرُ بِهَا الْعَاقِلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: اسْتِعْمَالُ قِيَاسِ الْأَوَّلَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ مَعَ كَوْنِهِمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، فَإِنَّ إِهْلَاكَ هَؤُلَاءِ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ قُوَّةَ الْبَشَرِ مِمَّا عَظُمَتْ لَا تَمْنَعُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وَلِذَلِكَ لَمَّا قَالَتْ عَادٌ: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، قِيلَ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ فِي السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ قَلْبًا أَوْ قَدَمًا عِبْرَةً لَا لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، بَلْ لِلرُّسُلِ أَيْضًا؛ فَإِنَّ إِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ انْتِصَارٌ لِلرُّسُلِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَهْلَكَ عَدُوَّكَ فَإِنَّهُ انْتِصَارٌ لَكَ بِلَا شَكٍّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الفائدة السادسة: نفى العجز عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فَإِنَّ فِيهَا نَفْيَ الْعَجْزِ عَنْهُ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ.

الفائدة السابعة: أَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَكُونُ سَلْبِيًّا - أَي مَنفِيًّا عَنِ اللَّهِ - وَالْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ: أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ نَقَصٍ فَهِيَ مَنفِيَّةٌ عَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ كَمَالٍ فَهِيَ ثَابِتَةٌ لَهُ، وَلَكِنَّ التَّفْصِيلَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] لَكِنَّ التَّفْصِيلَ بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ الْمُعَيَّنَةَ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ أَوْ مُنْفِيَّةٌ عَنْهُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ دَلِيلٍ.

الفائدة الثامنة: أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنْفِي شَيْئًا عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا لِثُبُوتِ كَمَالِ صِدْقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مَنفِيَّةٍ عَنِ اللَّهِ لَا يَرَادُ مِنْهَا مُجَرَّدُ النَّفْيِ؛ لِأَنَّ مُجَرَّدَ النَّفْيِ الْمُحْضِ لَيْسَ فِيهِ فَائِدَةٌ؛ إِذْ إِنَّ النَّفْيَ الْمُحْضَ عَدَمٌ مُحْضٌ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَضَلًّا عَنْ أَنْ يَكُونَ كَمَا لَا؛ وَلِأَنَّ النَّفْيَ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْعَجْزُ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ      وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ<sup>(١)</sup>

هَذَا ذِمٌّ؛ لِأَنَّهُمْ لَعَجْزِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ، فَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَلَا يَغْدِرُونَ بِالذَّمِّ.

وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ عَدَمُ الْقَابِلِيَّةِ لَا لِلْكَمَالِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِهَذِهِ الصِّفَةِ، كَمَا لَوْ قُلْتَ: إِنَّ جِدَارَ بَيْتِنَا لَا يَظْلِمُ، فَهُوَ صَحِيحٌ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، لَكِنْ لَا لِأَنَّهُ كَامِلٌ

(١) البيت ينسب للنجاشي الحارثي قيس بن عمرو، انظر: الحماسة الصغرى لأبي تمام (ص ٢١٥ - ٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادى (١/ ٢٣٢).

العدل، ولكن لأنه لا يقبل كلمة ظلم، فنفيها عنه كثبتها له، حتى لو قلت: جدارنا يظلم، فلا أحد يصدقك.

إذن: صفات الله المنفية التي يسميها العلماء رَحْمَهُ اللَّهِ السَّلْبِيَّة تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الضَّدِّ، يعني لكمال علمه وقدرته، فلا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

الفائدة التاسعة: إثبات أن السموات أكثر من واحدة؛ لأنها جاءت بصيغة الجمع: السموات، وهي سبع بنص القرآن والسنة؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، والسنة كذلك ظاهرة في أن السموات سبع، كقول النبي عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ»<sup>(١)</sup>.

الفائدة العاشرة: إثبات اثنين من أسماء الله؛ وهما العليم والقدير، وما تضمنناه من صفة أو حكم من صفة وهي العلم والقدر، أو صفة أو حكم وهو: أنه يعلم ويقدر على كل شيء.



(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٨٧٧٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٥٦٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٧٠٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٤٧٢)، والحاكم (٢/١٠٠)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



## الآية (٤٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّتٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

•••••

(لو) هذه شَرْطِيَّةٌ، و(لو) تأتي شَرْطِيَّةٌ كما هنا، وتأتي لِلتَّمَنِّي مثل قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وتقول مثلاً: لو كان لي مثل مال فلان، يعني أتمنى أن يكون لي مثل مال فلان، فتأتي شَرْطِيَّةٌ وتأتي لِلتَّمَنِّي، وتأتي أيضًا مَصْدَرِيَّةٌ بِمَعْنَى (أَنْ).

فهنا هي شَرْطِيَّةٌ، وإذا كانت شَرْطِيَّةٌ، فإما أن يكون جوابها مثبتاً وإما أن يكون مَنفِيًّا، فإن كان مُثَبِّتًا فالأكثرُ فيه إثباتُ اللام، وإن كان مَنفِيًّا فالأكثرُ فيه حذف اللام.

مثال ذلك في الإثبات: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] الجواب: ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ وفيه اللام، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَلًا﴾ [الواقعة: ٧٠] الجواب: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ وحذفتُ منها اللام.

أما إذا كان جوابها مَنفِيًّا بـ(ما) فإن الأكثر عدم اقتران (ما) باللام فتقول مثلاً: لو جاني ما أهنته، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴿١﴾.

وقد تقترن اللام بـ(ما) لَكِنَّهَا قَلِيلَةٌ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَوْ نُعْطِيَ الْخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا <sup>(١)</sup>

.....

والأكثر (ما افترقنا).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى

ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴿١﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤَاخِذُ﴾ أي يعاقب، والمؤاخِذَةُ بالدَّئِبِ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿النَّاسَ﴾ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكُفَّارَ وَيَشْمَلُ الْعَصَاةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾: (ما) يجوز أن تكون مَصْدَرِيَّةٌ؛ أي بِكَسْبِهِمْ،

ويجوز أن تكون مَوْصُولَةٌ، فإذا كانت مَوْصُولَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ الْعَائِدِ، وَتَقْدِيرُهُ:

بِمَا كَسَبُوهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بما اكتسبوا من المعاصي، وَسَمَّى اللَّهُ

تَعَالَى الْمَعَاصِيَ كَسْبًا؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ يَنَالُ جَزَاءَهَا، فَكَأَنَّهُ كَسَبَ هَذَا الْجَزَاءَ، مَعَ أَنَّهُ

كَسَبَ خَاسِرًا؛ وَهَذَا إِذَا افْتَرَنَ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أْتَى بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا.

أما إذا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فَيَصِحُّ الْكَسْبُ فِي الْحَيَاتِ وَفِي السَّيِّئَاتِ.

(١) صدر بيت وعجزه: ولكن لا خيار مع الليالي. غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص ٣٥٨)،

وشرح التصريح (٢/٤٢٤)، ومع الهوامع (٢/٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/٨٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أَي الْأَرْضِ؛ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيِ الْأَرْضِ] وَأَعَادَ الضَّمِيرَ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ أَعَادَهُ عَلَى مَذْكُورٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، وَالْكَلَامُ كُلُّهُ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، فِي سِيَاقِ الْعَاصِينَ وَمَا لَهُمْ وَعُقُوبَتِهِمْ، فَالْكَلَامُ نَسَقٌ وَاحِدٌ فَالْأَرْضُ إِذَنْ: مَذْكُورَةٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ غَيْرُ مَذْكُورَةٍ، لَكِنَّهَا مَعْلُومَةٌ مِنَ السِّيَاقِ لِأَنَّ الدَّوَابَّ إِنَّمَا هُمْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، فَمَعْلُومَةٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَمَا عَلِمَ مِنَ السِّيَاقِ فَإِنَّهُ لَا يَخْتَاجُ إِلَى مَرْجِعٍ مَذْكُورٍ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَوَارَتْ﴾ أَي: الشَّمْسُ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا ذِكْرٌ، لَكِنَّهَا مَعْلُومَةٌ فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي تَتَوَارَى بِالْحِجَابِ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ نَسَمَةٌ تَدِبُّ عَلَيْهَا [مِنْ] حَرْفِ جَرٍّ (زَائِدٌ زَائِدٌ)؛ لِأَنَّهَا جَاءَتْ بَعْدَ النَّفْيِ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَي: مَا تَرَكَ عَلَيْهَا دَابَّةٌ لَكِنَّهَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا [مِنْ] لَتَوْكَدَّ الْعُمُومَ؛ وَقَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَسَمَةٌ تَدِبُّ عَلَيْهَا] النَّسَمَةُ هِيَ كُلُّ ذَاتٍ تَنْتَفَسُ، لِأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ النَّسَمِ وَهُوَ التَّنَفُّسُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ فَإِنَّهُ يَتَنَفَّسُ.

وَالْمَعْنَى: لَهْلَكَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى الْأَرْضِ؛ أَمَّا الْبَشَرُ الْعَاصُونَ فَهَلَاكُهُمْ وَاضِحٌ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَيَسْئُومُ الْأَوْسَاطُ تَمُوتُ هَذِهِ الدَّوَابُّ، إِمَّا بِأَنْ يَمْنَعُ اللَّهُ عَرَبَجَلَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتَاتُ فَتَمُوتُ هَذِهِ الدَّوَابُّ؛ لِأَنَّهَا لَا تَجِدُ عَيْشًا أَوْ أَنَّهَا تَمُوتُ بِأَوْبِنَةٍ تَجْتَاخُهَا بِسَبَبِ أَعْمَالِ النَّاسِ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ].

﴿وَلَا يَكُن يُوَخَّرُهُمْ﴾ أي: النَّاسَ، والفاعلُ هو اللهُ، ﴿إِلَّا أَجَلٍ﴾ أي: مُدَّةٌ ﴿مُسَمًّى﴾ مُعَيَّنٍ، وهو يومُ الْقِيَامَةِ، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة هود: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿هود: ١٠٣-١٠٤﴾ أي: أَجَلٍ مُسَمًّى مُعَيَّنٍ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَعْلَمُ هَذَا الْأَجَلَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّ عِلْمَ السَّاعَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وَقَدْ حَجَزَ عَنْهُ أَعْلَمَ الْبَشَرِ وَأَعْلَمَ الْمَلَائِكَةِ حِينَ سَأَلَ جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»<sup>(١)</sup>.

وَالْأَجَلَ الْمُسَمًّى لَا بُدَّ أَنْ يَجِيءَ، فَكُلُّ شَيْءٍ مُسَمًّى فَهُوَ قَرِيبٌ، لَكِنَّ الْأَجَلَ الْمُبْهَمَ هُوَ الَّذِي يَتَنَظَّرُهُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَنْ يَحْضُرَ، أَمَّا الْمُسَمًّى فَلَا بُدَّ أَنْ يُوَصَلَ إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ يَعْنِي: انْتَهَتْ الْمُدَّةُ وَصَارَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، سِوَا كَانَتْ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى أَوْ الْقِيَامَةُ الصَّغْرَى، فَالْقِيَامَةُ الْكُبْرَى الْعَامَّةُ لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَالصَّغْرَى مَوْتُ كُلِّ إِنْسَانٍ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَإِنِ اللَّهُ كَانَ يَعْبادِهِ بَصِيرًا﴾ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَابِ الْكَافِرِينَ].

جُمْلَةٌ ﴿فَإِنِ اللَّهُ﴾ جَوَابُ شَرْطِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا وَجْهُ ارْتِبَاطِ الْجَوَابِ بِالشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنِ اللَّهُ كَانَ يَعْبادِهِ بَصِيرًا﴾ يَعْنِي قَدْ تَتَوَقَّعُ: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ عَاقِبَتُهُمْ اللهُ؟ فَيَقَالُ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنِ اللَّهُ كَانَ يَعْبادِهِ بَصِيرًا﴾ أَبْلَغُ مِنْ: (فَإِذَا جَاءَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أَجَلُهُمْ عَاقِبُهُمُ اللَّهُ؛ لَأَنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ قَدْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِهِمْ يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، وَإِنْ شَاءَ إِلَّا يُعَاقِبُهُمْ فَعَلَّ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ.

### من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: سَعَةُ حِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَجْهُهُ: أَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُحَلِّمُ عَزَّجَلَّ وَيُمْهَلُّ؛ لَعَلَّ النَّاسَ يَتُوبُونَ.

الفائدة الثانية: تَمَامُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ حَيْثُ يَقْدِرُ عَلَى إِهْلَاكِ الْعَالَمِ بِلَحْظَةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

الفائدة الثالثة: بَيَانُ سُؤْمِ الْمَعَاصِي وَأَنَّهَا قَدْ تَعَمُّ الْعَاصِيَّ وَغَيْرَهُ، بَلِ الْمُكَلَّفُ وَغَيْرُ الْمُكَلَّفِ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْبَشَرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَا ذُنُبُهَا وَهِيَ غَيْرُ مُكَلَّفَةٍ؟ لَكِنْ هَذَا مِنْ سُؤْمِ الْمَعَاصِي وَأَنَّهَا تَشْمَلُ حَتَّى مَنْ لَيْسَ بِمُكَلَّفٍ.

الفائدة الرابعة: الرَّدُّ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ فَأَثْبَتَ لِلْعَبْدِ كَسَبًا، وَالْجَبْرِيَّةُ يَقُولُونَ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُجْبَرٌ عَلَى الْعَمَلِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتَسِبَ، بَلِ يُجْبَرُ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا.

الفائدة الخامسة: إِثْبَاتُ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي مُجَازَاةِ الْعَامِلِينَ بِعَمَلِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وَلَكِنْ لِحِلْمِهِ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

الفائدة السادسة: أَنَّهُ مَهْمَا حَلَّ بِالْبَشَرِ مِنْ عُقُوبَةٍ مُدْمِرَةٍ أَوْ مُنْغَصِبَةٍ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ.





## فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	الحديث
١٩.....	«إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»
٢١.....	«مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ أَيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»
٢٥.....	«اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»
٢٥.....	«وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بَشِيءًا لَمْ يَنْفَعُوا إِلَّا بَشِيءًا قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،...»
٣٠.....	«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ»
٣٩.....	«فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَكَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»
٤١.....	«مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ فَلْيَأْتِ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾»
٤٨.....	«الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ»
٤٩.....	«فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ»
٥٨.....	«أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْرَلَةٌ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مُلْكِهِ أَلْفِي عَامٍ يَرَى أَفْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ»
٦٠.....	«أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا»
٦٠.....	«خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى»
٦٠.....	«لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»

- «يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرِي أَنَّ مُجْزَا الْمُدْجِي دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ  
 ٦٩..... قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»
- ٧٢..... «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا»
- ٧٧..... «اسْقِ حَدِيقَةَ فَلَانٍ»
- ٧٨..... «وَمَا يُذْرِيكَ أُمَّتًا رُقِيَةً»
- ٨١..... «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَلَنْ نَبْتَغِيَ الْعِزَّةَ بغيرِهِ»
- ٨٥..... «اللَّهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»
- ٨٥..... «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»
- ٩٢..... «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»
- ٩٧..... «نَاطِرُوهُمْ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَنْكَرُوهُ كَفَرُوا، وَإِنْ أَقْرَبُوا بِهِ خُصِمُوا»
- ٩٩..... «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً»
- ١٠٠..... «اَكْتُبْ مَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»
- ١٠٤..... «صَيْدُهُ مَا أَخَذَ حَيًّا وَطَعَامُهُ مَا أَخَذَ مَيْتًا»
- ١٠٨..... «نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالٌ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ»
- ١٠٨..... «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»
- ١٠٩..... «إِنَّكَ أَرْمَدٌ»
- ١١٧..... «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»
- ١٣٥..... «تُؤَخِّدُ مِنْ أَغْنِيَانِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقْرَائِهِمْ»
- ١٣٧..... «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»
- ١٤١..... «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»



- ١٤٢ ..... «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»
- «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ  
كَانَ لَهُ أَجْرٌ» ١٤٢ .....
- «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ» ١٥٢، ١٤٤ .....
- ١٤٨ ..... «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»
- ١٥٤ ..... «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُومْ»
- ١٦٤ ..... «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْبُدُوهُ»
- ١٦٥ ..... «اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا»
- ١٦٦ ..... «لَيْسَ مِنَ الرِّبِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»
- «يَا أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ، يَا شَيْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ، يَا عْتَبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةُ بَنَ حَلْفٍ: هَلْ  
وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟» ١٦٨ .....
- ١٦٩ ..... «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»
- ١٦٩ ..... «أَحْيَاهُمْ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيحًا وَتَضْغِيرًا»
- ١٦٩ ..... «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»
- «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ عَلَى قَبْرِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ  
السلام» ١٦٩ .....
- ١٧٧ ..... «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»
- ١٧٩ ..... «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ؛ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»
- ١٧٩ ..... «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»
- ١٨٣ ..... «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»

- «لَيْسَتْ السَّنَةُ بِالْأَمْطَرُوا، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا» .. ١٩٠
- «رُويَ فِي ذَلِكَ الْوَأَنَّ» ..... ١٩٠
- «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ..... ١٩٥
- «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ..... ٢٠١
- «فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ» ..... ٢٠٥
- «صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ..... ٢٠٥
- «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَكَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي» ..... ٢٠٧
- «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ» ..... ٢٠٨
- «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» ..... ٢٠٨
- «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا» ..... ٢١٠
- «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَضَمْتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» ..... ٢١٥
- «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» ..... ٢٢٥
- «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ» ..... ٢٣٨
- «لَيْسَ فِي الْآخِرَةِ مِثْلًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ فَقَطْ» ..... ٢٣٨
- «تَبْلُغُ الْحُلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ» ..... ٢٤٠
- «يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَغَفَرْتُ لَكَ» ..... ٢٤٤
- «إِنَّ فَاعِلَ الْحَسَنَةِ تَكْتَبُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ» .. ٢٤٥

- ٢٥٠ ..... «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»
- ٢٥٤ ..... «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»
- ٢٦٥ ..... «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»
- ٢٧٦ ..... «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»
- ٢٧٧ ..... «بِخِ بَيْخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ»
- ٢٨٤ ..... «يُقَالُ لَهُمْ - أَيِ الْمُصَوِّرِينَ - أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»
- ..... «الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى
- ٢٨٥ ..... عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي»
- ٢٨٧ ..... «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوْفَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»
- ٢٨٩ ..... «كُنْتُ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»
- ..... «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا
- ٢٩١ ..... - يَعْني كَاسِفَتَيْنِ - فَصَلُّوا وَادْعُوا...»
- ٣٠٦ ..... «النذر لا يأتي بخير»
- ٣٠٩ ..... «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ»
- ٣١١ ..... «زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ»
- ..... «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعْدِّينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا
- ٣١٧، ٣١٢ ..... عَلَيْهِمْ»
- ٣٢٠ ..... «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ»
- ٣٢٤ ..... «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»



## فهرس الفوائد

الصفحة	الفائدة
٧	أصح الأقوال في المكِّي والمدنيّ.
١٤	هل نعرف كيفية هذه الأجنحة للملائكة؟
١٥	لو قال قائل: هل يقدر الله على أن يجعل الشيء المتحرك ساكنًا في آن واحد؟
١٧	الرد على قول الشيوطي رحمه الله: «وخصَّ العقل ذاته فليس عليها بقادر»
٢٥	لا أحد يستطيع أن يمسك رحمة الله مهما عمل.
٢٧	الأصل في مرجع الضمير.
٢٨	(العزير) له ثلاثة معانٍ.
٢٩	الذكر يشمل ثلاثة أمور: الذكر بالقلب، واللسان، والجوارح.
٣٣	هل هناك رزق غير المطر ينزل من السماء؟
٣٥	أوجه إعراب قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
٥٤	أهميّة إيماننا بأن الشيطان لنا عدو.
٦٥	الهداية والضلال إما عدل وإما فضل.
٧٢	الغالب أن (الرياح) مجموعة تكون في الحيز، و(الريح) مفردة تكون في ضده.
٨٣	الرد على تفسير المفسر رحمه الله صعود الكلم الطيب بعلم الله إياه.
	الجواب على إشكال فيما إذا قلنا: إن الضمير يعود على المعمر نفسه فكيف يكون
٩٨	معمرًا وهو في الوقت نفسه منقوص من عمره؟

- الثَّيِّءُ الَّذِي لَا يُسْتَسَاعُ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ وَيُكْرِهَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ..... ١٠٩
- الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدَّرَ لِي وَلِدًا فَسَيَأْتِينِي، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ ..... ١١١
- الأَرْضُ هَلْ تَدُورُ أَوْ لَا تَدُورُ؟ ..... ١١٨
- الجَوَابُ عَمَّا قَدْ يُتَى بِهِ دَاعِي هَذِهِ الأَصْنَامِ فَتَسْتَجِيبُ لَهُ ظَاهِرًا ..... ١٣٠
- إِثْبَاتُ قِيَاسِ العَكْسِ ..... ١٤٢
- الحَشْيَةُ أَعْظَمُ مِنَ الخَوْفِ ..... ١٤٧
- الظُّلُّ وَالحَرُورُ لَا يَسْتَوِيَانِ، وَأَيُّهُمَا أَحْسَنُ؟ ..... ١٥٩
- الدُّعَاءُ مَعَ كَوْنِكَ تَطْلُبُ حَاجَتَكَ مِنَ اللَّهِ هُوَ نَفْسُهُ أَيْضًا عِبَادَةٌ تَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ .. ١٦٨
- مَا الجَوَابُ عَمَّا قَالَه الفُقَهَاءُ مِنْ أَنَّ المَيِّتَ يَتَأَدَّى بِقَوْلِ المُنْكَرِ عِنْدَ قَبْرِهِ أَوْ فِعْلِ المُنْكَرِ عِنْدَ قَبْرِهِ؟ ..... ١٧٠
- الإِنْسَانُ قَدْ يَجْتَمِعُ فِيهِ خِصَالُ الإِيَانِ وَخِصَالُ الكُفْرِ ..... ١٧٩
- الالتفاتُ فِي اللُّغَةِ فِيهِ فَوَائِدُ ..... ١٩٠
- (الأَلْوَانُ) تُطْلَقُ عَلَى الأنواعِ أحيانًا ..... ١٩١
- إِثْبَاتُ الأسبابِ ..... ١٩٤
- الحَشْيَةُ هِيَ الخَوْفُ المَبْنِيُّ عَلَى العِلْمِ ..... ٢٠٠
- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ هَلْ هُوَ القُرْآنُ أَوْ هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ؟ ..... ٢٠٥
- الدَّلِيلُ عَلَى ضَعْفِ مَسَلِكِ أَوْلِيَاءِ الصُّوفِيَّةِ بِأَلَّا تَعْبُدَ اللَّهَ لِثَوَابِ اللَّهِ وَلَكِنْ اعْبُدِ اللَّهَ ..... ٢١٥
- تَعْرِيفُ الرُّكْنَيْنِ مِنَ الجُمْلَةِ الأَسْمِيَّةِ يُفِيدُ الحَضَرَ ..... ٢١٧
- الآيَةُ إِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ لَا يَتَنَاقِضَانِ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا ..... ٢٢١

- هل الجنة ليس فيها نوم؟ ..... ٢٥١
- هل الأولى أن يسير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء فيكون خائفًا راجيًا، أو الأولى أن يغلب الرجاء إحسانًا في الظن بالله عز وجل، أو الأولى أن يغلب الخوف؟ ٢٥٣
- الصفات التي تكون بمشيئة الله تُسمى صفة فعلية ..... ٢٧٤
- حروف الجر الزائدة في القرآن: زائدة زائدة، وتوضح معنى ذلك ..... ٣١، ١٧٥، ٢٨٧
- الأيان تغلظ بالكمية والكيفية والزمان والمكان والهيئة ..... ٢٩٤
- (لما) تأتي في اللغة العربية على أوجه ..... ٢٩٩
- الهمزة الاستفهامية هل هي داخلية على الجملة الموجودة المذكورة، أو على جملة محدوفة يعينها السياق؟ ..... ٣١٠
- حكم السير في الأرض للاعتبار ولغيره ..... ٣١٨







## فهرس آيات السورة

الآية		الصفحة
تقديم		٥
سورة فاطر		٧
البسملة		٩
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ..... ١١		
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) ..... ٢٤		
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذِنُوا لَهُ فَنُقَدِّسُ لَهُ مَا تَشَاءُونَ﴾ (٣) ..... ٢٩		
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَتَدْبُرْ لَهُمْ مَقَامًا يُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤) ..... ٣٩		
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥) ..... ٤٤		
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْأَحْسَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦) ..... ٥١		
” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) ..... ٥٦		

- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) ... ٦٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩) ..... ٧١
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠) ..... ٨٠
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١) ..... ٩٤
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَلَاحِ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ..... ١٠٣
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبتك مثل خبير﴾ (١٤) ..... ١١٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ..... ١٣٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) ..... ١٣٧
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧) ..... ١٣٩

- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ..... ١٤٣
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ..... ١٥٦
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ..... ١٥٧
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ ..... ١٥٩
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ..... ١٦١
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِن أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ .....
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ..... ١٧١
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ..... ١٨٢
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ..... ١٨٨
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيٌّ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ..... ١٨٩
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۗ كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ..... ١٩٧
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ..... ٢٠٤

- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٠) ..... ٢١٢
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢١) ..... ٢١٧
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢) ..... ٢٢٣
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٣) ..... ٢٣٤
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٤) ..... ٢٤١
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٢٥) ..... ٢٤٦
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٢٦) ..... ٢٥٣
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٢٧) ..... ٢٦١
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٨) ..... ٢٦٩
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ

- ٢٧١ ..... ﴿٣٩﴾ الْكٰفِرِيْنَ كُفِّرْهُمۡ عِنۡدَ رَبِّهِمۡ اِلَّا مَقۡنًا وَلَا يَزِيۡدُ الْكٰفِرِيْنَ كُفْرَهُمۡ اِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ اَرۡيٰتُمۡ شُرَكَاءَكُمۡ الَّذِيْنَ نَدَعُوْنَ مِنۡ دُوۡنِ اللّٰهِ اَرۡوِيۡ مَاذَا خَلَقُوۡا مِنۡ الْاَرۡضِ اَمۡ لَّهُمۡ شِرۡكٌ فِى السَّمٰوٰتِ اَمۡ اَتٰتٰنَهُمۡ كِتٰبًا فَهَمۡ عَلٰى بَيِّنٰتٍ مِّنۡهُ بَلۡ لِّۤىۡنۡ يَعۡدُوۡ الظَّٰلِمِيۡنَ بَعْضُهُمۡ بَعْضًا اِلَّا غُرُوۡرًا نُّفُوۡرًا ﴿٤٠﴾
- ٢٧٨ ..... ﴿٤٠﴾
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿اِنَّ اللّٰهَ يُمۡسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرۡضَ اَنۡ تَرُوۡلًا وَلَیۡنَ زَالًاۙ اِنۡ اَمۡسَكۡهُمَا مِنۡ اَحَدٍ مِّنۡۢ بَعۡدِهٖۙ اِنَّهٗ كَانَ حَلِيۡمًا عَفُوۡرًا ﴿٤١﴾
- ٢٨٦ ..... ﴿٤١﴾
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَاَقۡسَمُوۡا بِاللّٰهِ جَهَدَ اٰیۡمَتِهِمۡ لَیۡنَ جَآءَهُمۡ نَذِيۡرٌ لِّیَكُوۡنَۙ اَهۡدٰیۤىۡ مِّنۡ اِحۡدٰی الْاُمۡمِ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيۡرٌۙ مَا زَادَهُمۡ اِلَّا نُفُوۡرًا ﴿٤٢﴾
- ٢٩٤ ..... ﴿٤٢﴾
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿اَسۡتَكۡبَارًا فِى الْاَرۡضِ وَمَكۡرَ السَّیِۡٔ وَلَا یَحِیۡقُ الْمَكۡرَ السَّیِۡٔۙ اِلَّا بِاَهۡلِهٖۙ فَهَلۡ یَنۡظُرُوۡنَ اِلَّا سُنَّتَ الْاَوَّلِیۡنَۙ فَلَنۡ نَّجۡدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَبۡدِیۡلًاۙ وَلَنۡ نَّجۡدَ لِسُنَّتِ اللّٰهِ تَحۡوِیۡلًا ﴿٤٣﴾
- ٣٠٠ ..... ﴿٤٣﴾
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿اَوَلَمَّا یَسۡیُرُوۡا فِى الْاَرۡضِ فِیۡنظُرُوۡا كَیۡفَ كَانَ عَیۡنَةُ الَّذِیۡنَ مِنۡ قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوۡا اَشَدَّ مِنْهُمۡ قُوَّةًۙ وَمَا کَانَ اللّٰهُ لِیُعۡجِزَهُۥ مِنۡ شَیۡءٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الْاَرۡضِۙ اِنَّهٗ كَانَ عَلِیۡمًا قَدِیۡرًا ﴿٤٤﴾
- ٣١٠ ..... ﴿٤٤﴾
- ” قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ یُوۡاۡخِذُ اللّٰهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوۡا مَا تَرَكَ عَلٰى ظَهۡرِهَا مِنۡ دَابۡتَرٍۙ وَلَکِنۡ یُّؤَخِّرُهُمۡ اِلَیۡکَ اَجۡلٍ مُّسَمًّیۙ فَاِذَا جَآءَ اَجۡلُهُمۡ فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِعِبَادِهٖۙ بَصِیۡرًا ﴿٤٥﴾
- ٣٢١ ..... ﴿٤٥﴾
- ٣٢٧ ..... فهرس الأحادیث والآثار
- ٣٣٣ ..... فهرس الفوائد
- ٣٣٧ ..... فهرس آيات السورة

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ①

تفسير

# المقالة الكبرى

سورة يس

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

عقر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الفيديّة

دار الثوبيا للنشر

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من توفيق الله - سبحانه وتعالى - أن يسر لفضيلة شيخنا - تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه - تفسير سورة «يس» في دروسه العلمية التي كان يعقدها رحمه الله تعالى بالجامع الكبير في مدينة عنيزة .

وقد عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى فضيلة الشيخ فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، أثابه الله، بالعمل لإعداد هذا الكتاب للنشر، وتخريج أحاديثه وآثاره، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

### بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

قال المؤلف<sup>(١)</sup> - رحمه الله تعالى - [سورة (يس) مكية، أو إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا﴾ الآية، أو مدنية].

المكي ما نزل قبل الهجرة، وليس ما نزل بمكة، إذ قد ينزل بمكة بعد الهجرة ويكون مدنياً، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وهذا القول هو الراجح من أقوال أهل العلم، والأقوال في هذه السورة ثلاثة:

الأول: أنها مكية.

الثانية: أنها مدنية.

الثالثة: أنها مكية إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا﴾.

والذي يظهر أنها مكية؛ لأن أسلوبها أسلوب المكي، والسور المكية تمتاز عن السور المدنية: بقوة الأسلوب، وجزالة

(١) أخي الكريم: إذا مر بك: قال المؤلف. فالمراد به جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المحلي رحمه الله تعالى، المتوفى سنة ٨٦٤هـ. في تفسيره المسمى «تفسير الجلالين» وقد جعلت كلامه - رحمه الله - بين معكوفتين هكذا [ ].



اللفظ، بخلاف السور المدنية فإن أسلوبها ألين؛ لأنه يخاطب قوماً آمنوا، ويخاطب أيضاً قوماً فيهم أهل كتاب، ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب، فالظاهر - والله أعلم - أنها مكة، وإذا جعلناها مكة فإننا لا نقول باستثناء شيء منها؛ لأن الأصل أن السورة المكية كلها مكة، وأن السورة المدنية كلها مدنية، فمن ادعى استثناء آية، أو آيتين، أو أكثر فعليه الدليل، أما مجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلاً، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى قد يذكر معناه يليق بأهل المدينة توطئة وتمهيداً حتى يكون الناس على بصيرة، ولهذا يذكر الله تعالى في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أولى؛ لأن فيها اليهود، أما مكة فليس فيها يهود، فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدنية، أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا، وهذا غير مسلم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ البسمة

آية من كتاب الله مستقلة، يؤتى بها في ابتداء كل سورة، ما عدا سورة براءة، وليست البسمة من الفاتحة ولا من غيرها، هذا هو القول الراجح، وأما من قال: إنها من الفاتحة وليست من غيرها، فقله ضعيف لوجهين:

الأول: للتفريق بدون دليل.

والثاني: أن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الثابت في الصحيح وهو قول الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي

نصفين»<sup>(١)</sup> ، يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ لأنها لم تذكر في هذا الحديث؛ ولأن النبي ﷺ كان لا يجهر بالبسملة في صلاته، وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة، وإلا لجهر بها كما يجهر في بقية الآيات.

أما إعرابها فهي: جار ومجرور، وصفة وموصوف، وهذا الجار والمجرور متعلق بمحذوف، وهذا المحذوف يقدر فعلاً متأخراً مناسباً، وقدرناه فعلاً، لأن الأصل في العوامل الأفعال، ولذلك تعمل الأفعال فعلها بدون شرط، والأسماء التي تعمل عمل الفعل لا بد فيها من شروط، وقدرناه مناسباً أو خاصاً؛ لأنه أدل على المقصود، وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الأولى: الترك بتقديم اسم الله عز وجل.

الثانية: إفادة الحصر، فعندما تسمي على الوضوء فالتقدير: باسم الله أتوضأ، ولو قلت: باسم الله أبتدىء فيصح، لكن ابتدائي عام، وأتوضأ أخص، والإتيان بالأخص أدل على المقصود، ولو قلت: أبتدىء بسم الله، صح لكن فاتك التأخير، والتخصيص، والفعلية؛ لأنك قلت: أبتدىء، وإذا قلت: «أبتدىء باسم الله» فاتك التأخير والتخصيص، وإذا قلت: «أتوضأ باسم الله» فاتك التأخير فقط.

ولو قال قائل: هل يمكن أن نستدل لهذا القول بشيء من

النص؟

نقول: نعم، قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطب

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ٣٨ (٣٩٥).

الناس في عيد الأضحى: «من لم يذبح فليذبح باسم الله»<sup>(١)</sup>، أو «فليذبح على اسم الله»<sup>(٢)</sup>، فخص الفعل.

لفظ الجلالة: (الله) اسم لله رب العالمين، وهو أعلم الأعلام، أعلم حتى من الضمير؛ لأنه اسم يختص بالله لا يمكن أن يشاركه فيه أحد، ولهذا قالوا: أعرف المعارف على الإطلاق اسم الله؛ لأنه لا يشاركه فيه أحد، والضمير إذا قلت «قمت» فلا يشاركني أحد فيه، لكن صالح أن يستعمله غيري، أما الله فلا تصلح الشركة فيه.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١)</sup> صفتان لله، والرحمن، والرحيم معناهما ذو الرحمة، لكن الرحمن باعتبارها وصفاً لله، والرحيم باعتبارها فعلاً له، ولهذا كان الرحمن عامّاً، والرحيم خاصّاً، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾<sup>(٤٣)</sup> فالرحمن لوحظ فيه الوصف، والرحيم لوحظ فيه الفعل، ولهذا لما لوحظ في الرحمن الوصف جاء على الأوزان التي تدل على الامتلاء والسعة، فصارت على وزن (فعلان).

والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الحقيقية الثابتة له على وجه الحقيقة لا المجاز، وقد أنكرها أهل التعطيل، ومنهم الأشاعرة، وقالوا: إنه ليس لله صفة هي الرحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وفسروها إما

(١) أخرجه البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٩٨٥) ومسلم كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قوله ﷺ: «فليذبح على اسم الله» (٥٥٠٠)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

بالإرادة، لأنهم يؤمنون بالإرادة، وإما بالفعل؛ لأن الفعل منفصل عن الفاعل، - يعني المفعول منفصل عن الفاعل - فهم يفسرونها: إما بالإحسان وهو مخلوق منفصل، وإما بإرادة الإحسان؛ لأنهم يقرون بالإرادة، ولا شك أن قولهم هذا باطل، وأنه إنكار صفة من أعظم صفات الله عز وجل وهي من أبرز صفاته، فقد قال الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»<sup>(١)</sup> والعجب كل العجب أنهم يقولون: إن الإرادة دل عليها العقل، والرحمة دل العقل على انتفائها، قالوا: لأن التخصيص دال على الإرادة، فمثلاً هذه سماء، وهذه أرض، وهذه شمس، وهذا قمر، إلى آخره، يدل على الإرادة لأنه لا مخصص إلا بإرادة، أما الرحمة فيقولون: إن العقل لا يدل عليها، بل يدل على انتفائها.

فنقول: عجباً لكم، دلالة العقل على الرحمة أبلغ وأظهر وأوضح من دلالة الإرادة، ولهذا جعلتم دلالة العقل على الإرادة بالتخصيص، وهذا لا يفهمه إلا خواص الناس، فلو سألت طالب العلم بدون أن يعرف البحث ما استدل بالتخصيص على الإرادة وهو طالب علم، لكن الرحمة كل يعرف أن الله تعالى رحمة، ويستدل عليها بالعقل، تأتي العامي في السوق فنقول: نزل المطر، واخضرت الأرض، ورويت الزروع، وما أشبه ذلك، من أين هذا؟ فيقول لك مباشرة: من رحمة الله، فيستدل بالنعمة

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الرِّسَالِينَ﴾ (٧٤٥٣) ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه (١٥) (٦٩٧٠).

التي هي من آثار الرحمة على الرحمة، ولكن نسأل الله لنا ولهم الهداية، من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

قال الله تعالى: ﴿يَسَّ (١)﴾ قال المؤلف - رحمه الله -:

[﴿يَسَّ (١)﴾ الله أعلم بمراده به]، ولا شك أن الله أعلم بمراده ومراد غيره، وأعلم بكل شيء، ولكن ما المراد بهذين الحرفين الهجائيين؟ في هذا خلاف بين العلماء - رحمهم الله تعالى -:

القول الأول: ما ذهب إليه المؤلف، رحمه الله: «الله أعلم بمراده به» أي: لا ندري ماذا أراد الله عز وجل.

القول الثاني: أن معنى «يس» يا إنسان فـ«يا» حرف نداء

على زعمهم، و«س» كلمة يعبر بها عن الإنسان.

وبعضهم أتى بغير ذلك أيضاً مما لا طائل تحته ولا دليل عليه، لكن يبقى النظر، هل نقول كما قال المؤلف: [الله أعلم

بمراده] بجميع الحروف الهجائية التي ابتدأت بها السور، أو نقول: إنه لا معنى لها بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٦٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٦٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾. فإن

مقتضى اللسان العربي المبين أن هذه الحروف ليس لها معنى، فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ على كل كلمة أو

حرف في القرآن الكريم فإننا نعلم أن «يس» ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المبين، فـ«يا» حرف هجاء ليس له معنى،

و«س» حرف هجاء ليس له معنى أيضاً، وهذا القول ذكره ابن كثير - رحمه الله - عن مجاهد - رحمه الله - وهو قول قوي، ويشهد له

الآية التي استشهدت بها، إذن نقول: لا معنى لهذه الحروف.

فيرد علينا إشكال: إذا قلنا لا معنى لها، فكيف يأتي الله عز وجل في كتابه العظيم بكلام لغو لا معنى له؟

والجواب على هذا أن يقال: إن له مغزىً عظيماً، هذا المغزى هو أنكم أيها العرب الذين عجزتم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك، لا لأن القرآن أتى بحروف جديدة، أو كلمات جديدة، بل هو من الكلمات التي تكونون منها كلامكم، حروف هجائية، ولهذا قلَّ أن تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن، مما يدل على أن هذا هو المراد بها، وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وقبله الزمخشري أيضاً في تفسيره، وغيرهم من العلماء، على أن هذه حروف هجائية جيء بها لأجل إظهار عجز العرب عن معارضة هذا القرآن، مع أنه لم يأت بجديد في كلامهم.

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢١﴾﴾ الواو للقسم فلها معنى، ولها عمل، عملها الجر، ومعناها التأكيد، والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظم على صورة مخصوصة، ولا بد أن يكون المحلوف به معظماً ولو تقديراً في ذهن المقسم، كأن المقسم المعظم يقول: بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكدي منه وإثباتي له أؤكد المحلوف عليه. ولهذا لا بد أن يكون المحلوف به معظماً، وإلا لكان الحلف لا فائدة منه. ثم قد يكون عظيماً في ذاته حقيقة، وقد يكون معظماً باعتبار المقسم به، فالذين يحلفون باللات والعزى يحلفون بمعظم لا بعظيم؛ لأنه معظم عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يقسمون بالله وآياته، يحلفون بعظيم وبمعظم في قلوبهم،

وهو معظم في نفسه . ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ ، القرآن المراد هذا القرآن الذي نقرأه كلام الله عز وجل ، وهو مشتق من قرأ بمعنى تلا لأنه متلو ، أو من قرى بمعنى جمع ؛ لأنه مجموع وجامع ، فهو مشتق من المعنيين ، من القراءة بمعنى التلاوة ، ومن قرى بمعنى جمع ، ومنه القرية لأنها مجتمع الناس ، فالقرآن جامع بين المعنيين فهو متلو ، وجامع ومجموع ، كلمات مجموع بعضها إلى بعض ، كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح .

قوله : ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ صفة للقرآن وهي بمعنى محكم ، أو بمعنى مُحكم ، أو بمعنى حاكم كلها تحتمل ، فالقرآن حاكم لأنه يجب الرجوع إليه ﴿ فَإِن نَّزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) على القول بأن القرآن مُحكم ، لأنه متقن للأشياء ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (٣) وكذلك أيضاً مُحكم ؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه ، فليس فيه تناقض ولا تعارض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٤) وهو أيضاً مشتمل على الحكمة ، ففيه معنى الحكمة والحكم ، وإذا كان حكيماً فإننا نعلم أنه :

أولاً : حكيم في ترتيبه ، فكل آية إلى جنب الأخرى حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما ، وإنما ذلك إما لقصورنا أو

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٩ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١١٥ .

(٤) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

لتقصيرنا، فمثلاً لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾<sup>(١)</sup> جاء في سياق آيات العدد فما هو الارتباط؟

نقول: إنه لا بد أن هناك حكمة، لكن قصرت أفهامنا عنها، أو قصرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.  
ثانياً: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدل، موافقة للفطرة وللعقل الصريح، ولهذا لا تجد شيئاً من أحكام القرآن مناقضاً للفطرة أبداً، بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئاً في القرآن يكذبه العقل، أو يحيله أبداً، بل إن العقل يقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثاً: حكيم في أسلوبه يشتد في مواضع الشدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العرب، فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي من استفهام، أو نهي، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلى صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوب إلى آخر، وهو ما يسمى بالالتفات، وأنواع هذا كثيرة في القرآن.

فالقرآن حكيم بكل معنى الحكمة، وبكل معنى الإحكام، وبكل معنى الحكم.

قال المؤلف - مقتصراً على واحد منها -: [المُحَكَّمُ بعجيب النظم، وبديع المعاني]، فأتى بمعنى واحد من معاني الحكيم،



ونحن ذكرنا أشياء: ذو حكمة، ومُحْكِم، ومُحْكَم، وحاكم، فذكرنا أنه حاكم، وذو حكمة وحكم وإحكام، فيشمل أعم مما قاله المؤلف.

وإقسام الله تعالى بكتابه العظيم أو بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الأحكام والحكمة والحكم، ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فأقسم الله تعالى بكتابه على أن محمداً ﷺ من المرسلين، وقوله: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه سبقه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وأكملهم شريعة، جاء ل يتم مكارم الأخلاق، وقد شبه النبي ﷺ رسالته برجل بنى قصراً وأشاده وبقي موضع لبنة، فصار الناس يطوفون به، ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة قال: «فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»<sup>(١)</sup>، والجملة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، وإن، واللام.

قال المؤلف: [﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عَلَى ﴿متعلق بما قبله]، الذي قبله ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، مرسل اسم مفعول صالح للعمل؛ لأن يتعلق به المعمول، فالمعنى: «إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم» لأن جميع الرسل على صراط مستقيم بلا شك، ولكن يحتمل وجهاً آخر أحسن مما قال المؤلف، وهو أن تكون ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبراً ثانياً لـ(إن)، أي: إنك على صراط

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥) ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢) (٢٢٨٦).

مستقيم، وهذا أنسب، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ . فالوجه الثاني في إعراب ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أنها خبر ثان لـ (إن)، وقوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال المؤلف: [أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار له: لست مرسلًا]، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ (٢) إذن فالكلام مطابق لمقتضى الحال؛ لأنه يخاطب المنكر، وقد سبق لنا في البلاغة أن للمخاطب ثلاث مراحل: أن يكون منكراً، أو أن يكون متردداً، أو أن لا يكون في ذهنه شيء لا إنكار ولا تردد، قالوا: فإن كان منكراً وجب تأكيد الخبر له، وإن كان متردداً حسن أن يؤكد له الخبر، وإن لم يكن في قلبه وذهنه شيء، فإنك تلقي إليه الخبر غير مؤكد هذا هو الأصل. فتخاطب إنساناً ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد، تقول: زيد قائم، وإذا كنت تخاطب متردداً في صحة الخبر فأكد له استحساناً، وإذا كنت تخاطب منكراً فإنه يجب أن تؤكد له الخبر. هذا هو الأصل، وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد، وقد يأتي التوكيد في غير موضع التوكيد لأسباب تعرف من السياق. فهنا الكفار يقولون: لست مرسلًا. فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجباً يعني مما توجه به البلاغة، والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يآثم بتركه، بل

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

وجوب من حيث البلاغة .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الصراط فعال بمعنى مفعول؛ لأن فعلاً تأتي بمعنى مفعول كثيراً، كقولهم: بناء، وغراس، وفراش، بمعنى: مبني، مغروس، مفروش، فصرراط فعال بمعنى مفعول أي: مصروط، والصرراط: المرور بسرعة، ومنه قولهم: «صرط اللقمة» أي ابتلعها بسرعة، وفي اللهجة العامية عندنا نقول: «زرط» وهي لغة عربية في صراط، و«سراط» بالسين و«زراط» بالزاي فكلها لغة عربية، والصرراط لا يكون صراطاً إلا إذا كان طريقاً واسعاً يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: أيضاً من صفاته أن يكون مستويماً ليس فيه طلوع ولا نزول ﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صفة له مؤكدة، أي: أنه لا اعوجاج فيه، ولا شك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام صراط مستقيم، لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بعث إلى أن تقوم الساعة لا يمكن أن يضيق، وهو أيضاً صراط واسع لا يمكن أبداً أن يضيق عن الأحكام الشرعية، فكل حادثة تنزل منذ بعث الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لا بد أن يوجد حل لمشكلتها - إن كانت مشكلة - فيما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك نقول: إن هذا الشرع في القرآن والسنة كامل لا يحتاج إلى تكميل، وهو أيضاً واسع لا يمكن أن يضيق بأي جزئية تقع إلى يوم القيامة، إذن ليس هناك مشكل في الشريعة، لكن الإشكال إنما يأتي من قبل الناس: إما لقصور في الفهم، أو لتقصير في طلب العلم والهدى، أو الأشياء رانت على قلوبهم فأظلمتها حتى لا تبصر الحق، فقد يكون

الإنسان غير مقصر ولا قاصر، عنده فهم قوي، وعنده آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذنوب تحول بينه وبين رؤية الصواب، ولهذا ينبغي للإنسان إذا أشكل عليه مسألة من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يكثر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مستنيراً، وربما يستنبط هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦﴾<sup>(١)</sup> ويستدل له أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾<sup>(٢)</sup>. فالذنوب منعت القلوب أن ترى أحقية هذا الكتاب حتى قال القائل: إنها ﴿أساطير الأولين﴾ فهذا الدين صراط مستقيم واسع، يسع جميع الناس إذا دخلوه، وواسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولكن الإشكال الذي يكون إما من قصورنا، أو تقصيرنا، أو من أمور رانت على القلوب فلا ترى الحق.

### \* في الآيات الكريمات فوائد منها:

١ - بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعاً من لسانهم، وإنما من الحروف التي يركبون منها كلامهم، يشير إلى هذا قوله: ﴿يَس ۝١﴾ ولهذا لا تأتي هذه الحروف الهجائية في أول السورة إلا وجدت بعدها ذكر القرآن في الغالب.

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.

(٢) سورة المطففين، الآيتان: ١٣، ١٤.

٢ - ومن فوائدها: عظمة القرآن العظيم؛ لأن الله تعالى أقسم به، ولا يقسم إلا بشيء معظم. والقرآن الكريم عظيم في نفسه.

٣ - ومن فوائدها: الثناء على القرآن بأنه حكيم على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها عند قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (٢).

٤ - من فوائدها: العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى أقسم عليها، وأكدها زيادة على القسم بإن واللام.

٥ - ثبوت رسالة النبي ﷺ فمن أنكرها فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ورسوله، وإجماع المسلمين.

٦ - من فوائدها: إثبات الرسل وأن ثمة رسلاً غير محمد ﷺ لقوله هنا: ﴿لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (١) يعني لست أول رسول فإنه ﷺ قد سبقه رسل من قبله.

٧ - من فوائدها: أن ما جاء به النبي ﷺ من الشرع فهو الصراط المستقيم، لقوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤) والصراط المخالف للشرع فيه من العوج والشر بمقدار ما خالف شريعة النبي ﷺ.

\* \* \*

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٥) ﴿تَنْزِيلَ﴾ خبر مبتدأ محذوف

تقديره: هو. أي: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وتنزيل مصدر نزل ينزل، والقرآن منزل يعني ينزل شيئاً فشيئاً كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا

فَرَّقَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿١٠٦﴾ ﴿١﴾ فإنه ينزل شيئاً فشيئاً، ويعبر أحياناً عن القرآن بأنه أنزل باعتبار نهايته، فإنه باعتبار النهاية يكون نزل كله، وباعتبار التدرّج في تنزيله يكون منزلاً، وهكذا في القرآن نزول المطر، أحياناً يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ ﴿٢﴾ وأحياناً يقول: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿٣﴾ فباعتبار أن المطر ينزل شيئاً فشيئاً يقال: «نزلنا» وباعتبار النهاية واجتماعه كله يقال: «أنزلنا» وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ قال المؤلف: [في ملكه] يعني الغالب في ملكه الذي لا يغلب فيه، وقد مر علينا في باب العقيدة أن العزيز من أسماء الله، وأن العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

عزة القدر بمعنى أنه ذو قدر عظيم رفيع، وعزة القهر بمعنى أنه قاهر غالب، وعزة الامتناع أي أنه قوي لا يناله شيء، قال ابن القيم - رحمه الله -:

وهو العزيز فلن يرام جنابه

أنى يرام جناب ذي السلطان

فالله عز وجل عزيز ممتنع أن يناله السوء، ومنه (الأرض العزاز) لقوتها وشدتها فقول المؤلف: [العزيز: في ملكه] فيه قصور، قال المؤلف: [الرحيم: بخلقه] وهنا نقول: إن الرحيم عامة، لأنها لم تقيد، فالمراد به الرحمة العامة، فالله سبحانه

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة ق، الآية: ٩.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

وتعالى رحيم بخلقه كلهم، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾<sup>(١)</sup> حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل، والصحة، والأولاد، والمال، والأزواج، لكن هذه رحمة عامة، أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين ففي قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾<sup>(٢)</sup> وهنا أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الاسمين، ﴿ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن، وأن من لم يعمل به فإن أمامه العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والرحيم إشارة إلى أن هذا القرآن إنزاله من مقتضى رحمته - سبحانه وتعالى - بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رحم خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأن به الحياة القلبية والبدنية، والفردية والاجتماعية، ففيه تهديد للذين يخالفون هذا القرآن بأنه نزل من عند عزيز ينتقم ممن خالفه. ورحيم: إشارة إلى أن هذا القرآن من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى، قال المؤلف رحمه الله: [خبر مبتدأ مقدر، أي: القرآن] يعني بخبر مبتدأ مقدر ﴿ تنزِيلُ ﴾ بالرفع أي: القرآن، والتقدير: القرآن تنزِيلُ العزيز الرحيم، وفي قراءة سبعية ﴿ تنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ وعلى هذه القراءة يكون منصوباً على أنه مصدر عامله محذوف، يعني نزل تنزيل العزيز الرحيم.

### \* الفوائد:

١ - أن القرآن منزل من عند الله لقوله: ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

## الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾

- ٢ - استفاد منها أن القرآن كلام الله غير مخلوق .
- ٣ - إثبات علو الله لقوله : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ ﴾ والنزول لا يكون إلا من أعلى ، وعلو الله عز وجل دل عليه الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطرة ، كل هذه الأنواع الخمسة من الأدلة دلت على علو الله عز وجل .
- ٤ - ومن فوائد الآية الكريمة : إثبات العزيز والرحيم اسمين من أسماء الله ، وإثبات ما تضمنناه من الوصف ، وما تضمنه الرحيم من الأثر وهو الحكم ، والعزيز في بعض معانيه وهو الغالب .
- ٥ - ومن فوائد الآية : إنذار المخالفين لهذا القرآن وذلك بإضافة ﴿ تَنْزِيلَ ﴾ إلى العزيز ؛ لأنه إذا قيل : جاء هذا من عزيز ، دل على إنذار من خالفه وتحذيره ، فيكون في هذا الإنذار والتحذير من مخالفة هذا المنزل ؛ لأنه نزل من عزيز .
- ٦ - أن القرآن بل أن الشرع كله من آثار رحمة الله لقوله : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ .
- فإن قلت : أين الرحمة في قطع يد السارق؟ وفي رجم الزاني المحصن؟ وفي قتل القاتل؟ وما أشبه ذلك .
- فالجواب : أن الرحمة في ذلك واضحة جداً ، فقطع يد السارق فيها رحمة بالسارق وغيره ، رحمة بالسارق لتردعه عن السرقة مرة أخرى ، ولتكون كفارة لذنبه ؛ لأن الحدود كفارة ، يكفر بها عن فاعلها ، وفيها أيضاً إصلاح المجتمع وحمايته من



الفوضى ، فهذه رحمة ، وكذلك نقول في بقية الحدود والقصاص إنه من رحمة الله عز وجل .

\* \* \*

﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) قال المؤلف :  
 [﴿ لِنُنذِرَ ﴾ به ﴿ قَوْمًا ﴾ متعلق بتنزيل] . ﴿ لِنُنذِرَ ﴾ اللام هذه تسمى لام التعليل ، والفعل بعدها منصوب باللام ، وعلى مذهب البصريين منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلى كل حال فهي تحتاج إلى متعلق ، ومتعلقها قوله : ﴿ تَنْزِيلَ ﴾ يعني إنما نزل لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم فهم غافلون . «تنذر» : قال العلماء : الإنذار هو الإخبار المقرون بالتخويف ، أو المتضمن للتخويف ، فالإنسان مثلاً يأتي إلى قوم يصيح بهم : العدو ، العدو . يقال : هذا منذر ونذير ، فالنذير عن شيء يخوف ، فهو إعلام متضمن للتخويف ، هذا القرآن أنزله الله عز وجل لينذر النبي ﷺ به ﴿ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ ﴾ أي : لم ينذروا في زمن الفترة وعلى هذا ف(ما) نافية ، يعني : لتنذر قوماً لم ينذروا ولم يخوفوا ، لكن هذا في زمن الفترة ، وأما قبل فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فإنه مرسل إلى العرب إلى قومه ، وبعد ذلك لم ينذر هؤلاء ، قال بعض المعربين الذين يجمعون الأقوال - صحت أو لم تصح أي أنهم يقولون أي احتمال - قالوا : ويجوز أن تكون «ما» موصولة ، أي : (لتنذر قوماً الذي أنذره آبائهم) فيجعلون ما موصولة ، ويجعلون العائد محذوفاً تقديره (الذي أنذره آبائهم) أي : لتنذرهم الذي أنذره آبائهم ، ولكن هذا وإن كان محتملاً من

قبل اللفظ، لكن بعيد من جهة المعنى، لأن الآيات الكثيرة المتعددة تدل على أن قريشاً الذين بعث فيهم النبي محمد ﷺ لم يُنذَرِ آبَاؤُهُمْ، ومنه قوله تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾<sup>(١)</sup> وهذا صريح في أن «ما» هنا للنفي لا غير. قال المؤلف - رحمه الله - [﴿فَهُمْ﴾ أي: القوم ﴿غَافِلُونَ﴾<sup>(٦)</sup> عن الإيمان والرشد] غافلون لأنهم ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه، ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأتته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاه واعظ فكانما أيقظه من نوم، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير، غفلوا وكانهم ما خلقوا لعبادة الله، وجعلوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله، ويركعون لها، ويسجدون، وينذرون ويوفون، فهم غافلون لعدم من يوقظهم، ولكن من هؤلاء الذين في زمن الفترة من عنده علم من الرسالة لكنه عاند وبقي على ما كان عليه آبؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار، فأهل الفترة نوعان:

نوع علمنا من شهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة لحكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.  
ونوع لا ندري عنهم شيئاً، فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين.

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.

وأصح الأقوال فيهم أنهم ممتحنون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

\* \* \*

### \* الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ منذر، أي معلم إعلماً يتضمن التخويف.

فإن قيل: وهل هو مبشّر؟

فالجواب: نعم، مبشر، ولكن لم ذكر هنا ذكر الإنذار دون البشارة؟ والجواب على ذلك أن يقال: إما لأن المقام يقتضي ذلك، لأنه يخاطب قومًا طاعين، فالأليق في حقهم الإنذار والتخويف؛ لأنهم مخالفون وطاغون.

وإما أن يقال: إن هذا من باب ذكر أحد المتقابلين استغناء بذكره عن ذكر الآخر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرِّيَّةً تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾<sup>(١)</sup> يعني والبرد.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي ﷺ مرسل إلى العرب خاصة لقوله: ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ﴾، وهي نكرة مقصودة، والذين ما أنذر آبائهم هم العرب، إذن اليهود والنصارى ما أرسل إليه لأنهم أنذر آبائهم، ولكن نقول: إن الآيات الأخرى تدل على عموم رسالته ﷺ مثل قوله: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup> ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾

(١) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴿٢﴾ وكقوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة»<sup>(١)</sup> والنصوص في هذا كثيرة متوافرة، ومن كذبها فقد كذب رسالته إلى العرب أيضاً؛ لأن الجنس واحد.

لكن قد يقال: لماذا خص العرب؟

فيقال: خصهم لأمرين:

الأول: أنه منهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

والثاني: أنه باشر دعوتهم بنفسه، وهدى الله العرب على يديه قبل موته، ثم انتشرت رسالته في الآفاق، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - هنا قاعدة وهي: «أن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافقه لا يقتضي التخصيص» كما ذكر ذلك أهل الأصول كالشنقيطي - رحمه الله - في تفسيره وغيره، وأن هذا هو رأي الجمهور، وهو الحق، فذكر بعض أفراد العام بحكم لا يقتضي التخصيص إذا كان يطابق حكم العام، فإذا قلت: أكرم الطلبة. ثم قلت: أكرم زيداً. وهو منهم، فإنه لا يقتضي تخصيص الإكرام به؛ لأن الحكم هنا موافق للحكم العام، وذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام ليس تخصيصاً له.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: سب هؤلاء الذين غفلوا عن الرسالات لقوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وأن الغفلة عن البحث عن

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (٤٣٨) ومسلم، كتاب المساجد، باب المساجد ومواضع الصلاة ٥ (٥٢٣).

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

الرسالة يعتبر ذمًا، وكذلك نقول فيمن غفل عن البحث في جزئيات الشريعة، فمثلاً من غفل عن البحث في أحكام الصلاة فإنه يذم، ومن غفل عن البحث في أحكام الزكاة وهو يحتاج لذلك نقول: إنه يذم، ولهذا نقول: إن تعلم العلم الشرعي فرض كفاية، ومن أراد أن يقوم بعبادة من العبادات كان تعلم أحكامها فرض عين، وبناء على هذا نقول: كل طلبة العلم في كل مكان قائلون بفرض كفاية، ولهذا يحسن بهم أن يستحضروا هذا الأمر، وأنا في مجالسنا هذه نقوم بفرض كفاية نثاب عليه ثواب الفرض، وقد قال الله تعالى: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»<sup>(١)</sup>. وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الطلبة، لا في المجالس الذكر والعلم ولا في المجالس الأخرى مجالس المراجعة، تجد الإنسان يراجع الكتاب لكنه لا يستحضر أنه الآن قائم بفرض كفاية، وهذا يفوت خيراً كثيراً، لهذا نسأل الله أن يعيننا على تذكر هذا المعنى حتى نكسب خيراً بما نقرأه أو نراجعه.

٤ - ومن فوائد الآية: إثبات الحكمة لله المستفاد من قوله

﴿لِنُنذِرَ﴾.

\* \* \*

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) اللام موطئة

للقسم، أي: أنها تدل على أن هناك قسماً محذوفاً تقديره: والله لقد حق. و«قد» للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وهذا التركيب يأتي في القرآن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

كثيراً وطريقه ما أشرنا إليه . ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ﴾ أي وجب ﴿ الْقَوْلُ ﴾ هو القول بالعذاب كقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٣) . ﴿ في الآية الأخرى : ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٦) ﴿ فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدي مهما أوتي من آية ، ولكن لا تحقق كلمة العذاب إلا على من استحقها حتى لا يقال : إن الله تعالى قد أجبره على العمل ، لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٣) والله عز وجل ينظر في قلوب العباد فمن كان أهلاً للهداية هداة، ومن لم يكن أهلاً لها لم يهده، فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيغ - والعياذ بالله - فإنه لا يؤمن ، وقوله : ﴿ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ يعني على أكثر الذين بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام من العرب ، وليس على كلهم ، ولذا فقد كذب النبي ﷺ من قريش أمم كثيرة وماتوا على الكفر ، ولاسيما الصناديد منهم والأشراف ، ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧) ﴿ هم ﴾ الضمير يعود على أكثر ، لا على «الهاء» في ﴿ فَهُمْ ﴾ ﴿ فَهُمْ ﴾ أي : الأكثر لا يؤمنون ؛ حتى وإن جئت بالآيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون ، لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب .

### \* الفوائد :

١ - من فوائد الآية الكريمة : تأكيد الخبر الهام وإن لم يكن

(١) سورة يونس ، الآية : ٣٣ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٦ .

(٣) سورة الصف ، الآية : ٥ .

المخاطب منكرًا؛ لأن الله سبحانه هنا يخبر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهم لا ينكرون ذلك، لكن لأهميته أكد.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن، كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١) أي فقد ثبت أنه في النار فلا تنقذه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ من لم تحق عليه الكلمة فيؤمن لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أنه ينبغي بل يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده ملكوت السموات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلاً، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرب إليك هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائماً لاجئاً إلى الله تعالى سائلاً الثبات لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ فالأمر كله بيد الله.

\* \* \*

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ (٨)

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيرنا، ولهذا نصبت مفعولين، المفعول الأول: أغللاً، والمفعول الثاني: مقدم، ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿أَغْلَالًا﴾ الغل يكون باليد، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٢)

(١) سورة الزمر، الآية: ١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وهنا قال: ﴿ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ فمعناه أن اليد سوف تشد إلى العنق، ولهذا قال المؤلف: [بأن تضم إليها الأيدي؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق، ﴿ فَهِيَ ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾]، قوله: «مجموعة» أخذها من قوله: ﴿ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ ويجوز أن نقدر بدل «مجموعة» منتهية أو بالغة ﴿ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين، واللحيان هما العظامان اللذان عليهما الأسنان، ومجموعها يسمى الذقن، ﴿ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴾ يقول المؤلف - رحمه الله -: [رافعون رؤوسهم]، والأحسن أن يقال: مرفوعو الرؤوس، لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس قال: [رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها] لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحر، رجل مشدودة يداها بعضها إلى بعض ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لا بد أن يرتفع رأسه اضطراراً، وزاد بعض العلماء في القبح أنها مغمضة أجفانهم؛ لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المؤلف يدل على أنه ليس بشرط، فالمهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بأخذ ولا رد بالنسبة لأيديهم، وبالنسبة لرؤوسهم لا يستطيعون تنزيلها، فهي دائماً مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المكذبين كما قال المؤلف: [وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يدعون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له].



﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا

يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ قال المؤلف: ﴿سَدًّا﴾ [بفتح السين وضمها في الموضوعين]، قراءتان سبعيتان، أي: سُدًّا وَسَدًّا ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر، ولهذا قال المؤلف: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [تمثيل أيضاً لسد طرق الإيمان عليهم] ليس هناك سد حقيقي كالجدار مثلاً، أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل، كأنهم لبعدهم عن الإيمان - والعياذ بالله - وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدمون، ومن خلفهم فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق ولا تنظر إليه ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ فتأمل أيضاً حالهم الآن، أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعون رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف، فهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان، ولا أن يصل إليهم الإيمان.

**فنستفيد من هاتين الآيتين الكريمتين فوائد:**

١ - أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولة يده إلى عنقه لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾.

٢ - أن هذا الذي جعلت يده إلى عنقه على سبيل الغل كأنه مكره أن يكون على هذه الحال، وهكذا الشيطان يوسوس للإنسان حتى يوقعه في الهلاك كأنه مكره على ذلك، ألم تروا إلى ما جرى

للأبوين حين جاء إليهما الشيطان ووسوس إليهما، ولم يكتفِ بمجرد الوسواس بل قاسمهما وصار يحلف لهما بشتى الأيمان أنه ناصح، فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يغويه.

٣ - ومن فوائد الآيتين الكريمتين: أن هؤلاء قد حجب عنهم الهدى، لا يتقدمون إليه ولا يتأخرون عنه.

٤ - ومن فوائدها أيضاً: أن أبصارهم قد أغشيت وجعل عليها الغشاوة فلا تنظر.

٥ - ومن فوائد الآيتين: تحذير الإنسان إذا لم يفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه وحيل بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت من نفسك أن الهدى يفتح لك ويتبين، وينشرح به صدرك فاعلم أنك على خير، نحن نقيس هذا بحال هؤلاء جعل السد من بين أيديهم ومن خلفهم وصاروا لا يبصرون الحق، فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر فتداركها.

٦ - إن من بلاغة القرآن الكريم تمثيل المعقول

بالمحسوس.

\* \* \*

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَسَوَاءٌ ﴾

خبر مقدم بمعنى مستو، و﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ مبتدأ مؤخر مسبوک بمصدر، وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنها تسبک وما بعدها بمصدر، وتقدير الكلام: «وإنذارك وعدمه سواء عليهم» ﴿ وَسَوَاءٌ ﴾ هنا لم يقل

فيها: «سواءان» لأنها مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع. قال المؤلف في بيان القراءة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفاً وتسهيلها، وأدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه]، إدخال ألف بين المسهلة والأخرى، يعني على قراءة التسهيل تجعل فيها ألفاً أو تحذف الألف إدخال الألف بين الهمزة المحققة والمسهلة ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ تمد الأولى وتسهل الثانية فيكون عندنا ثلاثة حروف: الهمزة الأولى محققة، والألف، والهمزة الثانية مسهلة، وتركه كما قلناه في الأول بدون ألف ستحقق الأولى وتسهل الثانية بدون ألف. هذه القراءة سبعية؛ لأن المؤلف من عاداته إذا جاءت قراءة شاذة غير سبعية يقول: (وقُرئت)، وعلى كل حال هذا لا يختلف فيه المعنى، إنما هو في كيفية الأداء أما المعنى فلا يختلف.

والمعنى أن إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء، ثم بين وجه التسوية فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) هذا معنى التسوية، يعني معناه: أنذرت أم لم تنذر فإنهم لا يؤمنون، ولهذا فالجملة هنا استئنافية بيان للجملة الأولى، يعني أنهم لا يؤمنون سواء أنذرت أم لم تنذر، وهذا أمر مشاهد أن الإنسان الذي قد قضي عليه بالضلالة - والعياذ بالله - تأتي وتنصحه مرة بعد أخرى وتبين له وتحذره ولكن لا يزداد إلا نفوراً - والعياذ بالله - حتى إن بعض الناس يسخر ويستهزئ، فعلى كل حال هذا الذي ينذر ولا يتأثر بالإنذار يخشى عليه، كما أسلفنا من أن يكون قد طبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبداً.

## \* الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لا يبالون ولا تتغير حالهم، سواء أُنذَرهم أم لم ينذَرهم.

٢ - ومن فوائدها: تسلية النبي ﷺ حيث إنه يتأثر بعدم الإيمان فسلاه سبحانه وتعالى بأن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، سواء أُنذرت أم لم تنذر. والرسول ﷺ إذا لم يهتد الناس فإنه يشق عليه ذلك ويضيق به صدره، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) ﴿١﴾ أي لعلك مهلكها إذ لم يؤمنوا، وهذا ليس عليه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ كان ينذرهم مع أنه قد أيس منهم، فيستفاد منه الإنذار حتى وإن يئست، وهذا أحد القولين في المسألة، فإن من أهل العلم من يقول: إذا أيست فلا تنذر ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٤) ﴿٢﴾ وإن لم تنفع فلا تذكر.

وقال بعض العلماء: بل تذكر وتنذر، سواء نفع أم لم ينفع، بل يقولون: إنه لا يخلو من النفع مهما كان؛ لأن أقل ما فيها من النفع أن يتبين للناس أن العمل الذي عليه هذا الرجل منكر، ولأنه ربما يهديه الله عز وجل، فكم من أناس كانوا أئمة في الكفر ثم هداهم الله عز وجل فكانوا أئمة في الدين.

٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٩.

العذاب، ومن حقت عليه الكلمة فلا يمكن أن يؤمن، سواء أُنذر أم لم ينذر.

٥ - أن الأمر كله بيد الله عز وجل، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ولكن هذا مقرون بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يهتدي هداه الله، ومن اقتضت حكمته أن يضل أضله الله، وهذا مبني على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> وحينئذ يكون حرمان الله الهداية للشخص، يكون الشخص هو السبب في حرمان نفسه الهداية؛ لأنه ليس أهلاً لها، فالله عز وجل ينظر في قلوب العباد من وجد في قلبه صلاحية للهدى هداه، ومن وجد في قلبه عدم الصلاحية لم يهده، فأصل بلائك من نفسك.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الضال - والعياذ بالله - الذي كتبت عليه الضلالة لا يبصر الحق وإن كان الحق بيناً واضحاً فإنه لا يبصره، يكون على بصره غشاوة، كما أنه لا يعقله أيضاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنِئِي عَلَيْهِ بِنَاتِنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾<sup>(١٣)</sup> كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ<sup>(١٤)</sup> الذي يعتقد أن القرآن أساطير الأولين وأنه لا يفيد، وأنه بمنزلة سوا ليف العجائز، يرى هذه الرؤية في كتاب الله عز وجل، لأنه فاسد القلب، قلبه قد ران عليه ما كان يكسبه من الأعمال السيئة فلم ير الحق حقاً.

ومن يكُ ذا فم مر مريض يجد مرأ به الماء الزلالا

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة المطففين، الآيتان: ١٣، ١٤.

الماء الزلال الصافي الحلو العذب يجده المريض مرًا، فإذا مرض الإنسان ذاق الماء الذي كان عذباً في مذاقه من قبل يجده الآن مرًا، لا لأن الماء مر، ولكن لأن المحل غير قابل، فيجد هذه العذوبة مرارة.

\* \* \*

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۗ﴾ قال: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقه: «إنما» والتقدير: «لا تنذر إلا من اتبع الذكر» وقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ المراد بذلك إنما تنذر الإنذار النافع، كأنه قال: لا ينتفع بإنذارك إلا من اتبع الذكر، ولهذا قال المؤلف: [ينفع إنذارك من اتبع الذكر: القرآن].  
والمراد بالاتباع في قوله: ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ المراد باتباع الذكر شيئان:

الشيء الأول: تصديق الخبر، واعتقاد مقتضاه.

والثاني: امتثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا اتباع الذكر فمن استكبر عما فيه من الأمر، أو النهي فإنه لم يتبعه، ومن لم يصدق بأخباره فإنه لم يتبعه، فلا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصديق الأخبار، واتباع الأحكام: فعلاً للمأمور وتركاً للمحذور، وقوله: ﴿الذِّكْرَ﴾ المراد به القرآن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۗ﴾ (١)

وسمي القرآن ذكراً:

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧) .

ثانياً: لما فيه من ذكر الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢) .

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير .

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٣) فإن القرآن لا شك رفع من شأن العرب، وجعلهم هم الأمة الذين ترجع إليهم الأمم، فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب، ففي هذا رفع لشأنهم وعز لمكانتهم، فالقرآن جاء بلغتهم، ووصل إلى الناس عن طريقهم .

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي، لأن هذا هو عديل أخبار الأمم السابقة، وأخبار الناس في المستقبل . فلهذا سمي القرآن ذكراً .

قال الله عز وجل: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ «خشي»: يقول المؤلف: [خافه ولم يره]، وعليه فهذا من باب الحد اللفظي؛ لأنه فسر بمرادفه، فتفسير الشيء بمرادفه يسمى حدًا لفظيًا، فإذا

(١) سورة القمر، الآية: ١٧ .

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١ .

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤ .

قلت: القمح هو البر. فهذا حد لفظي، وتفسير الخشية بالخوف فيه نظر؛ لأن هذا الحد غير مانع؛ لأن الخشية ليست مجرد الخوف، بل الخشية هي: الخوف عن علم بالمخوف وعظمته، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(١)</sup> فالخوف قد لا يكون لعظمة المخوف، ولكن لضعف الخائف. لكن الخشية لا تكون إلا لعظمة المخوف إذا عرفها الخاشي عظم هذا المخشي فخشيته، إذن بينهما فرق، فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر، والصواب أن يقال: الخشية هي الخوف عن علم بعظمة المخوف، فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي، أما الخوف فقد يكون ناشئاً عن ذلك، وقد يكون ناشئاً عن ضعف الخائف.

وقوله: ﴿ الرَّحْمَنَ ﴾ اختيار هذا الاسم هنا دون ذكر لفظ الجلالة (الله) عز وجل؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله تعالى يخافه عن علم، فطمأن الله الخائف والخاشي بأنه إنما يخشى رحماناً يرحمه، فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك؛ لأن الله - عز وجل - إذا خافه الإنسان وخشيته، فإنه يرحمه؛ لأنه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه، وحينئذ يكون متعرضاً للرحمة، هذه المناسبة لذكر الرحمن دون ذكر لفظ الجلالة: (الله) والله أعلم.

وقوله: ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ قال المؤلف: (ولم يره) كأنه يفسر أن المراد بالغيب: أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه، فيكون بالغيب حالاً من المخشي، يعني يخشى الله والله غائب عنه، هذا أحد

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.



الوجهين في الآية .

الوجه الثاني: يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيبة عن الناس، يخشى الله في قلبه في عمل غائب لا يغفل، فيكون بالغيب حالاً من الخاشي، يعني أن هذا الإنسان الذي أذرتة وانتفع بإنذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب حال كونه غائباً عن الناس، خشي الله بالغيب أي بالعمل الغائب، وهذه هي الخشية الحقيقية؛ لأن خشية الله تعالى في العلانية قد يكون سببها مراعاة الناس، ويكون في هذه الخشية شيء من الشرك؛ لأنه يرائي بها، ولكن إذا كان يخشى الله في مكان لا يطلع عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة، وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاصي ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها. فهذا خشي الناس في الحقيقة ولم يخش الله عز وجل؛ لأن الذي يخشى الله لا بد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواء بحضوره الناس، أو بغيبة الناس، أيضاً يخشى الله بالغيب أي بما غاب عن الأبصار نظراً، وعن الأذان سمعاً، وهو خشية القلب، وخشية القلب أعظم ملاحظة من خشية الجوارح. لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مراقباً لله عز وجل ولحقه أكثر، فيجب أن تراقب خشية القلب أكثر مما تراقب خشية الجوارح، إذ خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته، فكل إنسان يستطيع أن يقوم يصلي ولا يتحرك، ينظر إلى موضع سجوده، يرفع يديه في موضع الرفع، يعني يستقيم استقامة تامة في ظاهر الصلاة، لكن القلب غافل. أما خشية القلب فهي الأصل، وهي التي يجب أن يراقبها الإنسان

ويحرص عليها حرصاً تاماً، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ إذا الراجح من القولين أن قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشي أي يخشى الله تعالى غائباً عن الخلق، ويخشى الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون، ولا تسمعها الآذان، وهي خشية القلب.

أما قول المؤلف: [ولم يره] واعتبر أن الغيب هنا حال من المخشي، فهذا فيه نظر؛ لأن الله عز وجل لا يرى في الدنيا، ولكن آياته البينة الظاهرة كأن الإنسان يرى ربه، ولهذا قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>. فأيات الله سواء الآيات الكونية، أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها الإنسان ظهر له بها وجود الخالق، وظهر له كل ما تضمنته هذه الآيات من صفاته، ظهوراً بيناً كأنما يشاهد الله عز وجل، فالصواب إذاً المعنى الأول لأننا نقول: وإن لم نر الله لكن نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته، قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ بعد قوله: ﴿نُنذِرْهُ﴾ من باب المتقابلات تنذر فينتفع بالإنذار، وإذا انتفع بالإنذار حصل له الثواب فاستحق البشارة ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(١١)</sup> هو الجنة بمغفرة للذنوب، وأجر كريم على فعل الحسنات، والكريم يتضمن:

١ - كرم الذات العيني.

٢ - وكرم الصفات، كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) (٨).

«إياك وكرائم أموالهم»<sup>(١)</sup> . يعني الكريم بذاتها وصفاتها، الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنة بذاته، وجدنا أنه كريم أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، وعسل، وخمر إذا نسبت هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنه أكرم من نعيم الدنيا بذاته، وبصفاته أيضاً، طعمه ورائحته وغير ذلك هو أيضاً أكرم.

٣ - كريم أيضاً من حيث المقابلة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والأجر في الدنيا يكون بقدر العوض، تباع علي سيارة بعشرة آلاف ما أعطيك إلا عشرة ما أزيد، لكن في الآخرة أجر الآخرة أكرم وأعظم، لأنك تبذل واحداً وتُعطي عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه في: عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته، فإنه أعظم بكثير من عوض الدنيا وأجر الدنيا [وأجر كريم هو الجنة] هذا تفسير للمراد، لا للمعنى، ولا شك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

### \* الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية: أنه لا ينتفع من إنذار الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من اتصف بهذين الوصفين ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أُتْبِعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾.

٢ - ومن فوائدها: صحة نفي الشيء إذا كان لا ينتفع به وإن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (١٤٩٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ٢٩ (١٩).

كان موجوداً، لقوله: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أَتَعَ الذِّكْرَ ﴾ فإن إنذاره لغيرهم حاصل، لكن لما لم ينتفعوا به صار وجوده كالعدم بالنسبة لهم، أما المنذر فقد قام بما يجب عليه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما كان الإنسان أتبع للقرآن كان أشد تأثراً به، لقوله: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أَتَعَ الذِّكْرَ ﴾ وبهذا نعرف القاعدة التي ذكرها بعض العلماء: (الطاعة تجلب الطاعة، والمعصية تجلب المعصية)؛ لأنه كلما كان الإنسان أتبع للقرآن صار أشد تأثراً به، لقوله: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أَتَعَ الذِّكْرَ ﴾.

٤ - ومن فوائد الآية: الثناء على هذا القرآن العظيم بأنه ذكر، وسبقت الأوجه في كونه ذكراً.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الخشية لله سبب عظيم للتأثر بالقرآن والانتذار به، لقوله: ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾.

٦ - ومن فوائدها: بيان فوائد الخشية لله، وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن، فكلما كان الإنسان أخشى لربه كان أفهم لكلامه.

٧ - ومن فوائدها: أن الخشية إنما تكون خشية حقيقية إذا كانت بالغيب، أما من خشى الله تعالى بالعلانية فقد تكون خشيته مدخولة، قد يكون خشى الله عز وجل من أجل أن الناس يرونه، لكن إذا كان بالغيب كان أدل على الإخلاص.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن تبشر من اتصف بهذين الوصفين: وهما اتباع الذكر، والخشية لله عز وجل بالغيب فبشره بالجنة ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٧). ولكن هل تنطبق هذه

البشارة على كل واحد بعينه؟

الجواب: لا، بل هي على سبيل العموم، وكل شخص اتصف بما تثبت به الجنة على سبيل العموم فإننا لا نشهد له بعينه ولكن يرجى له ذلك؛ لأنه في الظاهر قد انطبق عليه سبب الاستحقاق، لكن الباطن لا نعلمه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار»<sup>(١)</sup>. لهذا نقول في كل من ينطبق عليه وصف يستحق به دخول الجنة نقول: إننا لا نشهد له بعينه؛ لأن الشهادة له بعينه تحتاج إلى دليل معين، ولكننا نرجو له هذا؛ لأن ظاهر الأمر أنه يستحق؛ لانطباق الأوصاف عليه، لكن لا نشهد لأنه يخشى أن يكون باطنه غير ظاهره. وهذه القاعدة مهمة مفيدة، مثلاً: قتل رجل ممن يجاهد مع جيش، ظاهر جميع المجاهدين أنهم يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، فهل إذا قتل على أيدي الأعداء نشهد بأنه شهيد؟ لا نشهد بأنه شهيد، ولكن نقول: يرجى أن يكون شهيداً، يعني من الشهداء عند الله عز وجل، لأن ظاهر فعله ينطبق على الشهداء عند الله عز وجل، ولكن لا نشهد له بعينه، ولهذا ترجم البخاري - رحمه الله - على هذه المسألة في الصحيح قال: «باب: لا يقال فلان شهيد» ولكن كلمة (شهيد) صارت الآن رخيصة تبذل بأبخس الأثمان، فأبي واحد يقتل ولو في قتلة جاهلية يقولون: هو شهيد. وهذا لا يجوز، أتدري ما

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب: لا يقال: فلان شهيد (٢٨٩٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١٧٩ (١١٢).

يستلزم على شهادتك له بأنه شهيد؟ يستلزم بأنك شهدت له بأنه من أهل الجنة، وهذه مسألة صعبة، لكن كما قلنا آنفاً في القاعدة النافعة: (إن من اتصف بأوصاف ينطبق على أهلها هذا الجزاء فإننا نرجو له ذلك) أما أن نجزم فلا.

فهذا الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، هل نجزم له بالمغفرة والأجر الكريم؟ نقول: نعم، من فعل ذلك نشهد له على سبيل العموم، لكن على سبيل التخصيص نرجو له ذلك.

٩ - من فوائد الآية الكريمة: أن البشارة تكون بانتفاء ما يكره وبحصول ما يحب ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ انتفاء ما يكره ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حصول محبوب، فيهنأ الإنسان ويبشر بزوال المكروه عنه، وبحصول المحبوب، اجتماعاً وانفراداً، يعني سواء حصل له الأمران، أو حصل له أحدهما فإنه يبشر بانتفاء الشر عنه، كما يبشر بحصول الخير له.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم، فإن ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مقابل الذنوب ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة.

\* \* \*

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْيُ الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. مناسبة هذه الآية لما قبلها،

لها مناسبتان:

المناسبة الأولى: أنه لما ذكر حال من ينتفع بذكرى الرسول

وَمَنْ لَا يَنْتَفِعْ، بَيْنَ أَنْ كَلَّ مِنْهُمْ سَوْفَ يَحْيَا بَعْدَ مَوْتِهِ، وَسَوْفَ يَجَازِي عَلَى عَمَلِهِ، فَالْمُنَاسِبَةُ ظَاهِرَةٌ فِيهَا بِشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِ الْمُنْتَذِرِ، وَفِيهَا إِذْكَارٌ وَتَخْوِيفٌ لِمَنْ خَالَفَ.

المناسبة الثانية: أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادر على إحياء الموتى إحياءً حسياً فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياءً معنوياً. قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ﴿إِنَّا﴾ ضمير جمع، والله عز وجل واحد، فتحمل هذه على التعظيم قطعاً. ﴿نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصل؛ لأنها لو سقطت وقيل: «إنا نحیی الموتی» استقام الكلام، فهي ضمير فصل للتخصيص يعني: نحن لا غيرنا، ﴿الْمَوْتَى﴾ جمع ميت، ويشمل الموتى من بني آدم وغيرهم، لكن قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ يدل على التخصيص، وهذا له نظائر في القرآن والسنة، إذا جاء لفظ عام، ثم ذكر بعده حكم يختص ببعض أفرادها، فهل هذا يخصص العموم أو لا يخصصه؟

إذا نظرنا إلى تصرف العلماء - رحمهم الله - وجدنا أنهم أحياناً يجعلونه مخصصاً للعموم، وأحياناً لا يجعلونه مخصصاً للعموم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرِدَّتِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾<sup>(١)</sup> هذه الآية فيها عموم، وفيها حكم يختص ببعض أفراد هذا العموم. فقوله

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

تعالى: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ يشمل من لها رجعة، ومن ليس لها رجعة، فهذا العموم، ثم قال بعد ذلك: ﴿وبعولتهن﴾ أي بعولة المطلقات ﴿أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾ هذا الحكم يختص بالرجعيات فهل نقول: إن المراد بالمطلقات في قوله: ﴿المطلقات يتربصن﴾ المراد بها الرجعيات أو هو عام؟ أكثر العلماء على أنه عام. ومن السنة قال جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما -: «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة»<sup>(١)</sup> في هذا عموم، وفي هذا حكم تعقبه يختص ببعض أفراد هذا العموم، فهل نأخذ بالعموم، أو نأخذ بما يقتضيه الحكم المعقب؟ فقوله: «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم» يشمل كل ما لم يقسم حتى لو كان بينك وبينه سيارة تتبع نصيبك منها ففيها الشفعة، أخذاً بالعموم «بكل ما لم يقسم» قوله: «فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة» هذا يختص بالأراضي، فهل نقول: إن قوله: «في كل ما لم يقسم» يختص بالأراضي بدليل الحكم المفرع، ونقول: إذا كان شريكاً في سيارة وباع أحدهما نصيبه فلا شفعة للثاني، أو نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفرادها يختص به؟ فيه أيضاً خلاف في هذه المسألة، والذي نحن فيها الآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ﴾ يشمل كل ميت حتى البهائم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ هذا خاص بالمكلفين فهل نقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ﴾ أي: من المكلفين

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الشريك من شريكه (٢٢١٣).



بدليل قوله: ﴿وَنَكَّتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أو نقول: هو عام، وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص؟ ينبي على الخلاف السابق، والعلماء يختلفون في مثل هذا، فنحن نقول: يمكن أن يقال: الموتى الذين يكتب لهم ما قدموا وآثارهم؛ بدليل قوله: ﴿وَنَكَّتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾.

وقد يقول قائل: اعتبر بالعموم ﴿أَلْمَوْتِ﴾ كل ميت ﴿وَنَكَّتُبُ﴾ ما قدم بعضهم وهم المكلفون.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المؤلف: [وكل شيء نصبه بفعل يفسره: أحصيناه] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ (كل) هذه مفعول لفعل محذوف يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وعلى هذا فيكون التقدير: «أحصينا كل شيء» ولا تجمع بين المفسر والمفسر، ولا تقل التقدير: «أحصينا كل شيء أحصيناه» لأنه لا يجمع بين المفسر والمفسر، فإذا أردت أن تقدر فقل التقدير: وأحصينا كل شيء في إمام مبين، لكن جعلت الصيغة على هذا الوجه ليكون لذكر المسند إليه مرتين لأن ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ والضمير في ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ يعودان على شيء واحد، فيكون هنا ذكر المعمول مرتين، مرة على أنه مفعول بفعل مقدر، ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وهذا التركيب يسمى عند النحويين الاشتغال، والاشتغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والاستحباب، والإباحة، والكرهية، والمنع، لكن هذا وجوب نحوي وليس وجوباً شرعياً، يعني تارة يجب نصبه، وتارة يمتنع، وتارة يترجح نصبه، وتارة يترجح رفعه، وتارة يستوي

الأمران، وفي مثل هذا التركيب يترجح النصب؛ لأن قوله: ﴿أَحْصَيْنَتْهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَنَكَّتْ مَا قَدَّمُوا وَعَاثَرَهُمْ﴾ فإذا جعلنا الواو حرف عطف والجملة فعلية ﴿أَحْصَيْنَتْهُ﴾ صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية، ولو رفعنا - والرفع هنا جائز - وقلنا: «وكل شيء أحصيناه» صار العطف هنا عطف جملة إسمية على جملة فعلية، والأنسب أن نعطف جملة فعلية على جملة فعلية؛ لأن تناسب الجملتين أولى من تضادهما. ولهذا نقول: إن النصب هنا أرجح، مع جواز الرفع لولا أنه في كلام الله ولا يغير لكان يجوز أن أقول: وكل شيء أحصيناه، ولهذا لو قلنا: زيدٌ ضربته، يجوز أن أقول: «زيداً ضربته» لكن الرفع أرجح؛ لأنه الأصل، ليس فيه جملة نعطف عليها، لكن لو قلت: «ضربت زيداً وعمروٌ أكرمته» يجوز في «عمرو أكرمته» النصب ويجوز الرفع، لكن النصب أرجح؛ لتناسب الجملتين، نحن ذكر هذا على سبيل الاستطراد، ولكن القاعدة: إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية، أو معطوفة على جملة إسمية فالراجح الرفع، وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النصب.

﴿وَنَكَّتْ مَا قَدَّمُوا وَعَاثَرَهُمْ﴾ هل الذي يكتب الله عز وجل، أو الملائكة بأمر الله؟

الجواب: الملائكة بأمر الله لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كُنِينِ ﴿١٢﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١١﴾ .

وإسناد الكتابة إلى الأمر موجود في اللغة العربية كثيراً، يقول السيد: (كتبت كذا وكذا) والمراد كتبه عبيده، فهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ والمراد ملائكتنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَدِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ أي: ما قدموه في الدنيا من أعمال صالحة؛ لأن كل إنسان يعمل عملاً صالحاً في الدنيا فإنه قد قدمه، بمنزلة السلم، والسلم في البيع أن المشتري يقدم الثمن، فأنت الآن مقدم للثمن، والمثمن يكون يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا ويوم القيامة جميعاً، فأنت الآن إذا عملت عملاً صالحاً فقد قدمت لنفسك ثمناً تأخذ عوضه يوم القيامة، ثق بهذا وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ يقول المؤلف - رحمه الله - : [نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم] هذا ما مشى عليه المؤلف أن المراد بالكتابة هنا الكتابة باللوح المحفوظ، وهذا التفسير مخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فعل مضارع، والمضارع لا يحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي ك(لم) مثلاً: إذا دخلت على الفعل المضارع جعلته ماضياً، أو دليل حالي يدل عليه السياق، وهنا لا دليل على أن المراد ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾<sup>(١)</sup> فاللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تصاغ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ بشيء

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

انتهى، ولكن المراد (نكتب) في صحائف الأعمال، والذين يكتبون الملائكة بأمر الله - عز وجل - ما قدموا في حياتهم من خير وشر ليجازوا عليه، لكن ما قدموه من خير فهو مضمون، وما قدموه من شر فليس بمضمون. لأن الخير لا يمكن أن يهدر منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون، ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾. الآثار جمع أثر، والآخر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي فإنه يعقبه، فما المراد بآثارهم؟ قال المؤلف: [ما استن به بعدهم] وهذا التفسير كمثال وليس حصراً؛ لأن الذي يكتب بالآثار أكثر مما استن به بعدهم؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»<sup>(٢)</sup>. فمثلاً الصدقة الجارية هذه من آثارهم، وإذا أوقف الإنسان مزرعة أو بستاناً على الفقراء وانتفعوا به بعد موته، صار هذا من الآثار بلا شك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكن النفع صار بعد مماته، والعلم النافع من آثارهم فكل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره. والولد الصالح أيضاً من آثاره؛ لأن الولد من كسب الإنسان، فإذا كان ولداً صالحاً يدعو لأبيه أو أمه فهو من الآثار، وما اقتدى به الناس من الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة فهو أيضاً من الآثار، فما ذكره

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

المؤلف على سبيل المثال، وهذا الذي قاله المؤلف - رحمه الله - أن المراد بالآثار ما كان بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح .  
 وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآثار: الآثار التي يتقدموا بها إلى الطاعة، كالمشي إلى الصلوات، فإن الله تعالى يكتب للإنسان كل خطوة فيرفع له بها درجة، ويحط عنه بها خطيئة. واستدل هؤلاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبي سلمة: «دياركم تكتب آثاركم»<sup>(١)</sup>، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الآثار تكتب، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن قول الرسول «تكتب آثاركم» هذا مما قدموه في حياتهم، ولكن سماه أثراً لأنه أثر، وهو المشي والمسير، فالصواب أن الآية كما قال المؤلف أن المراد بما قدموا: ما سبق من أعمال صالحة في حياتهم حتى آثار مسيرهم إلى المساجد، وآثارهم ما كان بعد موتهم. قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المؤلف: [أَحْصَيْنَاهُ ﴿ضَبْطَانَاهُ﴾]، والإحصاء بمعنى الضبط مأخوذ من الحصى، لأن العرب أمة أمية لا يكتبون، يضبطون الأشياء بالحصى وشبهها، ويقدرون بالرمح وما أشبهه، لا يقرءون ولا يكتبون، فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذوا حصى، فإذا سألوا كم عدد القوم؟ أعطوه كيس الحصى، ولهذا قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكائر

ولست بالأكثر منهم حصى، يعني أن قومك ليسوا بكثيرين، ويضرب المثل فيقال: جاء قوم كثر الحصى، فأحصيناه

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤٩٩٢).

ضبطناه، وسمي الضبط إحصاء؛ لأن العرب كانت تضبط الشيء بالحصى، قوله: ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (١١) قال المؤلف - رحمه الله -: [كتاب مبین]، هذا صحيح ﴿ فِي إِمَامٍ ﴾ الإمام يطلق على عدة معانٍ يجمعها أنه مرجع، فإمام الصلاة مثلاً إمام؛ لأنه مرجع للمؤمنين يقتدون به، وإمام الحكم كذلك مرجع يرجع الناس له، والكتاب إمام لأنه مرجع كما قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْتَهُ طَيْرُودٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿١٤﴾ (١). إذا ﴿ فِي إِمَامٍ ﴾ في كتاب، وقوله: ﴿ مُّبِينٍ ﴾ (١٢) يقول المؤلف - رحمه الله - [بين]؛ لأن مبین هنا من الرباعي، من أبان يبين فهو مبین. أما بين فهي من الثلاثي، من بان يبين، فهو بين، وكلمة (بان) و(أبان) تأتيان بمعنى واحد فيقال: بان الصبح، وأبان الصبح. وتنفرد أبان بأنها تأتي بمعنى أظهر وأوضح، أبان الشيء يعني أظهره وأوضحه. فإذا جاءت كلمة (مبين) في القرآن الكريم فإنها تصلح بأن تكون بمعنى (بين) وتصلح بأن تكون بمعنى (مظهر وموضح) لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلح للوجهين جميعاً، قد تكون في موضع لا تصلح إلا بين، فمثلاً: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٦٤) (٢) معناها بين ظاهر، وقوله: ﴿ حَمَّ ﴾ (١) بمعنى الموضح المظهر، وهو إذا كان موضح فهو واضح، لكنها هنا مبین بمعنى مظهر، أبين في

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة الدخان، الآية: ١.

المعنى ، فكلمة (مبين) إذا صلحت أن تكون من الرباعي الذي بمعنى أظهر، فهو أولى من تفسيرها بالثلاثي الذي بمعنى ظهر، لأن المظهر جامع بين الظهور بنفسه والإظهار لغيره، فيكون معناه أشمل. وقول المؤلف عن الإمام المبين: [هو اللوح المحفوظ] وهذا صحيح يعنى محتمل، فإن اللوح المحفوظ كتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا (مبين) هل الأنسب أن تكون كما فسرها المؤلف بين، أو مبين بمعنى مظهر؟ هل المعنى أنه كتاب بين، أو كتاب مبين يظهر الحقائق؟ الظاهر أن المعنى الأخير أولى؛ لأن هذا الكتاب مبين للأمر موضح لها، وكما قلنا: ما كان مبين فهو بين فهي صالحة لما يقول المؤلف: [هو اللوح المحفوظ] لأنه يقول: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي أنه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعمال لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾<sup>(١)</sup>

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى، وقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بأدلة عقلية، وأدلة حسية.

فمن الأدلة العقلية مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْحَقَّ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup> فهذا دليل عقلي على إمكان إحياء الموتى، وجهه أن الإعادة أهون من الابتداء، فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، وكما في قوله تعالى: ﴿كَمَا

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴿١﴾ هذا مثله أيضاً استدل الله تعالى بالابتداء على الإعادة .

أما الأدلة الحسية فما أكثر ما يضرب الله الأمثال بإحياء الأرض بعد موتها على قدرته على إحياء الموتى ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٢﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ﴿١١﴾ ﴿٣﴾ . والآيات في ذلك كثيرة ، فقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بالأدلة العقلية ، والحسية ، لتكون لذوي العقول دليلاً ، ولذوي الأبصار ، والأدلة الظاهرة دليلاً أيضاً ، فالإنسان العقلاني كما يقولون نستدل له أو عليه بالعقل ، والإنسان السطحي الذي لا يستدل إلا بما يشاهد نستدل عليه بالأدلة الحسية .

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة : الإشارة إلى أن من لم يخش الله ولم يتبع الذكر فإن الله قادر على أن يحيي قلبه فيخشى الله ويتبع الذكر ، ووجه الدلالة أن الله تعالى ذكر هذا بعد أن ذكر انقسام الناس إلى من يخشى الله بالغيب ويتبع الذكر ، ومن لم يكن كذلك ، فيه إشارة إلى أن الله قادر على أن يرد هؤلاء إلى الحق .

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٩ .

(٣) سورة ق ، الآيات : ٩ - ١١ .



٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل شيء مكتوب للإنسان إما له وإما عليه لقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾.

٤ - ومن فوائدها: أن الله تعالى يكتب كل شيء القليل والكثير؛ لقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وما اسم موصول، والاسم الموصول يشمل الصغير والكبير، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾<sup>(١)</sup> ويدل عليه أيضاً في آخر الآية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأعمال لا تنقطع بالموت لقوله: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ والآثار ذكرنا أنها أنواع: العلم، والصدقة الجارية، والولد الصالح يدعو له، وسنة يحييها فيتبعه الناس عليها.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله عز وجل في ضبط الأمور وإتقانها، وأنه لا يفوته شيء لقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

٧ - ومن فوائدها: أن ما يكتب على الإنسان فإنه حق بين واضح لا يمترى فيه أحد، لقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ والشيء المبين هو الذي يوضح الأشياء مع وضوحه في نفسه وهو كذلك، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾<sup>(٣)</sup> اقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

(اضرب) قال المؤلف: [اجعل]، وهذا لا شك أنه معنى مقرب للمعنى أي اجعل مثلاً، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتخذ؛ لأن الضرب يدل على صناعة وتكييف، ومنه: ضرب الذهب خاتماً، وضرب الذهب حلياً، وضرب الذهب سكة، يعني نقوداً، بمعنى اتخذه حلياً، اتخذه سكة وما أشبه ذلك، فشبّه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالباً على هيئة متكاملة مركبة من أجزاء متعددة، ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مشتملة على أجزاء متعددة بصورة. فلهذا سمي ضرب مثل، أي: صنع مثل، كما تصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها، وقال المؤلف - رحمه الله -: [﴿لَهُمْ مَثَلًا﴾ مفعول أول، ﴿أَصْحَابَ﴾ مفعول ثانٍ]، وهذا الظاهر أنه سهو من المؤلف، والصواب العكس، لأن المضروب هو أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأول، و﴿مَثَلًا﴾ هو المفعول الثاني، ففي إعراب المؤلف انقلاب، فالصواب: أن أصحاب القرية مفعول أول، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثانٍ، أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المكذبين لك اجعلهم مثلاً يعتبرون به، والمثل والمثل كالشبه والشبه، أي: جعله أمراً مشابهاً حتى يتعظوا.

وكلمة ﴿وَأَضْرِبْ﴾ الخطاب فيها للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه، وسبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحاً؛ أنه عام، وتارة يكون صريحاً أنه خاص بالرسول

ﷺ، وتارة يحتمل الوجهين.

فمن الأشياء التي تكون صريحة بخصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾<sup>(٢)</sup> ولم يقل: «إذا طلقت» فدل على أن الخطاب الأول يراد به العموم.

وأما احتمال أن يكون خاصاً بالرسول عليه الصلاة والسلام أو عامّاً فهو كثير في القرآن، والأرجح أن نجعله عامّاً؛ لأنه أشمل، فإذا جعلناه عامّاً شمل الرسول ﷺ وغيره، إذاً نقول لأي داعية الآن: اضرب مثلاً للمكذابين بهذه القرية ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾. قال المؤلف: [أنطاكية] فجعل (ال) للعهد الذهني يعني كأنها قرية معروفة مفهومة، ولكن هذا القول ضعفه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره وقال: (فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظاً في هذه

القصة - مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم)<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير - رحمه الله - آخر تفسير الآية رقم (٢٩) من سورة (يس).

وعلى هذا فيكون المراد بالقرية هنا: قرية غير معينة، وتكون (ال) للجنس لا للعهد الذهني، يعني: اضرب مثلاً لهم في قرية غير معينة وهذا هو الصحيح، وذلك لأن الله عز وجل لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبينها، وليس المقصود كما مر علينا كثيراً تعين الأشخاص، أو الأماكن، أو الأزمان ليس فيه كثير فائدة في الغالب، المقصود العبرة في القصة وما وقع، ولهذا نرى بعض العلماء يتكلمون مثلاً فيما إذا جاء اسم رجل في حديث مبهم يتكلمون في طلب تعينه، وليس هذا بلازم، إلا أن يترتب على تعيينه اختلاف للحكم، أو إظهار للمعنى فهذا شيء آخر، وهنا لا يعيننا أن نعرف ما هي القرية، ومن هم أهلها، الذي يعيننا العبرة بما جرى في هذه القصة، فالصواب عدم تعيينها بأنطاكية ﴿ إِذْ جَاءَهَا ﴾ [بديل اشتمال من أصحاب القرية]، فتكون في محل نصب؛ لأن أصحاب منصوب، والبديل يتبع في الإعراب المبدل منه، فيكون ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ في محل نصب على أنه بديل من أصحاب القرية ﴿ إِذْ جَاءَهَا ﴾ أي أصحاب القرية ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي رسل عيسى] وهذا القول ليس بصحيح، ولا دليل عليه، بل جاءها المرسلون الذين من جنس قوله في أول السورة ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣﴾ جاءها المرسلون الذين هم من جنس هؤلاء، وعلى هذا فهم رسل من عند الله عز وجل، وليسوا من قبل عيسى صلى الله عليه وسلم، قال في تفصيل هذا المجيء وهذه القصة: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ وهذا من عجائب القول أن يقول بعض العلماء: أي: رسل

عيسى، مع أن الله يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ ولم يقل: إذ أرسل إليهم عيسى، بل قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالرسول المرسلون هنا رسلاً من عند الله، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى أصحاب القرية ﴿أَثْنَيْنِ﴾ من هؤلاء الثلاثة ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ التأكيد رد الخبر ونسبته إلى خلاف الواقع هذا هو التأكيد، فهؤلاء كذبوهما وقالوا: هذا أمر ليس بصحيح، ولستم برسول، فماذا كان؟ قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ قال المؤلف: [بالتخفيف والتشديد]. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هذا التشديد (عززنا) التخفيف، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف ذكرهما على حد سواء، معنى (عززنا) قال: [قويننا الاثنين بثالث] يعني لما كذب الاثنان أرسل الله ثالثاً معهم لأجل التقوية، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾<sup>(١)</sup> فزيادة الواحد يقوي بلا شك، ونحن نشاهد حتى في أمرنا الواقع إذا قال شخص قولاً، ثم أيده آخر ازداد قوة ونشاطاً في تقرير هذا القول وتثبيتته، ﴿فَقَالُوا﴾ الضمير يعود على الثلاثة ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ أتوا بالجملة المؤكدة بـ(إننا)؛ لأن الحال تقتضي ذلك، فإنهم قد كذبوا وأنكروا، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب.

ولكن لو قال قائل: لماذا لم تؤكد بأكثر من مؤكدة؟ قلنا: هي أكدت بأكثر من مؤكدة، أكدت بمؤكدة واحد لفظي

وهو (إنا)، وأكدت بمؤكد معنوي وهو زيادة الرسول .  
ولو قال قائل: هل المقام مقام تأكيد على سبيل  
الاستحسان، أو على سبيل الوجوب؟

قلنا: على سبيل الوجوب، فإذا قال: القاعدة أنه إذا كان  
على سبيل الوجوب فإن التأكيد يتكرر، يعني يؤتى بإن، واللام،  
والقسم، قلنا: هذا المؤكد مكرر، لكنه من نوعين: تأكيد باللفظ  
(إنا) وتأكيد بالمعنى تقويتهم بثالث: ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ  
مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ مرسلون من قبل الله عز وجل، وهم يعلمون ذلك  
أنهم ما دعوا الرسالة من شخص وإنما هي من الله، فكان جواب  
هؤلاء جواب غيرهم من المكذبين، والمكذبون يردون أقوال  
الرسول، أحياناً بنفي، وأحياناً بإثبات، ففي النفي يقولون: ﴿مَا  
أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ وكما قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَنَا تُرِيدُونَ  
أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾﴾ قَالَتْ لَهُمْ  
رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿١٦﴾ يعني نسلم إنا بشر مثلكم  
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ﴿١٧﴾ هذا جواب بالنفي . يعني  
أنتم بشر لستم ملائكة حتى نقبل، وأحياناً بالإثبات ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿١٨﴾﴾ ﴿١٩﴾ فصاروا أحياناً  
يتهمون الرسل بالسر والجنون، وأحياناً بالنفي يقولون: ما أنتم  
ملائكة حتى تكونوا رسلاً إلينا، ما أنتم إلا بشر مثلنا، فليس بدع  
أن يقول أصحاب هذه القرية لهؤلاء الرسل: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٠ - ١١ .

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢ .

**مَثَلْنَا** ، ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فأنكروا الرسالة من حيث جنس الرسول ، وأنه بشر ، وأنكروا الرسالة إنكار جحود بلا مبرر ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الذي يمنع فلم يذكروا حجة قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هذه الجملة نفي و﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم ، ثم هذه النكرة مؤكدة بـ(من) الزائدة ، لأن قوله : ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بمعنى (شيئاً) ، وقوله : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ قوله ﴿ إِنْ ﴾ بمعنى (ما) ففي الجملة حصر طريقة : النفي والإثبات ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يعني ما أنتم إلا تكذبون ، وهذا الحصر - والعياذ بالله - حصرهم يرونه إضافياً ، بمعنى ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعون من الرسالة ، ولا يلزم أنهم يدعون أنهم يكذبون في كل شيء ؛ لكن فيما ذكروا من الرسالة ، فصار إنكارهم مبنياً على أمرين :

الأول : أنهم بشر ، يعني كأنهم يقولون : لو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة .

الثاني : النفي الذي لم يبين على شيء ، وإنما هو مجرد إنكار ومكابرة ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ .

وهذا لا شك من سفههم ، لأن إنزال الوحي على الرسل لهداية الخلق أمر يوجب العقل فضلاً عن الشرع ، لأن العباد لا يمكن أن يتعبدوا لله سبحانه وتعالى إلا بشيء شرعه ونصبه لهم دليل عليه وإلا فكيف يتعبدون؟! فإنزال الله عز وجل الوحي للبشر أمر يقتضي العقل وجوبه ، مع أن الله قد أوجبه على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ (١) فالله أوجب على نفسه أن يبلغ

عباده سبحانه وتعالى ما يوصلهم إليه، وإلا لضلوا، إذاً هذه المكابرة وهي: دعوى أن الرحمن ما أنزل من شيء يكذبها العقل والشرع؛ لأن العقل يوجب أن ينزل الله على العباد شريعة يتعبدون بها له لتوصلهم إليه، إذ إن العقل لا يهتدي كيف يعبد الله، والشرع أوجب الله تعالى على نفسه أن يبلغ عباده شريعته، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۗ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۗ﴾<sup>(٢)</sup> حيث أوجب الله على نفسه أن يهدي عباده، وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق، ولو كانت هداية التوفيق لاهتدى كل أحد.

قوله: ﴿إِلَّا تَكْذِبُونَ ۗ﴾<sup>(١٥)</sup>. الكذب هو: الإخبار بخلاف الواقع، إذا أنتم أخبرتمونا إنكم رسل، والواقع إنكم لستم برسل، ماذا قالوا لهم، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۗ﴾<sup>(١٦)</sup> الآن أكدوا الرسالة بثلاثة مؤكدات:

الأول: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ لأن هذا جاري مجرى القسم.  
والثاني: ﴿إِنَّا﴾.

والثالث: اللام. لشدة إنكارهم.

فإذا قلنا: إن هذه ثلاثة مؤكدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث، صار أكدت الرسالة بأربع مؤكدات. ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ﴾. قال المؤلف: [جاري مجرى القسم، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار] أربع مؤكدات، لكن المؤلف

(١) سورة الليل، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة القيامة، الآية: ١٩.



لم يعتبر تأكيد الإرسال، مع أنه بلا شك مؤكد .  
 قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٧) قال المؤلف  
 - رحمه الله - [التبليغ المبين<sup>(١)</sup> الظاهر، بالأدلة الواضحة]، هذا  
 حصر حقيقي أي: ما عليهم في جانب الرسالة إلا البلاغ المبين في  
 جانب الرسالة، فقولنا: (في جانب الرسالة) يقتضي أن يكون  
 حصراً إضافياً، لأن عليهم سوى البلاغ أن يقوموا بعبادة الله  
 الخاصة التي هي غير التبليغ، لكن هي بجانب الرسالة ما عليهم  
 إلا البلاغ المبين، قال المؤلف: [التبليغ] كلمة بلاغ بمعنى تبليغ،  
 فهي اسم مصدر من بلغ يبلغ، كما يقال: كلم يكلم، المصدر  
 كلام، واسم المصدر كلام، بلغ يبلغ تبليغاً هذا مصدر، واسم  
 المصدر بلاغ، أما تفسير المبين بالبين فهذا قد يقال: إن فيه نظراً؛  
 لأن الظاهر أن المبين بمعنى المظهر، يعني البلاغ المظهر لحقيقة  
 الأمر الواقع، وهو أننا رسل من عند الله، وسبق لنا أننا فسرنا  
 المبين بالمظهر على وجه صحيح صار متضمناً لكونه بيناً، إذ لا  
 يكون الشيء مبيناً إلا وهو بين في نفسه، أما قوله - رحمه الله -:  
 [التبليغ البين الظاهر بالأدلة الواضحة، وهي: إبراء الأكمه،  
 والأبرص، والمريض، وإحياء الموتى] هذا ليس بصحيح؛ لأن  
 هذا مبني على أنهم رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، والأمر  
 ليس كذلك، لكن عليهم التبليغ البين بالرسالة فيبلغون تبليغاً بيناً.  
**في القصة فوائد كثيرة منها:**

١ - بيان ضرب الأمثال ليعتبر بها لقوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم

(١) في بعض النسخ (البين).

مَثَلًا ﴿١٠﴾ ، والخطاب كما سبق إما للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه .

٢ - أن العبرة بما في القصة من ضرب الأمثال، وأنه ليس من الضروري أن يعين المثل المضروب فهنا قال: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ . ولم يعين القرية، ولم يعين أولئك الأصحاب بأعيانهم؛ لأنه ليس هذا محل عبرة، بل العبرة في القصة كلها .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن الله عز وجل لن يدع الخلق بلا رسل لقوله: ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٣) ﴿ وَقَوْلِهِ: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ .

٤ - ومن فوائدها: بيان رحمة الله عز وجل في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد، لأنه قال: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ (١٤) ﴿ فهنا التعزيز بالثالث تقوية فعلية، والتأكيد بـ ﴿ إِنَّا ﴾ تقوية لفظية .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز تعدد الرسل مع اتحاد المرسل إليه؛ لأن الله أرسل لهذه القرية اثنين ثم عززهما بثالث .

٦ - ومن فوائدها: أن الذين يكذبون الرسل ليس عندهم إلا المكابرة، وليس عندهم حجة عقلية أو نقلية لقولهم: ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥) ﴿ كل هذه الجمل الثلاث ليس فيها أي حجة تسوغ تكذيب هؤلاء الرسل، لأنك إذا رأيت هذه الحجج الثلاث أو الشبه لم تجد فيها حجة:

الأولى: أنهم ردوهم لأنهم بشر مثلهم، وقد سبق في التفسير بيان الرد عليها، وأنه لا يمكن أن يرسل للبشر إلا بشر

مثلهم، حتى لو أنزل إليهم ملائكة فإن الملائكة لا بد أن يكونوا على صورة البشر، وحينئذ تعود الشبهة.

الثانية: ما أنزل الرحمن من شيء، فهذا نفي مجرد بدون ذكر حجة، وليس هذا بدليل للخصم إطلاقاً؛ لأن نفي قول الخصم بدون حجة ما هو إلا مكابرة.

الثالثة: وكذلك قوله: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥).

٧ - فوائد الآية الكريمة: بيان أن المعاندين للرسول ليس

عندهم إلا المكابرة المحضة كقولهم: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥).

٨ - أن حكمة الله عز وجل تقتضي أن يرسل للبشر بشراً

مثلهم.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بما يشبه القسم

لقولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦). وهل هذا أقوى من التأكيد بالقسم، أو التوكيد بالقسم أقوى؟ الظاهر أن هذا أقوى من

التوكيد بالقسم؛ لأنهم إذا قالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) وإن لم يكونوا مرسلين استلزم قولهم هذا وصف الله بالجهل

والعجز والقصور؛ لأنهم إذا قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم يكونوا مرسلين، معناه: أن الله علم الحال على خلاف ما

كانت عليه، إذا فرضنا أن الله يعلم أنهم مرسلون وهم غير مرسلين في الواقع، لزم من ذلك أن يكون الله جاهلاً بحالهم، وأن يكون

الله تعالى عاجزاً عن الانتقام منهم وبيان كذبهم؛ لأنهم سيقولون: إنا مرسلون، ويأخذون بمقتضى هذه الرسالة، والله تعالى يعلم

أنهم غير مرسلين، وهذا يستلزم الجهل، إذاً فالتأكيد بمثل هذا أشد من التأكيد بالقسم لما يترتب عليه من اللوازم الخطيرة، ولهذا قال العلماء: لو قال قائل: الله يعلم أنني ما فعلت كذا وهو فاعل قالوا: إن هذا يقتضي الكفر إذا كان يعلم معنى ما يقول، وما يلزم من قوله، ووجه ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من كونه يستلزم أن يكون الله جاهلاً وعاجزاً.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بعدة مؤكدات في جانب المنكر، بل قد نقول: إن التأكيد واجب إلا لفائدة، لقوله هنا: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦) وقد سبق أن الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس عليهم هداية الخلق، وإنما عليهم إبلاغ الرسالة فقط، لقولهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٧).  
١٢ - ومن فوائد أيضاً: أنه يلزم الرسل أن يكون بلاغهم مبيناً مظهراً للأمر على حقيقته.

١٣ - ويتفرع على ذلك أنه لا إبهام في الشرائع، وأن الشرائع كلها واضحة، فإن جاء إبهام في نص، فهو مبين موضح في نص آخر، وإن بقي الإبهام قائماً فالعلة في فهم المخاطب، إما لقصوره، أو لتقصيره، أما ما جاءت به الرسل فإنه يحصل به البلاغ المبين المظهر لكل ما تحتاج إليه الرسالة، لقوله: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٧).

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرْجَمْنَاكُمْ وَكَلِمَاتُكُمْ مِّنَّا عَابٌ

الْيَوْمَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ أي تشاء منا، وأصل التطير مأخوذ من الطير؛

لأن الناس يتشاءمون بالطيور، أو يتفاءلون بها. فيرسلون الطيور فإن اتجهت إلى اليمين، أو اليسار، أو الأمام، أو الخلف، أو عادت، أو ذهبت ولم تعد تشاءموا، أو تفاءلوا على اختلاف بينهم فيما يكون التشاؤم أو فيما يكون التفاؤل، ثم تعدى الأمر إلى أن تكون الطيرة في كل شيء وهي: «التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان»، وهذا التطير قد يكون له أصل، وقد لا يكون له أصل، قد يكون له أصل وذلك فيما إذا عوقبوا بمخالفة الرسل فيجعلون تلك العقوبة من شؤم هؤلاء الرسل، كأنهم يقولون: لولا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة، وقد يكون هذا التطير لا أصل له، وإنما هو دعوى مجردة من هؤلاء المكذبين، وهم قد يتطيرون بمعنى: أنه يحد من حرياتهم فيما تهواه أنفسهم، فيكون هذا شؤماً وتضييقاً، مثل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ينهونهم عن عبادة الأصنام، وهم يهونون عبادة الأصنام، ومثل أن الرسل تأمرهم بعبادة الله وحده، فيقولون: ضيقت علينا العبادة، فيجعلون هذا التضييق بزعمهم شؤماً، فيتطيرون بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والحاصل أن التطير للرسل له ثلاث حالات:

الأولى: تطير بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم،

فيقولون: هذا تضييق علينا، وهو شؤم في زعمهم.

الثانية: تطير بما يصيبهم من العقوبات بسبب المخالفة

فيقولون: هذا شؤمكم.

والثالثة : دعوى مجردة لا أصل لها فيقولون : إنا تطيرنا بكم لمجرد التشويه لما جاءت به الرسل .

وقول المؤلف - رحمه الله - : [انقطاع المطر عنا بسببكم] هذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفاً، بأنهم يتطيرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمخالفتهم، ووجه آخر يتطيرون بهم بسبب الحد من بلوغ مآربهم في عبادتهم وشهواتهم ومعاملاتهم ومأكولاتهم ومشروباتهم، فيقولون : ضيقت علينا . الوجه الثالث : تطير المدعى الذي ليس له أصل، وقولهم : لانقطاع المطر عنا بسببكم . لتنفير الناس عن متابعتهم . يحتمل أن هذا هو السبب، ويحتمل أن ما حل بهم من العقوبات الأخرى التي من جملتها ما عاقب الله بها آل فرعون أرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، تسع عقوبات، ويمكن أن يكون هناك عقوبات غير هذا أيضاً .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن دعوتنا إلى اتباعكم وترك ما كنا عليه ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ الجملة هذه جواب القسم، وليست جواب الشرط، لأنها قرنت باللام، وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنها جواب القسم، لا جواب الشرط، ولهذا أشار ابن مالك رحمه الله في الألفية حيث قال :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ الرجم هو الرمي بالحجارة، ومنه رجم الزاني

المحصن أي يرمى بالحجارة حتى يموت ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّتًا﴾ ليصيبنكم، ومس كل شيء بحسبه: فمس الإنسان للإنسان له معنى، ومس العقوبات والمصائب له معنى، والمراد بالمس هنا الإصابة، وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المكذبين المعتدين من الضرب وشبهه، ومنه الحبس أيضاً فإنه عذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى مؤلم فهو فعيل، بمعنى مفعول، ومنه قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

(السميع) بمعنى المسمع، لا بمعنى السامع، فالإيم بمعنى مؤلم، لا بمعنى ألم، قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سبيل التنوع، أو على سبيل الجمع؟ يعني أنهم يرمونهم ويعذبونهم قبل الرجم، أو أنه على سبيل التنوع، وأن الواو بمعنى «أو» أي: نرجمنكم حتى تموتوا، أو ليمسنكم منا عذاب أليم دون الرجم؟ الآية تحتمل معنيين، فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب، لأن الرجم هنا سابق في الذكر، لاحق في الواقع، لأن العذاب الأليم قبل الرجم، إذ إن الرجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير، وأما إذا جعلنا الواو بمعنى «أو» للتقسيم، فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين: إما الرجم، وإما العذاب المؤلم الشديد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَٰغِيْرُكُمْ مَّعَكُمْ أَبِن ذُكْرِتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

مُتَّسِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ الضمير يعود على الرسل، يخاطبون أصحاب القرية الذين كذبوهم ﴿طَٰغِيْرُكُمْ مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم ملازم

لكم، وذلك بسبب كفرهم فهم الشؤم على أنفسهم، وليس الشؤم من الرسل، بل من هؤلاء ولو شاءوا لآمنوا فزال عنهم ما حل بهم من العذاب والنقص، ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - [همزة استفهام دخلت على «إن» الشرطية، وفي همزتها التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأخرى]، سبق مثل هذا وأن فيها خمس قراءات، أو أربع قراءات: التحقيق، والتسهيل، فيقال «إن» هذا التحقيق، والتسهيل، «إن» بدون بيان الهمزة، إدخال ألف بينهما بوجهيها يعني وعدم الإدخال، فإدخال ألف التحقيق تقول إن ذكرتم، وبالتسهيل إن هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي همزة إن، والقراءات كلها سبعة<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ قال المؤلف: [وعظمت وخوفتم، وجواب الشرط محذوف، أي: تطيرتم وكفرتم]، قوله: ﴿أَيْنَ﴾ حرف شرط، والشرط يحتاج إلى فعل شرط، وإلى جواب الشرط، أما فعل الشرط فمذكور وهو قوله: ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ أما جواب الشرط محذوف، تقديره يقول المؤلف رحمه الله: [تطيرتم وكفرتم].

ولننظر ماذا حصل من التذكير لنعرف جواب الشرط ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجِمْنَاكُمْ وَلَيْسَنَّ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالذي حصل منهم أنهم تطيروا، وأنهم توعدوا بالرجم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مطابقاً للمذكور أي: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والعذاب الأليم، وكفرتم، قال

(١) يمكن الرجوع إلى الشريط المسجل وهو الشريط الثاني آخر الوجه الثاني.



المؤلف: [وهو محل الاستفهام. والمراد به التوبيخ] وهو أي: جواب الشرط المحذوف محل الاستفهام، يعني هو الذي ينصب عليه الاستفهام لا التذكير؛ لأن التذكير ثابت وليس فيه إنكار، إنما الإنكار والتوبيخ بالتطير بهم، واعتدائهم على الرسل، فهو محل الاستفهام الذي يراد به التوبيخ، يعني أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبخوهم وقالوا: أتتشاءمون وتتوعدون؛ لأننا ذكرناكم، فهذا هو محل الاستفهام، وإنما نص المؤلف على ذلك لأنه قد يظن الزان أن محل الاستفهام هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام وهي قوله: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾، والواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط، لا الشرط المذكور وهو أي الاستفهام للتوبيخ.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩) ﴿ هذا إضراب انتقال، يعني انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطرون بهم إلى وصفهم الحقيقي وهو أنهم قوم مسرفون، والإضراب يكون للإبطال، ويكون للانتقال، فإذا قلت: جاء زيدٌ بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، وإذا قلت: زيد في شك بل هو منكر، فهذا إبطال انتقال، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦) (١) ومنه هذه الآية الكريمة ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩) ﴿ وقوله: ﴿مُسْرِفُونَ﴾ (١٩) ﴿ أي متجاوزون للحد، ووجه التجاوز:

أولاً: أنهم كذبوا الرسل بلا بينة وبلا دليل؛ لأنهم اعتمدوا على ما ليس حجة لهم، ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقالوا: ﴿وَمَا

أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴿٩٥﴾ وَقَالُوا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ هذا إسراف جاوز الحد.

ثانياً: أنهم تطيروا بالرسول، وحقيقة الأمر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام محل تفاؤل؛ لأن في اتباعهم الخير ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾<sup>(١)</sup> وهؤلاء تطيروا بالرسول وليسوا محل لتطير بهم.

ثالثاً: أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم ينتهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى، وإبلاغهم رسالته، لقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ فكل هذا من الإسراف. وهو كذلك من العدوان أيضاً، ووجه ذلك:

أولاً: أنه لا يجوز للإنسان عقلاً أن يرد شيئاً بلا بينة، مع أن هؤلاء الرسل لا شك أنهم أتوا بأية تدل على صدقهم، ما بعث الله رسولاً إلا أعطاه ما على مثله يؤمن البشر.

ثانياً: تطيرهم بالرسول، والحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: «طائركم معكم» فتطيرهم بالرسول قلب للحقيقة؛ لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنهم توعدوا الرسل ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

## الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن هؤلاء المكذبين تشاءموا بالرسول، وهذه دعوى باطلة، يدعيها كل مكذب بالرسول.

٢ - أن المكذبين بالرسول يدعى عليهم ما لم يكن منهم، تشويهاً وتنفيراً.

٣ - استفاد منها: بيان عدوان هؤلاء المكذبين للرسول عليهم الصلاة والسلام، حيث توعدوا الرسول إن لم ينتهوا عن الدعوة إلى الله بالرجم المؤدي إلى الهلاك، أو بالعذاب الأليم إن لم يرجمواهم. وهذا فيه غاية العدوان العظيم على عباد الله، فهؤلاء الرسول عليهم الصلاة والسلام كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فهؤلاء المكذبون للرسول الذين يتهددونهم بالقتل والرجم والعذاب الأليم من أشد الناس عدواناً؛ لأنهم اعتدوا على الحق وعلى حامل الحق.

٤ - ومن فوائدها: أن الإنسان شؤمه بعمله، وليس بدعوته إلى الحق، لقوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

٥ - ومن فوائدها: أن الذنوب والتكذيب للرسول يكون سبباً للمحق والبلاء لقوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وهذا هو سنة الله عز وجل في جميع المكذبين للرسول، أن الله يبتليهم بالعقوبات لعلهم يرجعون.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإنكار على من ذكر فأعرض، لقوله: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾.

٧ - ومن فوائدها: جواز حذف ما علم بالسياق، ولا يعد هذا نقصاً في الكلام وبلاغته؛ لأن جواب الشرط محذوف لدلالته عليه، وربما يكون الحذف أبلغ.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء القوم كانوا مسرفين على أنفسهم متجاوزين للحد لقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وسبق بيان وجه إسراف هؤلاء وتجاوزهم للحد.

\* \* \*

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ أَتَّبِعُوا﴾

المُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ قال المؤلف: [هو حبيب النجار كان قد آمن بالرسول ومنزله بأقصى البلد]. قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ أي من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرسول والمكذبون لهم، وهو وسط المدينة، لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السكان تكون في الوسط. وهذا الرجل كان في أبعد المدينة فسمع أن هؤلاء كذبوا الرسول - وكان رحمه الله - قد آمن فجاء ينصح قومه، والله عز وجل يقول ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نكرة غير معرف، والمؤلف يقول [حبيب النجار] وهذا الاسم والتعيين لم يصح عن النبي ﷺ ولعله متلقى عن بني إسرائيل، وموقفنا في مثل هذا ألا ننكر وألا نثبت، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ وهنا بدء بيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة موسى حين قتل القبطي ذكر

الرجل قبل مكانه فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾<sup>(١)</sup> وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرجل ﴿وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ وذلك لأن هذا الرجل كان مؤمناً فسهل عليه أن يأتي من المكان البعيد، فذكر مكانه لبعده ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر. أما ذلك فالمقصود به العلم أن يأتي أحد بالعلم، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

وهنا قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ وفي أول الآية قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ وهذا يدل على أن القرية تسمى مدينة، والمدينة أيضاً تسمى قرية، فمكة سماها الله تعالى قرية وهي أم القرى، ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، ولذلك لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإن كانت بلدة كبيرة سميت في عرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سميت في عرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عرفي فقط.

قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يشتد يركض لئلا تفوته الفرصة حين سمع بتكذيبهم ﴿قَالَ يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿قَالَ﴾ هذا جملة مفصولة عما قبلها، أي أنها أتت بدون حرف العطف كأنها

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٣.

جواب عن سؤال مقدر، تقديره فماذا قال حين جاء؟! ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ  
 أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ و ﴿ قوم ﴾ منادى منصوب بالنداء؛ لأنه  
 مضاف، وقد حذفت منه ياء المتكلم، وأصلها (يا قومي) ولكن  
 حذفت الياء للتخفيف، أو لالتقاء الساكنين؛ لأن اتبعوا مبدوءة  
 بهمزة وصل، وهمزة الوصل ساكنة. قال الرجل: ﴿ يَتَقَوَّمُ أَتَّبِعُوا  
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ولم يقل يا أيها السفهاء، يا أيها الجهال، بل  
 قال: ﴿ يَتَقَوَّمُ ﴾ تودداً وتعظفاً لهم، ولم يقل: يا إخواني، لأنه لا  
 أخوة بين المؤمن والكافر، فهو مؤمن وهم كفار، لكن  
 ﴿ يَتَقَوَّمُ ﴾، يصح أن يقال: يا قوم ولو كانوا كفاراً. قال الله تعالى  
 مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾<sup>(١)</sup> قال: ﴿ يَتَقَوَّمُ  
 أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان  
 والعمل الصالح؛ لأن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا  
 إلى ما دعت إليه الرسل كلهم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ  
 قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾<sup>(٢)</sup> فهم  
 دعوا إلى هذا، إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ  
 أَجْرًا ﴾ كرر الأمر بالاتباع من باب التأكيد ﴿ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾  
 ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ ﴾ ولو حذفت اتبعوا الثانية وقيل: اتبعوا  
 المرسلين من لا يسألكم أجراً، لصح الكلام لكن كررت للتأكيد؛  
 لأنها هي المقصود الأول بالخطاب أن يتبعوا المرسلين ﴿ مَنْ ﴾ أي:  
 أي: الذي، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يدعون

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

الناس ولا يأخذون ولا يطلبون على دعوتهم من الناس أجراً، لكنهم يرجون من الله الأجر، أما من الناس فلا يأخذون أجراً، فهم لا يتخذون أجراً على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير فإنما يرجون الأجر والثواب من الله ﴿أَجْرًا﴾ هنا محلها من الإعراب مفعول ثان، والكاف مفعول أول، وهذان المفعولان من باب مفعولي، كسا وأخواتها ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ فبين هنا أن هؤلاء الرسل على هدى وليسوا على ضلال، وهم لا يسألون أجراً على ما دعوا إليه، وقوله: ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ يحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدعاة أنهم على هدى، ويحتمل أن تكون للحال أي: لا يسألونكم أجراً مع كونهم مهتدين. ثم قال المؤلف: [ف قيل له: أنت على دينهم؟ فقال: وما لي لا أعبد الذي فطرني] ما قدره المؤلف - رحمه الله - من أنه قيل للرجل: أنت على دينهم؟ لا يتعين، بل يجوز أن يكون الرجل قال: «وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني» على أن المراد به هؤلاء القوم كأنه قال: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) لكن أضافه إلى نفسه من باب التلطف بالخطاب، هذا هو الأقرب لأمر:

أولاً: أن ما ذكره المؤلف لا دليل عليه، والسياق لا يستلزمه، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السياق؛ لأنه لا يستلزمه فالأصل عدمه.

ثانياً: أن ما قلناه أبلغ في التلطف بالدعوة بدلاً أن يقول: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) قال: ﴿وَمَا لِي﴾ فأضاف الأمر

هنا إلى نفسه تلطفاً .

وقوله ﴿ وَمَا لِي ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده، ولهذا قال: ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ أي لا أتذلل للذي ﴿ فَطَرَنِي ﴾ قال المؤلف: [أي خلقتني أي لا مانع لي من عبادته الموجود مقتضيتها، وأنتم كذلك] قوله: ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ تقدم لنا أن العبادة هي التذلل لله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، محبة وتعظيماً، وأن العبادة تطلق على التبعيد الذي ذكرناه، وعلى المتعبد به وهي الأفعال التي يتعبد بها الإنسان، أو الأقوال، وعلى هذا حداها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بأنها هي: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة). وقوله: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ولم يقل: لأعبد الله ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: «أعبد الذي فطرني» مقتضى لكونه هو المعبود. إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبود وهذا كقوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾<sup>(١)</sup> فقوله: ﴿الذي خلقكم﴾ كتعليل للأمر بعبادته وحده، كما أنه الخالق وحده، فيجب أن يكون المعبود وحده، ولهذا قال المؤلف [الموجود مقتضيتها] وما مقتضيتها أنه هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، فلزم أن يكون هو المستحق للعبادة وأن يعبد، وقوله: ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي خلقتني لأول مرة، والفطر والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة، قال الله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١ .



﴿وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> فالذي فطر الخلق لأول مرة وعلى غير مثال سابق هو الله تعالى، فإذا يجب أن يكون هو المعبود، أما أن تعبد غير الله، وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق كما قال الله عز وجل: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فكيف يصح أن يعبد هؤلاء، فهذا الرجل من فقهه وحكمته وحسن دعوته أنه قرن الحكم بالدليل، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا مما يؤيد ما قلنا من أنه يريد قومه، لكن من باب التلطف في خطابهم قال: ﴿وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ كما تخاطب صاحبك الآن تحاوره أو تخاصمه تقول: مالي لا أفعل كذا. وكذا يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانع لي، فهو لا مانع لك أيضاً، قال المؤلف - رحمه الله -: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [بعد الموت فيجازيكم بكفركم] لو قال المؤلف: بعملكم، لكان أشمل؛ لأنه يجازيهم بالكفر إن استمروا عليه، ويجازيهم بالإسلام إن أسلموا، فلو عبر المؤلف بقوله: (سيجازيكم بعملكم) لكان أولى.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان نصح هذا الرجل لقومه

من وجهين:

الوجه الأول: أنه جاء من مكان بعيد، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ .

(١) سورة فاطر، الآية: ١ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٧ .

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٠ .

الوجه الثاني: أنه جاء يشتد ﴿يَسْعَى﴾ فيستفاد منه أنه ينبغي للإنسان انتهاز الفرص في إنذار قومه ومناصحتهم، وأن لا يتوانى، فيقول: غداً أذهب إليهم، أو في آخر النهار، أو ما أشبه ذلك، فيبادر بالنصيحة والموعظة؛ لأن هذا الرجل جاء يسعى.

٢ - من فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز للإنسان أن يبادر بالإنذار قبل أن يقدم له مقدمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، لقوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أمرهم من أول الأمر، ولم يأت بمقدمة تهيئهم للقبول. لأن الحال تستدعي ذلك.

٣ - ومنها أيضاً: أنه ينبغي التلطف بالقول في دعوة الغير لقوله: ﴿يَقَوْمٍ﴾ فإن هذا يستوجب اتباعه، وقبول نصحه؛ لأن للإنسان حذباً وشفقة على قومه.

٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجراً على ما أتوا به من الدلالة والهداية لقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾.

٥ - ومن فوائدها: أنه ينبغي أن يقدم الوصف الموجب للقبول، قبل الوصف المفضل للقبول. فهنا قال: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ والمرسلة وصف يقتضي وجوب قبول المرسل. ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ هذا من باب الكمال.

٦ - ومن فوائدها: أنه ينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أعطوه؛ لأنه ربما تنقص منزلته إذا قبل ما يعطى من أجل دعوته وموعظته؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجراً لا بلسان

الحال، ولا بلسان المقال، وبه نعرف قبح ما يعمله بعض الناس - وإن كان والحمد لله قد قل - يقوم ويعظ الناس موعظة قد تكون بليغة، فإذا انتهى قال: إني في حاجة وصاحب عائلة وما أشبه ذلك، فصارت الموعظة للدنيا.

فهل يستفاد منه هذا أنه لا يجوز أخذ الأجر على تعليم العلم، لما فيه من المخالفة لطريق الرسل، أو يقال لا. لأن الذي لا يجوز الأخذ عنه الدعوة لله عز وجل، فهذه لا يجوز أخذ الأجر عليها لوجوب الدعوة على الإنسان، أما التعليم الذي يحتاج إلى معاناة وإلى تعب وإلى تفهيم خاص فهذا لا بأس به، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»<sup>(١)</sup>.

هل يستفاد من الآية: أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب: لا يستفاد، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى، فكون الإنسان يذهب يدعو إلى الله عز وجل بدون أن يأخذ مقابلاً ولا من الحكومة، لا شك أن هذا أفضل، وأقرب إلى الخلاص وأشد وقعاً في نفوس الناس، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ؛ لأن الله تعالى يلقي ذلك في قلوب الناس، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي، وإن لم يعلموا أنه لا يأخذ شيئاً.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (٢٢٧٦) ومسلم، كتاب السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (٦٥) (٢٢٠١).

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من طريق الدعوة أن يذكر الإنسان حال الداعية بوصفه بما يوجب قبول قوله؛ لقوله: ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢١) ﴿وقد ذكر ما يوجب قبول قولهم في أول الدعوة﴾ ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٢) ﴿وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢١)﴾.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم؛ لأن هذا هو وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم يدعون إلى الله على هدى منه، وأما من يدعو على غير هدى فإنه قد يفسد أكثر مما يصلح؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالاً، والحلال حراماً وهو لا يدري، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا بأس للإنسان أن يضيف الشيء إلى نفسه على سبيل الفرض تلطفاً، لقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني على فرض أنني أتخذ من دون الله آلهة فما الذي يمنعني أن أعبد الله عز وجل وحده؟!

١٠ - ومن فوائدّها: الإرشاد إلى وجوب الإخلاص في العبادة لقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإن الله تعالى منفرد بفطر الخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، فلا يدعي أحد أن الآلهة تخلق، إذاً لا يجوز أن تعطى شيئاً من العبادة التي يختص بها من يخلق وهو الله عز وجل.

١١ - ومنها: أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله، أو علته؛ لقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإن هذا كتعليل لقوله:

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ﴾ ولهذا عدل عن قوله: (ما لي لا أعبد الله) إلى قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ليكون هذا كدليل والتعليل لوجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وهذا في القرآن الكريم والسنة كثير.

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي ذكر ما يكون به الحذر والخوف بعد أن يذكر ما يكون الترغيب والحث لقوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فذكر ابتداء الخلق وانتهاءه، وأنه كله إلى الله عز وجل، وهنا نجد الفرق بين التعليل الأول ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل «وإليه أرجع» لأنه - كما قلنا - إنما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قومه، لكنه أضافه تلطفاً وتوبيخاً لهم، وكأنه يقول: «أنا لا أعبد إلا الذي فطرني» فلماذا تعبدون أنتم معه غيره وإليه ترجعون؟! .

\* \* \*

﴿ءَاتَخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ قال المؤلف: [أأخذ في الهمزتين منه ما تقدم في ﴿أنذرتهم﴾ هو استفهام بمعنى النفي] فيكون معنى ﴿أأخذ﴾ أي: لا أأخذ، وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أتى بمعنى النفي فإنه يفيد معنى التحدي، ولكنه هنا يفيد معنى الامتناع، غاية الامتناع، يعني أنه لا يمكن أن أأخذ من دونه - أي غيره - آلهة ﴿ءَاتَخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ معروف أن أأخذ تنصب مفعولين ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ المفعول الثاني ﴿ءَالِهَةً﴾ المفعول الأول، ويجوز أن نجعل ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ في موضع النصب على الحال من

﴿إِلَهَةً﴾ ويكون الثاني محذوفاً أي: (أأخذ أصناماً آلهة) وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف لقوله: [أصناماً] قال: ﴿إِنْ يُرِدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ التي زعمتموها ﴿شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ ﴿١٣﴾ [صفة آلهة] يريد المؤلف في الإعراب أن قوله: ﴿إِنْ يُرِدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ هذه الجملة الشرطية صفة لآلهة، يعني لا أأخذ آلهة هذا شأنها، وهو أن الله لو أراد بضر لم تنفع شفاعتهم ﴿لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾، هذا معنى كلام المؤلف.

وقيل: إن الجملة استئنافية لبيان حال هذه الآلهة، أي: أأخذ من دونه آلهة ثم قال: هذه الآلهة لا تغني شفاعتها شيئاً من دون الله، ولا تنقذ.

ولكن ما ذهب إليه المؤلف أظهر، فتكون الجملة الشرطية في موضع نصب صفة لآلهة قال: ﴿إِنْ يُرِدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعني إن يردن الله عز وجل، وذكر الرحمن؛ لأن الرحمن اسم يدل على الرحمة، ولما كان الضر قد يفهم منه من يفهم من الناس انتفاء الرحمة عن المرید، ذكر ذلك باسم الرحمن لئلا يظن ظان، أو يتوهم الواهم هذا الوهم، أن إرادة الله الضر للإنسان تنافي الرحمة، لأن إرادة الضر بالإنسان قد يكون من رحمة الإنسان. قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿١﴾ فما يصيب الإنسان من الضر له نتائج حميدة وهي الرجوع إلى الله عز وجل، والاعتبار

بما جرى، ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا تنفعني بشيء، والشفاعة في الأصل هي: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. فهذه الأصنام التي تعبد من دون الله يدعي عابدها أنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾<sup>(١)</sup> إذا فهم يدعون أنهم يعبدونها لتشفع لهم، وهل هذا الوهم أو هذا الظن صحيح؟ الجواب: لا، لأنهم عبدوها ولم يتخذوها وسيلة، بل جعلوها غاية، ولهذا لا يخطر في قلوبهم حين التعبد لها إلا التعظيم لهذه الأصنام وينسون الخالق عز وجل، ﴿وَلَا يُنْقِدُونَ<sup>(٢)</sup>﴾ أي من الهلكة، أو الضر الذي أراده الله تعالى بهم.

### الفوائد:

١ - بيان الإنكار والتسفيه والتوبيخ للذين يتخذون مع الله آلهة، لأن المراد من الاستفهام: الإنكار والتسفيه والتوبيخ لهؤلاء.

٢ - ومن فوائدها: أنه ينبغي قرن الحكم بالتعليل لأنه قال: ﴿ءَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ . . .﴾ إلى آخره، فهذه الآلهة لا تنفع، ولا تضر، ولا تدفع، فهي لا تنفع من عبدها، ولا تضر من عدل عنها، ولا تدفع عن عابديها ضرر الغير، يقول عز وجل: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ فهم لا يستطيعون دفع ضرر الغير، وهم - أي الآلهة - لا ينفعون عابديهم، ولا يضررون من عدل عن عبادتهم فهي قاصرة بنفسها لا

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

تجلب نفعاً ولا ضرراً، ولا تدفع الضر عن عابديها فتكون عبادتها خسران .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل معبود فهو آلهة لقوله: ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ لكن إن كان يستحق العبادة فهو إله حق وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، وإن كان لا يستحق العبادة وهو من سوى الله فعبادته باطلة وألوهيته باطلة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الإرادة لله - عز وجل - لقوله: ﴿إِنْ يَرِدْ مِنْ الرَّحْمَنِ بَصُرٌ﴾ وإرادة الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية .

القسم الثاني: إرادة شرعية .

فالإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة، ويتعين فيها وقوع المراد، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله تعالى .

والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة، ولا يتعين فيها وقوع المراد، ويتعين أن يكون فيها محبوباً لله عز وجل .

فإذا قال قائل: ﴿إِنْ يَرِدْ مِنَ الرَّحْمَنِ بَصُرٌ﴾ والضر شر على الإنسان فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «الشر ليس إليك»<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢ .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الندب الأكيد إلى قيام ليلة القدر ٢٠١ (٧٧١).



فالجواب: أن النبي ﷺ لم يقل: «الشر ليس منك»، بل قال: «الشر ليس إليك» والله عز وجل قد يريد الشر، لكن إرادته الشر خير، فالشر في مفعوله، لا في فعله، فقد يريد الله وقوع الشر، لكنه لمصلحة عظيمة، هذه المصلحة نبت نسبة الشر لله، ولهذا يفرق بين الشر منك، والشر إليك، فالشر لا يضاف إلى الرب، ولكن يضاف إلى المفعولات والمخلوقات، مع أن هذه المفعولات والمخلوقات شر من وجه، وخير من وجه، ففعله سبحانه وتعالى كله لحكمة وغاية محمودة، وانظر مثلاً إلى المرض إذا أصاب الإنسان، فلا شك أنه شر بالنسبة لصحته، ولكن لا تشعر بنعمة الصحة، لكن إذا مرضت شعرت بقدر النعمة، (وبضدها تتبين الأشياء)، فأنت الآن تتنفس النفس، تتنفس وأنت تأكل، تتنفس وأنت تتكلم، تتنفس وأنت قائم، وأنت قاعد، وأنت مضطجع، لا تحس بأي شيء، لكن لو قدر الله تعالى أن يحبس نفسك، ويصبح عندك ضيق تنفس عرفت قدر النفس، فالحاصل أن هذا الشر شر نسبي في الواقع حتى بالنسبة لمن وقع عليه.

مثال آخر: الفيضانات، والزلازل، والجذب، شرور، لكن بالنسبة إلى تقدير الله لها هي خير، فهي شر بالنسبة لمن أصابتهم، لكن خير بالنسبة للآخرين يتعظون ويخافون، وقد تكون خيراً لأولئك المصابين بحيث يرجعون إلى الله عز وجل، ويعرفون أن المعصية عاقبتها وخيمة ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

رَجِعُونَ ﴿٤١﴾<sup>(١)</sup> إِذَا فَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ: «الشر ليس إليك» وبين مثل هذه الآية ﴿إِنْ يُرَدَّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرِّ﴾.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات صفة الرحمة لله عز وجل مؤخوذة من قوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾؛ لأن الرحمن وصف مشتق، والوصف المشتق يدل على المعنى المشتق منه، ولا بد، بخلاف الأسماء الجامدة، كأسد، وحجر، وتراب، وما أشبهها هذه لا تدل على معنى، لكن الأسماء المشتقة لا بد أن تدل على معنى، هذا بالنسبة إلى أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ وكتابه، أما بالنسبة لمن تسمى بها من المخلوقين فقد تدل على المعنى وقد لا تدل، فقد نسمي شخصاً عبداً لله وهو كافر بالله، وقد نسمي شخصاً محمداً وهو مذمم، وقد نسمي خالداً وهو سيموت، وقد نسمي صالحاً وهو من أفسد الناس.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن عابدي الأصنام يموهون على الناس بعبادتهم، فيدعون أنهم يعبدونها لتكون شفيعاً لهم عند الله، وهذا عندما يسمعه السامع يظن أنهم يجعلون الآلهة في مرتبة دون الله؛ لأن مرتبة الشافع دون مرتبة المشفوع إليه.

فيقولون: (إنهم شفعاء لنا إلى الله)، والحقيقة أنهم لم يجعلوهم شفعاء، بل جعلوهم شركاء لله؛ لأنهم يعبدونهم كما يعبدون الله، فيستفاد منه الحذر من التلبس في الأسماء أو بالتسمية، وأن صاحب الباطل قد يسمي نفسه بما يقتضي أن يكون على حق، وليس كذلك. فالمعتزلة - مثلاً - يسمون أنفسهم «أهل

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

التوحيد»، والمعطلة يسمون أنفسهم «أهل التنزيه»، يقولون: نحن ننزه الله، أما أنتم أهل السنة لا تنزهون الله جعلتموه صنماً فمثلتموه بالخلق في إثبات الصفات. وهؤلاء أيضاً المعتزلة يقولون: نحن نفينا الصفات لنوحده الله، لأن تعدد الصفات يستلزم تعدد الموصوف، فهذا تمويه، والمعتزلة ينكرون أن يكون لله تعالى تعلق بفعل العبد، فيسمون أنفسهم أهل العدل، ويقولون أنتم يا أهل السنة أهل الظلم جعلتم الله ظالماً حيث هو الذي يقدر المعاصي على العبد ثم يعاقبه عليها، أما نحن فنحن أهل العدل نقول: الإنسان هو المستقل بنفسه وعمله، فإذا جوزي على معصيته فقد استحق الجزاء، لأنه فعله. والنصارى سموا أنفسهم بالمسيحين تلطيفاً لحالهم، ليوهموا أنهم على دين المسيح، والواقع أن المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه، إذ لو كانوا على دينه وقابلين له لقبوا بشارته بمحمد ﷺ فإن عيسى عليه الصلاة والسلام بشرهم به، وقال: ﴿يَبْنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾<sup>(١)</sup> ولو كانوا مؤمنين بالإنجيل لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله يقول: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾<sup>(٢)</sup> فهم لا آمنوا بعيسى، ولا بكتاب عيسى وهو الإنجيل، لكن مع ذلك سموا أنفسهم بالمسيحين تلطيفاً لما هم عليه من الباطل؛ ليصبغوا

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

نحلتهم بصبغة القبول، فيجب الحذر من التلبس في التسمية؛ لأن هؤلاء يقولون: نعبد الآلهة ليكونوا شفعاء لنا. وهم في الحقيقة إنما جعلوهم شركاء.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا أحد ينقذ من أراد الله

تعالى بضر لقوله: ﴿وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ (٢٣).

فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نشاهد الغريق عصفت به الريح حتى سقط في الماء فجاء شخص فأنقذه، فهذا أنقذه مما أراد الله عز وجل به من سوء؟

فالجواب أن نقول: أن إنقاذه بتقدير الله عز وجل، لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يهلك هذا الرجل لم يكن عنده أحد، ولو شاء الله أن يهلك لكان عنده من لا يجيد السباحة، ولو أراد الله أن يهلك لكان عنده من لا يريد الإحسان، فإذا قيض الله له شخصاً قادراً على إنقاذه محباً للإحسان أنقذه بقدر الله عز وجل، ونحن نؤمن بالأسباب، ولكن لا نؤمن بأنها مستقلة، فنكون وسطاً بين الذين ينكرون تأثير الأسباب، وبين الذين يدعون أنها مؤثرة بنفسها.

فنقول: هي مؤثرة لكن بجعل الله لها تأثيراً، ولو شاء الله تعالى لسلب الأسباب تأثيرها، فالنار محرقة، وقال الله تعالى لها حين ألقي فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) (١) فصارت برداً وسلاماً ولم تكن سبباً للإحراق، والماء جوهر سيال لا يمكن حجزه إلا بحاجز، ولما ضرب موسى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

عليه الصلاة والسلام البحر صار الماء كالجبال، بدون حواجز، وهذا خلاف الأسباب المعتادة، لكنه بقدر الله عز وجل، وبه نعرف أن الأسباب مؤثرة بجعل الله تعالى لها تأثيراً، وإلا لسقط تأثيرها؛ لأن الكل بيد الله .

وبمناسبة ذكرنا نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال بعض المفسرين: إن الله لما قال لها: ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ٦٩ ﴾ صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة ولا تحرق، واستغرب الناس ذلك وقالوا: ما لهذه النار ما غلا القدر عليها، ولكن هذا لا شك أنه قول خاطيء بعيد من الصواب، بل هو خلاف أمر الله عز وجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ يَا نَارُ ﴾ ونار نكرة مقصودة، ولهذا بنيت على الضم فهي كالعلم يراد بها شيء معين، وهي النار التي ألقى فيها، ثم قال: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ٦٩ ﴾ فهذا القول خلاف الآية الكريمة، وسبحان الله بعض الناس - رحمة الله عليهم وعفا عنهم - يذهبون المذاهب نقول: كيف تقع هذه من عالم، والغالب أن هذه تجدها عن بني إسرائيل فتأخذ مسلمة ولا ينتبه لمعارضتها لآي الكتاب .

\* \* \*

﴿ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢٤ ﴾ ﴿ إِنِّي إِذَا ﴾ هذه الجملة مؤكدة بإن؛ لأن المقام يقتضي التوكيد وقوله: ﴿ إِذَا ﴾ قال المؤلف: [أي: أن عبدت غير الله] لقوله ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ويجوز أن نقدر ﴿ إِذَا ﴾ أي: إذا اتخذت من دونه آلهة، لقوله: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِنْ

دُونِهِ ءَإِلَهَةٌ ﴿٢٤﴾ و(إذا) هذا ظرف يدل على الحال، و(إذا) تدل على المستقبل و(إذ) ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن (إذاً) للحال و(إذا) للمستقبل و(إذ) للماضي وتأتي (إذ) لغير ذلك، كما تأتي للتعليل مثلاً.

﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ اللام هنا للتوكيد، الجملة مؤكدة بمؤكدتين يعني إن اتخذت معه آلهة، أو عبدت غيره ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ قال المؤلف: [بين] والضلال هو أن يتيه الإنسان عن جادة الصواب، ثم إن كان عن علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفاتحة فقال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ والمغضوب عليهم هم الذين جانبوا الصواب عن علم، والضالون هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم هم الذين عملوا بالصواب وعن علم، ووجه كون اتخاذ آلهة من دون الله ضلالاً مبيناً أنه حيدة عن الواجب شرعاً وعقلاً، فالواجب شرعاً أن لا تتخذ آلهة مع الله تعالى، كما جاءت به جميع الرسل، والواجب عقلاً أن لا تتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وفطره، وهو الذي بيده النفع والضر، فكيف تتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر ﴿إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ أعلن - رحمه الله - أنه آمن بالله عز وجل فقال: ﴿ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ وهناك قال: وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٢٦﴾ إشارة إلى أنه ليس الله رباً

له وحده بل هو رب الجميع . والإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بأمر أربعة :

الأول : الإيمان بوجوده .

الثاني : الإيمان بربوبيته ، وهنا صرح به في قوله : ﴿ ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فإثبات الربوبية إثبات للوجود .

الثالث : الإيمان بألوهيته .

الرابع : الإيمان بأسمائه وصفاته .

أي أنه متفرد بالربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات ، وقوله : ﴿ ءَأَمَنْتُ ﴾ الإيمان في اللغة : التصديق عند كثير من المفسرين الذين يفسرون الإيمان ، وقيل : إن معناه الإقرار والاعتراف ، فهو أخص من التصديق . قال : ﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾ الفاء هذه عاطفة على قوله : ﴿ ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أو على الجملة كلها ، وقول : ﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾ أي : اسمعوا قولي ، وهذا إعلان منه - رحمه الله - بإيمانه مراغمة لقولهم ، وإقامة الحجة عليهم ، ولهذا لما أعلن هذا الإعلان قتلوه ، وقال المؤلف : [ فرجموه فمات ﴿ قِيلَ ﴾ له عند موته ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ وقيل : دخلها حيًا ] .

لما أعلن - رحمه الله - هذا الإعلان ، وراغمهم ولم يأبه بهم ، ولم يهمله والظاهر - والله أعلم - أنهم توعدوه ، حينئذ رجموه فقتلوه ، فقيل له بعد موته ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، الأمر هنا للتكريم ، والجنة هي : الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى لأوليائه ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وقوله : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ بعد موته لأن الإنسان يعذب في

قبره، فإن كان من أهل الخير فإنه ينعم، وإن كان من أهل الشر فإنه يعذب قال: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ لما قيل له: ادخل الجنة، ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾، قال المؤلف: [حرف تنبيه] يعني (يا) حرف تنبيه وليست حرف نداء، لأنها دخلت على حرف و(يا) التي للنداء لا تدخل إلا على اسم، فإذا دخلت على ما لا يصح دخولها عليه فإنها لا تكون للنداء، وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته دخول النداء عليه، فإذا دخلت (يا) على غير اسم فهي للتنبيه، سواء دخلت على حرف مثل: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ أو دخلت على فعل، وأكثر ما تدخله من الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتنبيه، ويجوز أن تكون حرف نداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق، فمثل هذه الآية: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ نقدره فنقول: يا رب ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابها وجهان: أحدهما: أنها للتنبيه.

والثاني: أنها للنداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق. وقوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ليت هنا للتمني، ولعل للترجي، والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله، وما كان بين ذلك فتارة تستعمل فيه ليت، وتارة تستعمل فيه لعل، وما كان من ذلك فأحياناً لعل وأحياناً ليت، بحسب قربه من التعذر أو من القرب.

قال ﴿بِمَا غَفَر لِي رَبِّي﴾.

قال المؤلف: [بغفرانه] أي: بما حصل لي ﴿بِمَا غَفَر لِي﴾



رَبِّي ﴿ الباء هنا متعلقة بـ (يعلمون) والعلم هنا بمعنى المعرفة، فلا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، و(ما) مصدرية كما حلها المفسر وأولها إلى مصدر فقال [بغفرانه]. وهنا نذكر معاني (ما)، معاني (ما) عشرة:

١ - استفهامية . ٢ - شرطية . ٣ - موصولة . ٤ - تعجبية . ٥ - نكرة .  
٦ - كافة . ٧ - نافية . ٨ - زائدة . ٩ - للتعظيم . ١٠ - مصدرية .  
والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، لأنها مأخوذة من المغفر، والمغفر فيه شيئان:

أحدهما: الستر لأنه يستر الرأس .

والثاني: الوقاية؛ لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال ليتقي به السهام، وليس المغفرة بمعنى الستر فقط .  
ثم قال: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ فأضاف الربوبية، وهي من الربوبية الخاصة، لأن الربوبية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فالربوبية العامة هي الشاملة لجميع الخلق، التي مقتضاها التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضيه حكمته، والخاصة هي التي يكون فيها عناية بهذا المربوب، كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة: ﴿ قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٢٢) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ (١٢٣) ﴾ الأولى: ﴿ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عامة، والثانية: ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ خاصة، ويقابل ذلك العبودية فإنها عامة، وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ كُلَّ

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴿٩٣﴾<sup>(١)</sup> والخاصة كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾<sup>(٢)</sup> والخاصة فيها أخص وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾<sup>(٢٧)</sup> جعلني من المكرمين لدخوله الجنة؛ لأن دخول الجنة إكرام للإنسان من قبل الله تعالى، وإكرام من قبل الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وإكرام من جهة الولدان المخلدون الذين هم خدم لأهل الجنة، وإكرام من جهة الزوجات اللاتي هن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان، وإكرام من جهة بعضهم لبعض، فإنهم إخوان على سرر متقابلين، قد نزع الله ما في قلوبهم من غل، ومثل هذا لا بد أن يكون فيه إكرام من بعضهم لبعض، فأهل الجنة مكرمون، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المخلص فإنه مكرم بدخول الجنة، قال الله عز وجل لما ذكر المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ختم هذه الصفات بقوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ولهذا قال هنا: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾<sup>(٢٧)</sup>.

(١) سورة مريم، الآية: ٩٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٣٥.

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان أن من أعظم الضلال وأشدّه تيهاً أن يتخذ الإنسان مع الله آلهة لقوله: ﴿إِنِّي إِذْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

٢ - ومنها: أنه ينبغي التأكيد إذا كان المخاطب منكراً، أو حاله حال المنكر؛ لأنه يخاطب قومه الذين اتخذوا مع الله آلهة ويقول: ﴿ءَاتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ﴾ (٢٣) ﴿إِنِّي إِذْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) ولهذا أكد الجملة بمؤكدين (إن، واللام).

وربما يأخذ من الآية الكريمة أن كل من ضل عن الحق، أو كل من خالف الحق أصابه من الضلال بقدر ما خالف الحق؛ لقوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) فيفيد أن الضلال قد يكون خفياً، وقد يكون بيناً واضحاً.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال نصح هذا الرجل لأنه قرر وحدانية الله عز وجل بعدة أمور، منها ما سبق في قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ومنها: التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلال مبين، وهكذا ينبغي للداعية لله عز وجل إذا دعا إلى الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء، حتى يجمع بين الترغيب والترهيب.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من وحد الله فهو على هدى مبين، بين واضح؛ لأنه أصاب الفطرة، وأصاب ما جاءت به الرسل.

٦ - يستفاد من هذه الآية ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾ (٢٥) فضيلة هذا الرجل بإعلانه الإيمان بالله عز وجل ، فكل إنسان يؤمن ويعلن إيمانه بالله فإن ذلك له ميزة وفضيلة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) (١) أعلن أنه من المسلمين ولم يخف أحداً سوى الله .

٧ - ومنها : قوة شخصية هذا الرجل ، حيث أعلن أمام هؤلاء القوم أنه آمن ، وأمن بربهم الذي يستلزم أن يكونوا مخلصين له بالعبادة إذا كان رباً لهم ، كأنه أقام الحجة عليهم بذلك ، فإذا كان الله ربكم فواجب أن توحدوه ، ولا تتخذوا معه الهة ، وهذا يدل على قوة شخصيته ، زد على ذلك أنه تحداهم فقال : ﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ فأنا لا أبالي بكم فاسمعوا إني آمنت بربكم الذي يجب أن توحدوه ؛ لأنه ربكم .

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة : بيان ربوبية الله تعالى العامة حيث قال : ﴿ بِرَبِّكُمْ ﴾ مع كونهم مشركين كفاراً ، وهذا من الربوبية العامة .

٩ - استفاد من هذه الآية الكريمة : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) . إثبات نعيم القبر لقوله : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ مع أن الساعة لم تقم بعد ، ولم يدخل الناس الجنة ، ويدل ذلك آيات من القرآن لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ (٢٦) توفاهم الملائكة ﴿ طيبين ﴾ حال من الهاء

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٣ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٣٢ .

﴿يقولون﴾ حال من الملائكة، يعني حال كون الملائكة يقولون حين توفاهم ادخلوا الجنة فيستفاد من هذه الآية إثبات نعيم القبر. ومثل قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾<sup>(١)</sup> فهنا قال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ حين الموت، ثم قال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ لأن هذا قيل له: ﴿ادخل الجنة﴾ ولم تقم الساعة الآن، فهو دليل على أن الميت ينعم في قبره كأنه دخل الجنة، لأنه يلبس من الجنة، ويفرش من الجنة، ويفتح له باب من الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها فكانه دخلها.

١٠ - من فوائدها: أن هذا الرجل ناصح في حياته وبعد مماته، في حياته دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وأن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وبعد مماته تمنى أن قومه يعلمون بغفران الله له من أجل أن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وهذا دليل أن المؤمن لا تلقاه إلا ناصحاً حتى بعد موته يكون ناصحاً، وهذا الرجل تمنى أن قومه يعلمون بما غفر الله له لعلهم يرجعون فيؤمنون كما آمن.

١١ - ومن فوائده الآية الكريمة: إثبات وجود الجنة، وقد دل على ذلك آيات، وأحاديث كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٩.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ والإعداد بمعنى التهيئة، والنصوص في هذا كثيرة، وقد عرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يصلي صلاة الكسوف.

وهل تبقى الجنة أبداً؟

الجواب: نعم، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، والنار موجودة الآن وهو متفق عليه، بين أهل السنة، وهل تفتنى؟ الصحيح المقطوع به أنها لا تفتنى؛ لأن الآيات صريحة في ذلك فقد ذكر الله تعالى تأبيد الخلود فيها في ثلاث آيات من كتابه، في سورة النساء، والأحزاب، والجن، في سورة النساء قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ (١). في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ (٢) الثالثة في سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ (٣) فهذه ثلاث آيات صريحة في تأبيد أهل النار، ومع التصريح التأبيد ذكر عن بعض السلف أنهم كانوا يقولون بأنها تفتنى، ولكن هذا القول لا شك - مهما قاله من قاله - فإن قوله مردود عليه.

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: منة الله عز وجل على من آمن بالمغفرة والإكرام، فيتفرع على هذه الفائدة: أن الإيمان سبب المغفرة، وسبب لإكرام الله تعالى للعبد.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٤، ٦٥.

(٤) سورة الجن، الآية: ٢٣.

١٣ - ومن فوائدها: أنه لا يتم النعيم إلا بزوال المكروه، ويستفاد هذا من قوله: ﴿بِمَا غَفَر لِي رَبِّي﴾.

١٤ - ومنها: ما أشار إليه بعض الأدباء أن التخلية قبل التحلية لقوله: ﴿بِمَا غَفَر لِي رَبِّي﴾ وهذا تخلية وإزالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧) هذا تحلية ولهذا قيل: التخلية قبل التحلية.

١٥ - يستفاد منها: أن المغفرة تسبق الإكرام، والرحمة؟ ويدل لهذه القاعدة التتبع، فإن الغالب أن الله عز وجل إذا قرن بين الاسمين: الغفور والرحيم، يقدم الغفور على الرحيم.

١٦ - ومن فوائد الآية أيضاً: إثبات الربوبية الخاصة من قوله: ﴿رَبِّي﴾ فهذا من الربوبية الخاصة.

١٧ - ومن فوائدها: أن إكرام الله عز وجل لا يختص بهذا الرجل، بل هناك عالم يكرمهم الله تعالى لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧) ففيه حث على أن يفعل الإنسان كفعله لينال ما ناله ولم يقل (بما غفر لي ربي وأكرمني) بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧) ليبين أن الإكرام ليس خاصاً به، بل الإكرام موجود لكل من قام بعمل كعمله.

\* \* \*

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا

مُنزِلِينَ﴾ (٢٨) قال المؤلف - رحمه الله - : [ (ما) نافية: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي حبيب]. بناءً على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد أن هلك ومات على أيديهم، وقوله: ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ملائكة، فإن

الملائكة جنود الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿١٧٣﴾ فجنده الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿٢٨﴾ قال المؤلف [ملائكة لإهلاك أحد] وقيل: ما كنا منزلين ملائكة لإهلاك هؤلاء؛ لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تهلكهم، وهذا هو الأقرب، فيكون النفي هنا خاصاً بهؤلاء القوم؛ لأن الله أنزل ملائكة في بدر، وأنزل ملائكة في غزوة حنين، وكذلك في غزوة الأحزاب فأرسل عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿٢٨﴾ أي جنوداً لهؤلاء احتقاراً لهم، وهذا الذي مشى عليه المؤلف من أن المراد بالجنود الملائكة هو الصحيح، خلافاً لقول بعض العلماء: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي من وحي ورسول؛ لأن الوحي تنزل به الملائكة، لكن ما مشى عليه المؤلف أصح بدليل ما يأتي فيما بعد، قال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿٢٩﴾ ﴿إِنْ﴾ قال المؤلف: [أي: (إن) بمعنى (ما)] وعلى هذا فهي نافية، وينبغي أن نستحضر معاني (إن):

- ١ - تأتي نافية .
  - ٢ - وشرطية كما لو قلت (إن قام زيد قام عمر) .
  - ٣ - وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: وإن مالك كانت كرام المعادن .
  - ٤ - تأتي زائدة كقوله:
- بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١ .

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٧٣ .



فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة، وإذا أتت بعدها (إلا) فهي نافية، وقد تكون نافية بدون (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾<sup>(١)</sup> أي: ما عندكم. لكن القاعدة: أنه إذا أتت بعدها إلا فهي نافية، قال الله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ قال المؤلف: [عقوبتهم]، يعني ما كانت عقوبتهم التي عاقبهم الله بها لكفرهم ﴿إِلَّا صِيحَّةً وَاحِدَةً﴾ قال المؤلف: [صاح بهم جبريل] ﴿فَإِذَا هُمْ خَكِيمُونَ﴾<sup>(٢٩)</sup> يعني ما احتاجوا إلى عناء ولا جند، ما هي إلا صيحة، ولم يبين الله سبحانه وتعالى الصائح، والمؤلف قال: إنه جبريل. ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلا بدليل؛ لأن الواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلا أن يرد تعيينه بدليل صحيح، ولم يرد تعيين الصائح بدليل صحيح، وعلى هذا فنقول: صيح بهم، ولا نجزم من هذا الصائح، المهم أنها صيحة واحدة، صيح بهم فهلكوا عن آخرهم، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَكِيمُونَ﴾<sup>(٢٩)</sup> (إذا) هنا فجائية تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها، أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرة، ولهذا سميت فجائية؛ لأنها تفاجيء وتأتي فوراً فحين صيح بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَكِيمُونَ﴾<sup>(٢٩)</sup> وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم لأن ﴿هُمَّ﴾ ضمير يفيد الجمع والشمول.

### الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن الله عز وجل قد ينزل الملائكة لإهلاك المكذبين،

(١) سورة يونس، الآية: ٦٨.

ووجهه أن نفي إنزال الملائكة على هؤلاء القوم يدل على إمكانه في غيرهم، وإلا لما صح النفي.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الملائكة جند الله عز وجل لقوله: ﴿مِنْ جُنْدٍ﴾.

٣ - ومن فوائدها: أن الملائكة محلهم السماوات لقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾. وهذا هو الأصل، لكنهم قد ينزلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾<sup>(١)</sup> وكالملائكة الذين يحفظون بني آدم، والذين يكتبون أعمالهم، والذين يكتبون المتقدمين إلى الجمعة على أبواب المساجد وما أشبه ذلك.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حقارة هؤلاء القوم المكذبين لهؤلاء الرسل الثلاثة لقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان عظمة الله عز وجل وذلك لذكره بصيغة الجمع ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ولا يقال إن هذا يفيد التعدد كما استدلت بذلك النصارى، وقالوا: إن الآلهة متعددة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وما أشبه ذلك من الآيات، ويقال لهم: إن هذا التعدد للتعظيم، وكيف تستدلون بهذه الآيات المتشابهة وتعمون عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ

(١) سورة القدر، الآية: ٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧١.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ نَالِكٌ ثَلَاثَةٌ ﴿١﴾ لكن النصارى كغيرهم من أهل الزيف يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، ومن رأى اتباع المتشابهات من النصارى وغيرهم في نصوص الكتاب والسنة تبين له العجب العجاب، وأنه يجب علينا وجوباً مؤكداً طلب العلم لدفع شبهات هؤلاء؛ لأن هؤلاء انتشروا بيننا الآن وكثروا في هذه البلاد التي قال عنها رسول الله ﷺ: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»<sup>(٢)</sup> هؤلاء يبثون في الناس سمومهم، وهم الآن كما سمعنا يوصلون نشرات تدعوا إلى النصرانية، ويرسلون أشرطة تدعوا إلى النصرانية؛ لأنهم بدأوا يعرفون المحلات، ويعرفون العناوين ثم يرسلون إليها، وعندنا من هذا عدد، يؤتى إلينا بنشرات وأشرطة مسجلة تدعوا إلى النصرانية، هذه إذا وقعت في أيدي أناس لا يعرفون جهلاء، على الأقل تركز نفوسهم، وإن كنت أستبعد جداً أن يتنصر أحد من المسلمين، لأن دين النصارى الذي هم عليه الآن كله ضلال، لكن لا شك أنه يوقع الشبهة والخلود والاطمئنان إلى هؤلاء، لذلك أنا أرى أنه يجب على شباب المسلمين اليوم أن يتسلحوا بسلاح العلم المبني على الأثر والنظر؛ لأن أولئك القوم يشبهون بما يدعون أنه عقل، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط، بل لابد من أثر ونظر، فالأثر إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه:

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً» كتاب الجهاد، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (١٧٦٧).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> لكن المكذب لا يكفيه الأثر؛ لأنه لا يؤمن أصلاً بالأثر ويحتاج إلى نظر وعقل تدحض به حجته، والمهم أن مثل هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> يشبه بها النصارى على أن الله سبحانه وتعالى متعدد أكثر من واحد، وقد ذكرنا أنهم غفلوا بل عموا عن الآيات الواضحة الصريحة أن الله إله واحد، وأن الله كَفَّرَ من زعم أن الله متعدد ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

٦ - في هذه الآية دليل على أن الله أهلك هؤلاء القوم بصيحة واحدة لم تكرر مرة أخرى، صيحة واحدة هلكوا بها، لكن لو قال قائل: ما نوع هذه الصيحة؟ هل قيل أهلكوا؟ نقول: الله أعلم بهذه الصيحة، هذه الصيحة أبهمها الله، يحتمل أنها صرخة، ويحتمل أنهم أمروا بالهلاك، المهم أنها صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم.

٧ - بيان قدرة الله عز وجل، وأن من عارض الله أو ضاد الله مهما عظم فإن إهلاكه يسير على الله عز وجل، كل شيء يكون بكلمة واحدة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾<sup>(٥)</sup> وعند هذا الأمر الواحد ﴿كَلَّمَجَّ بِالْبَصْرِ﴾<sup>(٦)</sup> لا يتباطأ ولا يتأخر، فلمح البصر أسرع ما يكون، فإذا أراد الله شيئاً قال له: كن. فيكون كلمح البصر، وهذا يدل على عظمة الله وقدرته.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٣) سورة القمر، الآية: ٥٠.

٨ - بيان قدرة الله تعالى وأنه قادر على إهلاك الخلق بصيحة واحدة فقط بدون أي فعل، بل صوت مزعج يقطع القلوب، لقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ .

٩ - ومنها بيان ذل كل شيء لعظمته بحيث لا يكرر ولا يعيد ما أراده لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ لهذا أكدها بـ ﴿وَاحِدَةً﴾ لبيان أنهم لم يحتاجوا إلى إعادة الصيحة مرة ثانية، وهكذا جميع ما أمر الله تعالى به كوناً فإنه لا يحتاج إلى إعادة؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ .

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيحة أهلكتهم جميعاً لم ينج منهم أحد لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَعَمُودٌ﴾ (٢٩) وعلى هذا ترتيب فائدة أخرى وهي:

١١ - أن قبض ملك الموت لأرواح بني آدم أكبر مما نتصور، فإنه قد يقول قائل: كيف يقبض هذه الأرواح وهي تموت في آن واحد؟

فنقول: إن كيف في الأمور الغيبية لا ترد؛ لأن هذه أمور لا ندركها بحواسنا، فكل أمر غيبي لا تقل فيه: كيف؟ ولهذا لما قيل للإمام مالك - رحمه الله تعالى - : كيف استوى؟ قال: «الكيف غير معقول» أي: لا يمكن أن ندركه بالعقل حتى نسأل عنه .

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء القوم الذين كذبوا الرسل الثلاثة هلكوا جميعاً لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَعَمُودٌ﴾ (٢٩) وهذا يدل على أن من زعم أن هذه القرية التي أرسل إليها الثلاثة هي أنطاكية فإن زعمه باطل؛ لأن رسل عيسى عليه الصلاة والسلام

الذين أرسلوا إلى أنطاكية، كانوا بعد موسى عليه الصلاة والسلام ولم يهلك الله تعالى أمة على سبيل العموم بعد أن نزلت التوراة، هكذا قال كثير من العلماء، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾<sup>(١)</sup> قالوا: هذه الآية تدل على أن الله لم يهلك أمة على سبيل العموم بعد نزول التوراة، وهذه الآية ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> تدل على أنهم هلكوا.

\* \* \*

﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ﴾

**يَسْتَهْرِءُونَ** ﴿٣٠﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا، وهي - أي الحسرة - شدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أو أوائك فاحضري]، قوله: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة هي: شدة الندم والتألم والحزن على ما مضى، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾<sup>(١)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ مَا كُنَّا نَدْرَأُ مِنْكُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴿٣١﴾ - أي ندمات وعناء - وقوله: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ﴾ قيل: إن القائل هم المكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: يا حسرة على العباد، ثم بينوا السبب كما سيأتي.

وقيل: إن الحسرة من اتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد.

(١) سورة القصص، الآية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧.

وقيل: إن التحسر من الله عز وجل، لكن ليس معناه أنه يتصف به، بل المعنى أنه يبين حسرة العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون ﴿عَلَى﴾ قريبة من معنى ﴿مِّن﴾ يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المكذبين سوف يتحسرون على تكذبيهم وهذا أقرب إلى السياق، لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَكَمِدُونَ﴾ (٢٩) يَحْسَرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ ﴿ فالكلام كلام الله عز وجل، لكن لما كان التحسر نداماً وألماً صار الله تعالى منزهاً عنه، فوجب أن يكون المراد: يا حسرة واقعة عليهم، أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسول كما نبينه آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المراد بالعباد هنا العبودية العامة، وليست الخاصة، لأن العبودية الخاصة لا تحسر على أهلها، وقد تقدم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة وخاصة، فإن قيل: العبودية العامة يدخل فيها غير مكذبين؟

فالجواب أن نقول: العبودية هنا عامة، لكنه عام أريد به الخصوص وهم المكذبون للرسول، قال المؤلف: [ونداؤها مجازاً] يعني ليس حقيقة؛ لأن النداء حقيقة إنما يوجه إلى من يعقل، وما لا يعقل فليس نداؤه على سبيل الحقيقة، ولهذا قالوا في قول الشاعر:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

أن هذا يراد به التمني، وليس نداء بمعنى طلب الحضور، لأن الليل لا يعقل، فالنداء حقيقة إنما يوجه لمن يعقل، وإذا وجه

لمن لا يعقل صار له معنى آخر على سبيل التجوز، والمعنى أنه جعل غير العاقل كالعاقل، كأن الحسرة شيء يأتي ويذهب يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢٠) ﴿مَا نَافِيَةٌ (من) زائدة لوقوعها في سياق النفي، وهي زائدة، زائدة، زائدة لفظاً، وتزيد في المعنى، وهذا معنى قولنا: (زائدة، زائدة) وليس في القرآن حرف واحد لا يفيد معنى أبداً، فكل ما في القرآن فإنه يشتمل على المعاني، ولكن قد يكون زائداً من حيث الإعراب فقط، ولهذا فإعراب (رسول) في هذه الآية فاعل مرفوع بضممة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائدة، وفائدتها التنصيص على العموم؛ لأن (رسول) نكرة في سياق النفي فيعم، فإذا جاءت (من) صارت أنص وأدل على العموم مما لو حذف، ولهذا قالوا: إن فائدتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم، وقوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ الرسول عند عامة أهل العلم هو بشر أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، ويطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمي جبريل عليه الصلاة والسلام رسولاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) (١) وقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢٠) أي: إلا كانوا يستهزءون به ولكن قدم المعمول وهو (به) لإفادة الحصر، ولمناسبة رؤوس الآيات فقدم لفائدتين: فائدة لفظية، وهي مراعاة الفواصل، وفائدة معنوية، وهي: الحصر، كأنه قال: (إذا أتاهم الرسول فكأنهم لا يستهزءون بأحد سوى هذا

(١) سورة التكوير، الآيتان: ١٩، ٢٠.



الرسول)، وهم يستهزءون بغيره، ولكن لما كان هؤلاء قد أمعنوا في الاستهزاء بالرسل صاروا كأنهم لا يستهزؤون إلا بالرسل والاستهزاء هو السخرية والهزاء.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية دليل على شدة تحسر العباد المكذبين للرسل لقوله: ﴿يَحْصِرَةٌ﴾، ولهذا جاء النداء على سبيل التنكير، ليدل على أنها حسرة عظيمة؛ لأن التنكير يفيد أحياناً التعظيم والشدة.

٢ - ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين للرسل سيجدون أعمالهم حشرات عليهم، لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات عدل الله عز وجل وهو أنه لا يؤخذ أحداً إلا بذنبه لقوله: ﴿يَحْصِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فلن يعاقب الله أحداً إلا بذنب، بل إنه عز وجل قد يعفو عن الذنب إذا كان دون الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرسالة لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾ وأن الرسالة عامة في كل أمة؛ لأنه قال: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾ فكل العباد قد قامت عليهم الحجة ﴿وَلِإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الاستهزاء بالرسول كفر موجب للعقوبة؛ لأن السياق في قوم كذبوا الرسول فأهلكوا جميعاً ثم قيل: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) ﴿٣٠﴾ فدل هذا على أن الاستهزاء بالأنبياء أو بالرسول كفر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿١﴾ فلا استهزاء بالكتب كفر، لقوله: ﴿وآياته﴾ والاستهزاء بشرع من الشريعة ولو بشعيرة واحدة كفر؛ لأن الاستهزاء بالشعيرة الواحدة استهزاء بكل الشريعة، كما أن الكفر بالشعيرة الواحدة كفر بجميع الشريعة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (٢) وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (١٥١) ﴿١٥١﴾، فمن آمن بالرسالة ولكن كفر بشعيرة واحدة منها، فقد كفر كفاً تاماً بالجميع، ومن استهزأ بشيء من شرائع الرسل ولو بشيء ليس بواجب، حتى بالشيء المندوب لو استهزأ فقد كفر؛ لأنه لا يمكن الإيمان ببعض دون بعض، بل من كره ما أنزل الله فقد كفر، والدليل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٤) ﴿٤﴾ ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر،

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠، ١٥١.

(٤) سورة محمد، الآية: ٩.

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(١)</sup>. فالمسألة مسألة عظيمة ليست بالهينة، ولهذا يجب على المرء الرضى بكل ما شرع الله تعالى، فيرضى مثلاً بوجوب الصلاة، وتحريم الخمر، ووجوب الزكاة، وتحريم الربا، وعلى هذا فقس، فكل شيء يجب أن ترضى به وتقبله، ثم إن عملت به أثبت، وإن لم تعمل به عوقبت واستحققت العذاب إذا كان واجباً، إلا إذا كان هذا الواجب تركه كفر فإنه إذا تركته كفرت، فمثلاً يجب على الإنسان أن يؤمن بتحريم الربا، فإن أنكر تحريمه كفر، أو لم يقبل تحريمه كفر، وإذا آمن بتحريمه وقبله ورضى بالتحريم ولكن فعل الربا فلا يكفر، وحكمه حكم العصاة.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ما من رسول أرسل إلا وجد من يستهزىء به ومن يؤمن به، ولكن منهم من لا يجد من يؤمن به لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث السبعين ألفاً: «والنبي وليس معه أحد»<sup>(٢)</sup>. فالاستهزاء حاصل لكل رسول. مسألة:

واختلف العلماء فيمن سب الله تعالى أو رسوله ﷺ هل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ٣٧٤ (٢٢٠).

تقبل توبته؟ على قولين :

**القول الأول:** إنه لا تقبل توبته، بل يقتل قتل المرتد فلا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وفي الآخرة أمره إلى الله تعالى، إن كان الله تعالى علم منه صدق التوبة فإنه لا يعذبه، وإن كان الله تعالى علم منه كذبها فإنه يعذب في الآخرة، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - .

**والقول الثاني:** تصح توبة من استهزأ بالله تعالى أو رسوله ﷺ، ولكن بالنسبة لمن استهزأ بالرسول ﷺ يقتل، وأما من سب الله تعالى أو استهزأ به فإنه لا يقتل، وهذا هو الصحيح أن الإنسان إذا سب الله تعالى أو رسوله ﷺ أو استهزأ بهما فإنه يكفر، فإن تاب قبلت توبته، لكنه يقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالله تعالى، والفرق بينهما: أن الاستهزاء بالرسول ﷺ وسبه حق شخصي، وأما الاستهزاء بالله تعالى وسبه فهو حق لله عز وجل، وقد أخبرنا الله عز وجل أنه يقبل التوبة من جميع الذنوب، وإذا قبل الله توبته ارتفع عنه مقتضاها وهو القتل، أما السب للرسول عليه الصلاة والسلام فإننا لا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام عفى عن حقه، لذا وجب علينا أن نأخذ به .

\* \* \*

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا

يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ قال المؤلف - رحمه الله - : [أي: أهل مكة القائلون

لنبي ﷺ لست مرسلًا، والاستفهام للتقرير أي: علموا، الرؤية هنا فسرهما المؤلف برؤية العلم؛ وذلك لأنهم لم يشاهدوا هذا بأعينهم، وإنما علموه بما بلغهم من الخبر، وقوله: [أي أهل مكة] الصحيح أن هذا ليس خاصاً بأهل مكة، بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكان المؤلف - رحمه الله - جعله خاصاً بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكنه يقال: حتى وإن كانت الآية مكية، فإن المكذبين للرسول عليهم الصلاة والسلام من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدخلوا في دين الله أفواجا إلا بعد فتح مكة ﴿الْمُيْرَوَاتُ كَمَّ﴾ يقول المؤلف: [كم] خبرية بمعنى: كثيراً، معمولة لما بعدها، مُعَلَّقَةٌ لما قبلها عن عمل [﴿يُرَوَّاتُ﴾] بمعنى العلم، وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، وقوله علقته عن العمل، يعني أنها أبطلت عملها لفظاً؛ لأن التعليق يبطل العمل لفظاً فقط لا محلاً، والإلغاء يبطله لفظاً ومحلاً، والأفعال القلبية إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وأما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل، الثالث: يسمى إلغاءً، والثاني: يسمى تعليقاً، والأول: يسمى إعمالاً، فكم هنا علقته ﴿يُرَوَّاتُ﴾ عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مفعولي ﴿يُرَوَّاتُ﴾ ثم هي لها إعراب باعتبار ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لما بعدها، وعليه فتقدر كما قال المؤلف [بمعنى: كثيراً]، ثم قال: [والمعنى إن ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ كثيراً ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ الأم]. وقوله سبحانه

وتعالى: ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هذه لبيان الإبهام الواقع في كم و﴿الْقُرُونِ﴾ جمع قرن، وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور، والعصر مئة سنة، وعلى هذا يكون القرن مئة سنة، ولكن قد يكون دون ذلك، فقد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يهلكها الله عز وجل قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين، لكن الضابط أن نقول: القرن هم الأمة التي اشتركت في عصر ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي المهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكذبين] وفي نسخة [﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكيين]، لأن الخطاب لأهل مكة، فالمكذبون هم المكيون، والقول بأن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين أعم، فهؤلاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا، بل ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلا عملها.

﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ قال المؤلف: [أفلا يعتبرون بهم، وأنهم... - إلى آخره - بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور] الذي قبله قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ كأنه قال: «ألم يروا أنهم لا يرجعون»، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى، أي: لا من حيث الإعراب؛ لأنها جملة مستقلة، وليست تابعة لها في الإعراب، ولكنها تابعة لها في المعنى.

والخلاصة: أن الله بين في هذه الآية بياناً يقرر به هؤلاء المكذبين بأنه أهلك كثيراً من الأمم السابقة، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إلى هؤلاء المكذبين، لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم الرجوع إليها حتى يستعقبوا، فالواجب على هؤلاء المكذبين أن يعتبروا بهم.

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: تقرير المكذبين بما يقرون به، أنه أهلك من سبقهم لقوله: ﴿الْمُيْرُوا كَمَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾.

٢ - ومن فوائد الآية: أنه يجب على الإنسان أن ينظر ويعتبر بحيث إذا نظر في عواقب الناس اتخذ من ذلك عبرة؛ لأن الاستفهام هنا مع كونه للتقرير مفيد للتوبيخ، لأن الواجب على من نظر في عاقبة المكذبين أن يرتدع عن الكذب.

٣ - من فوائد الآية أيضاً: أنه لا بعث ولا رجوع قبل يوم القيامة لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١) فلا أحد يبعث قبل يوم القيامة، اللهم إلا على سبيل الآية كما ثبت في القرآن أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بإذن الله تعالى، وكما في قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وكما في قصة بني إسرائيل الذين أخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكما في قصة الرجل الشاب الذي يقتله الدجال ثم يكلمه ويخاطبه فيقوم حيّاً، وإلا فإن الأصل أن من مات لا يرجع أبداً، لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١).

\* \* \*

﴿وَأَن كُلٌّ لِّمَآ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٣٢) قال المؤلف: [إن

نافية، أو مخففة]، قوله نافية أي: بمعنى (ما)، ومخففة بمعنى (إن) لكنها خففت و(أو) في كلام المؤلف ليست للتخيير بل هي

للتنوع ، لأنها على حسب القراءة الآتية في ﴿لَمَّا﴾ . ﴿كُلُّ﴾ أي : كل الخلائق ، وهي مبتدأ على التقديرين ، أي على أنها نافية وعلى أنها مخففة ؛ لأن المخففة تعمل في الجملة ، واسمها ضمير الشأن محذوف فـ ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ على كلا الوجهين أي على أن (إن) نافية ، أو مخففة ﴿لَمَّا﴾ قال المؤلف : [بالتشديد بمعنى إلا ، أو بالتخفيف فاللام فارقة و(ما) مزيدة] ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا ، وعلى هذا تكون إن نافية ، والتقدير : «وما كل إلا جميع لدينا محضرون» ، وبالتخفيف فاللام فارقة بين «إن» النافية و«إن» المخففة و(ما) مزيدة ، والتقدير على هذا «وإن كلُّ لجميع لدينا محضرون» لأن (ما) زائدة ، فإذا أردنا أن نعرب هذه الآية نقول : (إن) : نافية على قراءة التشديد ، و(لما) بمعنى إلا .

الإعراب الثاني : (إن) مخففة على قراءة التخفيف ، واللام فارقة وهي للتوكيد ، و(ما) زائدة ، والتقدير على هذا «وإن كلُّ لجميع لدينا» ﴿جَمِيعٌ﴾ قال المؤلف : [خبر المبتدأ أي : مجموعون] المبتدأ ﴿كُلُّ﴾ .

فإن قال قائل : كيف يكون خبر لـ(كل) و(كل) تدل على الشمول؟

فالجواب : أن (كلاً) تدل على الشمول ، لكن لا يلزم من دلالتها على الشمول الاجتماع ، فنقول : أكرم كل القوم ، وقد يكون القوم متشتتين كل واحد بجانب ، لكن ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الاجتماع ففيها زيادة على الشمول وهي جمع الناس ، فكل الناس يحضرون إلى الله عز وجل ، ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟



الجواب: حضورهم مجتمع؛ ودليله الآية ﴿جَمِيعٌ﴾ إذا فلا يقول قائل: إن المبتدأ هو نفس الخبر؛ لأن كلمة ﴿كُلٌّ﴾ تدل على الشمول و﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشمول، نقول: لا، لأن الفرق بينهما أن (كل) تدل على الشمول، وإن كانوا متفرقين و(جميع) تدل على الشمول مع الاجتماع.

قال المؤلف: [مجموعون ﴿لدينا﴾ عندنا في الموقف بعد بعثهم ﴿محضرون﴾ للحساب خبر ثان] أي: خبر ثان لـ(كل) فصار ﴿كُلٌّ﴾ لها الآن خبران الأول: ﴿جَمِيعٌ﴾ والثاني: ﴿مُحْضَرُونَ﴾، ومعنى هذه الآية: ما كل واحد من هؤلاء إلا محضر لدى الله عز وجل يوم القيامة، والناس جميع.

### الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كُلَّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٣٣).

٢- ومن فوائدها: كمال قدرة الله عز وجل حيث يجمع هذه الخلائق جميعاً في مكان واحد؛ لقوله: ﴿لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا﴾.

٣- ومن فوائد الآية: وجوب الاستعداد لهذا اليوم؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا به لمجرد الاطلاع، ولكنه أخبرنا به من أجل أن نستعد له حتى نكون على أهبة لما سنحاسب عليه.

\* \* \*

﴿وَأَيُّهُمْ لَمَّا أَلْرُضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَأَيُّهُمْ لَمَّا﴾ على

البعث خبر مقدم ﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالماء، مبتدأ [الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء، وقول المؤلف: [خبر مقدم]، المبتدأ الأرض، وقوله: ﴿الْمَيِّتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد يعني أن فيها قراءتين (الميتة) و(الميتة)، وهذا دليل على أن الميتة كما يطلق على الميت الذي قد فارقت روحه جسده، يطلق أيضاً على الذي سيموت خلاف لمن قال: (إن الميت لمن سيموت) و(الميت لمن مات بالفعل)، فإن الأرض الميتة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: الميتة، والميتة ﴿الْأَرْضُ﴾ مبتدأ و﴿الْمَيِّتَةُ﴾ صفة و﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ صفة للأرض، ولهذا قال المؤلف: (مبتدأ) جعله بعد قوله (أحييناها) ليبين أن الميتة وأحييناها كلاهما صفة للأرض، ولكن الصحيح أن ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ جملة استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض، لأن محط الفائدة ليس هو موت الأرض، ولكن الله تعالى أحيها بعد موتها، أما على رأي المؤلف فإذا جعل ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ صفة، فإنه يشكل علينا أن هذا مخالف للقاعدة المعروفة: «أن الجمل بعد المعارف أحوال». والجواب على ذلك أن يقال: إن الأرض هنا المراد بها الجنس فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

فمضيت ثم ت قلت لا يعنيني

قال: (اللئيم يسبني): وتقدير: (على لئيم يسبني)،

ومنه أيضاً على قول بعض المعربين ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

أَسْفَارًا ﴿١١﴾ على أن جملة ﴿يَحْمَلُ﴾ صفة الحمار؛ لأن المراد به الجنس، فهو بمعنى كمثل حمار يحمل أسفاراً، أما على القول الذي اخترناه فنقول: إن جملة ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ استثنائية لبيان وجه الآية في هذه الأرض الميتة، ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميتة أشجارها يابسة، وليس فيها ثمر، فينزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت، فالذي أحيائها وقدر على إحيائها قادر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَرَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (١٢) وعليه فنقول: وجه الآية أن نقيس الشاهد بالغائب، فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميتة، أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتحضر، فالذي أحيائها قادر على إحياء الموتى.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ معطوف على ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ يعني الأرض ميتة أحييناها بالزرع، فقام الزرع أخضر يهتز، ولكن مجرد كونه زرعاً لا يفيد الآدمي، وإنما يفيد البهائم، ويفيد الآدمي عند الضرورة لكن الفائدة العظمى منه ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من هذا الحب يأكلون، وفائدة قوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته، وأنه حب نافع سهل التناول، لأنه لو كان صعباً لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمشقة عظيمة، ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم المعمول

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

لإفادة الحصر، لكنه حصر إضافي لسهولة كانه لا أكل لهم إلا من هذا السهل المتيسر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هذا غير الحب؛ لأن الخارج من الأرض يكون حباً، ويكون ثمرأً، الحب من الزروع، والتمر من الأشجار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا، فهو ناصب لمفعولين، المفعول الأول ﴿جَنَّاتٍ﴾ والثاني: ﴿فِيهَا﴾ و﴿جَنَاتٍ﴾ جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأنه يجن من دخله وكان فيه لاستتارته به، وأصل هذه المادة - الجيم والنون - تدور على هذا المعنى، أي: على الاستتار والخفاء، ومنه سمي القلب: جناناً؛ لاستتاره، ومنه سمي: الجن؛ لاستتارهم وخفائهم، ومنه سمي الجنة: الوقاية؛ لأن الإنسان يستتر بها، فكل هذه المادة تدل على الخفاء والاستتار، فالبستان الكثير الأشجار المتشابكة إذا كان فيه أحد لا يرى؛ لأن هذه الأشجار تستره ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ النخيل والأعناب معروفة، ونص الله عليها لأنها طعام وقوت لا يحتاج إلى مؤنة، ولهذا يقات رطباً ويابساً، فيقات رطباً كالرطب في التمر، وكالعنب في العنب، ويابساً كالتمر الذي يؤول إليه الرطب، وكالزبيب الذي يؤول إليه العنب، فجمع الله بينهما؛ لأنهما قوت حلو لا يحتاج إلى مؤنة طبخ، وينتفع به رطباً ويابساً، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿٣٤﴾ قال المؤلف [بعضها]. ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس ويكون هذا عامّاً، وهو الأقرب أي: فجرنا فيها من العيون عيوناً كثيرة، وأصنافاً متنوعة، فمنها العيون الجارية

الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تنبع على جهة الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالأنابيب المعروفة الآن تركز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسطة كالذي يتفجر من رؤوس الجبال وغير ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله عز وجل وعلى رحمته بعباده، يقول: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ الضمير يعود على الناس، واللام للتعليل، والفعل بعدها منصوب إما بها على مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة على مذهب البصريين، وقوله: ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - [بفتحتين وبضميتين] أي: ثمره، وثمره. وثمره هنا مفرد، ولم يقل (من ثمرهما) لأن الله عز وجل ذكر نخيلاً وأعناباً فهما صنفان، ولم يقل (من ثمرهما) بل قال: ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر المذكور، فالضمير هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب. قال المؤلف: [﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تعمل الثمر ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾] نعمة الله تعالى عليهم] قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ في ﴿مَا﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: أنها نافية، وهو الذي مشى عليه المؤلف، يعني أن هذا الثمر الخارج من النخيل والأعناب لم عمله أيدي الناس.

القول الثاني: أنها بمعنى الذي أي: (من الذي عملته أيديهم)؛ لأن الناس قد يعملون شيئاً يصلحونه، مثل عصير العنب، وكذلك دبس التمر، وكذلك الخبز الذي يخبزونه من الزروع، وغير ذلك مما يصنعه الناس بأيديهم ويتمتعون

ويتفكهون به، فهناك أنواع الحلوى تصنع باليد، فيكون الله تعالى امتن على العباد بأمرين: امتن بما يخرجوه هو عز وجل من هذه الثمار والزروع، وامتن عليهم بما علمهم إياهم مما يعملونه بأيديهم، والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا نحدث فيه شيئاً نأكله كما يقولون طازجاً، ونوع آخر نعمل فيه، ونركبه مثلاً من عدة ثمرات وما أشبهها، فيكون الله عز وجل امتن على العباد بالأمرين جميعاً، والمعنى الثاني أعم فيكون أولى، على أن القاعدة: «أن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تحمل عليهما» فقول: إن الله أراد هذا وهذا، أراد أن أيدنا لم تعمل هذه الثمرات التي تخرج من النخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرج من الزروع، وأراد أيضاً ما عمله نحن بأيدينا على حسب ما نريد، فكل هذا نعمة، وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) الاستفهام هنا للتوبيخ، والجملة معطوفة على مقدر يعلم من السياق، يعني: أغفلوا عن ذلك فلا يشكرون، أو أكفروا به فلا يشكرون، لأن انتفاء الشكر يكون إما بالغفلة، أو بالكفر المتعمد، فكثير من الناس بالنسبة للنعم إما غافل ويرى هذا أمراً معتاداً وكأنها شيء جار على العادة بدون أن يكون لله فيه منة، وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يصب بضد تلك النعم، لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا حيث يصاب بضدها، فلا يعرف قدر الشبع إلا من جاع، ولا قدر الري إلا من قد ظمأ، ولا قدر العافية إلا من مرض، ولا قدر الأنس إلا من فقد الأيس، وهكذا وهذه غفلة.

وإما أن تكون كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣) ﴿١﴾ كفراً بالنعمة وبطراً يقول: «إنما أوتيته على علم عندي» وما أشبه ذلك وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٥) الشكر هو: (القيام بطاعة المنعم، وصرف نعمه فيما جعلها الله له)، فمن صرف نعم الله على غير ما جعلها الله له فليس بشاكر، فلو جعل النعم عوناً له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكراً؛ لأنه صرفها في غير ما جعلت له، وإنما أنعم الله علينا هذه النعم لنقوم بعبادته والتقوي عليها، والشكر متعلقه ثلاثة أشياء: القلب واللسان والجوارح، وعلى هذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة

ييدي ولساني والضمير المحجب

فشكر القلب: أن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى هو الذي منّ بها، إن كانت نعمة إيجابية، أو كانت دفع نقمة فإنها من الله وهو المانّ بها، فلا يجعل ذلك من أسباب عمله وذكائه، بل يجعل ذلك من فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه.

وشكر اللسان: أن يثني الإنسان بها على الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) ﴿١﴾ لكن لا على سبيل الفخر والعلو على الآخرين، فإنه إذا تحدث بها على سبيل الفخر والعلو على الآخرين صار هذا كفراً لا شكراً.

وشكر الجوارح: أن يقوم بطاعة المنعم عز وجل، ومن شكر الجوارح: أن يظهر أثر النعمة عليه، فإن كان غنياً ظهر ذلك عليه في مركوبه وملبوسه وكل مظهره؛ لأن الله تعالى إذا أنعم على أحد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه.

فإذا قال قائل: هل بين الحمد والشكر فرق أو هما متفقان؟  
فالجواب: أن بينهما فرقاً:

أولاً: أن الحمد متعلقه اللسان فقط؛ لأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فلا يتعدى إلى الجوارح.  
ثانياً: أن الحمد يكون لإحسان المحمود ولكمال المحمود، والشكر للإحسان فقط، فالشكر يكون على النعم فقط، والحمد يكون على النعم وعلى أوصاف الكمال، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من حيث السبب، وأخص من حيث المتعلق، والشكر أخص من حيث السبب، وأعم من حيث المتعلق، والله يحمد على نعمه، وعلى كماله فهذا سبب الحمد، والحمد إنما يكون باللسان فقط، والشكر إنما يكون على النعم فقط، فلا تقول: اشكر الله على كمال صفاته، بل على نعمه، فسبب الشكر أخص، لكنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من حيث المتعلق.

### الفوائد:

في الآيات الكريمات فوائد منها:

١ - بيان قدرة الله عز وجل على إحياء الأرض بعد موتها،

لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا﴾.



٢ - ومنها: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن إحياء الأرض بعد الموت مشاهد، ويستدل بها على إحياء الله الموتى عند بعثهم يوم القيامة، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل بقوله: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِمْ أَنْكَرُ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾<sup>(٢)</sup> والآيات في هذا كثيرة.

٣ - ومن فوائد الآيات الكريمة: جواز وصف الجماد بالموت والحياة، فإنه ليس خاص بذي الروح المتحرك، لقوله: ﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ فوصفها بالموت، ووصفها بالحياة.

٤ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ بضمير العظمة.

٥ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان نعمة الله عز وجل بما أخرج للناس من الأرض من الحبوب والثمار، الحبوب قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ والثمار قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾.

٦ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان حاجة العبد لربه، لقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وكأن هذا الحصر فيه إشارة إلى تحدي الإنسان أنه لا يمكن أن يأكل إلا من هذا الذي أخرجه الله

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة ق، الآيات: ٩ - ١١.

له، وهذا من فوائد الحصر، كأنه يقول: إن كنت قادراً فأخرج لنفسك ما تأكله، إنك لن تأكل إلا مما أخرجناه لك.

٧ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذه الأشجار العظيمة الكثيرة المظلة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ﴿١﴾ فما أعظم نعم الله على العبد من هذه النخيل والأعناب.

٨ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان فضل النخيل والأعناب؛ لأنها ثمر يؤكل بلا تعب، وثمر يقتات رطباً ويابساً.

٩ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل في تفجير الأرض عيوناً، هذه الأرض اليابسة جامدة يخرج منها هذا الرطب السائل وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَبَارَةِ لَمَّا يَنْفَجِّرُ مِنْهُ الْآنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ ﴿١﴾ وهذا من عظيم قدرة الله، وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجر اليابس، إما حجراً معيناً - كما قيل - يحمله معه، وإما أي حجر كان يضربه فيتفجر اثنتي عشرة عيناً، على قدر قبائل بني إسرائيل، وهذه من تمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

١٠ - ومنها: بيان احتياج النخيل والأعناب إلى الماء، وأن ثمره يكثر بحسب الماء؛ لأنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿٢﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴿٣﴾ فدل هذا على أن الماء له أثر في كثرة الثمار وطيبها، وهذا هو الواقع.

١١ - ومنها: الرد على الجبرية بإثبات العلة والحكمة في

قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ والنصوص الدالة على إثبات حكمة الله عز وجل كثيرة جداً منها ما صرح الله تعالى به مثل قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾<sup>(١)</sup> ومنها ما صرح الله به على وجه السلب والنفي ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾<sup>(٣)</sup> . ولا أدل على الصفة من إثباتها ونفي ضدها، فإن إثباتها يدل على الثبوت، ونفي ضدها يدل على كمالها، وأنها غير مشوبة بهذا النقص الذي يحصل بفقدتها، أو بفقد كمالها، ولا شك أننا إذا نفينا الحكمة عن فعل الله عز وجل، أو عن شرع الله، لزم من ذلك النقص العظيم، وأن يكون الله عز وجل يفعل الشيء سفهاً وعبثاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

١٢ - ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذا الثمر الذي يؤكل، أرأيت لو أن هذا الثمر صار مرًا هل ينتفع به؟! ولهذا قال الله عز وجل في الماء: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴿٤﴾ فلم تستطيعوا شربه، هذا الثمر جعله الله شهياً للنفوس، تأكل منه، وتتغذى به الأبدان، ولهذا قال: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ فلو شاء الله عز وجل لجعل هذا الثمر فاسداً، فقد يكون

(١) سورة القمر، الآية: ٥ .

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧ .

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣٨ .

(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٦٨ - ٧٠ .

حلواً لذيذاً شهياً لكن يجعل الله فيه آفة تفسده، وهذا موجود بكثرة، ولكن من نعمة الله أنه يبقى ويؤكل من ثمره.

١٣ - ومن فوائدها: أننا لا نملك لأنفسنا أن نوجد هذا الثمر، وأن ذلك مجرد فضل من الله لقوله: ﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن هذا ليس من صنعنا، فلو اجتمع الناس كلهم على أن يخرجوا رطبة واحدة أو حبة عنب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومع هذا يخلق الله عز وجل هذه العناقيد التي لا تحصى كثرة، وهذه الأعداق التي لا تحصى كثرة، ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا، غاية ما هنالك أننا نوجه هذا الثمر حسب ما علمنا الله عز وجل، فنأخذ من طلع الفحل ما نجعله في طلع النخلة حتى يطيب الثمر، أما أننا خلقناه وأوجدناه فلا. وهذا على جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ نافية.

١٤ - ومن فوائدها: بيان نعمة الله عز وجل بما علمنا مما نصنعه من هذه الثمار، وعلى وجه يخالف ما خلقت عليه، حتى يتكون من هذا طيب على طيب لقوله: ﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الله تعالى علمنا كيف نصنع هذه الثمار على وجه نتلذذ بها، وننتفع بها أكثر مما هي عليه في الخلقة، وهذا على جعل (ما) موصولة.

١٥ - ومن فوائد الآيات الكريمة: وجوب شكر نعمة الله عز وجل؛ لأن الله وبخ من لا يشكر، والشكر مع كونه طاعة الله يثاب الإنسان عليه، ويعرف به قدر نعمة الله عليه، فهو سبب للمزيد من هذه النعم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لَا زَيْدَنَّاكُمْ وَلَٰئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴿١﴾ .

فإن قال قائل: نحن نرى كثيراً من الناس قد أغدق الله عليهم النعم مع كفرهم بها؟ فماذا نجيب عن هذه الآية؟  
الجواب: على هذا أن نقول:

أولاً: إن الله تعالى قد عاقبهم عقوبة عظيمة؛ لأن العقوبة لا تنحصر في فقدان النعمة، بل العقوبة تكون بفقدان النعمة، وتكون بقسوة القلب ومرض القلب، وإن كان أكثر الناس يظنون أن العقوبات إنما هي بزوال النعم، والواقع أن عقوبات القلوب بالمرض والقسوة والإعراض عن الله وعن ذكره هذه أكبر عقوبة، ثم هؤلاء المنعمون في أبدانهم لا تظنون أنهم منعمون في قلوبهم أبداً، ففي قلوبهم من الضيق والخرج، وعدم الصبر على القضاء والقدر ما يجعلهم دائماً في نار، ولا تجد أطيّب حياة من حياة المؤمن وإن كان أفقر الناس ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٢﴾ فهؤلاء قد عوقبوا عقوبة أعظم من إتلاف الأموال والثمار وغيرها وهو قسوة القلب ومرضه وإعراضه، فإن هذا يوجب للإنسان ضيق الصدر، والتعب من الحياة؛ لأنه لا يرضى بالله ربّاً، ولا بشره ديناً.

ثانياً: أن نقول هذه النعم عجلت لهم عقوبة لهم واستدراجاً، ولهذا لما جاء عمر - رضي الله عنه - إلى النبي عليه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

الصلاة والسلام وهو على سرير مخيط من الليف فإذا هو قد أثر في جنبه، فبكى وقال له عليه الصلاة والسلام: «ما يبكيك؟» قال: يا رسول الله، فارس والروم ينعمون بما نعموا من الدنيا وأنت على هذه الحال؟ فقال: «يا عمر، إن هؤلاء قوم عجلت لهم طياتهم في حياتهم الدنيا»<sup>(١)</sup> فهؤلاء يعاقبون بهذه النعمة التي تدر عليهم؛ لأنه استدراج، ولأنهم إذا ماتوا وصاروا في العذاب صار هذا أشد عليهم، لأنهم فارقوا دنيا تعلقت بها قلوبهم، ونعموا به ثم أعقبها هذا العذاب - والعياذ بالله - فصاروا أشد حسرة. ويذكر عن ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - وهو قاضي القضاة في مصر أنه مر ذات يوم بيهودي زيات يبيع الزيت، قد تعب من الزيت، وثيابه وسخة، وقاضي القضاة بمصر يمشي على عربة تجره الخيول، والناس حوله يميناً وشمالاً، فأوقف اليهودي الموكب وقال: يا قاضي القضاة كيف تكون أنت في هذا الحال وأنا في هذا الحال ورسولكم يقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»<sup>(٢)</sup> فقال له ابن حجر - رحمه الله -: ما أنا فيه من النعيم في الدنيا هو سجن بالنسبة لنعيم المؤمن في الآخرة، وما أنت فيه من التعب والبلاء هو بالنسبة لعذاب الآخرة جنة، فأنت الآن في جنة؛ لأنك سوف تنتقل إلى عذاب لا تتصوره. فلما قال ذلك قال اليهودي: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فأسلم، فهؤلاء المنعمون نعيمهم في الحقيقة شقاء وعذاب، وإن نعمت أجسادهم، لكن

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة... (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة الكافر ١ (٢٩٥٦).

أكثر الناس في غفلة عن هذا، ومع الأسف أن هذا الداء دب إلى المسلمين، فصار أكثر المسلمين اليوم لا يمشون إلا هذا النعيم أعني نعيم الدنيا، وفي غفلة عن نعيم الآخرة، ولهذا تجدهم يتحدثون دائماً عن الترف واللهو وما أشبه ذلك، كأنهم ما خلقوا إلا لهذا، وهذا من أكبر ما يصد الإنسان عن دينه أن يكون قلبه معلقاً بالدنيا، ولا ينظر إلا إلى التمتع بها، ونحن لا ننكر أن ينال الإنسان من الدنيا ما يستفيد منه في الآخرة، بل إن الدنيا إذا جعلت وسيلة للآخرة صارت من الآخرة في الحقيقة، لكن ننكر أن تكون الدنيا أكبر هم الإنسان، كأنما خلق لها فقط، وهذا من نقص دينه، ونقص عقله، فكيف تجعل نفسك وحياتك الثمينة كيف تجعلها مهمة غاية الاهتمام بأمر ليس بمضمون، وليس بمخلد؟! قال الله تعالى منكرأ على قوم هود على لسان هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) فأنت لست بخالد، فكيف تجعل هذا الممر الذي أنت تعيش فيه تجعله أكبر همك، مع أنك لا تدري متى تفارقه؟! كل من هؤلاء المترفين لا يدري متى يموت، لكنه يدري أنه سوف يبقى في الآخرة - إن كان مؤمناً بها - ومع هذا يعمل للدنيا التي لم يخلق لها، ويدع الآخرة التي خلق لها.

\* \* \*

ثم قال عز وجل: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [الأصناف] ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الحبوب

وغيرها ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ من المخلوقات العجيبة الغريبة]، ﴿سُبْحَانَ﴾ تأتي دائماً منصوبة على أنها مفعول مطلق حذف منها العامل وجوباً، وأصلها تسبيحاً لله، وتسييحاً مصدر سبح، فالعامل محذوف وهو (سبح)، والمصدر محول إلى اسم مصدر، وهو التسييح حول إلى سبحان وهو مأخوذ من سبح، أي: أبعث في الماء، فمعنى التسييح في سبحان الله تنزيهه الله تعالى عما لا يليق به، والذي لا يليق بالله عز وجل أمران:

أحدهما: النقص في صفاته .

الثاني: مماثلة المخلوقين فيها، على أنه يمكن أن نرد الثاني إلى الأول، ونقول: إن مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل بالناقص يجعله ناقصاً، قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾<sup>(١)</sup> فكل المخلوقات لا تقوم إلا بتركيب مادتين فأكثر، وليس فيها شيء يقوم من شيء واحد أبداً، فكل شيء سواء مما تنبت الأرض، أو من بني آدم، أو من البهائم، أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون فإنه مكون من شيئين ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به، ولهذا جاءت الآية هنا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فالمخلوق لا بد فيه من تعدد، والخالق منزّه عن التعدد، وهذه هي الحكمة - والله أعلم - في أنه قال: ﴿سُبْحَانَ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩ .



الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿٢٦﴾ ولم يقل (الحمد لله الذي خلق الأزواج) بل قال: ﴿سُبْحَانَ﴾ لأن كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجية يدل على كمال الواحد المتفرد، الذي لا يماثله شيء من مخلوقاته، فبنو آدم لا بد من ازدواجية ذكر وأنثى، وحتى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تجد أنها مزدوجة، فيه غضب ورضى، وكراهة ومحبة، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، لكن الخالق عز وجل واحد منفرد، لا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله تعالى نفسه عن كل نقص وعيب، لقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.
- ٢ - ومن فوائدها: التنبيه على وحدانيته عز وجل، ومخالفته للمخلوقات لقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فلم يقل: (سبحان الله) بل قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ والجمع بين ما يثبت للعباد وما ينزه الله عنه قد ورد في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ فلما ذكر حال الخلائق ذكر حال الخالق؛ لأنه عز وجل يبقى مع فناء غيره، كذلك هنا المخلوق كله مزدوج لا بد فيه من زوجين ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ﴿٢٦﴾ أما الرب عز وجل فإنه واحد، ولهذا قال:

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ما من شيء مخلوق إلا وفيه زوجان، لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) وهذا لفظ من أعم ما يكون من الكلمات .

٤ - ومن فوائد الآية أيضاً: أن بني آدم على أصناف متنوعة كما كان ذلك أيضاً فيما تنبته الأرض، بل وفي الأرض نفسها قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ﴾ (١١) فإثبات التجاور لها يقتضي أن كل واحد منها يخالف الآخر، لأن الجار غير جاره وكذلك هنا ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ يدل على أن في الأرض أصنافاً متنوعة من النباتات، كذلك ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فيما خلق الله عز وجل من بني آدم أصنافاً: ذكر وأنثى، أسود وأبيض، طويل وقصير، شقي وسعيد، ذكي وبليد، عاقل وسفيه، وهكذا ليعتبر الإنسان قدرة الله عز وجل على خلق هذه الأشياء المتضادة .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجهل للإنسان وأنه لا يحيط بكل شيء، لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) وهذا إذا أضفتها إلى قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) (١) تبين لك مدى جهل الإنسان في الأمور .

\* \* \*

﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَيْلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مَّظْلَمُونَ﴾ (٣٧) نقول: في إعرابها ما قلنا في آية ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ فيكون الليل مبتدأ، وآية

(١) سورة الرعد، الآية: ٤ .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥ .

خبر مقدم، ونقول في ﴿نَسَلَخُ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ أي أنه يجوز أن تكون صفة الليل على حد قول الشاعر:  
ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . إلخ.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لبيان هذه الآية، كيف كان الليل آية قال: ﴿نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ «نسلخ» يقول المؤلف [نفسل]، وسمى الله هذا الفصل سلخاً؛ لأنه يشبه سلخ الجلد من البهيمة ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾، لأن النهار أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الليل، فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يسلك من البهيمة، وأنت عندما تسلك الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئاً فشيئاً، هكذا ضوء النهار بالنسبة لليل يسلك الله سبحانه وتعالى النهار من الليل، كما يسلك الجلد من البهيمة قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي داخلون في الظلام ﴿فَإِذَا﴾ فجائية تدل على أنه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو، وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئاً فشيئاً، لكن إذا تكامل الانسلاخ وجدت الظلمة كاملة، وهذه من حكمة الله عز وجل؛ لأنه لو ورد الظلام الدامس على الضوء الساطع لأخذ هذا بالأبصار، وبالأشجار، وبكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئاً فشيئاً، يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظلمة شيئاً فشيئاً.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: هذه الآية العظيمة في الليل، حيث يسلك الله تعالى منه النهار سلخاً، كما يسلك الجلد من

الشاة، وهذا يدل على أنه يأتي شيئاً فشيئاً.

٢ - من فوائد الآية الكريمة أيضاً: أن الأصل هو الظلام لقوله: ﴿نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، فهذا يدل على أن الأصل هو الظلام، وأن النهار طارئ عليه، ولهذا يسلك منه وهو كذلك، فإن أصل الضوء من الشمس، والشمس حادثة وواردة على الليل، فيكون الأصل الظلام ويأتي النور بعده.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: تذكير الخلق بهذه النعمة لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وأنه لولا نعمة الله علينا بهذا النهار الذي يسلك من الليل لكننا دائماً في ظلمة، وهذا بلا شك متعب للناس وضار بهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (١).

\* \* \*

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) الواو حرف عطف و(الشمس) أيضاً معطوفة على الليل، يعني: وآية لهم الشمس أيضاً ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ويجوز أن تكون الواو استئنافية، الشمس مبتدأ، لكن المعنى الأول أقوى قال المؤلف: [والشمس تجري إلى آخره من جملة الآية لهم، أو آية أخرى، والقمر كذلك] أي سواء قلنا الجملة استئنافية وأن هذه الآية الأخرى جديدة، أو قلنا إن الواو حرف عطف فإنه لا شك أن الشمس على الوصف الذي ذكر الله تعالى آية من آيات الله. فالشمس آية من آيات الله في ذاتها، فهذا الجرم

الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بعد المسافة بينها وبين الأرض، لا شك أن هذه من آيات الله، من يستطيع أن يوجد مثل هذه الكتلة النارية الملتهبة المضيئة التي يصل ضوءها وشعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟! الجواب: لا أحد يستطيع، إذاً فهي آية من آيات الله، ثم ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الثمر، وتدفئة الأرض، والنور العظيم، كم طاقة يستفيدها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء، طاقة عظيمة سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة في أيام الشتاء التي يستغني بالشمس عند تدفئة المنازل، أو فيما يحصل بالإضاءة فإذا هذا أمر لا يقدر له ثمن، أما إنضاج الثمر، وإيباس الرطب وما أشبه ذلك مما فيه مصلحة الخلق فحدث ولا حرج، فهي آية عظيمة من آيات الله عز وجل.

وهي آية في مسيرها قال: ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ يعني تسير جرياً، والجري هو المشي بشدة، وهكذا الشمس تسير بسرعة عظيمة جداً لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، أو قد يعلم بالوسائل الحديثة مدى سرعتها، لكن تأمل الطائفة تسير في سرعة عظيمة وهي قريبة منا، ومع ذلك نراها تمشي ببطء؛ لبعدها عنا فما بالك بالشمس؟! نحن نراها تسير لا شك في هذا، حتى إنك نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشعاع تجده يتحرك كأنه يرتعد، وهذا يدل على أنها تمشي مشياً عظيماً، ومع هذا وهي بعيدة جداً ونشاهدها تسير هذا السير إذن فسريراتها سريع جداً، وقد علم تقديره عند الفلكيين الآن وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال المؤلف:

[إليه لا تتجاوزة]، والمستقر موضع القرار، كما قال الله تعالى :  
 وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ وقال ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ  
 قَرَارًا﴾ (٣٧) . فالمستقر موضع القرار، وقال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ  
 دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (٣٨) فما هذا  
 القرار الذي تجري الشمس إليه؟ هل هو قرار زماني؟ أو قرار  
 مكاني؟ أو هما جميعاً؟

ثبت في الحديث الصحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه  
 كان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربت الشمس فقال النبي ﷺ :  
 «أتدري أين تذهب؟» فقال أبو ذر : الله ورسوله أعلم، قال : «فإنها  
 تذهب وتسجد تحت العرش، وتستأذن فذلك مستقرها» (٤) ، ثم  
 قرأ : ﴿وَالشَّمْسُ بَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾  
 وهذا الحديث يدل على أن مستقرها مكاني ؛ لأنها تسجد تحت  
 العرش ، وهذا السجود لا نعلم كيفيته ؛ لأن الشمس ليست كالبشر  
 حتى يقاس سجودها بسجود البشر، بل هي مخلوق أعظم، ولا  
 ندري كيف تسجد؟ فإذا لا يرد علينا السؤال : هل هي تسجد وهي  
 سائرة أو تقف؟ وكيف يصح أن نقول : إنها تسجد وتستأذن وهي  
 لا تزال مستمرة في الأفق؟ كل هذه الأسئلة إيرادات نجيب عليها  
 عند ذكر الفوائد .

(١) سورة البقرة، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النمل، الآية : ٦١ .

(٣) سورة هود، الآية : ٦ .

(٤) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩) .

وقيل: إن المستقر مستقر زمني، وذلك عند تكويرها يوم القيامة، أي: عند منتهى سيرها في يوم القيامة، أي: تجري إلى يوم القيامة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إن المراد بالمستقر منتهى تنقلها في البروج الشمالية واليمانية، فلها حد تنتهي إليها من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وبناء على هذا يكون المستقر زمانياً ومكانياً، لأن غاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء، فهذا مستقر زمني مكاني، فهذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قدرها إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى لما فيها من المصالح العظيمة ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ كل شيء له غاية، وكل شيء له منتهى إلى الله عز وجل. قال المؤلف: [ذَلِكَ] أي: جريها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ [بخلقه] ﴿ذَلِكَ﴾ أي: جريانها لمستقرها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم ﴿الْعَزِيزِ﴾ لأن هذه الشمس العظيمة تحتاج إلى قوة وسلطان قاهر؛ فلهذا أتى باسم ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ لأن العزيز يشمل ثلاثة معان:

أولاً: العزيز في قدره.

ثانياً: العزيز في قهره.

ثالثاً: العزيز في امتناعه.

أما في قدره فمعناها: أن الله ذو شأن عظيم لا يماثله أحد،

وأما في قهره فمعناه أن الله له الغلبة والسلطان المطلق، يقول

الشاعر الجاهلي :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب  
وأما في امتناعه فالمعنى : أنه ممتنع عن كل نقص وعيب .

أما ﴿الْعَلِيمِ﴾ (٢٨) ﴿ فمعناه ذو العلم الكامل الشامل ، فإن علم الله تعالى علم كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان ، وشامل لكل صغير وكبير ، قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَاعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٩) (١) وما كتب في كتاب مبين إلا بعد أن كان معلوماً عند الله عز وجل ، إذ المجهول لا يكتب ، فهذا يدل على سعة علم الله عز وجل ، وأنه محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً .

فذكر الله هذين الاسمين ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢٨) ﴿ لمناسبة المقام ؛ لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده ، بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وعلم .

الفوائد :

١ - من فوائد الآية الكريمة : أن الشمس تجري أي تسير ، وهذا هو الواقع ، وظاهر القرآن الكريم أن سيرها ذاتي ، وليس المراد أنها تجري برأي العين ، وأن الذي يدور هو الأرض ، والواجب إجراء القرآن الكريم على ظاهره حتى يقوم دليل صريح يكون لنا حجة أمام الله عز وجل إذا خرجنا عن ظاهر القرآن ؛ لأن الذي تكلم بالقرآن هو الله الخالق عز وجل وهو العليم بخلقه ، فإذا



قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وجب أن نقول: إن الشمس تجري، ولا يجوز أن نقول: إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.

٢ - ومن فوائدها: أن هذه الشمس التي هي دائماً ودائبة لا بد لها من منتهى لقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ويتفرع على هذا:  
٣ - أن جميع الخلائق لها منتهى، فكل ما في الدنيا من خلائق له منتهى، وسوف يزول ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشمس مقدره تقديراً بالغاً منظماً لقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ويشهد لهذا الواقع، فإن هذه الشمس منذ خلقها الله إلى أن تزول وهي في فلكها لا تتقدم ولا تتأخر عن السنة التي أمرها عز وجل أن تكون عليها، ولا ترتفع ولا تنخفض، حتى قيل: إنها لو تنخفض مقدار شعرة لأحرقت الأرض، ولو ارتفعت مقدار شعرة لجمدت الأرض، ولكن الله عز وجل جعلها على هذا التقدير البديع المحكم الذي لا يتغير ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز العليم، ويؤخذ منهما: إثبات صفتين تتضمنهما وهما العزة والعلم، ويؤخذ منهما أيضاً: إثبات الأثر، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد، وعليم بكل شيء.

\* \* \*

قال الله عز وجل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ يقول المؤلف - رحمه الله -: [القمر بالرفع، والنصب]، ففيه وجهان في الإعراب: القمر بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾. والقمر بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور، فيكون من باب الاشتغال، وهنا يتساوى الرفع والنصب في الرجحان؛ لأن الجملة التي قبله ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ جملة اسمية، خبرها فعل، فلهذا جاز في القمر الوجهان، والمعروف أنه يترجح الرفع إذا عطف المشغول عنه على جملة اسمية، ويترجح النصب إذا عطف على جملة فعلية. قال المؤلف [وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده] يعني يفسره المذكور والتقدير على هذا: (وقدرنا القمر منازل) ولا حاجة أن نقول كما يقول بعض الناس: التقدير وقدرنا القمر قدرناه؛ لأنه لا يجمع بين المفسر والمفسر، فإذا أردت أن تقدر فقل: التقدير (وقدرنا القمر منازل).

فإذا قلت: لماذا لم يقل عز وجل (وقدرنا القمر منازل).

قلنا: لأنه إذا أتى بالجملة الاسمية التي خبرها فعل صار كأنه أسند هذا إليه مرتين، أي: أسند الفعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين مرة بذكره اسماً ظاهراً، ومرة بذكره اسماً مضمراً ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ وتقدير الله عز وجل للقمر منازل؛ لأنه بهذا التقدير يمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي نشأه، يتغير كل ليلة عن الأخرى، ولولا هذا التقدير ما تغير، لكنه مقدر منازل ثمانية وعشرين منزلاً، على حسب النجوم

المعروفة عند العرب، فكل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان تسعاً وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتسمى هاتان الليلتان ليالي الاستسرار - يعني الاختفاء - يختفي فيها القمر، إما في أول الشهر التالي أو في آخر الشهر السابق، ومن أراد التفصيل العلمي فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك، ولا سيما في عصرنا هذا، فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير، والقمر قدره الله منازل كل يوم منزلة فهو يختلف كل ليلة عن الأخرى، ولهذا يبدو صغيراً، ثم يكبر، ثم يعود ويصغر، بحسب قربه من الشمس، كلما قرب من الشمس ضعف نوره؛ لأن نور القمر مستمد من نور الشمس، هو نفسه ليس به إضاءة، جرم مظلم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾<sup>(١)</sup> فهو جرم مظلم لا يستفيد نوراً إلا بغيره، فإذا قابل الشمس حصل فيه النور، وكلما أبعد عنها كثرت المقابلة؛ لأن السير كروي، فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المقابلة، ولهذا يمتلئ نوراً فيما إذا كان في المشرق، والشمس في المغرب لتمام المقابلة حينئذ؛ فيمتلئ نوراً، والجزء المنير من القمر هو الذي يلي الشمس، ولهذا تجده في أيام الشتاء إذا كانت الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب؛ لأن الشمس تكون عنه شمالاً، ويكون عنها جنوباً فنجد فتحة نحو الجنوب، ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أن اتجاه فتحة القمر - أي فتحة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

قوسه - دائماً إلى المشرق، أو الجنوب، هذا ليس بصواب، وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره ﴿قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) أي: عاد القمر بعد تقدير هذه المنازل كالعرجون القديم، والعرجون هو: أصل الشماريخ الذي في طلع النخل، وهو إذا يبس يتقوس ويصفر، فشبّه الله عز وجل القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم، أي: أنه يبدو دقيقاً أصفراً متقوساً.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن هذا القمر آية من آيات الله عز وجل، حيث هو موضوع في فلكه، ومع ذلك له منازل ينزلها كل ليلة، فليس مطلقاً ولكنه مقدر بمنازل ينزلها كل ليلة، والحكمة من هذه المنازل هي أن يعرف الناس عدد السنين والحساب كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (١) حتى إن العالمين بمنازل القمر يعرفون الليلة من الشهر وإن كانوا لم يحسبوا من أول الأمر، بناء على معرفة المنازل؛ لأن هذه المنازل لا تتغير، وحلول القمر فيها أيضاً لا يتغير، فهي منظمة من عند الله عز وجل.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القياس لقوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) وكل تشبيه، أو مثل في القرآن الكريم فإنه يدل على القياس؛ لأن التشبيه، أو المثل إلحاق شيء بشيء لعله، وهي التي تسمى في البلاغة وجه الشبه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: إطلاق القديم على غير الله خلافاً للمتفلسفة، أو الفلاسفة الذين يقولون: إن أخص وصف الله هو القدم. وهذا خطأ، فلو كان هذا أخص وصف الله لم يوصف به سوى الله، والقدم لا يدل على الأزلية، فهذا العرجون وصفه الله بأنه قديم ومع ذلك فإنه ليس أزلياً، إذ إنه حادث بعد أن لم يكن، وبه يتبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إن أخص وصف الله عز وجل هو القدم. ولو قالوا: أخص وصف هو الأولية، لكننا نوافقهم على ما قالوا؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، أما أن نقول: إن القدم أخص وصف الله مع أنه يوصف به الحادث فهذا لا يكون، ولا يصح.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: فيها دليل على قدرة الله من حيث نور القمر، حيث يبتدىء ضعيفاً، ثم يزداد في القوة، ثم يرجع إلى الضعف، فإن هذا من قدرة الله عز وجل، إذ لو شاء لجعله ممتلئاً دائماً، أو ناقصاً دائماً.

٥ - وفيها أيضاً من الفوائد: الإشارة إلى حال الإنسان، فإن الإنسان إذا تدبر القمر وجد أنه مطابق لحال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾<sup>(١)</sup> فحال الإنسان مساوية تماماً لحال القمر، فالقمر يبدو ضعيفاً، ثم يزداد في القوة حتى إذا تكامل في القوة أخذ في النقص، وهكذا الإنسان بالنسبة لحياته.

\* \* \*

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقر لها، وأن هذا أمر مقدر من قبل العزيز العليم، وأن الله تعالى قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود بعد امتلائه نوراً فيصير كالعرجون القديم، بين أن هذا النظام لا يمكن أن يتصادم أبداً؛ لأنه مقدر من عند الله عز وجل العزيز العليم. منازل لا يتجاوزها ولا يتعدها، قال: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ يقول المؤلف: [يسهل ويصح]، لكن الأولى أن نقول: بمعنى يمكن، أي: لا يمكن للشمس أن تدرك القمر. وقد مر علينا أنه إذا جاءت كلمة (لا ينبغي) في القرآن فالمعنى الممتنع غاية الامتناع. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ ﴿٩١﴾ (١) يعني أن ذلك مستحيل، وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» (٢)، أي أن ذلك مستحيل. ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي ﴾ أصلها: (الشمس لا ينبغي لها)، ولكن قدم النفي ليكون المنفي الجملة الاسمية كلها، فقال: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ يعني: لا يمكن أن تدرك القمر فتجتمع معه في الليل، فإذا غابت لا يمكن أن تخرج في زمن الليل فإذا قدرنا أنها تغيب في الساعة الثانية عشرة، وتخرج الساعة الثانية عشرة، فبين غروبها وطلوعها اثنتا عشرة ساعة، لا يمكن أن تطلع في الساعة

(١) سورة مريم، الآية: ٩٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

الثامنة، فيكون بين غروبها وطلوعها ثمان ساعات، لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها، والذي جعلها تسير عليه لتمام قدرة الله تعالى، ونظام هذا الكون، وأنه لا يمكن أن يختلف أو يضطرب، لكن إذا جاء يوم القيامة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) (١).

﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ أي: الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلا بعده، وهنا قال: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ كان اليل هو الذي يمكن أن يسبق النهار، فنفى الله عز وجل أن يسبق الليل النهار، قيل: المراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار، فيكون الله عز وجل ذكر الشروق في قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يعني لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ أي لا يمكن لليل أن يأتي في زمن النهار، فإذا قدرنا أن الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة، فلا يمكن أن تغرب الساعة التاسعة مثلاً؛ لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار ولو في بعض أجزاءه.

وقيل: المعنى ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقِ النَّهَارِ﴾ أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيح على كلا القولين، فلا يمكن لليل أن يأتي وقد بقي شيء من النهار، ولا يمكن أن يأتي الليل كله في مكان النهار؛ لأن هذا ينافي تقدير الله عز وجل الذي سمى نفسه بأنه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

العزیز العلیم . قال : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠) (كل) قال المؤلف : [ تنويه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر والنجوم ، ﴿ فِي فَلَكٍ ﴾ مستدير ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ يسرون ، نزلوا منزلة العقلاء] ، ذكر المؤلف النجوم ، والنجوم في الآية غير مذكورة ، فالصواب من الشمس والقمر ، والمعنى : كل من الشمس والقمر ، والليل والنهار يسبح في فلكه ، والفلك هو الشيء المستدير ، ومنه (فلكة المغزل) للشيء المستدير في أعلاه ، والذي تغزل به النساء الصوف ، له شيء شبه الطار في أعلاه مستدير هذا فلكة المغزل . فالفلك المستدير تدور فيه الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وقوله : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠) قال المؤلف : [يسرون] ولكن المعنى أدق مما قال المؤلف - رحمه الله - لأن السبح هو العوم في الماء ، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع ، تدور وليست تسير على أرض مسطحة ، أو على ماء ، بل هي تعوم في هذا الأفق . وقول المؤلف : [يسرون نزلوا منزلة العقلاء] أي : الشمس والقمر والليل والنهار نزلوا (منزلة العقلاء) وذلك بأن أتى بالواو التي هي للعقلاء ، فالواو ضمير جمع لا تأتي إلا للعقلاء ، وغير العقلاء إذا أردنا أن نضيف إليهم شيئاً على سبيل الجمع نأتي بنون النسوة ، والعقلاء نأتي بالواو ، أو الميم ، فنقول مثلاً : الإبل ركبهن أربابهن ، ولا تقول : الإبل ركبهم أربابهم . لأن الميم للعاقل ، وتقول : الإبل شربن ولا تقول شربوا ؛ لأن الواو للعاقل ، وهنا ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠) أتى بالواو التي للعاقل يقول المؤلف : (إنها نزلت منزلة العقلاء) بإضافة السبح



والجريان إليها، والجريان والسبح إنما يكون من ذي الإرادة والعقل.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: في الآية دليل على أن سنة الله عز وجل لا تتغير هذا هو الأصل كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) ﴿١﴾ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٣) ﴿٢﴾ فسنة الله سبحانه وتعالى لا تتغير في الكون، ولكن هل هي سنة لازمة بحيث يمتنع على الله أن يغيرها؟ الجواب: لا، ولكن الله تعالى أخبرنا بأن هذه السنة لا تتغير، لكنها تتغير بتغيره ولهذا حبست الشمس ليوشع بن نون كما جاء في الأحاديث الصحيحة (٣)، ولهذا أيضاً إذا كان قرب الساعة فإنها تخرج من مغربها، ولهذا انشق القمر في عهد النبي ﷺ وصار فرقتين (٤)، فهذه السنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، ولكن الله قادر على أن يبدلها، أو يغيرها ويكون هذا السبب.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس لا يمكن أن تخرج ليلاً بحسب السنة الإلهية، أما بحسب قدرة الله تعالى فإنه يمكن أن تخرج ليلاً؛ لأن الله يقول: (كن) فيكون.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الليل لا يسبق النهار فلا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين... فأراهم انشقاق القمر

(٣٦٣٦) ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (٢٨٠٠).

يدخل عليه، ولا يتقدمه بحيث تتوالى ليلتان جميعاً ﴿وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ هذا ما يظهر لنا من الآية الكريمة، وقد يكون لها معنى غير ما نفهمه من ظاهرها، ولهذا ربما يكون الذين يدرسون في علم الفلك يتبين لهم من هذا التعبير أكثر مما تبين لنا.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس والقمر والليل والنهار في فلك، يعني في شيء مستدير كفلكة المغزل، وأنها تدور لقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

٥ - ومن فوائدها: ضعف قول من يقول: (إن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا)، فيجعلون الكواكب والشمس والقمر، كواكب معينة في كل سماء كوكب على هذا الترتيب من الأعلى للأدنى: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر، هذه سبعة يقولون كل واحد في سماء (زحل) هو أعلاها في السماء السابعة - على كلام السابقين من علماء الفلك - (المشتري) في السماء السادسة، (المريخ) في السماء الخامسة. (الشمس) في السماء الرابعة، (الزهرة) في السماء الثالثة. (عطارد) في السماء الثانية. (القمر) في السماء الدنيا كما قيل:

زحل شرى مريخه من شمسه      فتزاهرت بعطارد الأقمار  
فهذا البيت فيه ترتيب هذه الكواكب، وهذا الترتيب لا نعلمه من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن نعرف إن هذه الكواكب بعضها فوق بعض بالكسوف، فإذا كان القمر يكسف الشمس عرفنا أنه تحتها، كما نعرف أن الغيم

تحت الشمس؛ لأنه يحجبها، فإذا كسف القمر شيئاً من النجوم عرفنا أن القمر تحتها، ولهذا القمر يكسف كل النجوم، والشمس، ولا شيء يكسفه منهما إلا الأرض، لأن الأرض تحته فتحجب نور الشمس عنه، فحينئذ ينكسف القمر، وقد شاهدت أنا وغيري أن القمر يكسف بعض النجوم تجري سير حولها، ثم يغطيها، وهذا يدل على أن القمر نازل عن علو هذه الكواكب.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على قول من يقول: (إن الشمس ثابتة وأنها لا تدور)، والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة، وأن القمر يدور على الأرض. وهذا غلط؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم واحداً، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠) فإذا فسرنا السبح بالدوران، وأثبتنا ذلك للقمر فلنثبت أيضاً للشمس.

\* \* \*

﴿وَأَيُّهُ لَهْمٌ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَأَيُّهُ لَهْمٌ﴾ على قدرتنا ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وفي قراءة ﴿ذرياتهم﴾ أي آباءهم الأصول في ﴿الْفَلَكِ﴾ أي سفينة نوح عليه السلام ﴿الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) المملوء].

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهْمٌ﴾ أي: للناس جميعاً، يقول المؤلف: آية على قدرتنا، ونحن نسلم بذلك، لكن فيه أيضاً آية على شيء آخر، وهو رحمة الله عز وجل بالخلق ونعمته علينا، فالآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا بهذا الفلك، الذي سخره الله عز وجل يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه

مصلحتنا، فهو من الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته، وقوله: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذه الجملة في تأويل مصدر هي المبتدأ يعني (وآية لهم حملنا ذريتهم) قال المؤلف: ﴿ذريتهم﴾ [أي: آباءهم الأصول]، فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾<sup>(١)</sup> والمؤلف - رحمه الله - ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذركائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضاً: إن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول، لأن الصغار المشهودون حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يشاهدها، فتعين أن يكون المراد بالذرية الآباء.

وهذا الذي ذهب إليه المؤلف - رحمه الله تعالى - يوافق ظاهر الآية، لكنه يخالف ما كان معهوداً في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المراد

بالضمير هنا الجنس لا العين، والمعنى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾<sup>(١)</sup> ﴿جعلناه﴾ أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جعل نطفة ليس آدم الذي خلق من سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وادمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أن خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام حملت ذريته في الفلك المشحون، وخلق لهم من مثله ما يركبون، وهذا قريب جداً ولا يخالف ظاهر الآية، ويشير إلى أن هذه السفينة جعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٥﴾﴾<sup>(٢)</sup>. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون). وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا ياباه السياق.

﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ أي: سفينة نوح ف(ال) هنا للعهد

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

الذهني؛ لأنه لم يسبق لها ذكر، وليست للاستغراق؛ لأن المراد بها الفلك واحد، فتكون (ال) هنا للعهد الذهني، يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(١)</sup> والفلك يطلق على الجمع، ويطلق على المفرد، فمن إطلاقه على المفرد هذه الآية، وعلى الجمع مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> أي: الفلك، وهذا الضمير ضمير جمع، ولا يعود للمفرد، ولهذا قال بعض الفقهاء - رحمهم الله - (إن الأحذب الذي حدبته كالركوع ينوي الركوع، وهذا كفلك في العربية) لا يدري هل هو جمع، أو مفرد إلا بالنية، فالأحذب المقوس الظهر يركع بالنية ينوي الركوع، لأنه مازال راعياً أحذب، ﴿الْمَشْحُونِ﴾<sup>(٣)</sup> أي: المملوء بأناس من البشر الذي آمنوا مع نوح وما آمن معه إلا قليل، مملوء ببقية الحيوانات؛ لأن الله قال فيه: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾<sup>(٤)</sup>.

### الفوائد:

في الآية الكريمة من الفوائد:

١ - بيان ما في إنقاذ البشرية من الغرق في زمن نوح عليه الصلاة والسلام، فإنه لولا أن الله أبقى هؤلاء لزالَت البشرية من الأرض، لكن الله تعالى أبقى نوحاً عليه الصلاة والسلام ومن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

معه ، ومع هذا لم يبق من نسل الذين معه أحد ، وإنما الذين بقوا هم نسل نوح عليه الصلاة والسلام فقط ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ (٧٧) (١) أما غيرهم فلم يبق منهم أحد ، ولهذا يسمى نوحاً أبا البشر الثاني .

٢ - من فوائد الآية الكريمة : بيان نعمة الله عز وجل بما أنعم على هؤلاء بتعليم السفن التي يركبونها في البحر ، لولا هذه السفن ما استطاع أحد أن يعبر من يابسة إلى أخرى بينهما ماء ، ولكن الله تعالى أعلمهم بصناعة هذه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة : أن السفينة التي كان فيها نوح عليه الصلاة والسلام كانت مملوءة من البشر وغيرهم لقوله : ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ (٤١) .

\* \* \*

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ (٤٢) قال المؤلف - رحمه الله - : [أي : مثل فلك نوح ، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله تعالى ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ (٤٢) فيه ] يذكرهم الله عز وجل :

أولاً : بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذرية نوح عليه الصلاة والسلام .

وثانياً : بأن الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفلك ما يركبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (١٥) (٢)

(١) سورة الصافات ، الآية : ٧٧ .

(٢) سورة القمر ، الآية : ١٥ .

فالناس تعلموا كيف يصنعون السفن، وصاروا يصنعون مثل هذه السفن، ولعل قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾﴾<sup>(١)</sup> فيها الإشارة إلى مواد هذه السفينة، أو الفلك لأجل أن يتعلم الناس؛ لأنه لم يقل (حملناه على فلك) بل قال: ﴿على ذات ألواح ودسر﴾ كأنه يقول: إن هذه الفلك مصنوعة من الألواح والمسامير، حتى يتعلم الناس مواد هذه الفلك. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ المراد بمثله هنا الجنس، وليس المراد المماثلة من كل وجه، وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون متعذرة، لكن يكفي الجنس، أما النوع فيختلف باختلاف الأعصار، فلكل عصر نوع سفنه، وما زالت ترتقي السفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدنا الحاضر، قال المؤلف - رحمه الله تعالى -: [بتعليم الله تعالى] إشارة إلى سؤال مقدر كأنه قال: كيف قال الله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ﴾؟ وهذه السفن مصنوعة بأيدي البشر وليست بخلق الله كخلق البعير التي نركب والفرس وما شابهها؟ فأجاب المؤلف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه لأنها كانت بتعليمه سبحانه وتعالى.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه، لقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ وليست السفن الموجودة والتي كانت في عهد نزول القرآن ليست كمثلى سفينة نوح من كل وجه، ويدل على أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة

(١) سورة القمر، الآية: ١٣.



من كل وجه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾<sup>(١)</sup> فإن المراد هنا المماثلة في العدد فقط، وإلا فإن بين السماء والأرض من الفروق العظيمة ما هو ظاهر.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى الراحة الحاصلة بهذه السفن، وأنها محل ركوب واستقرار لقوله: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

٣ - وفيها أيضاً: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى باستقرار الراكبين على هذه السفن.

\* \* \*

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup> إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾<sup>(٤)</sup> في الآية جملة شرطية فعل الشرط فيها ﴿نَشَأْ﴾ وجوابه ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ وفيها أيضاً استثناء مفرغ من أعم الأحوال وهو قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرحمة التي من الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني إذا ركبوا السفن، والأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾<sup>(٥)</sup> إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾<sup>(٦)</sup> أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبًا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾<sup>(٧)</sup>.

فحذر الله عز وجل من أمرين في هذه السفن: إما إسكان الريح فتبقى راكدة على ظهرها، وإما أن يغرقها وهنا يقول: ﴿وَإِنْ نَشَأْ

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) سورة الشورى، الآيات: ٣٢، ٣٤.

نُغْرِقَهُمْ ﴿٤٣﴾ وهم في سفنهم ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ الصريخ بمعنى المغيث، وسمي المغيث صريخاً؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث، ومنه حديث غزوة بدر أن أبا سفيان بعث صارخاً إلى أهل مكة يستغيثهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ أي: لا أحد يغيثهم، ولا أحد ينقذهم إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يغرقتهم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٤﴾ أي لا ينجيهم أحد إلا رحمة الله عز وجل، والاستثناء هنا قيل: إنه منقطع؛ لأن قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بمعنى: لكن رحمة منا ينجون وينقذون، وقوله: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٤﴾ أي أنهم يمتعون إلى حين أجلهم؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدراً، أي لا ينجيهم إلا رحمتنا لهم، وتمتعنا إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

### الفوائد:

في الآيتين الكريمتين فوائد:

١ - منها: إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَلَإِن نَّشَأْ

نُغْرِقَهُمْ﴾ .

٢ - ومنها: أن الله إذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له، لقوله:

﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ .

٣ - ومنها: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بإنجائهم من

الغرق، وأن نجاتهم من الغرق ليست بكسبهم وعملهم، ولكنها

من رحمة الله عز وجل .

٤ - ومنها: إثبات رحمة الله عز وجل لقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً

مِّنَّا﴾ .

٥ - ومنها: أن الله تعالى قد ينقذ الإنسان من الهلاك إلى أن يأتي أجله، لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٤).

٦ - ومنها: أن الخلود في هذه الدنيا متعذر، ومستحيل لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٤) وما كان له غاية فلا بد أن ينقضي.

٧ - ومنها: أنه يجب على الإنسان أن ينظر إلى نعم الله تعالى بالإنقاذ من الشدائد، أو بحصول المحبوب أن ينظر إلى النعم على أنها فضل من الله عز وجل وليست بكسبه، ولكنها من الله لقوله: ﴿وَإِنْ تَشَاءُ نَغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾.

\* \* \*

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) قال المؤلف: [من عذاب هم الدنيا كغيرهم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) أعرضوا]، قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ هذه الجملة شرطية، فعل الشرط فيها ﴿قِيلَ﴾ وجوابه محذوف، قدره المؤلف بقوله: (أعرضوا) وهذا التقدير لا شك أنه التماس من المؤلف - رحمه الله - وإلا فقد يكون الأمر أوسع مما قال المؤلف، وحذف مثل هذا فيه من البلاغة أن الذهن يقدر كل ما يمكن أن يقدره مما يترتب على هذا القول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الناس إذا قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ تختلف إجاباتهم منهم من يعرض ويسكت، ومنهم من يستكبر ويسب، ومنهم من يقاتل: إلى غير ذلك من الأمور التي لا تخفى، فكان في حذف هذا من البلاغة ما هو ظاهر ليذهب الذهن كل مذهب في تقدير هذا المحذوف،

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ القائل هنا مبهم، لأن الفعل مبني للمجهول، ليشمل أي واحد يقول، سواء كان من قول الله عز وجل في كتابه، أو كان من قول الرسول ﷺ في سنته، أو كان من قول الدعاة بعد ذلك ﴿لَهُمْ اتَّقُوا﴾ أي: الكفار. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال المؤلف: [من عذاب هم الدنيا] ولكن الهم ليس هو العذاب فقط، فإن الله سبحانه وتعالى قد يعذب الكافر في الدنيا كما عذب الأمم السابقة، وكما عذب هذه الأمة أيضاً لكن عذاب هذه الأمة يكون بابتلاء بعضهم ببعض ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> كانت هذه في غزوة بدر حين قتل صناديد قريش، فسامها الله سبحانه وتعالى البطشة الكبرى، أما الأمم السابقة فعقوباتهم معروفة، فهنا ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا العذاب المتنوع، سواء كان بأيدي المؤمنين، أو كان من فعل الله عز وجل، كالحط والزلازل والغرق وغير ذلك ﴿وَمَا خَلَقَكُمْ﴾ من أمر الآخرة، وعذاب الآخرة أشق، وأشد، وأبقى.

قد يقول قائل: لو كان الأمر في التفسير بالعكس لكان أقرب إلى الصواب، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: من عذاب الآخرة؛ لأنه مستقبل ﴿وَمَا خَلَقَكُمْ﴾ أي: من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يخلفها الإنسان وراءه.

ولكن يجاب عن هذا: بأن الذي بين أيديهم حقيقة هي

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

(٢) سورة الدخان، الآية: ١٦.

الدنيا، وأما خلقهم فإن الخلف هو الوراء قد يطلق بمعنى الأمام،  
ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩) ﴿١﴾  
قال العلماء: معناه: أمامهم. وكقوله تعالى: ﴿وَمِنَ وِرَائِهِ عَذَابٌ  
غَلِيظٌ﴾ (١٧) ﴿٢﴾ أي: من أمامه.

وقيل: المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ المعاصي التي في  
مستقبلهم ويخشى أن يفعلوها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ المعاصي الماضية  
فيجعلون المراد بما بين أيديهم وما خلفهم من الأعمال لا من  
عذاب الله، وقد سبق أن قلنا: إن الآية إذا كانت تحتل المعاني  
المقولة فيها بدون تعارض فإنها تحمل على الجميع. وقوله:  
﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ (٤٥) لعل هنا للتعليل، أي: لأجل أن يرحمهم الله  
عز وجل إذا قيل لهم هذا الشيء، فجمع لهم بين الترغيب  
والترهيب، الترغيب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ (٤٥) والترهيب في  
قوله: ﴿أَتَقْوُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ فهؤلاء جمع لهم بين  
الترغيب والترهيب ومع ذلك لا يستجيبون، بل يعرضون  
ويستكبرون ويسخرون، ويقولون: هذا أساطير الأولين، وما  
أشبه ذلك مما هو معروف عن هؤلاء إذا دعوا إلى الله تعالى.

### الفوائد:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد:

١ - أن هؤلاء الكفار قد أقيمت عليهم الحجة وبلغتهم  
الدعوة ووعظوا، ولكن لم ينفعهم ذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

لَهُمْ أَتَقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴿٤٠﴾ .

٢ - ومن فوائدها: أن الإنسان إذا أعرض عن دين الله واستكبر كان عرضة للعذاب إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿ أَتَقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ .

٣ - ومن فوائدها: أن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته سبب للرحمة لقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

٤ - ومن فوائدها أيضاً: إثبات العلل والأسباب لقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ فإن لعل هذا للتعليل، ولا أحد ينكر أن للأسباب تأثيراً إلا من صرف عن مقتضى الفطرة، والناس اختلفوا في الأسباب والعلل على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: إن الأسباب والعلل مؤثرة بذاتها، وأنه لا بد لكل سبب من تأثيره في مسببه، ولا بد في كل علة من تأثيرها في معلولها.

ومنهم من قال: إنه لا تأثير للعلل والأسباب، وإنما هي علامات وإمارات فقط، فإذا وجد المسبب أو المعلول لم يقولوا: إن ذلك من أجل السبب أو العلة، ولكن يقولون: إن ذلك حصل عنده لا به. ولا ريب أن هؤلاء يخالفون المنقول والمعقول. ولا أحد يوافقهم على ما ذهبوا إليه.

القول الثالث الوسط يقولون: إن الأسباب والعلل تؤثر في معلولاتها ومسبباتها، ولكن بجعل الله ذلك فيها، فهي ليست مؤثرة بنفسها بل بما أودعه الله تعالى فيها من الأمر الموجب للسبب، أو للمعلول. وهذا القول هو المتعين، وهو الصواب؛

بدليل أن الله تعالى قد يسلب هذه العلة، أو هذا السبب التأثير فلا يبقى له تأثير إطلاقاً، وما قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بغريبة حيث ألقى في نار تتأجج فقال الله عز وجل لهذه النار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup> فكانت برداً وسلاماً، مع أنها هي سبب للإحراق، ولكنها صارت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على أن الأسباب والعلل إنما تؤثر بإرادة الله عز وجل وجعل هذه العلة أو السبب مؤثراً.

٥ - ومن فوائد هذه الآية: إثبات رحمة الله عز وجل، وهي من الصفات الذاتية الفعلية، فهي من الصفات الذاتية لأن الله لم يزل رحيماً بعباده ولا يزال، ومن الصفات الفعلية باعتبار تعلقها بالمرحوم، فإنها تتجدد باعتبار المرحوم، لا باعتبار أنها صفة من صفات الله، فهذا الذي رحمه الله من البشر حادث بعد أن لم يكن فتعلقت به الرحمة، ولا يخفى ما ذهب إليه الأشاعرة من إنكارهم الرحمة على وجه الحقيقة، وادعائهم أنه يراد بها الإحسان، أو إرادة الإحسان. ففسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون أن الله تعالى الإرادة، وبالإحسان؛ لأنه مخلوق منفصل ليس من صفات الله، وهذا بلا شك قول باطل، وقد مر علينا بيان تعليلهم لإنكاره والرد عليهم. قالوا: إن الرحمة تقتضي رقة وليناً وضعفاً، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وأيضاً الرحمة لا يدل عليها العقل، ونحن لا نثبت من الصفات إلا ما دل عليه العقل، وقد بينا أن هذا القول ليس بالصواب:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

أولاً: أن الرحمة قد تقع من إنسان قوي، وذي سلطان ويوصف بالرحمة.

ثانياً: ادعائهم أن العقل لا يدل عليها باطل، فإن العقل يدل عليها أكثر دلالة وأوضح دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، وقد مر علينا هذا كثيراً.

\* \* \*

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ ﴾ الضمير يعود هنا على المكذبين للرسول، و﴿ مِّنْ ﴾ هنا زائدة لفظاً، وزائدة في المعنى، أي: تعطيه معنى جديداً، والمعنى الجديد تأكيد النفي والتنصيص على عمومته، أي: أي آية تأتيتهم فإنهم لا يقبلونها، بل يعرضون عنها ويستكبرون، والآيات التي تأتي من الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

الأول: آيات كونية.

الثاني: آيات شرعية.

فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، والإعراض عنها يكون بالتكذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراض عنها أنه لا يهتم بها، وأن لا تحرك منه ساكناً، وأن لا يوجل منها قلبه، وأن يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ ﴿٤٤﴾ (١) أو كالذين يقولون: إن الكسوف ليس أمراً مخيفاً؛



لأنه شيئاً طبيعياً، ولا ينبغي أن يخيف - نسأل الله العافية -، أو كالذين يرون الزلازل، والغرق، والدمار من الرياح العاتية وغيرها، ثم يقولون: هذا أمر طبيعي، ولا يحرك له ساكناً، ولا ريب أن هذا يدل على قسوة القلوب وموتها، وإلا فإن الواجب على الإنسان أن يتعظ بهذه الآيات، فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدم المبالاة بها، وعدم الاكتراث بها، وأن لا تحرك من الإنسان ساكناً، ولا تهز له عاطفة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: إلا قابلوها بالإعراض، ولا يتأملونها، ولا يفكرون فيها، فإذا جاءت الآيات الشرعية في خبر كذبوها، وقالوا: هذا كذب، هذا سحر، هذا شعر، وإذا جاءت الأحكام الشرعية استكبروا عنها، ولم يدعوا لها ولم ينقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكثرثون بها ولا يهتمون بها.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يذكر، أو يبين لعباده من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ووجه ذلك أنه لولا هذا لم يكن في الآيات فائدة.

٢ - من فوائدها: أن بني آدم قد يعتون عن الآيات فيعرضون عنها بدون نظر، والواجب على الإنسان أن ينظر أولاً، ثم يحكم ثانياً، ولهذا يقال: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، فانظر أولاً في الآيات هل هي آيات مقنعة، موجبة للصلاح، فلتكن صالحاً بها، هل هي لا تنفع، فحينئذ تعذر بالإعراض عنها.

٣ - من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قسوة قلوب هؤلاء، فإنهم لم يقبلوا آية من الآيات ودليله ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة لقوله: ﴿ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ . فأثبت الله تعالى أنه رب هؤلاء، وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾<sup>(١)</sup> فكل شيء فالله ربه، حتى الكفار، وقد تكون الربوبية خاصة، أي: أنه يراد بها ربوبية خاصة، فيها مزيد عناية واعتناء، مثل قوله تعالى: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> فإن هذه الربوبية غير الربوبية العامة.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: تقييح حال هؤلاء والتحذير من فعلهم لقوله: ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> مع أنها جاءت من ربهم الذي هو مالكهم، وخالقهم، وأمرهم إليه، ومع ذلك يعرضون.



قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾<sup>(٤٧)</sup> ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ قال المؤلف: [أي قال فقراء الصحابة: أنفقوا علينا مما رزقكم الله من الأموال]، هكذا سار المؤلف في

(١) سورة النمل، الآية: ٩١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٢.

تفسير الآية فجعل القائل هم الفقراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال الفقراء من الأغنياء أن ينفقوا، أي: إذا جاء الفقراء يسألون الأغنياء أن ينفقوا تهكموا بهم، وقالوا: كيف نطعمكم، والله تعالى لم يشأ أن نطعمكم، ولو شاء أن نطعمكم لأعطيناكم بدون سؤال، هذا توجيه الآية على ما مشى عليه المؤلف - رحمه الله - .

لكن الذي ينبغي أن نجعل الآية عامة؛ لأنه أبهم فيها الفاعل، وإبهام الفاعل يراد به في بعض الأحيان التعميم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: إذا قال لهم أحد من الناس، سواء كان الفقراء يسألونهم الإنفاق، أو كانوا الأغنياء يحثونهم على الإنفاق، لأن الأغنياء من الصحابة - رضي الله عنهم - مثلاً ينفقون فيحثون الأغنياء من الكفار على أن ينفقوا أيضاً، فالصواب أن نبقى الآية على إبهامها ليكون أعم، وقوله: ﴿أَنْفِقُوا﴾ الإنفاق بمعنى البذل والإعطاء وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي مما أعطاكم الله، وفي قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ دون قول: (أنفقوا من أموالكم) فيه تنبيه على أن هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع، ولكنه من رزق الله تعالى، فكان عليكم أن تنفقوا من هذا الذي رزقكم الله، لأن الله يأمركم به، فالذي أمركم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال، فكيف تنكرون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تنفقون؟! هذه هي الفائدة من قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فما كان الجواب: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعِم مِّنْ لَّوْشَاءِ اللَّهِ أَطَعْمَهُ﴾ قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ اللام هذا الأصح أن المراد بها الصلة، يعني قالوا قولاً يصل للذين آمنوا، والذين آمنوا هم

الذين قالوا لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ  
ءَامَنُوا﴾ قال المؤلف [استهزاء بهم] يحتمل ما ذكره المؤلف أنه  
استهزاء، ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عناداً وتبجحاً  
يقولون: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ و﴿مَنْ﴾ هنا بمعنى الذي،  
ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: نطعم أحداً لو يشاء الله  
أطعمه من دوننا، أو أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمهم، و﴿لَوْ﴾  
هنا حرف امتناع الامتناع، وشرطها قوله: ﴿يَشَاءُ﴾ وجوابها:  
﴿أَطْعَمَهُ﴾ وقد أتت على خلاف الأكثر حيث حذفت اللام من  
الجواب، والأصل (من لو يشاء الله لأطعمه) فإن جواب (لو) إذا  
كان مثبتاً فالأكثر فيه إثبات اللام، وقد تحذف اللام، وقد اجتمع  
الأمران في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ  
الَّذِينَ نَزَّلْنَا الْبُرُوجَانَ﴾ (١٦) ﴿لَوْ يَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (١٥) ثم قال:  
﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّتِي تَشْرَبُونَ﴾ (١٨) ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ (١٩) ﴿لَوْ  
يَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠) فأتت اللام في جواب (لو)  
في الآية السابقة، وحذفت من الآية الثانية، وهذه الآية من سورة  
يس من باب محذوف اللام ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ قال  
المؤلف: إنهم يقولون ذلك [استهزاء بهم] يعني: أنطعم قوماً لو  
شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: يحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فراراً من  
اللوم، يعني: أنطعم قوماً أن لو يشاء الله أطعمهم فأطعمناهم،  
ولكن الله تعالى لم يشاء أن نطعمهم فلا نطعمهم.

الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضاً على القدر، كما يقوله الاشتراكيون والشيوعيون، أي: لماذا يجعل الله هذا فقيراً، ولا يعطه، فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله، ويقولون: الذي يطعمهم، والمسؤول عنهم هو الله، وكان على الله أن يطعمهم، لكن لم يشأ ذلك، فيكون في هذا نوع من الاعتراض على القدر.

فهذه ثلاثة أوجه:

الأول: الاستهزاء.

الثاني: الاحتجاج بالقدر.

الثالث: الاعتراض على القدر.

ثم قالوا: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ﴾ قال المؤلف: [أي: في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٧) ﴿بين﴾ يعني هؤلاء الكفار الذين أمروا أن ينفقوا على الفقراء، يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقد أن الله لو شاء أطعمهم فيقول: نعم أعتقد ذلك، فيقولون: إذن كيف تأمرنا أن نطعمهم، والأمر بمشيئة الله ما أنت إلا في ضلال مبين وقوله: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ﴾ ﴿إِنَّ﴾ هنا نافية، لوجود (إلا) بعدها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي دليل على (إن) نافية و(إن) ترد في اللغة العربية على أربعة أوجه هي:

الأول: تأتي زائدة، ومثاله قول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب

ولا صريف ولكن أنتم الخزف

الثاني: تأتي شرطية، مثاله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ

أَوْلَىٰ بِهَمَّا ﴿١﴾ .

الثالث: تأتي نافية، مثاله: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ .

الرابع: مخففة من الثقيلة، مثاله قول الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن .

وقال المؤلف: [مبين أي: بين] فهي من أبان القاصر، وأبان تأتي متعدية، ولازمة، فيقال: أبان الشيء، أي: أظهره، ويقال: أبان الصبح، أي: ظهر، إذن ﴿مبين﴾ من الرباعي من أبان، يبين، فهو مبين ويحتمل أن تكون بمعنى (بين) على أنها من القاصر .

ويحتمل في غير هذا السياق أن تكون بمعنى (أبان) مثل ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾<sup>(١)</sup> ليس المعنى: وقرآن بين، بل وقرآن مبين للحق .

قال المؤلف: [وللتصريح بكفرهم موقع عظيم] أي في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ وَلَمْ يَظُنُّوا أَنَّ لَهُمْ عَلَيْكُمْ لِحْزَانٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾﴾ (قالوا) بل قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾﴾ فله موقع عظيم لأنه: أولاً: التصريح بكفر هؤلاء، لو قال (قالوا) لقلنا لعلمهم قالوا ذلك ليس بسبب الكفر، ولكن بسبب البخل، هذه فائدة، أن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم .  
الفائدة الثانية: أن مثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر،

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥ .

(٢) سورة الحجر، الآية: ١ .

فيكون الكفر عامًّا لكل من قال هذه المقالة .

وقد مر علينا فيما سبق أن الإظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد :

الفائدة الأولى : التصريح بالحكم على هؤلاء الذين يرجع إليهم الضمير .

الفائدة الثانية : أن من قال بمثل هذا فهو كافر، أو ظالم حسب السياق .

الفائدة الثالثة : العلة، وأن هذا القول سببه كذا وكذا حسب ما يوصف .

﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ اللام بمعنى (عن) يعني : قال الذين كفروا عن الذين آمنوا : يعني قالوا في حق الذين أمروا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ ﴾ .

### الفوائد:

١ - يستفاد من هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الذين كفروا يوعظون وينبهون ولكنهم يستكبرون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فالحجة قائمة عليهم .

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة : أن الإنسان إذا أنفق بأمر الله تعالى فلا منة له على الله عز وجل ؛ لأن الله تعالى هو الذي أعطاه لقوله : ﴿ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة : أنه ينبغي للمتكلم الواعظ أن يبين الأسباب التي تحث على فعل ما وعظ به لقوله : ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة أن هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه أنهم كفار لقوله: ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

٥ - ومن فوائدها: أن البخل من صفات الكافرين، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وإذا كان من صفات الكافرين فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يتصف به، فكل ما كان من صفات الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن اللائق بالمسلم أن لا يفعله، لأنه إذا فعله صار متشبهاً بالكافرين في هذه الخصلة.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يقول كلمة الحق يريد بها الباطل ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ ﴾ فنحن نؤمن بأنه لو شاء الله لأطعم هؤلاء، لكن حكمته عز وجل اقتضت أن يجعل هؤلاء فقراء، وهؤلاء أغنياء.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن المشركين يقرون بمشيئة الله وأنها نافذة في كل شيء، لقولهم: ﴿ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ ﴾ والمشركون أو الكافرون لا ينكرون ربوبية الله عز وجل، بل يقرون بها حتى الذين تظاهروا بإنكارها إنما ينكرونها بألسنتهم لقوله تعالى عن آل فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ (١) ولقول موسى عليه الصلاة والسلام، لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ (٢) لكن ينكرون الربوبية استكباراً ومكابرة، وإلا فإن قرارة نفوسهم تشهد بها.

(١) سورة النمل، الآية: ١٤ .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢ .



٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: الأساليب الدعائية التي يستعملها المشركون من قديم الزمان، حيث قالوا لهؤلاء المؤمنين، أو لهؤلاء القائلين: أنفقوا مما رزقكم الله. قالوا لهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾» وهذا الوصف المشين للمؤمنين من الكافرين هذا لم يزل ولا يزال موجوداً إلى يومنا هذا، فهم يصفون أهل الخير بالأوصاف العديدة المنفرة منهم، أو التي يقصدون بها استعداء الحكام على هؤلاء المؤمنين، يقولون: هؤلاء رجعيون، وهؤلاء متخلفون، هؤلاء متشددون، هؤلاء متزمتون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يصفون بها أولياء الله عز وجل، ونحن لا ننكر أنه يوجد من أهل الخير وأهل الدين من يغلو ويبالغ في عمله، أو في وصفه لغيره من التكفير والتفسيق، حتى يكفر من لم يكفره الله، ويفسق من لم يفسقه الله، نحن لا ننكر أن هذا موجود، ولكن يبدو لي - والله أعلم - أن وجود مثل هؤلاء المتشددين إنما جاء نتيجة لتطرف الآخرين في المعاصي والفسوق، فيريدون أن يحدثوا ردة فعل بالنسبة لهؤلاء، ولو استقام الناس كلهم على الدين ما حصل هذا التطرف، لكن إذا رأوا جانباً متطرفاً في الفسوق والعصيان، وأنه مستمر على ذلك ومقر على ذلك من بعض ولاية الأمور، حصل رد فعل مقابل لهؤلاء، فتشدد هؤلاء في مقابل تراخي هؤلاء، ولكن التوسط هو الخير، ومع هذا فإن المتوسطين المعتدلين لا يسلمون من ألسنة المتطرفين الضالين، ولا من ألسنة المتطرفين الغالين، فالغالون مثلاً يقولون لهؤلاء المتوسطين: أنتم مفرطون، أنتم مداهنون، أنتم تقرون أهل

الشر، وأهل الشر يقولون: هؤلاء متشددون، هؤلاء يريدون من الناس أن يكونوا على شاكلتهم، وإلا فهم كافرون وما أشبه ذلك، والمهم أن ألقاب السوء التي يلقب بها أعداء الله أولياء الله لم تزل موجودة ولا تزال موجودة إلى يومنا هذا، حتى أهل البدع يلقبون أهل السنة بألقاب السوء يقولون: هؤلاء مشبهة. إذا أثبتوا الصفات على الحقيقة، وهؤلاء حشوية، هؤلاء نوابت وما أشبه ذلك من الكلمات التي تستوجب النفور منهم، والنيل من قدرهم، ولكن هذا لا يضر أهل الخير، ولكن يؤذيهم، والأذية غير الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولكن لا يتضرر به، فهذا هو الإنسان يتأذى من رائحة البصل والكراث، والشيء المستقدر، ومع ذلك لا يتضرر به، وقد أثبت الله لنفسه أنه يؤذى من المنافقين وغيرهم، ونفى عن نفسه الضرر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾<sup>(١)</sup> وقال في الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر»<sup>(٢)</sup>، وقال في الحديث القدسي: «يا عباد إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»<sup>(٣)</sup>، المهم أن مثل هذه الألقاب لا شك أنها تؤذي المؤمنين، ويتأذون منهم، وتضيق بها صدورهم، لكنها لا تضرهم، بل هي نافعة لهم؛ لأنهم إذا صبروا عليها أجروا على الصبر، وإذا تأذوا بدون صبر صارت كفارة لهم؛ لأنه لا يصيب المؤمن من هم ولا أذى ولا غم إلا كفر

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الجاثية (٤٨٢٦) ومسلم، كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧).

الله به عنه حتى الشوكة يشاكها، لاسيما وأنه يؤذى هنا في ذات الله عز وجل، فيكون هذا منقبة لهم، ويكون هذا الإنسان الذي أُوذي في الله قد ناله ما نال أولياء الله من الأنبياء والصدّيقين والشهداء، وقد أخبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه يتلى الصالحون الأمثل فالأمثل<sup>(١)</sup>، فإذا كان فيه قوة في دينه فإنه يؤذى أكثر؛ ليكون أبلغ في الامتحان، وإذا كان دينه أقل، فإن الله قد يرحمه فلا يحصل له من الأذية ما يحصل للآخر، وقد يتبليه الله عز وجل، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾<sup>(٢)</sup> نسأل الله السلامة.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: المبالغة من أعداء الله بما يسمون به أولياء الله لقولهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»<sup>(٣)</sup> كأنهم حصروا حالهم من كل وجه في الضلال المبين، كأنه لا هداية فيهم إطلاقاً (ما أنتم إلا في ضلال) وهذا غاية ما يكون من العدوان من هؤلاء.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله، وهي كثيرة في القرآن، ولكن كل ما ذكر الله تعالى من المشيئة فهي مقرونة أو مقيدة بالحكمة، إذ ليست مشيئة الله مجرد مشيئة بل هي مقرونة بالحكمة.

\* \* \*

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) أي يقول الكفار المكذبون بوعد الله - عز وجل - ومنه القيامة ﴿ مَتَى ﴾ هنا استفهام استبعاد وتحدي، أي: يقولون مستبعبين هذا الأمر متحدين من يقوله ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨)، و﴿ مَتَى ﴾ خبر مقدم و﴿ هَذَا ﴾ مبتدأ مؤخر؛ وذلك لأن ﴿ مَتَى ﴾ واقعة موقع النكرة و﴿ هَذَا الْوَعْدُ ﴾ معرفة، والمعهود أن المعرفة هي المبتدأ، والخبر يكون نكرة، وقد يكون معرفة، لكن إذا وجد نكرة ومعرفة، وأمکن أن تكون المعرفة للمبتدأ فهي المبتدأ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلا بد أن يكون معرفة، والمعرفة تعين المدلول وتخصصه، فلا بد أن يكون المحكوم عليه معلوماً، ولهذا قال العلماء في هذه القاعدة: (إذا وجدت كلمتان إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأمکن أن تكون المعرفة هي المبتدأ فلتكن هي المبتدأ)، وتعليل ذلك أن المبتدأ محكوم عليه، فلا بد أن يكون معلوماً متعيناً يقول: ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) أي: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) بأننا نبعث فمتى يكون، ولا شك أن هذه الشبهة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يعينوه بيوم معين، وانظر إلى حجتهم في آية أخرى تكن أبين ﴿ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥) (١) وهل الذين قالوا: إنهم يبعثون قالوا يبعثون في الدنيا حتى يقولوا: اتتوا بآبائنا، وإنما قالوا سبعتون يوم القيامة، وقولهم: (اتتوا بآبائنا) أي: ابعثوهم لنا، هذا التحدي في غير محله، لأنه ما قيل لهم: إنكم سبعتون في الدنيا،

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٥.

بل في يوم القيامة، وهنا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨). الجواب: ذكر الله تعالى هذا في القرآن: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (١) فالوعد لم يحن وقته بعد، انتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

**الفوائد:** من فوائد الآية الكريمة:

- ١ - استفاد منها: أن بني آدم يصل إلى حد التحدي لرب العالمين، ولمن بلغ رسالته لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾.
- ٢ - ومن فوائدها: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بلغوا البلاغ المبين، وبينوا للناس أنهم سيعثون ويجازون، وأنهم وعدوا بذلك لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾.
- ٣ - ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول تحدياً واستبعاداً لم يصدقوا الرسل، بل كذبوهم، وليتهم نظروا في الأمر وفكروا لقوله هنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) قال المؤلف: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل الأولى [نظر] تستعمل متعدية بنفسها، بمعنى الانتظار مثل: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣) ولها أمثلة كثيرة، وأن تعدت بـ(في) صار المراد بها نظر الفكر تقول: (نظر في كذا) أي: فكر فيه

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وتأمله، وإذا تعدت بـ(إلى) فهي النظر بالعين تقول: (نظرت إليه)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾<sup>(١)</sup> ﴿صَيِّحَةٌ﴾ يعني يصاح بهم، وذلك بالنفخة الأولى في الصور؛ لأن هذه النفخة يكون لها صوت عظيم مزعج يفرع الخلائق، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> فكل الخلائق تفرع إلا ما شاء الله عز وجل، فيفزعون فرعاً شديداً يؤدي إلى صعق إلى الموت وحينئذ تكون نفخة واحدة فيها فرع، وفيها صعقة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: تأخذهم كما يأخذ العدو عدوه بحيث لا تمهلهم ولا تنظرهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup> قال المؤلف - رحمه الله -: [بالشديد، أصله يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت في الصاد، أي: وهم غفلة عنها بتخاصم وتبايع، وأكل وشرب وغير ذلك، وفي قراءة (يَخِصِّمُونَ) كيضربون أي: يخصم بعضهم بعضاً].

القراءات التي ذكر المؤلف قراءتان فقط، يقول: بالتشديد أصله يختصمون، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وحركة التاء هي الفتحة، وأدغمت التاء بالصاد فصارت على هذه القراءة (يَخِصِّمُونَ)، والقراءة التي في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup>، بكسر الخاء، والقراءة الثالثة (يَخِصِّمُونَ)، كيضربون، والقراءة الرابعة التي أشار إليها المحشي<sup>(٣)</sup> هو أن تجعل الخاء لا مفتوحة

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) المحشي هو: الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ رحمه الله تعالى وحاشيته هي: (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين =

خالصة، ولا مكسورة خالصة وإنما تختلس الفتحة، فتكون بين الفتحة والكسرة، هذه القراءة الرابعة، والثالثة التي في المصحف لم يشر إليها المفسر، ووجه المحشي القراءة الموجودة في المصحف ﴿يَخْصِمُونَ﴾ بأن الحركة أزيلت من التاء، فصارت ساكنة، فلما صارت ساكنة حركت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل، فالمهم يقول المؤلف - رحمه الله - أي: وهم في غفلة عنها بتخاصم وتبايع وأكل وشرب وغير ذلك.

فالصيحة إذن أخذتهم على غرة، وهم غافلون عنها، لاهون بأمورهم ودنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض، وهذا يدل على عدم ائتلاف قلوبهم في تلك الساعة، وأنهم من جنس البهائم، ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولم يذكر الله عز وجل سوى التخاصم كأن أكثر ما هم عليه في ذلك الوقت هو التخاصم والتباغض والتدابير، لأنهم ليس عندهم إيمان، فهم شرار الخلق في معاملة الله، وشرار الخلق في التعامل فيما بينهم، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون، أي يخصم بعضهم بعضاً، فيكون الظهور للغالب في الخصومة لا للحق، لأنهم في هرج ومرج، وليس عندهم إيمان، ولا مروءة، ولا خلق، هم شرار الخلق، فكانت هذه - والعياذ بالله - حالهم عند قيام الساعة.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات علم الله عز وجل وسمعه؛ لأن قوله: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ جواب قولهم: ﴿مَتَى هَذَا﴾

﴿الْوَعْدُ﴾ .

٢ - ومن فوائدها: تهديد هؤلاء المكذبين بهذه الصيحة التي تأخذهم .

٣ - ومن فوائد هذه الآية: قدرة الله عز وجل حيث يأخذ هؤلاء كلهم بصيحة واحدة لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهنا أكد الصيحة بـ(واحدة) ليبين أنه لا يعيدها مرة ثانية، بل بأول مرة يؤخذون .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيحة تأتيهم بغتة لقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) غافلون عنها .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا هم لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شحاً وطمعاً في الدنيا، وغفلة عن الآخرة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق»<sup>(١)</sup> . وهؤلاء من المعلوم أنهم يأكلون ويشربون لكن لم يذكر الله إلا هذا التخاصم لبيان سوء حالهم في ذلك الزمن .

\* \* \*

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠) أي: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل لا يستطيعون الكلام لشدة ما هم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين» ١٧٦



فيه من الفزع. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيعون أن يوصوا إلى أهلهم، وإلى صغارهم، وإلى سفهائهم؛ لأن الأمر عظيم لا يتكلمون فيه ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهلهم وشاهدوهم، ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحداً، وهذا يدل على أن الأمر الذي أخذهم أمر عظيم، وهو كذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿١﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ قال المؤلف عن الصور: [وهو القرن، النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخ في الصور يذكره الله عز وجل دائماً بالبناء المجهول (نُفِخَ)؛ لأن الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذكر الفاعل، ولهذا تجد قول الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٣﴾ أبلغ مما لو بين هذا الذي غشيهم، فالإبهام أحياناً يفيد التهويل والتعظيم، وهنا أبهم النافخ وفي كل الآيات النافخ مبهم البيان عظم هذا الأمر، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي وكل بالنفخ في الصور هو إسرئيل عليه الصلاة والسلام أحد حملة العرش ﴿٣﴾، وقد ذكر الله تعالى النفخ في الصور في هذه الآية، وفي سورة الزمر، وفي سورة النمل، وفي سورة الأنعام وغيرها،

(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٨.

(٣) انظر ابن جرير الطبري في تفسيره ج ٢٠ ص ١٩، سورة النمل الآية (٨٧).

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - في النفخات هل هن ثلاث أو هما اثنتان؟

فمنهم من قال: أنهن ثلاث.

النفخة الأولى: فرع، والنفخة الثانية: صعق وموت، والنفخة الثالثة: بعث.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨) (١) فذكر اثنتين، وفي سورة النمل ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧) (٢). ثم ذكر يوم القيامة وطوى ذكر الثانية، فيكون هذا الفرع قبل الموت، ثم الموت ثم البعث، ومنهم من قال: إنهما اثنتان.

والظاهر أنهما اثنتان فقط، لكن الأولى منهما فيها فرع وصعق، والثانية فيها بعث، وهذا ظاهر ما ذهب إليه المؤلف حيث قال: [النفخة الثانية للبعث].

﴿فِي الصُّورِ﴾ الصور قرن عظيم واسع، ورد في الحديث: أن سعته كما بين السماء والأرض (٣)، ينفخ فيه للبعث فتخرج الأرواح منه، وتأوي كل روح إلى جسدها الذي تعمره في الدنيا لا تخطؤه على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصور، حتى لو قدر

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٣٠٢). وعزاه ابن حجر في فتح الباري (٣٦٨١١) إلى أبي يعلى في الكبير.

أن عشرات الناس دفنوا في مكان واحد فإن روح كل واحد لا تأوي إلا إلى جسده تقدير العزيز العليم عز وجل .

﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ الفاء عاطفة و (إذا) حرف دال على المفاجأة و ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ خبره و ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ متعلقة بـ ﴿ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ أي: بمجرد ما يحصل النفخ لا يحصل وقت بين النفخ في الصور والخروج من القبور ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مسرعين، وقوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ الضمير في ﴿ هُمْ ﴾ قال المؤلف: [أي المقبورون] وعلمنا أن المراد المقبورين؛ لقوله: ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾؛ لأن الأجداث هي القبور، وقوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ هذا بناء على الأغلب الكثير؛ لأن من الناس من لا يكون في جدث بل يلقي في اليم، أو يلقي في الأرض على ظاهرها، أو تأكله السباع، أو يحترق وتذروه الرياح، لكن الغالب والأكثر أنهم في القبور، وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ فيها تقديم المعمول لإفادة الحصر، يعني لا ينسلون إلى دنيا، أو إلى قريب، أو إلى صديق، وإنما ينسلون إلى الله عز وجل، والنسلان معناه: السير بسرعة، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾<sup>(١)</sup> أي: يخرجون بسرعة.

### الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.

١ - أن النفخ في الصور إذا وقع لم يستطع أحد أن يتكلم ولا أن يتزحزح من مكانه؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ هذا الكلام ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يتزحزون من مكانهم.

٢ - ومن فوائدها: قوة هذه الصدمة التي تصيبهم من هذه الصيحة؛ لأن الإنسان إذا قويت الصدمة أعجم على لسانه فصار لا يقدر على التكلم، وكذلك رجلاه تضعف حتى لا يستطيع الوقوف كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في قصة وفاة رسول الله ﷺ لما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيَّتُونَ﴾ (٣٠) قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها (٣١).

٣ - وكذلك يدل على عظم هذه الصيحة أنهم لا يستطيعون الرجوع إلى أهلهم مع شدة تشوقهم إليهم، لكن لا يستطيعون؛ لأن الأمر أعظم من أن يتمكنوا من ذلك.

٤ - ومن فوائد الآية الثانية: إثبات النفخ في الصور، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها. فلو قال قائل: كيف يكون النفخ في الصور؟ قلنا: هذا أمر لا نعلمه إلى الله عز وجل؛ لأنه غيبي ولم يخبر بكيفيته.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله عز وجل حيث كان مجرد النفخ يوجب أن يخرج الناس جميعاً من قبورهم

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤).

مسرعين .

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث وأنه حياة حقيقية؛ لقوله: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ (٥١) لأن الإسراع لا يكون إلا بحياة حقيقية .

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الناس يسرعون إلى مكان معين ينزل الله تعالى فيه للفصل بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْأَلُونَ﴾ (٥١) .

٨ - ومن فوائدها: الإشارة إلى الأحداث التي جعلها الله تعالى منازل للأموات، امتن الله بها على عباده، كما امتن عليهم بالقصور في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ (١) . فكما أن الله عز وجل منّ علينا بهذه القصور نستتر بها ونقضي بها حوائجنا ونكون مع أهلنا فكذلك منّ علينا سبحانه وتعالى بالقبور التي يستتر بها الإنسان عن الرؤية، ويحتمي بها عن الوحوش إلى غير ذلك مما تتضمنه هذه النعمة .

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة، لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهذه عامة لكل من يخرج من الأحداث، وقد مرّ علينا أن الربوبية تنقسم إلى قسمين عامة وخاصة .

\* \* \*

﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ

الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) قال المؤلف رحمه الله: [يا للتنبية ﴿ويلنا﴾ هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾

لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا].  
 قوله - رحمه الله - يا للتنبية . بناءً على أن الويل ليس له عقل وإرادة، وإذا وجه النداء إلى من ليس له عقل ولا إرادة كان للتنبية .

ولكن لو قيل: إن (ياء) للنداء بدليل أنها عملت فيما بعدها؛ لأن ﴿ويلنا﴾ منصوب بياء النداء، كأنه قال: يا ويلنا أحضر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَحْسَرَتْنِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> ونظير قوله تعالى: ﴿يَحْسَرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ﴾ .

والويل هو الهلاك، وهو مصدر ليس له فعل من لفظه، كما تكون بعض أسماء الأجناس ليس لها مفرد من لفظها، كإبل ليس لها مفرد من لفظها، وتكون بعض الأفعال ليس له مصدر مثل (يذروا) فإن أكثر النحويين يقولون: إنه ليس لها مصدر. وبعضهم يقول: لها مصدر وهو الوزر. ﴿مَنْ﴾ للاستفهام التعجبي أي ما الذي أخرجنا ﴿مِنْ مَرَقِدِنَا﴾ والمرقد مكان الرقادة، والمراد بها القبور، أي: من بعثنا من هذه الأمكنة التي كنا راقدين فيها. واختلف العلماء في هذا: هل إنهم يرقدون ثم يستيقظون عند النفخة الثانية، أو أن وجودهم في القبور بالنسبة إلى ما يشاهدونه في القيامة كأنه رقاد، لأن الشيء إذا نسب إلى ما هو أعظم منه صار هيناً؟

القول الأخير هو الأصح، وهو الذي مشى عليه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره؛ لأنه ليس هناك دليل على أنهم ينامون

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

بين النفختين كما ذكره المؤلف بقوله: [لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا] وهذا يحتاج إلى نقل صحيح؛ لأنه من أمور الغيب، والمرقد قد يكون للإنسان وإن كان يتألم بعض التألم، فهذا هو الإنسان ينام ويرى في منامه أحلاماً مزعجة مروعة حتى إنه من شدتها في بعض الأحيان يستيقظ، ومع ذلك فإنه إذا قام يقال: قام من مرقده.

فالصواب أن المرقد هنا مكان الرقاد، وأن عذابهم في قبورهم بالنسبة لعذاب الآخرة كالرقاد كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧).

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ قال المؤلف: [هذا] أي: البعث ﴿مَا﴾ أي: الذي ﴿وَعَدَ﴾ به ﴿الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ﴾ فيه ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ أقروا حين لا ينفعهم الإقرار وقيل: يقال لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكتة ينبغي الوقوف إن لم يجب على قوله: ﴿مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ عند بعض القراء، لأجل أن يستأنف، فيقال: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وهذا الجملة قيل: إنها تقال جواباً لهم حين قالوا: من بعثنا من مرقدنا؟

وقيل: إنها منهم يقرون إذا شاهدوا أقروا فقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٦). والآية محتملة: يحتمل أنهم يقولون ذلك، ويحتمل أنه يقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يُبَوِّئُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تَكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾ فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون. فآية الصفات أظهر من هذه الآية من سورة يس، ولو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادراً منهم وإليهم؟ فالجواب: أن هذا ليس ببعيد، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به. ﴿هذا﴾ المشار إليه البعث ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ما اسم موصول والصلة قوله: ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وقد روي المؤلف العائد بقوله: [به] والمعروف أن العائد المجرور لا يحذف إلا إذا كان عامل الموصول موافقاً لعامل المحذوف لفظاً ومعنى، هذا هو المعروف عند النحويين، ولكن الراجح أنه يجوز حذف العائد، سواء كان عامله من جنس عامل الموصول، أو من غير جنسه، وأن القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: (وحذف ما يعلم جائز) عامة لكل شيء ليست خاصة بالمبتدأ والخبر بل لكل شيء، وقوله: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل المختصة به، التي لا تطلق على غيره فلا يسمى أحد ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أما رحيم فيوصف به الخلق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿٢﴾ لكن رحمن لا يجوز أن يوصف بها أحد، والفرق بين الرحمن والرحيم: أن الرحيم باعتبار الفعل، والرحمن باعتبار الوصف، فإذا قال «الرحمن»

(١) سورة الصفات، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.



يعني ذو الرحمة الواسعة، والرحيم الذي تصل رحمته إلى من يشاء من عباده، وهنا ذكر ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ولم يقل: (ما وعد الله)؛ لأن رحمة الله يوم القيامة تتجلى تجلياً أكثر منها في الدنيا، فإن الله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض، فإذا كان يوم القيامة صار له مائة رحمة، التسعة والتسعون الباقية، والرحمة الأولى، وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم، ولهذا قال هنا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ والرحمن مشتق يدل على صفة الرحمة، ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نؤمن بالاسم، وما دل عليه من الصفة، والأثر المترتب على ذلك، ويجوز أن نقول والحكم، فهنا ﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسمه، والرحمة صفته، ويرحم من يشاء فعله سبحانه وتعالى، وهو أثر الرحمة قال: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يبعث فيه الناس، فيجزى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ومجازاة المحسن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أخبر بالصدق (وصدق القائل) بمعنى التصديق من المخاطب، فالصدق من المتكلم، يقال: صدق، ويقال: صدق بمعنى أخبر بالصدق. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾<sup>(١)</sup> وصدق القائل، أي: أقر بقوله واعترف به، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾<sup>(٢)</sup> فهو صادق وصدق والله أعلم.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٣.

## الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية دليل على شدة حسرة المكذبين الذين يكذبون بالبعث إذا بعثوا يقولون ﴿يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ ودليل ذلك قولهم: ﴿يَتَوَلَّوْنَا﴾ وهذه الكلمة دعاء بالشبور والحسرة على من نطق بها.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن عذاب البرزخ بالنسبة إلى عذاب الآخرة هين، حتى إنه مثل النوم عند النائم.

٣ - ومن فوائدها: أن البقاء في القبور ما هو إلا كنوم النائم، ثم يستيقظ ويغادر المكان لقوله: ﴿مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: توبيخ هؤلاء المكذبين حين يقال لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى صادق الوعد لا يخلفه، وذلك لأن إخلاف الموعد يكون لأحد أمرين: إما الكذب، وإما العجز، وكلاهما منتفیان عن الله عز وجل فلا كذب في وعده، ولا عجز عن تنفيذه، ولهذا فهو عز وجل لا يخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يخبرون به عن الله سبحانه وتعالى وعن غيره، لقوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

٧ - ومن فوائد الآية: أن المشركين يقرون إذا شاهدوا الحق، بأن ما وعد الله تعالى به فسيقع بناءً على أن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ من كلامهم، والإقرار بالحق بعد مشاهدته لا ينفع؛ لأن الإقرار بالحق إذا لم يكن غيباً لم يكن الإنسان مؤمناً بالغيب، بل يكون مؤمناً بالشهادة.

فإن قلت: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(١)</sup> فهنا أنكروا الشرك مع أنهم كانوا مشركين، بل أنهم يقرون بشركهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾<sup>(٢)</sup> فكيف الجمع؟

الجمع بينهما أنه يقال: إن يوم القيامة ليس لحظة ولا ساعة قليلة بل هو خمسون ألف سنة، فهم يتقلبون أحياناً يقرون بكل ما عملوا، وأحياناً ينكرون، إذا رأوا نجات المؤمن قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(٣)</sup> لعلهم ينجون كما نجا غيرهم، ولكن يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم، وحينئذ يقرون ولا يكتُمون الله حديثاً والله أعلم.

\* \* \*

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٢.

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

### الفوائد:

- ١ - في هذه الآية دليل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه يصاح بأصحاب القبور صيحة واحدة، فيخرجون جميعاً لا يتخلف منهم أحد، ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.
- ٢ - ومن فوائدها أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى إذا أمر بشيء لا يعيد الأمر مرة ثانية، بل يكون الشيء بأول أمر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمِجٍ بِالْبَصْرِ ﴾<sup>(٢)</sup> والذي يعيد الأمر والكلام هو العاجز، وأما القادر فلا يعيده.
- ٣ - ومن فوائدها أيضاً: الإشارة إلى أن الله تعالى ينزل للقضاء بين عباده، تؤخذ من قوله: ﴿ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> أي: عندنا والعند يدل على القرب، وقد ثبت بالنصوص أن الله عز وجل ينزل للقضاء بين عباده فيقضي بينهم.

\* \* \*

قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>.

(اليوم) أي: يوم القيامة حين يحضر الناس للفصل والقضاء، ف (أل) هنا للعهد الحضورى، أي: ففي حضرتهم ذلك اليوم حينما يحضرون ﴿ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي: لا تنقص،

(١) لم أجد تفسير هذه الآية فيما بين يدي من أشرطة مسجلة.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

والنقص يكون بأحد أمرين: إما بزيادة السيئات، وإما بنقص الحسنات، وكلا الأمرين منتف كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾<sup>(١)</sup> أي: لا يخاف هضماً من حقه من الحسنات، ولا ظلماً بزيادة السيئات، يقول: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ونفس نكرة في سياق النفي، فتشمل كل نفس، حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: لا تكافئون على أعمالكم إلا ما كنتم تعملون، قال المؤلف رحمه الله: [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون] إنما قدر - رحمه الله - (جزاء) لئلا يتسلط الفعل على نفس العمل، والعمل قد مضى وانقضى، والذي يوجد في يوم القيامة هو الجزاء، ولهذا قال: [إلا جزاء ما كنتم تعملون] لا نفس العمل؛ لأن العمل إنما كان في الدنيا وليس في يوم القيامة، والذي في يوم القيامة هو الجزاء فلهذا قدر المؤلف [إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فإن قال قائل: كلام المؤلف هنا: أفلا يكون منتقداً؛ لأنه

كالاستدراك على كلام الله عز وجل؟

فالجواب على هذا: أن يقال ليس بمنتقد، وليس مقتضاه

الاستدراك على كلام الله، لأن المؤلف أراد أن يفسر المعنى المراد، ولم يرد أن في الكلام نقصاً، وقد علم في البلاغة أن الإيجاز نوعان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر، وإيجاز الحذف معناه أن تكون الجملة فيها شيء محذوف يعلم من السياق،

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

وإيجاز القصر أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة، ولها معاني كثيرة، فعلى كلام المؤلف يكون في الكلام إيجاز حذف .  
فإذا قال قائل: إن هذا التركيب الذي ذكره المؤلف فيه شيء من الركافة [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فالجواب: نعم القرآن أفصح بلا شك، وأبين، وأسد، لأن التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على النفس، فإذا علم الإنسان أنه لا يجزى يوم القيامة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المحرمات، وسوف يقوى على فعل المأمورات؛ لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيجزاه يوم القيامة، فالذي يظهر لي أن الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المؤلف - رحمه الله -، لأن جعل العمل هو الذي يجزى به الإنسان أبلغ في إثارة النفس كما قرناه، وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر كاف، وتحتاج الجملة إلى عائد يعود على الموصوف (ما)؛ لأنه قد تقدر في علم النحو: أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته، كما أن كل خبر للمبتدأ يكون جملة يحتاج إلى رابط، يربط بين الجملة الخبرية وبين المبتدأ التي هي خبر عنه، هنا نقول: إن العائد محذوف أي: ما كنتم تعملونه، والعمل يطلق بلا شك على فعل الجوارح، ويطلق على القول، ويطلق على عمل القلب، وهو الركون إلى الشيء، والاطمئنان به، فإذا أطلق العمل شمل هذه الثلاثة: عمل القلب وهو ركونه إلى الشيء ورضاه وطمأنينته به، قول بمعنى عمل اللسان، فعل عمل الجوارح، هذا إذا أطلق العمل، أما إذا

قيل: عمل وقول، أو قيل: اعتقاد وعمل، فإن العمل يفسر هنا بعمل الجوارح، وهذا يكون كثيراً في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، وهو أن الشيء إذا أفرد يكون شاملاً، وإذا قرن بغيره صار خاصاً؛ لأنه إذا قرن بغيره صار الكلام على جهة التقسيم، والتقسيم لا بد فيه من مقسم، والمقسم يكون كل قسيم منه ضد القسيم الآخر، والخلاصة الآن أن المراد بالعمل هنا عمل القلب، والجوارح، واللسان الذي هو القول، لأن هذا كله يجازى عليه الإنسان يوم القيامة.

فإذا قال قائل: هل يشمل العمل الكف، أي: إذا ترك الإنسان المعصية، هل يقال: إن هذا عمل يجزى عليه؟

الجواب: نعم، يقال إنه عمل يجزى عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من هم بالسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة»<sup>(١)</sup>. لأن تركها لله فما وجه كون الترك عملاً؟ لأن الترك كف النفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل وحينئذ نقول كلمة: ﴿يعملون﴾ تشمل أربعة أشياء هي: عمل القلب، واللسان، والجوارح، والترك. ويجزى عليها الإنسان.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: انتفاء الظلم مطلقاً في يوم القيامة؛ لأنه يوم العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١) ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ٢٠٧ (١٣١).

لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ .

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان لا يظلم لا بقليل ولا بكثير لأن ﴿شَيْئاً﴾ نكرة في سياق النفي فتكون للعموم .

فإذا قال قائل: في غير هذا اليوم هل يظلم أحد؟

فالجواب: لا يظلم، لكن ذكر هذا اليوم لبيان الواقع؛ لأن هذا اليوم هو يوم الجزاء، فكأنه قال: هذا اليوم الذي هو الجزاء ليس فيه ظلم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ أَلْيَوْمَ﴾ (٣) .

٣ - من فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل لقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤) فيستفاد منه:

٥ - كمال عدل الله عز وجل . وهذه فائدة متفرعة على

الفائدة التي قبلها .

فإن قال قائل: أليس الإنسان العامل الحسنة يجزى بعشر

حسنات؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا من الجزاء الذي وعد الله به، فلا يكون منافياً لظاهر الآية؛ لأن الله تعالى وعد من جاء بالحسنة أن يجعل له عشر أمثالها، فتكون داخلة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥) .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التعبير بالسبب عن المسبب؛

لأن العمل سبب للجزاء، فيكون فيه التعبير بالسبب عن المسبب .

\* \* \*

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧ .

(٢) سورة غافر، الآية: ١٧ .



﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿ لما ذكر الله عز وجل أن ذلك اليوم يجازى فيه العامل بعمله، ذكر أصناف العاملين، وهم صنفان: الصنف الأول: أصحاب الجنة، والصنف الثاني: المجرمون.

وأصحاب الجنة لم يذكر الله تعالى في هذه الآية عملهم، لكنه ذكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكون سبباً لدخولهم الجنة، قال: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿ أصحاب ﴾ جمع صحب، وصحب اسم جمع صاحب، والصاحب هو: الملازم لمصحوبه، ولا يسمى الشيء صاحباً للشيء إلا بعد الملازمة حسب ما يقتضيه العرف، إلا شيئاً واحداً استثناه العلماء وهو صحابة رسول الله ﷺ، فإن صحبته تثبت بمجرد اللقاء ولو للحظة، فكل من اجتمع بالنبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة مؤمناً به ومات على ذلك فهو صحابي له، ﴿ الْجَنَّةِ ﴾ تقدم أنها في اللغة العربية اسم للبستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه لكثرة أشجاره، يجن من فيه وما فيه، ويجن بمعنى يستر، لأن هذه المادة (الجيم والنون) كلها تدور على هذا المعنى وهو الاستتار، ومنه سمي الجنين؛ لاستتاره في بطن أمه، وسمي الجن؛ لاستتارهم عن الأعين، وسميت الجنة؛ لأن المقاتل يستتر بها عن السهام، فالجنة في اللغة كل بستان كثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه من الساكن، وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة، هذا هو أصل معنى

هذه الكلمة في اللغة، ومعناها شرعاً هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للمتقين: فيها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

ولا يصح أن تقول: إن الجنة في الآخرة هي البستان كثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزلت من قيمتها في نفوس الناس، لكن إذا قلت: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صار ذلك حافظاً للعمل لها، وقوله: ﴿ أَلْيَوْمَ ﴾ يعني يوم القيامة و(أل) هنا للعهد الذكري؛ لأن سبق ذكره و(أل) تكون للعهد الذكري إذا سبق ذكر مدخولها، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾<sup>(٢)</sup> فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً<sup>(٣)</sup> فإذا كان مدخول (أل) سبق ذكره فهي للعهد الذكري. ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ الجار والمجرور وهو خبر ﴿ إِنْ ﴾ ﴿ فِي شُغْلٍ ﴾ يقول المؤلف: [بسكون العين وضمها] شغل وشغل، والقراءتان سبعيتان، لأن المؤلف - رحمه الله - من طريقه أنه إذا قال: في قراءة، وفي قراءة، فهما متساويتان، أي كلتاها قراءة سبعية، أما إذا قال: وقرىء. فإن هذه القراءة تكون شاذة، فليعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه. فيجوز لنا أن نقول: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ ﴾ و﴿ شُغْلٍ ﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة المزمّل، الآيتان: ١٥، ١٦.

وهل الأفضل أن تقتصر على قراءة واحدة، أو أنه نقرأ تارة بهذه وتارة بهذه؟

الصحيح أن الأفضل أن نقرأ بهذه تارة وبهذه تارة، لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ ونحن إذا بقينا على قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات على أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ، فالأولى أن نقرأ مرة بهذه ومرة بهذه إلا أمام العامة فلا تفعل ذلك، لأنك إذا قرأت بقراءة مخالفة لما بين أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتنة، ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله عز وجل، لكن إذا كنت تقرأ لنفسك، أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ بهذا أحياناً وبهذا أحياناً، قال المؤلف رحمه الله: [في «شغل» بسكون الغين، وضمها، عما فيه أهل النار مما يتلذذون به] إذا هم منشغلون عما فيه أهل النار، ولو أن المؤلف جعلها مطلقة على إطلاقها لكان أولى، فهم في شغل عن كل شيء بما يتلذذون به، يعني كأنهم لا يفكرون في أي شيء آخر، لأن هذا الذي هم فيه من النعيم قد شغلهم، وانشغلوا به عن غيرهم هذا كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾<sup>(١)</sup> أي: لا يبغون تحولاً أو نزولاً عما هم فيه، بل ولا صعوداً حتى النازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيماً، فالأولى أن نطلق ونقول: ﴿فِي سُغُلٍ﴾ أي: أنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم عن كل شيء، لا ينتظر أحدهم نعيماً أرقى مما هو فيه بحيث يرى أن نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبداً ﴿فِي سُغُلٍ﴾ قال المؤلف: [كافتضاض

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٨.

الأبكار] والكاف للتشبيه، وليس للحصر، أي: من جملة ما ينشغلون به التلذذ بافتضاض الأبكار، من نساء الدنيا وكذلك الحور العين، وإنما مثل المؤلف بذلك لقوله تعالى: ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ﴾ قال [كافتضاض الأبكار لا شغل يتعبون فيه، لأن الجنة لا نصب فيها]، أي لا تعب، فهذا الشغل ليس شغلاً يتعبون فيه، ولكنه شغل يستريحون فيه، لأنه شغل فيما يسر وفيما يحصل به التمتع، قال: ﴿فَكَهُونٌ﴾ (١٥): قال المؤلف: [ناعمون خبر ثان، لـ(إن) والأول ﴿فِي شُغْلٍ﴾] أي قوله: ﴿فَكَهُونٌ﴾ (١٥) خبر ثان لـ(إن) والأول ﴿فِي شُغْلٍ﴾ الجار والمجرور، فتكون (إن) لها خبران، والخبر يجوز أن يتعدد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَفْوَورُ الْوُدُوْدُ﴾ (١٦) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيْدُ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيْدُ﴾ (١٦) (١) فهذه خمسة أخبار، فالخبر يجوز أن يتعدد، لكن تعدد الخبر قد يكون لكل كلمة منه معنى مستقل، وقد تكون الكلمتان في معنى كلمة واحدة، فمثلاً إذا قلت هذا البرتقال حلو حامض، فهاتان كلمتان، لكنهما بمعنى كلمة واحدة: (مُر) أي: جامع بين الحلاوة والحموضة، لكن لو قلت: فلان قائم مسرور، فالخبران كل واحد منهما بمعنى مستقل، بدليل أن أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مستقل، والخلاصة: أننا فهمنا من كلام المؤلف أن الخبر يجوز أن يتعدد سواء كان منسوخاً كما في الآية، أم غير منسوخ.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الناس ينقسمون في ذلك

اليوم إلى قسمين: قسم هم أصحاب الجنة، وقسم هم أصحاب النار، أصحاب الجنة هذا جزاؤهم ﴿فِي شَغَلِ فَاكُهُونٍ﴾ .  
 ٢ - ويستفاد من قوله: ﴿فَكَهُونٍ﴾ كمال النعيم؛ لأنه كل ما كمل النعيم كمل التفكه بهذه النعمة التي يتنعم بها الإنسان .

\* \* \*

﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونٍ﴾ ﴿هم﴾ أي: أصحاب الجنة ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ جمع زوج، وتطلق على الذكر والأنثى، فيقال: هذا زوج فلانة، ويقال: هذه زوج فلان، لكن أهل العلم قالوا: يجب التفريق - وإن كان لغة ضعيفة - في باب الفرائض فيقال: زوجة للأنثى، ويقال: زوج للرجل، لئلا يشبه على المتعلم كون المسألة المتوفى فيه زوج ذكر أو زوج أنثى، وإلا فاللغة العربية الفصحى حذف التاء من زوج، سواء كان للأنثى أو الذكر ﴿فِي ظِلِّ﴾ جمع ظلة، خبر للمبتدأ هم، أو جمع ظل، والمعنى لا يختلف كثيراً، فهم في ظلال ليس عندهم شمس تصهرهم، أو تسخن الجو، وإنما هو أنوار، قال بعض أهل العلم: كالنور الذي يكون بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فهو نور ساطع ولكنه لطيف، لأن ألطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت فهو ظل ظليل ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال المؤلف: [جمع أريكة، وهو السرير في الحَجَلَة، أو الفرش فيها] ﴿الأرائك﴾ جمع الأريكة هي السرير في الحجلة، أو الفراش فيها، ولكن الأكثر أنها السرير، والحجلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير، أي أنها بمنزلة الحجرة الخاصة بالمنام فيما نعرفه بيننا، فالدار مثلاً

تشمل حجراً كثيرة متعددة، والحجرة الخاصة بالنوم هي مثل الحجلة، خيمة صغيرة تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل وحده، أو بالمرأة وحدها ﴿مُتَكِّفُونَ﴾ (٥٦) قال المؤلف: [خبر ثانٍ متعلق على] أي: على الأرائك متعلقة بمتكئون، وعلى كلام المؤلف يكون المبتدأ (هم) وفي (ظلال) خبر و(متكئون) خبر ثانٍ، فالجملة على كلامه واحدة لكنها متعددة الخبر: (هم في ظلال متكئون) و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ متعلقة بمتكئون، ومناسبة تقديمها على عاملها: مراعاة فواصل الآيات، والقرآن الكريم يكون فيه مراعاة الفواصل حتى وإن أدى إلى تقديم المفضول على الفاضل في سورة (طه) في قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) (١) فقدم هارون على موسى، مع أن موسى أفضل، مراعاة للفواصل، لأن الفواصل إذا كانت متفقة كان لها تأثير في الاستماع والإصغاء والقرآن أبلغ الكلام، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولنا رأي ثانٍ في الإعراب أن تكون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ خبر مقدم و﴿مُتَكِّفُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، وعلى هذا فتكون لدينا جملتان، جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَلٍ﴾ والثانية: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّفُونَ﴾ وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكون متكئين على الأرائك مع الزوجات، أو بدون زوجاتهم، و على كلام المؤلف - رحمه الله - يقتضي أن يكونوا متكئين على الأرائك مع الزوجات.

(١) سورة طه، الآية: ٧٠.

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة زوجات لقوله: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ ﴾ وقد وصف الله هؤلاء الزوجات بصفات كثيرة، فقال عز وجل في سورة الرحمن: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ ﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾<sup>(٢)</sup> فقاصرات الطرف يعني أنها تقصر طرفها على زوجها لا تنظر إلى غيره؛ لأنها ترى أن زوجها أكمل الأزواج فلا يمتد نظرها إلى غيره، وهي أيضاً قاصرات لطرف زوجها عليها، فزوجها لا يمتد بصره إلى غيرها، فكل منهما راضٍ بصاحبه، وهن أيضاً ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ خيرات الطباع، حسان الوجوه والأجسام، وصفاتهن كثيرة في القرآن الكريم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجنة ليس فيها شمس لقوله: ﴿ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ ﴾.

٣ - ومن فوائدها: كمال راحة أهل الجنة لقوله: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴾<sup>(٥٦)</sup>، فإن المتكىء عادة يكون مستريحاً مطمئناً، وكلما اطمأن الإنسان ازدادت راحته، والاتكاء على الأرائك لا شك أنه دليل على راحة البال وعدم الانشغال.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة فيها الفاكهة وهي كل ما يتفككه به، وقد ذكرنا أن جميع طعامهم فاكهة يتفككون بها.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة كل ما

(١) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٧٠.

يتمنونه، بل يعطون أكثر مما يتمنون، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن الكريم مثاني، تشنى فيه المعاني، فيذكر الشيء ويذكر ضده، لأنه لو ذكر ما يكون به الرجاء دون ما يكون فيه الخوف، لغلب جانب الرجاء على جانب الخوف ووقع الإنسان في الأمن من مكر الله، ولو ذكر فيه جانب الخوف دون جانب الرجاء، لوقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، فكان الله عز وجل إذا ذكر النعيم ذكر ضده، وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، وهكذا، وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّثَشِّبَهَا مَثَانِي﴾<sup>(١)</sup> يعني أنه تشنى فيه المعاني حتى يكون اليسر لله تعالى على الوجه المطلوب.

\* \* \*

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أي لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿فَاكِهَةٌ﴾ أي: ما يتفكهون به، وكل أكل أهل الجنة فاكهة، لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحياناً تفكهاً، وأحياناً للحاجة، وأحياناً للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكه؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة، ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحاً مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

فاذا قال قائل: إذا جعلت الفاكهة اسماً لكل ما يأكلون؛

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.



لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه، فكيف تجيب عن قوله تعالى :  
﴿ فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١) والأصل في العطف أن يكون  
للمغايرة، والنخل والرمان يؤكل .

فالجواب : يعلم مما ذكرنا آنفاً وهو أن الشيء إذا أفرد صار  
له معنى عاماً، وإذا قرن بغيره صار له معنى خاصاً مقابلاً لما قرن  
معه، لأن التقسيم يقتضي أن يكون المقسم إليه من طرف، غير  
المقسم إليه من الطرف الآخر، فنقول: النخل والرمان نص  
عليهما بخصوصهما لخاصية فيهما، وإلا فهما من الفاكهة،  
فيكون هذا من جنس عطف الخاص على العام، وعطف الخاص  
على العام في اللغة العربية كثير، مثل : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ  
فِيهَا ﴾ (٢) والروح هو جبريل عليه السلام وهو من الملائكة، ثم  
قال المؤلف : ﴿ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ (٥٧) ﴿ يتمنون ﴾ كل ما يتمنونه فإنه  
حاصل، بل إن الله يعطيهم أكثر مما يتمنون؛ لأن أمنية الإنسان  
محدودة، قد يرى أن هذا أكبر شيء، وفيه شيء آخر أكبر منه  
ولكنه لا يدركه. فالإنسان في الآخرة يعطى كل ما يتمنى، بل يزداد  
على ما يتمنى .

فإذا قال قائل : هل إذا اشتهى الإنسان الشيء في الجنة  
يحصل بمجرد هذه الشهوة، أو لابد من الطلب؟  
فالجواب : أن هذا الأمر محتمل، يحتمل أن الإنسان إذا  
اشتهى شيئاً حصل له، ويحتمل أنه لابد أن يدعيه، والدعوى

(١) سورة الرحمن، الآية : ٦٨ .

(٢) سورة القدر، الآية : ٤ .

بمعنى الطلب، وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة، كما أن الفعل يدل على صدق الإرادة، فلو أن أحداً من الناس قال: أريد أن أزور فلاناً، فإن هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل، وإلا فمادام لم يتم بالفعل فإن الإرادة قد تكون غير صادقة، وعلى كل حال يكفينا أن الله عز وجل يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾<sup>(١)</sup> فإن ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه وإن لم تطلبه يحصل لك.

\* \* \*

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾<sup>(٥٨)</sup> قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿سَلَامٌ﴾ مبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ أي: بالقول. خبره] على أنه منصوب بنزع الخافض، لأنه قال: أي بالقول. والنصب بنزع الخافض في غير (أنا) و(أن) ليس بمطرد، بل هو سماعي، إن سمع عن العرب النصب عمل به، وإن لم يسمع لم يعمل به، وقاعدة ذلك: أنه قد يحذف حرف الجر، فإذا حذف حرف الجر صار مدخوله منصوباً، ويقال فيه: منصوب بنزع الخافض، ولكنه كما قال ابن مالك - رحمه الله -:

في أن وأنا يطر ومع أمن لبس كعجبت أن يدم  
فالمؤلف مشى على أن ﴿قَوْلًا﴾ منصوب بنزع الخافض أي  
سلام بالقول من رب رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية  
الكريمة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي:  
هي سلام يعني الجنة، سلام كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ

السَّلَامِ ﴿١﴾ ويجوز أيضاً أن يكون الخبر قوله: ﴿مَنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ أي سلام بالقول واقع من الله عز وجل، وهذه الوجوه لا ينافي بعضها بعضاً من حيث المعنى، فإن المعنى كله واحد وهو أن الله تعالى يسلم عليهم بالقول، ويقول لأهل الجنة: سلام عليكم، وقوله: ﴿مَنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ الرب في اللغة العربية يطلق على عدة معانٍ:

فيطلق على رب العالمين عز وجل، وهو بهذا المعنى يشمل الخلق، والملك، والتدبير، فالرب هو الخالق المالك المدبر. ويطلق الرب على الصاحب، مثل قولهم: رب البيت، أي صاحب البيت، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: «معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها»<sup>(٢)</sup>، أي: صاحبها.

وقوله: ﴿مَنْ رَبِّ﴾ المراد به المعنى الأول يعني الله تعالى، فالله تعالى هو الرب، أي: الخالق، المالك، المدبر و﴿رَحِيمٍ﴾ من الرحمة وهي صفة ذاتية، لم يزل الله سبحانه وتعالى ولا يزال متصفاً بها، لكن أفرادها تجدد باعتبار المرحوم، فالله عز وجل يرحم من يشاء، ومعلوم أن المرحوم يتجدد، فرحمة الله تعالى لهذا المرحوم تتجدد، أما أصل المعنى فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال رحيماً، وأهل السنة والجماعة وهم السلف يفسرون «الرحمة» بمعنى يليق بالله عز وجل. وأهل التحريف يفسرون

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللقطة، باب ضالة الغنم (٢٤٢٨) ومسلم، كتاب القطة، باب معرفة العفص (١٧٢٢).

«الرحمة» إما بالإحسان، وإما بإرادة الإحسان فيقولون: معنى رحيم، أي: محسن، أو مرید للإحسان، قالوا: لأن الله لا يمكن أن يتصف بالرحمة، فإن الرحمة تدل على الضعف، وعلى الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى. وفسروها بالإرادة، لأنهم يثبتون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأن الإحسان منفصل عن الله عز وجل وهو مخلوق، ولا شك أن هذا تحريف، والرحمة إن كان يلزم منها الرقة واللين فهذا باعتبار رحمة المخلوق، أما باعتبار رحمة الخالق فلا يلزم منه هذا المعنى، على أننا نمنع أن يكون من لازمها الرقة واللين؛ لأننا نجد الملك القوي الشجاع يكون فيه رحمة، ولا ينقص ذلك من قوته وسلطانه شيئاً، لكن لو سلمنا جدلاً أنها تستلزم الرقة واللين فإنما ذلك باعتبار رحمة المخلوق.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية الكريمة: دليل على ما يتمتع به أهل الجنة من السلامة من كل الآفات، ومن الأمراض، ومن الموت، ومن غيره، لأن الله تعالى يقول لهم ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا اللفظ الصادر من الله عز وجل ليس دعاء ولكنه خبر من الله، وإنما يكون مثل هذا دعاء إذا وقع من المخلوق، أما إذا كان من الخالق فهو خبر، أي: أن الله تعالى يخبرهم بأنه سيسلمهم من كل آفة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن الله يقول ويتكلم وهذا حق، وقد اختلف أهل القبلة في كلام الله عز وجل: فمنهم من قال: يتكلم بحرف وصوت على وجه يليق به،

ولا يشبه صوته أصوات المخلوقين .

ومنهم من قال : إنه لا يتكلم ، ولكن يخلق كلاماً ينسبه إليه تشريفاً وتكريماً .

ومنهم من قال : إنه يتكلم ، لكن كلامه ما يقدره في نفسه ، وأما ما يسمع فهو مخلوق .

فالأول مذهب أهل السنة والجماعة ، والثاني مذهب المعتزلة ومن وافقهم ، والثالث مذهب الأشاعرة ، وحقيقة الأمر أن مذهب الأشاعرة هو مذهب المعتزلة ، لأن الكل منهم متفقون على أن ما بين أيدينا من المصحف مخلوق ، لكن الجهمية والمعتزلة قالوا : هو كلام الله ، وأولئك قالوا : عبارة عن كلام الله ، فهم أسوأ منهم في هذه الناحية ، لأن المعتزلة والجهمية يقولون : إن القرآن كلام الله ، كما قال الله عنه كلام الله ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ﴾<sup>(١)</sup> لكن هم يقولون ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ﴾ أي : الكلام الذي هو عبارة عن كلام الله .

والجهمية والمعتزلة أقرب إلى الحقيقة من الأشاعرة ، ولكن كل منهم في ضلال مبين .

والصواب أنه كلام الله تكلم به بنفسه ، وسمعه منه جبريل - عليه الصلاة والسلام - وألقاه إلى محمد ﷺ .

٣ - ومن فوائدها : إثبات الربوبية ، وهي هنا فيما يظهر - والله أعلم - من الربوبية الخاصة ؛ لأن الذي يخاطب به من القوم المخلصين ، والربوبية كما تقدم ، تنقسم إلى قسمين : خاصة ،

وعامة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، فإن جميع الخلق مربوبون لله عز وجل، هو خالقهم ومالكهم، ومدبرهم، ومنها قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أما الربوبية الخاصة فهي مختصة بعباد الله المخلصين من عباده المؤمنين من الرسل وأتباعهم، وهي أخص من الأولى؛ لأنها تقتضي عناية خاصة بالمربوب، وتوفيقاً له، وإصلاحاً لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١٢٢) (١) فإن موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - من عباد الله المخلصين، فكانت الربوبية في حقهما خاصة، ومنه دعاء المؤمنين لله عز وجل بهذا الاسم مثل ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكًا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ (٣) فالمراد به الربوبية الخاصة؛ لأن التوسل بالأخص، أخص بالدعاء من التوسل بالأعم، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٣) . فالأولى عامة، والثانية خاصة.

والرب من أسماء الله دل على ذلك قوله ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب» (٤) ، وقوله ﷺ في السواك: «مطهرة للضم مرضاة للرب» (٥) .

٤ - في هذه الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله عز وجل

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦ .

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢١، ١٢٢ .

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ٤٧٩ (٢٠٧) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٣/١) .

لقوله: ﴿رَحِيمٍ﴾ (٥٨). وكون (الرحيم) من أسماء الله لا يخفى .  
 ٥ - وفي هذه الآية: إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه المنزلة برحمة الله لقوله: ﴿مَنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» أو قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»<sup>(١)</sup>. اللهم تغمدنا برحمتك، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن لا أحد يدخل الجنة إلا أن يتغمده الله برحمته، أي يسبغ عليه الرحمة، فحينئذ يدخل.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩)، قال المؤلف - رحمه الله - [ويقول: ﴿امتازوا﴾] يعني أن القائل الله عز وجل، وفي الجزم بذلك نظر، فقد يكون الله عز وجل هو الذي يقول للمجرمين: امتازوا، وقد يكون القائل ملك من الملائكة، ولهذا لو قال المؤلف: (ويقال) لكان أولى؛ لأن الجزم بأن القائل هو الله يحتاج إلى توقيف، أي: إلى النص من الشارع، ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) ﴿الْيَوْمَ﴾ المراد باليوم يوم القيامة، فال هنا فيه للعهد الذكري ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) قال المؤلف: [أي: انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم]، يعني يقال يوم القيامة: امتازوا أيها المجرمون، وتميزوا عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ لأن طريق المجرمين غير طريق الأبرار، فالأبرار طريقهم إلى الجنة،

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣).

ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٧٥ (٢٨١٦).

وهؤلاء طريقهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾﴾<sup>(١)</sup> فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء، يقال لهم: ﴿وَأَمْتَرُوا﴾ على سبيل التوبيخ والإهانة، لأنك إذا رأيت مجتمعا فقلت مثلاً: أيها الطائفة الفلانية امتازوا وابتعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر، وقوله: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ المجرم فاعل الإجرام، والإجرام هو: الذنب والإثم، أي: أيها الآثمون المذنبون امتازوا عن المؤمنين المطيعين.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: أن المجرمين يهانون يوم القيامة، بحيث يميزون من المؤمنين بلفظ الطرد ﴿وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ﴾ أي: انفردوا وأبعدوا.
- ٢ - ومن فوائدها: أن الله تعالى يميز بين المجرمين والأبرار يوم القيامة، كما يميز بينهم في الدنيا، فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء.
- ٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المناسب لهذا العمل، فهنا لما أمروا بالانصراف وطردها ناسب أن يذكر سبب ذلك، حيث قال: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ كأنه قال: (امتازوا لإجرامكم)، ولا شك أن ذكر سبب الحكم يزيل الشبهة واللبس والاعتراض، وينبني على هذه الفائدة:

(١) سورة مريم، الآيتان: ٨٥، ٨٦.



٤ - أن تعليق الحكم بوصف يدل على أن هذا الوصف هو علة ذلك الحكم، فإذا قلت مثلاً: أكرم المجتهد من الطلبة، فهنا علق الإكرام بالاجتهاد، وهذا يفيد أن علة الإكرام هو الاجتهاد، فهذه القاعدة مفيدة لطالب العلم، وهي أن تعليق الحكم بوصف يدل على عليته، أي: أنه علة ذلك الحكم.

٥ - حذف ياء النداء من قوله: ﴿ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فلماذا؟ يمكن أن يقول علماء البلاغة: إنها حذفت من باب الإهانة لهم حتى لا يطيل الكلام؛ لأن طول الكلام مع المخاطب من باب التبسط إليه والانشراح لمخاطبته، فإذا اختصر فهو نوع من الإهانة، وليس هذا على إطلاقه، بل هذا على حسب السياق، قد يكون من الإكرام أن تختصر الكلام، وقد يكون من الإكرام أن تبسط الكلام، لكن المقام في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن اختصار الكلام وعدم تطويله من باب الإهانة لهم.

\* \* \*

﴿ أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٓءَآدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أمركم ﴿ يَبْنَىٓءَآدَمَ ﴾ على لسان رسلي ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ لا تطيعوه ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ بين العداوة ﴿ وَأَن أَعْبُدُونِي ﴾ وحثوني وأطيعوني ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ ﴾ طريق ﴿ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾].

﴿ أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٓءَآدَمَ ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، والغالب أنه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدل على النفي فالاستفهام

للتقرير مثل: ﴿الَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿الَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> للتقرير ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾<sup>(٣)</sup> للتقرير ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> للتقرير، وهكذا كلما جاء ما يدل على النفي بعد أداة الاستفهام فإن الاستفهام يكون فيه غالباً للتقرير، هنا يقرر الله عز وجل أنه عهد إليهم، ولهذا يصح أن تحول - في غير القرآن - إلى فعل ماض، فيقال: قد عهدت إليكم.

فإذا قال قائل: ما المراد بهذا التقرير؟

فالجواب: المراد به التوبيخ، يعني يقرر الله هذا الأمر توبيخاً لهم، وإقامة للحجة عليهم، إن الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان، والعهد إلى الشيء فسرهُ المؤلف أنه الأمر، فقال: [أمركم] ولكنه في الحقيقة أبلغ من الأمر، لأن العهد إليه كأنه متضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك فإن الله أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إياه، وأن لا نعبد الشيطان؛ لأنه عدو، وقوله: ﴿يَبْتِئَ ءَادَمَ﴾ تشمل الذكر والأنثى، وإن كان الابن يقال في الأصل للذكر، والبنون تقال في الأصل للذكور، لكن إذا كان يراد به القبيلة، أو الجنس فإنه يشمل الذكر والأنثى، حتى إن الفقهاء - رحمهم الله - قالوا: إذا وقف على بني تميم، شمل ذكورهم

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٤) سورة التين، الآية: ٨.

وإناتهم، لكن إذا وقف على بني فلان. أي: واحد من الناس ليس قبيلة، فإنه يختص بالذكر فقط، فبنوا آدم هنا قبيلة بل شامل لكل القبائل فيشمل الذكور والإناث، وقوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ فسر المؤلف العبادة هنا بالطاعة؛ لأن طاعة الغير في محارم الله تعالى نوع من العبادة، كما قال تعالى: ﴿أَتَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾<sup>(١)</sup> قال عدي بن حاتم - رضي الله عنه -: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم - يعني لسنا نصلي، أو نركع، أو نسجد لهم -، قال: «أوليس يحلون ما حرم الله فتحلونهم ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟» قال نعم، قال: «فتلك عبادتهم»<sup>(٢)</sup>. وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ولكن الواقع أن طاعة غير الله في مخالفة أمر الله نوع من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التذلل والخضوع، وطاعة الأمر تذلل وخضوع، وقوله: ﴿الشَّيْطَانَ﴾ هل المراد بذلك الجنس، أو المراد الشيطان المعين؟ الظاهر أن المراد به الجنس، فيشمل شياطين الإنس، وشياطين الجن، فكما أن للجن شياطين فللإنس شياطين، يوجد من الإنس شياطين يأمرون الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البر والإحسان، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(٤)</sup> فكل أحد يأمرك بمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فإنه عدو لك شعر بذلك أم لم يشعر، وعلى

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٥).

رأسهم الشيطان الأول الذي يقود كل شيطان ﴿عَدُوٌّ﴾ العدو ضد الولي، والولي من يتولاك ويحوطك ويعتني بك، فالعدو ضده وهو الذي لا يريد لك الخير، وإنما يريد لك الشر، وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ (٦٠) قال المؤلف: [بين العداوة] وفسر ﴿مبين﴾ بين؛ لأنها من (أبان) و(أبان) تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى ظهر، فإن كانت بمعنى أظهر فهي متعدية، وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة، ولا يمكن أن نقول: إنها من المتعدي، أو اللازم، إلا بقريئة من السياق، فهنا نقول: ﴿مبين﴾ إذا فسرناها بما فسرناها المؤلف [بين العداوة] صارت من اللازم، مع أنه يمكن أن نجعلها من المتعدي، ونقول ﴿مبين﴾ مظهر للعداوة؛ لأنه يأمرك بالشر، لكن هذا ضعيف، إذ لو أبان عداوته ما تبعه أحد، وإنما يغر الناس كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّنَهُمَا بِعُرْوَةٍ﴾<sup>(١)</sup> إذن فجعل ﴿مبين﴾ هنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ﴿لا تعبدوا الشيطان﴾ ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ هذا نفي وإثبات، وهو حقيقة التوحيد ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ (أن) هنا مصدرية، ويصح أن تكون مفسرة، لأن أعهد متضمنة معنى القول، وإذا سبق (أن) ما يتضمن معنى القول دون حروفه صارت تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾<sup>(٢)</sup> قوله: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ أن الله عهد إلينا أن نعبده وحده، أي: تذللوا لي بالطاعة، والمؤلف قال: [وحدوني وأطيعوني] وهذا المعنى

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

صحيح، فالعبادة توحيد الله عز وجل بالطاعة، والتذلل له بامثال أمره، واجتناب نهيه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) المشار إليه ترك عبادة الشيطان وإفراد الله بالعبادة ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) الصراط فسره المؤلف بالطريق، ولكن الصحيح أنه ليس مطلق الطريق صراطاً، بل الصراط هو الطريق الواسع المتساوي؛ لأنه مأخوذ من الصَّوْرُطُ أو من الزرط، والزرط كما نعلم هو ابتلاع الشيء بسرعة، ولا يكون الطريق طريقاً ذا سرعة إلا إذا كان واسعاً وكان سهلاً، وأما قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) فهذا وصف له، والاستقامة تشمل اعتدال السير، وتشمل أيضاً انبساط الأرض، فإذا قدر أن الطريق يذهب يميناً وشمالاً، لم يصح أن نقول: إنه مستقيم، وإذا كان فيه مرتفعات ومنخفضات فليس بمستقيم، لأن بعضه مرتفع وبعضه نازل، فالاستقامة معناها أنه خال من الانحراف يميناً وشمالاً، وخالٍ من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه وقوله: ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) أي: إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى أضاف الصراط إلى نفسه، وأضاف الصراط إلى خلقه فقال سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿فأضاف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الإضافتين؟

فالجواب: نقول: أضاف الله الصراط إلى الذين أنعم الله

عليهم؛ لأنهم السالكون له، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعباده، وهو موصل إليه، كما تقول: هذا طريق مكة، أي: الموصل إلى مكة، وتقول: هذا طريق فلان - إذا كان هو الذي وضعه للناس وشقه لهم -، أو هو الذي سلكه ومشى عليه.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يحب الأعدار من نفسه، أي: يحب أن يقيم العذر لنفسه؛ لتقوم الحجة على خلقه لقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ فإن من عهد إلينا أن لا نعبد الشيطان وأن نعبد وحده، قد أقام علينا الحجة، وأقام العذر لنفسه وهذا كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١).

٢ - من فوائدها: إثبات رحمة الله عز وجل بالخلق، حيث لم يجعل إخلاصهم له موكولاً إلى عقولهم، بل عهد بذلك إليهم على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأن الله لو جعل الإخلاص موكولاً إلى العقول لاختلفت العقول في ذلك اختلافاً كثيراً؛ لأن الأهواء لا تنضبط، فجعل الله عز وجل ذلك مما تكفل به هو نفسه لعباده، ففيه إثبات رحمة الله عز وجل بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي التصفية قبل التحلية؛ أو يقال التحلية قبل التحلية لأنه قال: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ هذا تحلية ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ تحلية، يعني نفي وإثبات،

وهذا هو التوحيد، فالتوحيد مبني على نفي وإثبات؛ لأن النفي المجرد تعطيل محض وعدم، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، فلا يتم التوحيد إلا بنفي وإثبات، ولهذا لو قلت: (لا قائم في البيت) فهذا نفي مجرد معناه العدم، وإذا قلت: (زيد قائم في البيت) فهذا إثبات مجرد لا يمنع المشاركة، أي: قد يكون رجل آخر في البيت قائم، فإذا قلت: (لا قائم في البيت إلا زيد) فحينئذ تحقق الانفراد وتحقق التوحيد، وصار لا يوجد قائم في هذا البيت إلا زيد، إذاً التوحيد لا بد فيه من هذين الأمرين: النفي، والإثبات، ولكن بماذا يبدأ؟ أولاً بالنفي ليرد الإثبات على مكان خال من الشوائب، خالص صالح لاستقرار الإثبات فيه، ولهذا يبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِنِّي إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾<sup>(١)</sup> فتبرأ أولاً من كل معبود، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره.

- ٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن طاعة الشيطان في معصية الله - ولا تكون طاعة الشيطان إلا في معصية الله - نوع من العبادة لقوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لأن الطاعة فيها نوع من التذلل، والعبادة هي التذلل، فمن أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.
- ٥ - ومن فوائدها: أن العبادة لا تختص بالركوع والسجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، بل هي عامة شاملة لكل طاعة يكون فيها كمال التذلل.

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الحذر من طاعة الشيطان، حيث سمى الله تعالى طاعته عبادة، وكل إنسان يحذر من أن يعبد مع الله غيره، ففيه التحذير من طاعة الشيطان في معصية الله عز وجل.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) وجوب عبادة الله وحده لقوله: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ والعبادة تطلق على معنيين: أحدهما: التعبد.

الثاني: المتعبد به.

التعبد يعني التذلل لله عز وجل، وهي بهذا المعنى فعل العبد يعني صلاته وزكاته، وقيامه، وحجه، وما أشبه ذلك، وتطلق العبادة على المتعبد به وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، القلبية والجوارحية.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط المستقيم هو التوحيد لقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ﴿هَذَا﴾ أي ترك عبادة الشيطان والالتزام بعبادة الله ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) أي طريق مستقيم لا عوج فيه، وإنما كان كذلك؛ لأنه موصل إلى رضا الله تعالى وجنته، فهو صراط مستقيم.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط قد يكون مستقيماً وقد يكون معوجاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١) فكل واحد من



البشر له طريق، فإن كان على شرع الله فهو مستقيم، وإن كان على خلافه فهو معوج.

\* \* \*

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١١) ﴿وَلَقَدْ﴾ هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات هي: القسم المقدر؛ لأن اللام موطأة للقسم، واللام، وقد، والتقدير: والله لقد أضل.

فإذا قال قائل: كيف يقسم الله عز وجل وهو الصادق بالقول بلا قسم؟

نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول: الإشارة إلى أن هذا أمر هام يحتاج إلى القسم عليه، لأنه لولا أهميته ما أقسم عليه.

الوجه الثاني: أن القرآن نزل باللغة العربية، ومن أساليب اللغة العربية أن الشيء إذا أريد إثباته وتحقيقه فإنه يقسم عليه.

الوجه الثالث: أن المقسم به إذا كان مصرحاً به، فإن الإقسام به يدل على عظمته فإن الله لا يقسم بشيء إلا لعظمة ذلك

الشيء، مثل قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ (٢) ﴿١﴾. وما أشبه ذلك مما أقسم الله به فإنه يدل على عظمة المقسم.

﴿مِنْكُمْ﴾ بمعنى أضاع وصرف عن الطريق المستقيم، يعني قادمكم إلى ضلال ليس فيه هدى ﴿جِبِلًّا﴾، قال المؤلف - رحمه الله -:

[جِبلاً: خلقاً جمع جبيل كقديم، وفي قراءة جُبلاً بضم الباء] والقراءة هذه سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف: أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال: مثلاً بضم الباء، فهي سبعية. وإذا قال: وقرىء فهي شاذة، إذا فيها قراءتان سبعيتان: جُبلاً، وجُبلاً، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المؤلف (جِبلاً) وفيها قراءة رابعة (جِبلاً) بدون تشديد اللام، ولكن المؤلف - رحمه الله - ليس تفسيره جمعاً للقراءات، إنما يذكر ما رأى أن المصلحة تقتضي ذكره، ولكن لا شك أنه لو ذكرها لكان أحسن؛ لأنه أحياناً يذكر قراءات متعددة في صفة الحرف كما ذكر القراءات المتعددة التي تبلغ إلى ست قراءات في مثل ﴿أُنذَرْتَهُمْ﴾ من التسهيل، والتحقيق، والحذف وما أشبه ذلك، ولكن الإنسان بشر، أحياناً يغفل ويهمل ما ينبغي أن يذكر، أو يذكر ما لا يحتاج أن يذكر، ﴿جِبلاً﴾ أي: خلقاً كثيراً، ولا يعني ذلك أن الأكثر لم يضل من قبل الشيطان، بل هو أضل أكثر الخلق. لأنه ثبت في الحديث الصحيح أن الله يوم القيامة يقول: «يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، فيقول: يا ربي وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، هؤلاء كلهم في النار من بني آدم وواحد في الجنة، فشق ذلك على الصحابة وعظم ذلك وقالوا: أين ذلك الواحد يا رسول الله؟ قال: «أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج»<sup>(١)</sup> وهو كذلك فإن من شاهد الخلق الآن ونحن في جزء يسير من العصور وجد أن

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وترى الناس سكارى﴾ (٤٧٤١).

تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم على ضلال، حتى المنتسبون منهم للدين الإسلامي عند طوائف منهم ضلال عظيم يبلغ بهم الكفر، وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام: إذا المراد بالكثير هنا الأكثر، قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٦) الهزمة هنا للاستفهام، والمراد بالاستفهام التوبيخ، يوبخهم على عدم العقل، والفاء هنا عاطفة، والمعطوف عليه: إما ما سبق، وإما جملة مقدره مناسبة للمقام، رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إن حرف العطف يعطف ما بعده على ما قبله، ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بين حرف العطف والهزمة، ولو جعل كل واحد مكانه لكان اللفظ (فألم تكونوا تعقلون).

ومنهم من قال: إن الهزمة في محلها، وأن الفاء عاطفة على مقدر يفهم من المقام، أو من السياق، وهذا قد يكون أقرب إلى القواعد لكنه أصعب، إذ إنك في بعض المواضع لا تستطيع أن تقدر شيئاً، ولا تعلم أي شيء يناسب، وحينئذ يكون الثاني هو الأيسر، والقاعدة عندي فيما إذا اختلف النحويون في مسألة: أن الراجح هو الأيسر، ما لم يلزم منه اختلاف المعنى، بحيث يكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحينئذ لا تتبع الأيسر؛ لأنه يخل بالمعنى ويؤدي إلى معنى غير صحيح. لكن مادام المعنى مستقيماً على الوجهين، فالأيسر هو الراجح (يسروا ولا تعسروا) ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٦) يعني أنه وبخهم على عدم عقلهم، والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك، وهو الذي يترتب عليه التكليف. وعقل بمعنى التصرف، وهو الذي يترتب عليه المدح، أو الذم،

فالأول هو مناط التكليف وهو الذي يقول فيه الفقهاء من شروط العبادة (العقل) والمراد بالعقل في الآية العقل الثاني قطعاً؛ لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مكلفين ولا يتوجه إليهم باللوم، لكنهم انتفى عنهم عقل التصرف، فلم يحسنوا التصرف، فصاروا عقلاء غير عقلاء، عقلاء باعتبار الإدراك المترتب عليه التكليف، وغير عقلاء باعتبار التصرف المترتب عليه المدح أو الذم، فهم أعطوا ذكاء ولم يعطوا عقلاً، وما أحسن عبارة شيخ الإسلام - رحمه الله - في المتكلمين حيث قال في وصفهم: (إنهم أوتوا ذكاء، وما أوتوا زكاءً، وأوتوا فهوماً، ولم يؤتوا علوماً، وأوتوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً - نسأل الله العافية - فكان ذكاؤهم حجة عليهم، وأوتوا فهوماً عندهم فهم لكنهم ما عندهم علم، والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلمه ضل وضاع، فلا بد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك. فهؤلاء أوتوا عقولاً تقوم عليهم بها الحجة، ولكنهم حرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذم التي هي الرشد وحسن التصرف، فلم يستعملوا عقولهم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعهم، والمؤلف - رحمه الله - يقول [﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾] ﴿١٧﴾ عداوته وإضلاله، أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون] يعني لو أنكم عقلتم عداوته وإضلاله، أو عقلتم ما حل بالمتبعين له من العذاب والنكال لكنتم تخالفونه ولا تعبدونه، ولأمنتكم بالله وحده،

ولكن الهوى غطى الهدى كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ﴾ (١).

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان عداوة الشيطان لبني آدم، حيث أضل منهم جبلاً كثيراً، أي: خلقاً كثيراً عظيماً.
- ٢ - ومنها: التحذير من الشيطان وإغوائه؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لهداية بني آدم، ولكنه يسعى لإضلالهم.
- ٣ - ومنها: أن من اتبع الشيطان في إغوائه وإضلاله فهو غير عاقل لقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢).
- ٤ - ومنها: أن من ساء تصرفه صح أن ينفي عنه العقل، وإن كان عاقلاً عقلاً ظاهراً، لقوله هنا: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢). وقد مر علينا أن العقل عقلاان: عقل هو مناط التكليف وهو عقل الإدراك، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو عقل التصرف الذي يكون به الرشد.
- ٥ - ومنها: توبيخ ولوم من تبع الشيطان في إضلاله لكونه غير عاقل، لقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢).

\* \* \*

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣) قال المؤلف في تقدير الكلام: [ويقال لهم في الآخرة ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣)] ﴿هَذِهِ﴾ الإشارة هنا إلى قريب؛ لأن إشارة البعيد (تلك) وهنا يقول: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ إشارة إلى قربها منهم، لأنه

يؤتى بها يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، تقاد ويؤتى بها ويشاهدها الناس ويلحقهم من الرعب العظيم ما لا يقدر الواصفون على وصفه، ويقال لهؤلاء المجرمين: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٣) وفي آية أخرى قال الله فيها: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزِنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ (١) كانوا قبل أن يدعوا إليها يقال لهم: ﴿ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٣) فإذا دعوا إليها، والدع يدل على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفاً منها، ولكنهم يدفعون دفعاً بقوة - والعياذ بالله - إليها ويقال: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴾ (١٤) . والتكذيب عنف في رد الحق، والدع عنف، فصار الجزاء من جنس العمل، أما حين عرضت عليهم وقربت منهم قيل لهم: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٣) . أي: توعدون بها ولكنهم يكذبون كما قال الله تعالى: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴾ (١٤) فهم توعدوا بها لكنهم كذبوا - والعياذ بالله - ويوم القيامة يوبخون على هذا التكذيب ويقال: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٣) و﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴾ (١٤) .

وهنا إشكال وهو: أنه قيل: إن الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وعليه قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته  
لمخلف إيعادي ومنجز مواعيدي

وهنا قال: ﴿تُوعَدُونَ﴾ (١٣)؟

فنقول: الأمر - كما قال المفسر - على حذف معلوم وهو قوله: (بها) أي توعدون بها، لا توعدونها. لو قال: (توعدونها) لصار للإشكال محل؛ لأن الجنة قال الله فيها: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (١) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ (٢) لكن هؤلاء وعدوا بها، يعني أنه قيل لهم: إنكم سوف تلاقونها، وهذا هو الواقع.

#### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات نار جهنم، وأنها تشاهد عيناً يوم القيامة، لقوله: ﴿هَذِهِ﴾ والإشارة تكون إلى مشار إليه محسوس.

٢ - ومنها: بيان صفة النار وأنها - والعياذ بالله - كلها ظلمة، وكلها سواد لقوله ﴿جهنم﴾ لأنها من الجهمة، أي: الظلمة والسواد.

٣ - ومنها أيضاً: تقرير هؤلاء، وإظهار خطأهم في تكذيبهم لقوله: ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣).

٤ - ومن فوائد الآية: صدق وعد الله سبحانه وتعالى حيث صدق وعده بما وعده هؤلاء المكذبين حتى شاهدوا ما وعدهوا به عياناً.

\* \* \*

(١) سورة مريم، الآية: ٦١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

### ﴿ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٦٤)

هذا الأمر كوني - إن كان من الله - وإن كان ممن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضاً أمر كوني، والمراد به الإهانة والإذلال، وإذ من المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن يصلوها، لكن يقال ذلك على سبيل الإهانة والإذلال ﴿ الْيَوْمَ ﴾ آل هنا للعهد الذكري، وقد يكون بالنسبة لمخاطبة هؤلاء الكفار للعهد الحضوري، يعني: هذا اليوم للحاضر اصلوا النار فيه.

ويتردد علينا كثيراً العهد الحضوري، والذكري، والذهني فما هو الفرق بينها؟

العهد الحضوري ما كان معهوداً لحضوره، والذكري ما كان معهوداً لذكره، والذهني ما كان معهوداً في الأذهان. مثال العهد الذهني: إذا قلنا: اذهب إلى القاضي، وأنت مثلاً في بلد، فتذهب إلى قاضي البلد نفسه؛ لأن هذا معروف في الذهن.

مثال العهد الحضوري إذا قلت: اليوم نكرمك، كقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١).

ومثال العهد الذكري قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) يعني الرسول المذكور وليس رسولاً آخر.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١٥، ١٦.



﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ (ما) مصدرية، أي: بكونكم تكفرون، والباء للسببية، أي: بسبب، وقوله: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ أي تكفرون به بالدنيا، فقد كفروا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبين، وبكل ما أخبر الله به، ولهذا لم يقوموا بطاعته؛ لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يقال لهم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ لإقامة الحجة عليهم، وبيان أنهم لم يظلموا، ولهذا ﴿ تَكَادُ تَمِيزٌ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴿١١﴾ .

### الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء المكذبين يأمرون أمر إهانة وإذلال ليصلوا النار لقوله: ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾ .
- ٢ - ومن فوائدها: إثبات الأسباب لقوله: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ وإثبات الأسباب أمر معلوم بالشرع والعقل والحس، ولا ينكر إثبات الأسباب إلا جاهل بحقيقة الواقع، فإنه لا أحد ينكر أنك إذا رميت الزجاجاة بحجر انكسرت به، وإذا ألقى الخرق في النار احترق بها، ولا ينكر هذا إلا شخص مكابر في الواقع، ومع هذا فالأسباب لا تفعل بذاتها، ولا تؤثر بذاتها بل بخلق الله سبحانه وتعالى التأثير فيها، وحينئذ لا يكون في إثبات الأسباب شيء من الشرك، خلافاً لمن زعم أن إثبات تأثير الأسباب نوع من الشرك؛ لأننا نقول: إن هذه الأسباب إنما تؤثر

بخلق الله عز وجل التأثير فيها، ولهذا إذا شاء الله أن لا تؤثر لم تؤثر، فإن النار طبيعتها الإحراق ومع ذلك لم تحرق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل كانت برداً وسلاماً عليه، لأن الله قال: ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩) (١).

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال عدل الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿ أَصَلَوْهَا أَلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٦٤) ﴿ أي: فلم تظلموا، بل أنتم الذين فعلتم ذلك بأنفسكم.

\* \* \*

﴿ أَلْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ أَلْيَوْمَ ﴾ يعني يوم القيامة قال المؤلف - رحمه الله -: [ ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: الكفار لقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ وغيرها ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ فكل عضو ينطق بما صدر منه ] ﴿ أَلْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ الختم على الشيء بمعنى إغلاقه وعدم الوصول إليه، ومنه ختمت الكيس إذا أحكمت شده، وختمت عليه بالشمع ونحوه كما يقولون، ومعنى ﴿ نَخْتُمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي نسدها فلا تتكلم، وذلك أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا الموحدين قد نجوا، تكلموا وتبرؤا من الشرك، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، أي: أقررنا بأننا غير مشركين لعلنا ننجوا كما نجا أهل التوحيد، وحينئذ يختم على أفواههم؛ لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيختم على أفواههم، وتنطق الجوارح بما عملت،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

والجلود بما مست، فإن الجلد يمس المحرمات كمس المرأة لشهوة مثلاً فتشهد عليهم الجوارح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ نفس اليد تتكلم تقول: عملت كذا، عملت كذا، ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ نفس الأرجل تقول: أشهد أنه عمل كذا وكذا، وتأمل الفرق بين اليد والرجل، في اليد قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ والأرجل قال: ﴿وَتَشْهَدُ﴾ قال بعض العلماء: لأن اليد تخبر عما فعلت، والرجل تخبر عما فعل غيرها؛ لأن الأصل في المباشرة اليد، ولهذا دائماً يعلق الكسب باليد فيقال: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾<sup>(١)</sup> أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup> فلماذا كانت الأيدي مباشرة، والأرجل شاهدة؛ لأن الشاهد هو الذي يخبر عما فعل غيره، والفاعل هو الذي يخبر عما فعله هو بنفسه - هكذا قال بعض أهل العلم - وهو فرق لا بأس به، مع أن الإنسان قد يشهد على نفسه كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُؤًا قَوَّامِينَ بِأَلْقَاسِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فإقرار الإنسان على نفسه شهادة عليه، لكن الفرق الذي أشار إليه بعض العلماء وذكرناه آنفاً فرق لا بأس به، قول المؤلف: [وتشهد أرجلهم وغيرها] قوله: (وغیرها) لا يعني ذلك أنه يستدرک على القرآن، لكنه ينبه على موضع آخر من القرآن، ففي آية أخرى بين الله تعالى أنه تشهد عليهم الجلود ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴿١﴾ فالسمع والبصر والجلود لم تذكر هنا في آية سورة يس، وإنما ذكرت الأيدي والأرجل، ولهذا قال المؤلف (وغيرها) إشارة إلى أن هناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ فالسمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مس ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ولم يقل: (وقالوا لأبصارهم، وسمعهم: لم شهدتم) لأن عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله، لكن عذاب السمع والبصر خاص بالسمع والبصر، ولهذا قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ لأن العذاب سيكون على الجلود، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (٢) والحاصل أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهداء ستة: الأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلود، والألسن، فقد ذكر الله تعالى في سورة النور أن الألسن تشهد ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) فاللسان أيضاً يشهد عليهم، لأن اللسان هو أعظم الجوارح خطراً؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: «ألا أدلك على ملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كف

(١) سورة فصلت، الآيات: ٢٠ - ٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٤.

عليك هذا»، قلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم» أو قال: «على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»<sup>(١)</sup>، وكل صباح تكفر الجوارح اللسان يعني أنها تجعل الأمر مناطاً به، ولهذا قال في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ ونص على الألسن في سورة النور لأنه ذكر فيها ما يتعلق بذلك من الأمور العظيمة كالقذف مثلاً، وأعظمه قذف عائشة - رضي الله عنها - ولهذا ذكرت في سورة النور الألسن؛ لأن القذف قول، فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢٤)</sup>

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٦٥)</sup> تنازعه عاملان الأول: (وتكلم) والثاني: (تشهد) والتنازع أن يتوارد عاملان على معمول واحد، مثل أن تقول: أكرمت ورأيت زيداً، فإن أكرمت ورأيت عاملان على معمول واحد وهو: زيد، أما أيهما يعمل هل هو الأول أو الثاني؟ فالعلماء اختلفوا في ذلك: يقول ابن مالك:

والثاني أولى عند أهل البصرة واختار عكساً غيرهم ذا أصبح فالعامل الثاني هو الذي يعمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي يعمل هو الأول.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٦٥)</sup> ولم يقل: (بما كانوا يعملون)، لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان، فقد يكون العمل خطأ فلا يؤاخذ به الإنسان، فلا يكون من كسبه، بل الذي يكون من

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

كسبه هو العمل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾<sup>(١)</sup> ولم يقل: (لها ما عملت، وعليها ما عملت) فالكسب أخص من العمل؛ لأنه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسباً، فقد يكون وقع عن سهو، أو جهل فلا يؤاخذ به الإنسان، وقد يكون عن غير قصد فلا يؤاخذ به الإنسان، لكن مع ذلك أحياناً يطلق العمل ويراد به العمل الذي هو كسب مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾<sup>(٢)</sup> يقول المؤلف: [بما كانوا يكسبون] فكل عضو ينطق بما صدر منه] فاليد تنطق بما بطشت، والرجل بما مشت، والعين بما رأت، والأذن بما سمعت، والجلد بما مس، كما تقدم.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يختم على أفواه المكذبين يوم القيامة فلا يتكلمون، وقد سبق لنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وهو أن للقيامة أحوالاً: حال يكذبون، وحال يقرون، لكن بعد أن تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وأرجلهم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

لقوله: ﴿ وَتَكَلَّمْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ فإنه خلاف العادة أن تكلم الأيدي والأرجل، ولكن الله على كل شيء قدير، ولهذا لما ذكر الله عنهم أنهم قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان يمكن أن يشهد بعضه على بعض؛ لأن هذا الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، فهل يتفرع على هذا: أن الإنسان في الدنيا يمكن أن يشهد على نفسه؟ نعم يمكن، وشهادته على نفسه هو إقراره على نفسه.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل لقوله: ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦٥) وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ (١) وقوله: ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ (٦٥) لأن مجرد العمل قد لا يكون كسباً كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساه، أو نائم، أو ما أشبه ذلك.

\* \* \*

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ

يُبْصِرُونَ ﴾ (٦٦) قال المؤلف - رحمه الله -: [ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ لأعميناهم طمساً ﴿ فَاسْتَبَقُوا ﴾ ابتدروا ﴿ الصِّرَاطَ ﴾ الطريق ذاهبين كعادتهم ﴿ فَأَنَّىٰ ﴾ فكيف ﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ (٦٦) حينئذ أي: لا يبصرون].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ ﴾ (لو) حرف امتناع لامتناع،

والذي امتنع الطمس لامتناع المشيئة، فإذا هي حرف امتناع لامتناع. لو جاء زيد لأكرمك، امتنع المجيء والإكرام، و(لولا) حرف امتناع لوجود و(لما) حرف وجود لوجود، فهذه الأدوات الثلاث تنازعت الوجود والعدم (لو جاء زيد لأكرمك) امتناع الامتناع، (لولا زيد لأكرمك) امتناع لوجود فإن شئت قلت (لولا مجيء زيد لأكرمك) لكي ينطبق المثالان هنا ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ (نشاء) الضمير ضمير جمع، يعني لو نشاء نحن، وهذا من المشتبه؛ لأن النصراني ادعى تعدد الآلهة لمثل هذا الضمير، قال: فالله عز وجل يعبر عن نفسه بنحن و(نشاء) (نريد) وما أشبه ذلك إذاً فهو متعدد، ولكننا نرد عليه بأن الجمع هنا للتعظيم وليس للتعدد، لأنه عميت عينه وعميت بصيرته عن الآيات الصريحة المحكمة الدالة على أن الله إله واحد ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾<sup>(١)</sup> ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾<sup>(٢)</sup> إذاً الضمير (نشاء) وهو ضمير جمع للتعظيم وليس للجمع قطعاً؛ لأن الله واحد ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ الطمس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطمس إزالة العين مرة واحدة ليس لها أثر، والعمى يكون مع بقاء العين، لكن قد تكون قائمة في صورتها وقد تختلف، المهم أن الطمس إزالة العين ومعالمها نهائياً، لو شاء الله تعالى لفعل ذلك بعد وجود العين، لأن الله قال: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ والله عز وجل على كل شيء قدير،

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.



فكما كان قادراً على شق العين فهو قادر على طمس ذلك الشق، وإذا كان البشر ربما يخطط الشق حتى يتلاءم فما بالك بالخالق عز وجل، الذي يقول للشيء: (كن) فيكون ﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٦) يعني طمس على أعينهم فصاروا يتسابقون لعلهم يدركون الطريق الذي يوصلهم إلى مقصودهم، وكأنك تتصورهم الآن يتنافرون تنافر الحمر لعلهم يهتدون إلى الطريق، وهل يمكن للأعمى أن يدل الطريق من حيث الدلالة البصرية؟! لا يمكن، ولهذا قال: ﴿فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٦) يعني كيف يبصرون الطريق وقد طمس الله أعينهم؟! والمقصود بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى طمس قلوب هؤلاء، ولو شاء لطمس أعينهم، فصار الطمس حسياً معلوماً، وكما أن المطموسة عينه لا يبصر، فكذلك المطموسة بصيرته لا يبصر الحق، كيف يمكن لإنسان طمس الله بصيرته أن يبصر الحق ويهتدي؟ هذا شيء متعذر كما أن من طمس الله بصره لا يمكن أن يهتدي إلى الطريق.

### الفوائد:

١ - في هذه الآية الكريمة إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ ولكن كل شيء معلق بمشيئة الله فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يشاء مشيئة مجردة بل مشيئته تابعة لحكمته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٠) (١). فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٠) يدل على أن مشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة أيضاً: بين تمام قدرة الله، لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ فهذه الأعين مبصرة لو شاء الله لطمسها وصارت كأن لم تكن.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: ضرب المثل عن الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة، فإن هؤلاء لو طمست أعينهم ما استطاعوا أن يهتدوا إلى السبيل، فكذلك إذا طمس الله بصيرة القلب - والعياذ بالله - لم يستطع الوصول إلى الحق، ولم يعرف الحق.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال بلاغة القرآن؛ لأن الله لو شاء لقال: (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فما استطاعوا أن يذهبوا ولا يرجعوا)، لكن أتى به على هذا السياق الذي فيه توسع؛ لأنه أبلغ في التأثير، ولأنه يكون له نسق جيد تهفو إليه الأسماع وتلتذ بسماعه.

\* \* \*

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا

وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٧) في الآية السابقة ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ انتفاء الدلالة، وفي الآية انتفاء السير. ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قيل: المراد بالمسخ - كما قال المؤلف - [قردة وخنازير، أو حجارة].

وقيل: المراد بالمسخ الإبقاء على ما هم عليه، يعني يمسخون على مكانتهم فلا يستطيعون التحرك وهو آدمي، لكنه ممسوخ لا يستطيع الحراك، وأياً كان فالله على كل شيء قدير، فقد قلب الله تعالى بني إسرائيل قردة وخنازير، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ

أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴿١﴾ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ﴿٢﴾ والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار، أو يجعل صورته صورة حمار» ﴿٣﴾، والأمر هين على الله سبحانه وتعالى يقول: (كن) فيكون، فيقول: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: حولنا صورهم إلى صور أخرى من القردة والخنازير، أو جعلناهم حجارة، أو أننا أبقيناهم ماكثين كالجماد. المهم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمسخهم وأبقاهم في مكانهم لا يتحركون، ولهذا قال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ أي فما استطاعوا أن يمشوا؛ لأنهم مسخوا على مكانتهم وبقوا ثابتين، ولا يستطيعون أن يرجعوا، والذي لا يستطيع أن يمشي ولا يرجع ثابت، كالعمود لا يتقدم أماماً ولا يتأخر خلفاً، لو شاء الله عز وجل لمسخهم على هذا حتى ظهر أمرهم محسوساً، أما بالنسبة للخير والتقدم إليه فهم لم يتقدموا للخير، ولكن تأخروا عنه إلى الشر، ولهذا كان سيرهم الذي يسيرون عليه في العمل عكس الاتجاه الصحيح، بل مضاد له تماماً.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام (٦٩١) ومسلم، كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما ١١٤ (٤٢٧).

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ ﴾ وقد سبق الكلام عن المشيئة وأنها مقرونة بالحكمة في فوائد الآية السابقة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال قدرة الله عز وجل.

٣ - ومن فوائدها أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأثبتهم في مكانهم بحيث لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧).

\* \* \*

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨).

هذه الجملة شرطية، فعل الشرط قوله ﴿ نُعَمِّرْهُ ﴾ وجوابه: ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ أي: نجعل عمره طويلاً، ولهذا قال المؤلف - رحمه الله - [باطالة أجله (نُنَكِّسْهُ) وفي قراءة بالتشديد من التنكيس]، القراءة التي جعلها المؤلف أصلاً (نُنَكِّسْهُ) من الإنكاس، والقراءة التي في المصحف ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ من التنكيس، والإنكاس والتنكيس بمعنى الرد من حال كاملة إلى حال ناقصة، وقوله: ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ أو ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ ﴿ فِي الْخَلْقِ ﴾ يقول المؤلف في تفسيرها: [أي: خلقه، فيكون بعد قوته وشبابه ضعيفاً وهرماً]. فكلما طال العمر بالإنسان فإنه يرجع للوراء، ليس في القوة البدنية فحسب، بل في القوة العقلية، والقوة البدنية، والقوة الفكرية، فيضعف ويعود إلى أرذل العمر، كما قال الله عز وجل، ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ

شَيْئًا ﴿١﴾ ، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ﴿٢﴾ والغرض من هذا التنبيه - وإن كان أمراً واقعاً وكل يعرفه - الغرض منه أن يبادر الإنسان عمره مادام في قوته وشبابه، لأنه سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية، ولا القدرة الفكرية، ويكون تفكيره محدوداً كتفكير الصبي لا يفكر إلا بما يحيط به جدران بيته، ويكون عقله كذلك محدوداً لا يستطيع أن ينظر ويعقل، ويفكر في الأمور، ويوازن بينها ويحكم عليها، كذلك أيضاً يكون حفظه للأشياء محدوداً، فيمر به الشيء في الصباح ولا يستطيع التعبير عنه في المساء، وكل هذا أمر واقع وظاهر، بل من الناس من يسلب عقله نهائياً، وربما يصل إلى حد يشبه الجنون فيؤذي أهله بالصراخ والعويل والأنشيد وما أشبه ذلك حسب ما كان عليه حين الصغر، حتى قيل: إن الإنسان إذا كان جمالاً مثلاً، وكان ينشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يبدأ ينشد هذه الأشعار فكل هذا أمر لا بد منه، ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم  
فكل إنسان عاقل إذا تذكر أن مآله إما موت عاجل، وإما هرم، فإنه لا يطيب له العيش، ولكن العاقل ليس معنى أنه لا يطيب له العيش أنه يبقى في ندم وفي حزن، بل يسعى ويستعد لهذه الحال التي لا بد منها، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾. قال المؤلف - رحمه الله -: [إن القادر على ذلك المعلوم عندهم قادر على البعث فيؤمنون به،

(١) سورة النحل، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

وفي قراءة [بالتاء] أي: (أفلا تعقلون)، وهي سبعة كما تقدم من اصطلاح المؤلف. هكذا قال المؤلف رحمه الله: إن المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحالة الدانية على أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم، وهذا الذي قاله ممكن، لكن أحسن منه أن يقال: إن معنى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨) أفلا يكون لكم عقل فتبادروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال؟ تبادروها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم، حتى إذا وصلتكم إلى هذه الحالة، وإذا أنتم على أتم استعداد لها، وغالباً أن الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله سبحانه وتعالى إذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطاعات، كثير من المسلمين إذا هرموا تجده يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضأ، أو تجده يصلي دائماً، أو تجده يقرأ القرآن دائماً، أو يذكر الله تعالى دائماً، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها، وعكس ذلك سيكون بالعكس من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيء، نسأل الله العافية والسلامة.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان حال الإنسان وأنه ينتقل من طور إلى طور، وقد بين الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤). لكن هذه

الآية فيها دليل على أن الإنسان إذا تقادم في السن فإنه يرجع إلى الوراء لقوله: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ .

٢ - يتفرع على الفائدة السابقة: أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم فرص العمر وقوته وشبابه قبل أن ينكس في الخلق .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: التنديد بهؤلاء المكذبين؛ لقوله: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨) .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على التعقل والتفكر وحسن التصرف حتى يكون الإنسان من العقلاء .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن العقل غير الذكاء؛ لأن الإنسان قد يكون ذكياً ولكنه ليس بعاقل؛ لقوله: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٨) ومن المعلوم أن هؤلاء عندهم من عقل الإدراك والذكاء الشيء الكثير .

\* \* \*

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦٩)

قال المؤلف - رحمه الله - في تفسيره: [ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي: النبي ﴿ الشِّعْرَ ﴾ رد لقولهم: إنما أتى به من القرآن شعراً ﴿ وَمَا يَنْبَغِي ﴾ سهل ﴿ له ﴾ الشعر ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ليس الذي أتى به ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦٩) مظهر للأحكام وغيرها] قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ ﴾ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ (نا) تعود إلى الله سبحانه وتعالى، وأما الضمير (الهاء) فيعود إلى النبي ﷺ .

فإذا قال قائل: أين مرجع الضمير لأن كل الآيات السابقة

ليس فيها ذكر للنبي ﷺ؟

قلنا: إن الضمير يعلم مرجعه من السياق السابق، أو السياق اللاحق، وهذا يشبه العهد الذكري في (أل)، أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهوماً عند المخاطب، وهذا كالعهد الذهني، وهنا يعلم مرجع الضمير في قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٩) ومعلوم أن الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو محمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: ما علمنا النبي ﷺ الشعر؛ لأن الشعر لو علمه الله تعالى النبي ﷺ لكان في ذلك حجة للمبطلين المكذبين، ولقالوا: إنما هذا القرآن من جملة الشعر الذي علم إياه، ولهذا لم يعلم الشعر، ولم يعلم الكتابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِّلُونَ﴾ (٤٨) فالنبي ﷺ لم يقل شعراً أبداً، وإذا قدر أن جرى على لسانه كلام موزون وزن الشعر فإنه ليس عن قصد وإرادة، وإنما جاء عفواً، والذي يأتي عفواً ليس مقصوداً فلا يكون معلوماً مثل قوله ﷺ:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»<sup>(٢)</sup>

فإن هذا رجز، ولكنه ليس عن قصد، فلا يكون ذلك شعراً، أما الشعر فإنه الكلام الموزون المقفى الذي يأخذ باللب، وسمي شعراً لأنه يأخذ بالشعور، ولهذا تجد أن النظم يأخذ باللب أكثر من أن يأخذ النثر، فربما تسمع خطبة بليغة جيدة جداً، وتجد ما

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب من قاد دابة غيره (٢٨٦٤). ومسلم، كتاب

الجهاد، باب غزوة حنين (١٧٧٦).



يمائلها في المعاني بالنظم ولكنك ترى أن تأثير النظم أشد، وأقرب للشعور أكثر، ولهذا سمي شعراً، وبه نعرف أن ما يسمى الآن بالشعر المنتثور ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر، فهو ليس بشعر وليس بنثر، وإنما هو كالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يطرب إليه من يطربون إلى النثر والخطب، ولا يطرب إليه من يطربون إلى الشعر والقصائد، فهو في الحقيقة ليس بشيء، ولكن لكل امرئ من دهره ما تعود، والذين أحدثوه يطربون له، ويرون أنه أشد شاعرية من شعر امرئ القيس. ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ قال المؤلف: [ردّ لقولهم: (إن ما أتى به من القرآن شعر)] والمكذبون والذين يقومون ضد - أي إنسان - لا بد أن يصفوا قوله بالمعائب لأجل أن ينفر الناس عنه، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾<sup>(١)</sup> وقال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾<sup>(٢)</sup> كل الرسل وصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السحر، والجنون، ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أيضاً وصف بذلك، وصفوه بأنه ساحر، وشاعر، ومجنون، وكاهن، وكذاب، كل ذلك من أجل أن ينفروا الناس عنه، ولكن هل حصل الأمر وهل نفر الناس؟ أبداً، لأن الحق - والحمد لله - سيعلو مهما قوبل به من صدمات فإن العاقبة له.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

فإذا قال قائل: هذا الوصف للرسول عليه الصلاة والسلام هل يتعدى إلى أتباعه؟

فالجواب: نعم. كل ما وصفت به الرسل يوصف بمثله أتباعهم، ألم تعلموا أن المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾ (٢٢) ﴿١﴾ يصفونهم بالضلال، وفي عصرنا يصفونهم بالرجعية والتأخر وما أشبه ذلك من الكلمات التي ينفرون الناس بها عن الحق، وأهل البدع يصفون أهل السنة والجماعة بألقاب السوء يقولون: إنهم نوابت، غثاء، حشوية، مجسمة، مشبهة، وما أشبه ذلك، كل هذا من أجل التنفير عما هم عليه، ولكن الحمد لله أن الأمر يكون ثواباً لهؤلاء الذين يوصفون بهذه العيوب، وامتحاناً لهم بالصبر على ما هم عليه من الحق، ثم العاقبة تكون لهم، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ الشعر قال المؤلف: [أي: ما يسهل له الشعر]. بل هو صعب عليه إنشاءً، وصعب عليه إنشاداً، فهو عليه الصلاة والسلام إذا أنشد شعر غيره ينشده أحياناً على غير الوزن المعروف، لأنه ليس له عناية بالشعر أو تحفظ له، أما بنفسه فلا ينشد.

ولكن الأولى أن نفسر ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ أي: ما يمكن ولا يصلح له، ولا يليق به، لأنه كل ما جاءت في القرآن ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ فالمراد بها الممتنع غاية الامتناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢) ﴿٢﴾ أي: مستحيل غاية الاستحالة، ومثل قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يعني هذا شيء

(١) سورة المطففين، الآية: ٣٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٢.

مستحيل أن تدرك القمر هذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس ﴿وَمَا يَتَّبِعِي لَهُۥ﴾ أي ما يمكن ولا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يكون شاعراً. فلا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر؛ لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجاً من المبطلين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) ﴿١﴾ فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إن هذا القرآن شعر مما تعلمه.

سؤال (٢) : لماذا وصف العرب الجاهليون القرآن بالشعر مع أن الفرق بين الشعر والنثر واضح لدى عامتهم فضلاً عن خواصهم؟  
الجواب: المبطل يموه بكل شيء، وإذا كثرت الدعايات والكلام والقول فقد ينقلب الأمر، فهم يعرفون أن هذا ليس بشعر، لكن قد يقولون: هذا شعر على وجه جديد وما أشبه ذلك، يروجون لدعايتهم حتى يشتهب الأمر.

سؤال: يقول من يروج للشعر الحديث: إن الشعر كان عند العرب بهذا الشكل بدليل أنهم نعتوا القرآن بالشعر وليس موزوناً ولا مقفى؟

الجواب: هذا من باب الترويح، ولهذا لا تستطيع أن تأتي بقصيدة واحدة أبداً على مثل شعرهم هذا.

كما أنه لو كان يكتب لقالوا إن هذا شيء مما كتبه. ﴿إِنَّ هُوَ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) هذا السؤال والذي يليه طرحا على فضيلة الشيخ - رحمه الله - أثناء الدرس فأثبتهما مع جوابهما، والله الموفق.

إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ قال المؤلف: [ليس الذي أتى به إلا ذكر] فأفادنا بأن (إن) هنا نافية، أي: ما هو إلا ذكر، و(إن) تأتي لعدة معانٍ: تأتي زائدة، وشرطية، ونافية، ومخففة من الثقيلة. والذي يعين المعاني المتعددة في الكلمة الواحدة هو السياق، وهذه قاعدة في كل كلمة ذات معاني متعددة أنه يعينها السياق، وقرينة الحال، وهي هنا نافية، قال ﴿هو﴾ الضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿علمناه﴾، وكون مرجع الضمير مصدراً معلوماً من الفعل السابق أمر لا يستغرب، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾<sup>(١)</sup> ﴿هو﴾ أي: العدل المفهوم من كلمة: (اعدلوا) وهنا ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٦٩)</sup> أي: ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين. قوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ قال المؤلف: [عظة] يعني موعظة يتذكر بها من تذكر، والذي يتذكر بهذا القرآن بينه الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾<sup>(٣٧)</sup> وهذا باعتبار الاستعداد والقبول، وجاء في آيات أخرى ما يدل على أن كل المتقين يتعظون بهذا القرآن، فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك، ففي سورة «ق» بيان الذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر، وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل،

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

وكلما ازداد الإنسان عملاً بالقرآن ازداد تذكراً به، وهذا الذي ذكره المؤلف - رحمه الله - في معنى الذكر هو أحد المعاني؛ لأن الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معان:

**المعنى الأول:** ما ذكره المؤلف وهو العظة والتذكر به.

**المعنى الثاني:** إنه ذكر يذكر به الله، وهو أشرف أنواع الذكر، لأن القرآن كلام الله عز وجل، فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمته عز وجل؛ ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب؛ ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها؛ ولأنه يشتمل على أحكام من لدن حكيم خبير، هي أعدل الأحكام وأقومها لمصالح العباد؛ ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف، وكل هذا ذكر، فالقرآن نفسه ذكر لله عز وجل؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بينها الله تعالى في كتابه.

**المعنى الثالث:** أنه رفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> والذكر بمعنى الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم. ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق، ولهذا فإني أحثكم على أن تمسكوا

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدة، وعملاً، وهدياً فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون - لو كنتم قليلين - فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن يجذب الناس للمهتدي به حتى يكثروا شيئاً فشيئاً، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق، قال: ﴿ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦٩) قرآن يحتمل أن يكون معنى مفعول، وأن يكون بمعنى فاعل؛ لأن قرآن مصدر مثل: الشكران، والغفران، والنكران، وما أشبهه، والمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارئ ومقروء، أما كونه قارئاً فلأنه من القر يعني الجمع فهو جامع للأحكام، والأخلاق، والآداب الموجودة في الكتب السابقة قبله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (١) وجامع أيضاً لكل ما تقوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو أيضاً مقروء أي: متلو؛ لأنه يتلى، والقراءة بمعنى التلاوة. ﴿ مُّبِينٌ ﴾ (٦٩) قال المؤلف - رحمه الله - [مظهر للأحكام وغيرها] ف ﴿ مبين ﴾ هنا من (أبان) بمعنى أظهر، وقد سبق لنا مراراً أن (أبان) يكون لازماً، ويكون متعدياً، يكون لازماً بمعنى ظهر، وهو كثير في القرآن مثل: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٦٩) ﴿ (٢) أي: بين ظاهر،

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

وتأتي مبين من (أبان) بمعنى أظهر، أي: المتعدي كما في الآية: ﴿مُبِينٌ﴾ (٦٩) أي مظهر، مظهر للأحكام وغير الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup> فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القرآن، لكن وجوده في القرآن: إما أن يكون على وجه صريح، أو على وجه ظاهر، أو على وجه الإيماء والإشارة، أو على وجه الشمول والعموم، أو على وجه اللزوم، فالمهم أن القرآن مبين لكل شيء، تارة يذكر الدليل على المسألة، وتارة يذكر التوجيه إلى الدليل فمثلاً: هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات، وتقدير أنصبة الزكاة، وما يجب فيها، وما أشبهها لكن في القرآن ما يشير إليه مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْهُوا﴾<sup>(٢)</sup> فهذه الآية إذا وجهتها إلى السنة شملت جميع السنة، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسنة، إذاً فالقرآن مبين لكل شيء، وهو أيضاً مبين لكل ما سبقنا من الحوادث التي يكون في بيانها مصلحة كقصص الأنبياء، وقصص الأولياء، وقصص المكذبين للرسول وغير ذلك، فكل ما سبق مما فيه مصلحة لنا فهو مذكور، أما ما ليس فيه مصلحة فإنه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا الشيء الذي لم يذكر موكولاً إلى عقول الناس وتجاربهم، كما في كثير من طبائع الأشياء الأمور الطبيعية سواء الفلكية، أو الجولوجية، أو غير ذلك نجد أن القرآن لم

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

يفصلها ولم بينها؛ لأنه ليس فيها فائدة، فائدتها تكمن في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله، ويتحركون حتى يدركوها، ولهذا تجد بعض المسائل التي يتنازع فيها الناس كمسألة دوران الأرض ليست موجودة في القرآن على وجه صريح، ولو كان هذا مما يتعين علينا اعتقاده إثباتاً أو نفيّاً لكان الله عز وجل يبينه بياناً واضحاً كما بين الأمور التي لا بد لنا من الاعتقاد فيها على وجه صريح، إذاً هذه موكولة للناس، واستخراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح العظيمة التي لم يطلع عليها إلا أخيراً هذه أيضاً لم تذكر في القرآن، وإن كان في القرآن إشارة إليها، لكنه لم تذكر على وجه التفصيل بل قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾<sup>(١)</sup> وقطع من صيغ جموع التكثير لو تقول: «إنها ملايين القطع» لم يخرج عن دلالتها، هذه القطع لولا أنها تختلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله ﴿قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ إذاً هي متباينة. في هذه الآية تستطيع أن تقول: إن الله أرشدنا إلى استخراج المعادن من الأرض، لأن الله بين أنها قطع، وليست القطع التي فوق التراب فقط، ففيه أشياء كثيرة ما تعلم وربما تعلم في المستقبل، وربما بعضها علم الآن، فالقرآن مبين لكل شيء، وإذا تدبرت القرآن مرة بعد أخرى لا تعيد التدبر مرة ثانية إلا ظهر لك معنى جديداً غير الأول، ولا يمكن لأحد أن يحيط بمعاني القرآن، لكن كلما تدبره الإنسان طالباً للحق، مريداً للصواب فإنه يهتدي إلى معاني كثيرة، سئل علي بن أبي طالب

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.



- رضي الله عنه - هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء - لأنه كان يروج في ذلك الوقت - من وقت علي والشيعه يروجون بأن النبي ﷺ عهد بالخلافة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فسئل هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ يعني من الخلافة، أو من العلوم التي كتبتها عن الناس؟ فقال: لا والذي برأ النسمة، وفلق الحبة إلا فهما يؤتيه الله تعالى من شاء في كتابه، وما في هذه الصحيفة، والذي في هذه الصحيفة العقل، وفكك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر<sup>(١)</sup>. الشاهد قوله: «إلا فهماً يؤتيه الله تعالى من شاء من كتابه» وهذا الفهم يختلف فيه الناس اختلافاً كثيراً جداً جداً، ترى بعض العلماء يتكلم عن آية يستخرج منها فوائد معدودة معدودة، وترى آخر يتكلم عليها ويستخرج منها أضعافاً مضاعفة بالنسبة لما استخرجه الأول، وكل هذا بحسب استعداد الإنسان وفهمه وبصيرته، وكلما ازداد الإنسان إيماناً وتقوى ازداد هدى بالقرآن ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: في هذه الآية رد وتكذيب للمشركين الذين قالوا: إن محمداً ﷺ شاعر، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يصلح ولا يليق برسول الله ﷺ أن يكون شاعراً؛ لأن مقام النبوة أسمى وأعلى من أن ينحط

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتاب العلم (١١١).

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

الإنسان إلى رتبة الشعراء .

وقد يقال: إن فيها ملاحظة البعد عن الشبه، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يتعد عن كل ما يوجب الشبهة حوله، فمقام النبوة الذي ادعي فيه أنه شعر ينبغي أن يتعد الإنسان عما يوجب هذه الشبهة، ويؤيد هذا أن النبي ﷺ لما كان يمشي مع صفية - رضي الله عنها - فمر به رجلان فأسرعا فقال: «على رسلكما فإنها صفية بنت حبي»<sup>(١)</sup> وهذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يقول: مادمت نزيهاً فلا يهمني أن يسيء الناس الظن بي. وهذا ليس بصحيح، وليس من حسن الرعاية لنفسه أن ينزل بها إلى هذا الحد، بل الإنسان مأمور أن يدفع عن نفسه الشبهات واللوم والظن.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي علمه رسول الله ﷺ ذكر، وقد تقدم في التفسير أنه ذكر من ثلاثة أوجه.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما تمسك المسلمون بهذا الكتاب العزيز فإنهم يزدادون عزة وشرفاً؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن مبين لكل شيء، فكل شيء يحتاج الناس إليه فهو مبين؛ لقوله تعالى:

﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٦٩)</sup>

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨) ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أن يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة... أن يقول: هذه فلانة (٢١٧٥)..

### ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٧)

قال المؤلف: [بالياء والتاء] ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالياء الضمير يعود على القرآن ﴿لتنذر﴾ الضمير يعود على رسول الله ﷺ، لكن على قراءة التاء قدر المؤلف: [لتنذر به] فكلمة [به] تعود على القراءة الثانية وهي: ﴿لتنذر﴾، أما القراءة الأولى ﴿لينذر﴾ فلا تحتاج إلى هذا التقدير، ولا شك أن القرآن نفسه منذر، وأن النبي ﷺ منذر به، فالقرآن فيه وعيد، وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد، وهذا هو الإنذار، كما أن فيه بشارة، وأوصافاً للمبشرين، وهذا هو التبشير، فالقرآن فيه بشارة وفيه إنذار، والنبي ﷺ جاء بالقرآن، وأنذر به، وخوف به، ورجب به ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ قال المؤلف: [يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون] ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ هل المراد هنا بالحياة الحياة المعنوية التي هي حياة القلب، أو الحياة الحسية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين، ولهذا قال ابن كثير - رحمه الله -: من كان حياً على وجه الأرض. يعني من كان حياً حياة جسمية؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامة لجميع الخلق، فهو ينذر من كان حياً، أي: ينذر كل حي، أو من كان حياً حياة معنوية يعني حياة القلب؛ لأن حي يراد به من يعقل ويتبصر ويؤمن، وعكسه الميت، ميت الجسم، وميت القلب، أما ميت الجسم فلا يمكن إنذاره بالقرآن، لأنه انتقل إلى دار الجزاء، ولا يمكن أن يفهم ولا يعلم، وأما ميت القلب فلأنه طبع على قلبه - والعباد بالله - فلا يصل إليه النور ولا يصل إليه الحق ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ قال

المؤلف: [بالعذاب ﴿عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ (٧٠) ﴿وَهُمْ كَالْمِيْتِيْنَ لَا يَعْقِلُوْنَ مَا يَخٰطِبُوْنَ بِهِ﴾]، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ (٧٠) ﴿كَانَ الْمَتَوَقَّعُ أَنْ يَقَالَ: وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى مَنْ كَانَ مِيْتًا، أَوْ عَلَى الْأَمْوَاتِ؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى الْمَقَابِلَةِ، لَكِنْ عُدِلَ عَنْ هَذَا إِلَى ذِكْرِ الْكَافِرِيْنَ فَقَالَ: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ (٧٠) ﴿وَفَائِدَةُ الْعَدُولِ عَنْ ذِكْرِ الْمَقَابِلِ بِلَفْظِهِ أَمْرَانِ:

الأمر الأول: أن المراد بالميت الكافر، وأن الكافر لا يمكن أن ينتفع بالقرآن.

الثاني: التسجيل<sup>(١)</sup> على أن من لم ينتفع بالقرآن فهو كافر، ومن انتفع به في شيء دون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر، ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر، لكنها قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، فلهذا عدل الله عز وجل - والله أعلم - عن هذا إلى قوله ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ (٧٠) ﴿دُونَ قَوْلِهِ: «وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْمِيْتِيْنَ» بَلْ قَالَ ﴿عَلَى الْكٰفِرِيْنَ﴾ (٧٠) ﴿، وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى هَذَا: - وهو كثير بالقرآن - قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُوْنَ بِشَيْءٍ﴾ (٢) ﴿لَمْ يَقُلْ: (يقضون بالباطل) بَلْ قَالَ: ﴿لَا يَقْضُوْنَ بِشَيْءٍ﴾ ﴿لِيَشْمَلَ الْبَاطِلَ وَغَيْرَ الْبَاطِلِ، يَعْنِي لَيْسَ لَهُمْ قَضَاءٌ إِطْلَاقًا؛ لِأَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ مَمْلُوكُونَ فَلَا يَقْضُوْنَ بِشَيْءٍ.﴾

(١) هكذا هي في الشريط المسجل

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٠.

## الفوائد:

- ١ - من فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم لا ينتفع به وينتذر إلا من كان حيًا، أي حي القلب.
- ٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: إن من كان ميت القلب - والعياذ بالله - فإنه لا ينتفع بالقرآن.
- ٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم حجة على الكافرين لقوله تعالى: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠) لأنه لن يحق عليهم القول إلا بعد أن تقوم عليهم الحجة، ويكون كفرهم عن عناد ولهذا قال: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠).
- ٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكافر لا ينتفع بالقرآن وإنما يكون حجة عليه، وهكذا كل من كان فيه خصلة من خصال الكفر فإنه يضعف انتفاعه بالقرآن وانتذاره به.
- ٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العلة، وإن شئت فقل: الحكمة، لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾ اللام وكلما رأيت التعليل في كتاب الله عز وجل فهو مثبت للحكمة في أفعاله تعالى ومشروعاته.

\* \* \*

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا

مَلِكُونَ﴾ (٧١) ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام هنا للتقرير؛ لأنه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، سواء كانت أداة النفي حرفاً مثل: (لم)، أو فعلاً مثل: (ليس) فالاستفهام هنا للتقرير، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، أو أن المعطوف عليه مقدر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السياق، قال المؤلف:

[﴿يَرَوُا﴾ يعلموا]. ففسر الرؤية هنا برؤية العلم، ويمكن أن يراد بها رؤية البصر، ورؤية البصر أشد وأقوى في التقرير من رؤية العلم، لأن رؤية العلم قد ينكر الإنسان، فيقول: أنا لا أعلم هذا، لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه لا يمكنه أن ينكر، والحقيقة أنها محتملة لهذا وهذا، فباعتبار أن الله خلق هذه الأشياء، لا شك أنها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> وباعتبار المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يشاهد ويعلم ولا يمكن إنكاره، قال المؤلف: [والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة عليها للعطف] هل الواو داخلة أو مدخولة؟ المؤلف يقول: الواو على الهمزة» لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو، فإذا قلت (سوف يقوم) فإن سوف دخلت على يقوم، فالداخل هو الأول، والمؤلف يقول: الواو الداخلة عليها، يشير إلى القول الثاني في مثل هذا التركيب وهو أن التقدير: (وَأَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ) وهذا أحد القولين، فهنا المؤلف - رحمه الله - جعل الواو داخلة على الهمزة، والواقع أن الهمزة حسب الترتيب داخلة على الواو، ولكنه - رحمه الله - يرى أن في المسألة تقديماً وتأخيراً، وأن الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله (وَأَلَمْ يَرَوْا) ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ قال: [في جملة الناس ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ عملناه بلا شريك ولا معين] ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي أوجدنا لهم من العدم أنعاماً، والله سبحانه وتعالى مختص بالخلق، فلا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وإضافة الخلق

إلى المخلوق ليس على سبيل الإضافة بالنسبة إلى الله تعالى ؛ لأن خلق الله تعالى للأشياء خلق إيجاد من عدم، وخلق المخلوق للأشياء ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال، أو من وصف إلى وصف، فإذا نجرت الخشبة باباً فقد خلقتها باباً، لكن هل أنت أوجدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا، لكن صيرتها إلى هيئة معينة، وهذا نوع من الخلق، ولهذا يقال: للمصورين يوم القيامة أحيوا ما خلقتهم، مع أنهم لم يوجدوا الصورة من عدم، لكن غيروا ونقلوا من حال إلى حال، فالخلق الخاص بالله هو خلق الإيجاد، أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط ﴿لَهُمْ﴾ اللام في ﴿لَهُمْ﴾ للاستحقاق، ويصلح أن تكون للملك كما سيأتي في الآية نفسها ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَمًا﴾ أي مما عملنا وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا) كما قال تعالى في آدم يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيَّ﴾<sup>(١)</sup> فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد، أما هنا فأضاف العمل إلى اليد ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وما أشبهها مما يضاف فيه الفعل إلى اليد، والمراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يديه والمراد نفسه، أي: مما عملنا، ولو قلنا: بأنه خلقها بيديه لكانت الأنعام أشرف من

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهنا قال: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدَيْنَا﴾ بالجمع فهل الله عز وجل له أكثر من يدين؟ الجواب: لا، ليس لله أكثر من يدين، ليس له إلا يدان اثنتان، وجمع هنا من أجل المناسبة؛ لأن الأفصح في المثني إذا أضيف إلى جمع الجمع، ألم تر إلى قول الله تعالى ﴿إِنْ نُؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾<sup>(١)</sup> مع أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، فهنا لما أضافه إلى الضمير المفيد للجمع - وهنا للتعظيم بلا شك - ناسب الجمع، وأيضاً فإن الجمع أبلغ في التعظيم فلهذا جمعت، وأيضاً فإن هذه الأنعام لا يحصيها إلا الله عز وجل فهي جموع كثيرة، كل واحد منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلق خاص، فجمع أيضاً باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام، وعلى كل حال فهذه الآية لا شك أنها تفيد إثبات اليد لله عز وجل، ولكنها لا تفيد أنه له أكثر من يدين لما تقدم من وجوه الجمع.

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على أنه ليس لله إلا يدان اثنتان؟ قلنا: الدليل أن الله تعالى تمدح بهما في مقام المدح والعطاء والرزق، ولو كان له أكثر من ذلك لذكرها لاقتضاء المقام إياه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> ولو كان له أكثر من واحدة لقال: (بل أيديه) لأنه بلا شك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء وهذا باعتبار المخلوق، أما الخالق عز وجل فعطاؤه لا ينفد، ولا يعد،

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.



وليس له إلا يدان اثنتان، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة .  
﴿ أَنْعَمًا ﴾ قال المؤلف : [هي الإبل والبقر والغنم] كأن  
المؤلف رحمه الله تعالى خصها بالإبل والبقر والغنم لقوله تعالى :  
﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ (١) . ولو قيل : بأن الآية  
أعم من ذلك ؛ لأنه قد يكون هناك حيوانات يحصل بها من المنافع  
ما يحصل بهذه الأشياء الثلاثة : الإبل والبقر والغنم ، ﴿ فَهُمَ لَهَا  
مَلِكُونَ ﴾ (٧١) الفاء مفرعة على قوله : ﴿ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ أي : فعلى  
كونها خلقت لهم ولمصالحهم هم لها مالكون ، وأتى بالجملة  
الإسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار ، أي : أن هذا الملك  
مستمر ، وهذا الملك الذي ذكره الله عز وجل يقول فيه المؤلف :  
[ضابطون] فهو من ملك التصرف ، وليس من الملك الشرعي  
الذي يحصل بالبيع والشراء والهبة وما أشبهها . أي : أنهم  
يملكونها ويضبطونها ويتصرفون فيها كما شاءوا .

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة : تقرير نعمة الله عز وجل على  
عباده ، بهذه الأنعام ؛ لقوله : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا  
أَنْعَمًا ﴾ .

٢ - ومن فوائدها أيضاً : أن هذه الأنعام ملك لنا ننتفع بها  
بجميع وجوه الانتفاعات لقوله : ﴿ خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ فكل وجوه  
الانتفاعات فإنه يجوز لنا أن ننتفع بها لأنها مادامت لنا فنحن فيها  
أحرار إلا ما قام الدليل على منعه . ويتفرع على هذه الفائدة :

(١) سورة المائدة، الآية : ١ .

أنه يجوز أن نركب ما لم تجر العادة بركوبه، مثل أن نركب البقر، ولهذا قال الفقهاء: يجوز الانتفاع بهذه الحيوانات في غير ما خلقت له.

فإن قلت: ما الجواب عن الحديث الصحيح: «بينما رجل راكب بقرة يسوقها، إذ التفتت إليه فقالت له: إنا لم نخلق لهذا، قال النبي ﷺ: «فأنا أو من بذلك وأبو بكر وعمر»<sup>(١)</sup>.

فالجواب على هذا أن نقول: إن هذا الرجل ركبها ركوباً يشق عليها، وهي ما خلقت لتعذب، وهو كذلك حتى لو أن الإنسان ركب الإبل على وجه يعذبها قلنا له: إنها لم تخلق لهذا.

٣ - من فوائد الآية الكريمة: صحة نسبة العمل إلى الله؛ لقوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾ لكن لا يسمى الله بالعامل، كما لا يسمى بالصانع أخذاً من قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>(٢)</sup> وذلك لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتسمية، فيجوز أن نشق من كل اسم صفة، ولا يجوز أن نشق من كل صفة اسماً. ولهذا نقول: (الصفات أوسع من الأسماء)، أي باب صفات الله أوسع من باب الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تتضمن اسماً.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ وهذه اليد التي أضافها إلى نفسه يد حقيقية ثابتة، ولكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين؛

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب استعمال بقر للحراثة (٢٣٢٤) ومسلم بمعناه، كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٨).

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

لأن مماثلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلاً وسمعاً، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾<sup>(٢)</sup> وأما العقل: فإن كل عاقل يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات، فالواجب علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعض لنا، فمثلاً: السمع، والعلم، والقدرة، والحياة هذه صفات لازمة، ويسميتها أهل العلم الصفات الذاتية، ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق وما أشبه ذلك، صفات غير لازمة، ويسميتها أهل العلم: الصفات الفعلية. فالله لم يزل ولا يزال خالقاً، لكن المخلوق يتجدد، فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق فإنه يكون حادثاً بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع، وليس حدوث جنس، لأن الله لم يزل ولا يزال خالقاً. والاستواء على العرش هذا لا شك أنه حادث؛ لأنه قبل العرش ليس مستو عليه، والذي نظيره أبعض وأجزاء مثل: اليد، والوجه، والقدم، والعين، هذا نظيره بالنسبة لنا جزء من الذات، أو بعض منها، ولا يصح أن نقول: إنه جزء من الله، أو بعض من الله؛ لأن الله عز وجل لا يتجزأ ولا يتبعص، إذ إن الجزء ما جاز

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٤.

وجود أصله بعدمه، فبالنسبة لله لا يمكن أن يكون هكذا، يعني لا يمكن أن تنفصل اليد مثلاً - وحاشا لله عز وجل - أو الوجه، أو ما أشبه ذلك، بالنسبة للمخلوق يمكن أن تنفصل، ولهذا يجب أن نقول: ما نظيره أجزاء وأبعض لنا، ولا نقول ما هو أجزاء وأبعض لله؛ لأن هذا منكر غاية الإنكار.

واليد نقول: إنها حقيقية، ثابتة لله على الوجه اللائق به، ولكن لا تماثل أيدي المخلوقين، وهذا مذهب السلف، وعليه جرى أئمة المسلمين، لكن ابتلي قوم بتحريف اليد وقالوا: إنها النعمة، أو القوة، بناءً على أن عقولهم تحيل أن يتصف الله عز وجل باليد الحقيقية، ولا شك أن هذا ضلال وجناية على النصوص. أما كونه ضلالاً؛ فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة، وهذا لا شك أنه ضلال، إذ كيف تحكم على الخالق بعقلك؟ والخالق عز وجل يقول عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾<sup>(١)</sup> ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾<sup>(٢)</sup> ويقول: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ﴾ وأنت تقول ليس له يد. سبحان الله؟ ولولا تأويلهم لها، وقولهم: نحن نثبت اليد ولكن المراد كذا. لكان هذا تكذيباً للنصوص، ونحن نعلم أن المكذب للنصوص كافر.

وكان جناية على النصوص من وجهين؛ لأنهم يقولون: إن الله لم يرد كذا، وأراد كذا، فنفوا ما أراد الله، وأثبتوا ما لم يرده، فكان جناية على النصوص من الوجهين: السلبي والإيجابي.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

السليبي حيث نفوا ما أثبت الله، والإيجابي أثبتوا ما لم يرده الله. إذ قال الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾<sup>(١)</sup> قالوا: أراد باليدين النعمة أو القوة. نقول - سبحان الله - من الذي أعلمك؟ الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ وأنت تقول: ليس له يد، بل هي نعمة، من الذي قال لك هذا؟ فنفيك قول على الله بلا علم، وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم، فكان جناية على النصوص من وجهين، والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هذا المسلك أئمة مشهود لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة، ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله - عز وجل - وأن الإنسان مهما كان فهو ضعيف وقاصر، وإلا فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث، وأحسن الحديث، وصادر من أعلم بما يقول. ثم نقول: الله ما أراد هكذا، فيجب أن نؤمن بأن الله له يد حقيقية لائقة به، لا تماثل أيدي المخلوقين بأي حال من الأحوال.

وهكذا يجب علينا أن نجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

فإن قيل: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَ يَدَيْهَا يُبَدِّئُ﴾<sup>(٢)</sup> أي: بقوة.

فالجواب: أن نقول هذا صحيح (أيد) هنا بمعنى قوة، لأن أيد مصدر أد، يئيد، أيداً، كباع يبيع بيعاً، وكال يكيل كيلاً، ولا يجوز أن نقول هي كقوله: ﴿أَيْدِيَنَا﴾ لأن الله لم ينسبها إلى نفسه،

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

فلم يقل: «والسماء بئنها بأيدينا» وإذا لم ينسب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله، فكان يتعين أن نفسر قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة. وإذا لم يصف الله شيئاً إلى نفسه حرم أن نضيفه إليه. لأننا لو أضفناه إليه وهو لم يصف إليه لكنا نقول على الله بلا علم. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) «١» اختلف السلف في قوله: ﴿عَن سَاقٍ﴾ هل المراد عن شدة، أو المراد عن ساقه عز وجل، ونحن إذا أخذنا القاعدة التي قررناها الآن بأن ما لم يصفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نضيفه إليه، قلنا: إن المراد بالساق هنا الشدة ولا بد، ولا يمكن أن نفسره بساق الله، لأن الله لم يصفه إلى نفسه فلم يقل: (يوم يكشف عن ساقنا) بل قال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ولكن إذا تأملت سياق الآية الكريمة وما جاء في الصحيحين في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - وجدت أن ذلك يقتضي أن يكون المراد به ساق الله فإنه في حديث أبي سعيد الطويل المشهور، أن الله يكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا، ويعجز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا<sup>(٢)</sup>، فهنا ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ (٤٢) نجد أن سياق الآية يوافق سياق الحديث، وحينئذ نقول: إن كلام الله

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب يوم يكشف عن ساق (٤٩١٩) ومسلم، كتاب

الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

تعالى يفسر بكلام الله تعالى، ويفسر بكلام رسوله ﷺ، فإذا دل سياق حديث أبي سعيد على ما دل عليه سياق الآية فإن الآية تفسر به، وحينئذ يكون القول الراجح أن المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المراد به ساق الله عز وجل، ولكنه نُكر للتعظيم؛ لأن التنكير قد يراد به التعظيم.

فإذا قال قائل: الآية التي معنا في سورة «يس» ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ﴾ فهل تصفون الله بأن له أيدٍ كثيرة أم ماذا؟

نقول: الذي عليه أهل السنة أنه ليس لله إلا يدان اثنتان، وحينئذ نحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> وبين هذه الآية، ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدِينَ أَنْعَمًا﴾ وإلى الجمع بينه وبين الأفراد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup> وما أشبه ذلك.

قال أهل العلم: الجمع بينهما متيسر - والله الحمد - لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت. ولا في كلامه من تفاوت أيضاً، فلا يتفاوت كلامه ولا يتناقض، كما لا يتناقض خلقه أيضاً، فالخلق منسجم بعضه مع بعض، وكذلك الشرع منسجم بعضه مع بعض. قالوا: إن المفرد المضاف يشمل؛ لأنه للعموم، ألم تر إلى

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الملك، الآية: ١.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾<sup>(١)</sup> نعم لا تحصى مع أنه قال: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ واحدة، لكن المفرد المضاف يكون للعموم فيشمل كل ما يثبت لهذا المفرد المضاف وإن كثر، إذاً ﴿بيده الملك﴾ لو فرض بأن هناك أيادي كثيرة، فيدخل واليدان فإنه تدخل، إذاً لا منافاة بين المفرد وبين العدد جمعاً كان أو مثني، فقوله: ﴿بيده الملك﴾ اليد مفرد مضاف. والضمير مضاف إليه، والمفرد المضاف يفيد العموم. أي: مفرد مضاف فهو مفيد للعموم. ومثال لذلك: لو قال رجل لامرأته: طالق، وله أربع نسوة يطلق كل النسوة إلا إذا نوى أنها واحدة، ولو قال: عبدي حر، وله أكثر من عبد عتق الجميع، ما لم يُرد واحداً.

ولو قال: بيتي وقف، وله بيوت صارت بيوته كلها وقفاً ما لم يرد واحداً. فالمفرد المضاف يعم.

بقي لنا الجمع بين اليدين الثنتين، والجمع الذي هو «أيدينا» كيف نجمع بينهما؟

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن كثيراً من علماء اللغة العربية يقولون: إن أقل الجمع اثنان، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنْ تُؤَبَّأْ إِلَى اللَّهِ فَقَدِ اصْغَتْ قُلُوبُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فهنا جمع مع أن المراد اثنان.

وبقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ﴾<sup>(٣)</sup> (إخوة)

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١.



جمع . مع أن الأم تحجب من الثلث إلى السدس باثنين . ويقول النبي ﷺ: «الاثنان وما فوقهما جماعة»<sup>(١)</sup> أي: في الصلاة . ولكن أكثر علماء اللغة - وهو المشهور - يقولون: إن أقل الجمع ثلاثة، وحينئذ يمكن الجمع .

الوجه الثاني: وهو أن نقول: إن المراد بالجمع في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدَيْنَا﴾ المراد به التعظيم، لأن الجمع يدل على التعظيم، ولهذا يأتي ضمير الجمع «نا» في مقام التعظيم . فكل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو (نا) فليس المراد به الجمع، بل المراد به التعظيم . فهنا الجمع للتعظيم، وللمناسبة أيضاً لأنه أضيف إلى ما يفيد الجمع فكان الأنسب أن يكون مجموعاً، فهذه المناسبة لفظية، وإرادة التعظيم مناسبة، معنوية . وبهذا يزول الإشكال .

فإذا قال قائل: لماذا لا تقولون: إن لله أيادي كثيرة؟

فالجواب: إن هذا يمنعه المعنى، لأن الله تعالى لما مدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنتين، ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر؛ لأنه أبلغ في المدح . فلما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾<sup>(٢)</sup> علم أنه ليس له إلا يدان اثنتان، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾<sup>(٣)</sup> فأثبت القبضة بيد،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٤٥) وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب الاثنان جماعة (٩٧٢) .

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤ .

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٧ .

والسماوات مطويات بيمينه باليد الأخرى، والنصوص في هذا كثيرة، ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنتان فقط.

ومثل ذلك نقول: في صفة العين، العين وردت مجموعة، ووردت مفردة ﴿وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾<sup>(١)</sup> ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(٢)</sup> فنقول: عين مفرد مضاف فيعم ﴿تجري بأعيننا﴾ إما أن نقول للتعظيم، أو بأن أقل الجمع اثنان، وليس لله أكثر من عينين اثنتين، ودليل ذلك حديث الدجال حينما تحدث النبي ﷺ عنه، وبيّن تمويهاته قال: «إنه أعور العين اليمنى، وإن ربكم ليس بأعور»<sup>(٣)</sup>، فبين العلامة الحسية الظاهرة وهي عور عين الدجال، ومن العجب أن بعض الناس قال: إن المراد بالعور هنا العيب، يريد أن يثبت أن الله تعالى أعيناً كثيرة، بناءً على الجمع في قوله: ﴿تجري بأعيننا﴾ ولكن هذا عور من هذا القائل؛ لأن الحديث صريح في أن المراد عور العين، حيث قال: «أعور العين اليمنى» ولم يقل: (أعور) فقط، فلو قال: (أعور) فقط، وربما يحتمل ما قاله، مع أن ما قاله ضعيف بعيد؛ لأن اللغة العربية لا تعبر بالعور عن العيب، فالرسول ﷺ قال: «أربع لا تجوز في الأضاحي: المريضة، والعجفاء، والعوراء، والعرجاء»<sup>(٤)</sup> فجعل العور غير

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٧٣١). ومسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (١٠١) (٢٩٣٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٨٤/٤).

العيب، فكل الثلاثة الأخرى عيوب، لكن جعل العور في العين، فنحن نقول لهم: أصل العور في العين ثم إذا جاء الحديث «أعور العين اليمنى» صار قاطعاً للاحتمال قطعاً نهائياً لا يمكن أن يراد به العيب.

فإذا قال قائل: ما وجهه؟

قلنا: وجهه: لو كان لله أكثر من عين لكان الرسول ﷺ يذكره؛ لأنه أدل على تعظيم الله، وأبين في التميز من أن يقال: أن الفرق هو أن هذا أعور، والرب عز وجل ليس بأعور، وبهذا يتبين أن دلالة حديث الدجال - وهو صحيح - دلالة واضحة ظاهرة، على أنه روي في حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكره ابن القيم - رحمه الله - في مختصر الصواعق المرسله «إذا قام أحدكم يصلي فإنه بين عيني الرحمن» وهذا الحديث فيه ضعف لكننا في الحقيقة لسنا بحاجة إليه، لأن الحديث الثابت في الصحيحين في قصص الدجال واضح والحمد لله.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أننا نملك هذه الأنعام ملكاً شرعياً، وملكاً حسيّاً قدرتيّاً.

أما الشرعي: فإننا نملك أعيانها، ومنافعها بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، أما الكوني الحسي فلأننا نملك زمامها وضبطها، وهي مسخرة لنا نقيمها وننيخها، ونذهب بها ونرجع بها، وهذا من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بهذا الملك.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه أتى بقوله: ﴿ فَهَمَّ لَهَا مَلِكُونَ ﴾ [٧١] بالجملة الإسمية التي تفيد الثبوت والاستمرار، أي: ملك مستقر تام.

\* \* \*

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [٧٢]

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا ﴾ أي: سخرناها وجعلناها ذليلة تنقاد لهم، وينتفعون بها كما يشاؤون، ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذلل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود البعير الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه، ثم قسم الله عز وجل وجوه الانتفاع فقال: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ الركوب فعول، بمعنى: مركوب، أي: فمنها ما يركبونه، مثل الإبل.

﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ مثل الغنم، ومنها ما يجمع بين الأكل والركوب مثل الإبل، فهذه الأنعام منها: ما يركب ويؤكل، ومنها ما يؤكل ولا يركب. وإذا قلنا: إن الآية أعم مما قال المؤلف، فإننا نقول: منها ما يركب ولا يؤكل، مثل: البغال والحمير والفيلة وغيرها.

فالله عز وجل جعل لهذه الأنعام فوائد متعددة: من الأكل والركوب، وفي سورة النحل ذكر أيضاً من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. فالمنافع كثيرة في هذه الأنعام التي خلقها الله عز وجل لنا. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ من ﴾ في الموضوعين هل هي للتبعيض، أو للابتداء، أو للجنس؟

مقتضى التقسيم أن تكون للتبعيض، أي: بعضها يركب وبعضها يؤكل.

## الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بتذليل هذه الأنعام، ولو استعصت علينا ما تمكنا من الانتفاع بها، ولهذا لما ند بعير من الإبل في عهد الرسول ﷺ أدركه رجل بسهم فقال النبي ﷺ: «إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش، فما ند منها فاصنعوا به هكذا»<sup>(١)</sup>، فهذه البعير تمردت على أهلها ولم يدركوها إلا بالسهم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن أفعال المخلوقات مخلوقة لله، لقوله: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ لكنها مفعولة للفاعل مباشرة. فهي تنسب لله عز وجل تقديراً وخلقاً، وتنسب إلى الفاعل كسباً وعملاً، فهذه الإبل المذلة الذي ذللها هو الله، إذاً أفعالها صادرة بخلق الله عز وجل. وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة، أي مسألة أفعال العباد هل هي مخلوقة لله، أو هي للعباد استقلالاً؟ والمسألة فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الجبرية، الذين يقولون: إن خلق الله عز وجل شامل لكل حركة في السماوات والأرض، وإن الإنسان مجبور على عمله ليس له فيه اختيار، بل الحركة الإرادية الاختيارية، كالحركة الإجبارية التي ليس لها فيها إرادة.

ويقولون: إن أفعال الإنسان كحركة السعفة بالريح ليس

(١) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما ند من البهائم فهو بمنزلة الوحش،

باختياره، فيقال لهم: إن هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء ويقول: هذا بغير اختياري، وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضاً: أن الله إذا عذب الإنسان على معصية كان ظالماً له، ويلزم عليه أن مدح الطائعين لغو لا فائدة منه؛ لأنه لا يمدح الإنسان على أمر يجبر عليه بدون اختياره، ويترتب عليه أيضاً: أن ذم العاصين ظلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل. وكما أنه يترتب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضاً مخالف للواقع، فإن الإنسان يجد الفرق بين فعله الاختياري، وبين فعله الاضطراري، يجد الفرق بين أن ينزل من السلم درجة درجة وبطمأنينة واختيار، وبين أن يأتي شخص ويدفعه دفعاً، حتى لا يتمكن من الوقوف، فالأمر واضح من الناحية الواقعية العقلية، أن هذا القول باطل من أبطل الأقوال. لكن الذي غرّ أصحابه أن الله عز وجل ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد إلى غير ذلك من الأشياء التي يتعللون بها، لكنهم في الحقيقة نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره، ولهذا قابلهم:

**أصحاب المذهب الثاني:** الذين نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع، فأنكروا أن يكون لله عز وجل إرادة، أو خلق في أفعال العباد، وقالوا: إن العبد مستقل بعمله يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وليس لله سبحانه وتعالى تعلق بفعل العبد.

وهؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان

لا شك يجد أنه فاعل بالاختيار، فهو يدخل بيته، ويخرج من بيته، ويأتي للمسجد، ويخرج من المسجد، ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعر أبداً بأن أحداً يجبره على ذلك، ولكن ظل هؤلاء بسلبهم إرادة الله عز وجل وخلقه عن أفعال الخلق واعتقادهم أن الإنسان مستقل بما يحدثه، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لمشابهتهم للمجوس في إثبات فاعلين للحوادث، وهم يقولون بإثبات فاعلين للحوادث. الذي من فعل الله، هذا من فعل الله، والذي من فعل الإنسان، وهذا من فعل الإنسان مستقلاً بها، فلماذا سموا مجوس هذه الأمة. وهؤلاء لا شك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئاً في ملك الله عن ملك الله.

المذهب الثالث: أهل السنة والجماعة توسطوا بين القولين وأخذوا بالدليلين، وقالوا: إن الإنسان لا شك يفعل باختياره، ويدع باختياره، وإن له إرادة تامة وقدرة، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لسلبه الإرادة، ولو شاء لسلبه القدرة، ولذلك إذا سلب الله العبد الإرادة لم يترتب على فعله حكم، فالمجنون - مثلاً - لا يؤاخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفعلها باختياره والعاجز لا يكلف ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾<sup>(١)</sup> إذا فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان، قالوا: والإرادة والقدرة هما السبب في وجود الفعل، فلولا الإرادة ما فعلت، ولولا القدرة ما فعلت، فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل، وإذا كانا مخلوقين لله

فإن خالق السبب خالق للمسبب، فيضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية، أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل، فصار بذلك فاعلاً. كما أن الإحراق مثلاً بالنار ينسب إلى النار، والذي أودع فيها هذه القوة هو الله عز وجل، فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مباشرة، لكنه بتقدير الله سبحانه وتعالى خلقاً، وهذا الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، هو المطابق للمنقول والمعقول والواقع؛ لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية، ويصدق الأدلة الحسية. فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في طريق واحد، وهو الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ولولا هذا الاعتقاد لثلت الحركة ولصار الإنسان اتكاليًا لا يقول ولا يفعل، ولولا هذا الاعتقاد لم يلجأ الإنسان إلى ربه عز وجل في مهماته وملماته، فهو باعتبار أنه يريد فاعل، يتحرك ويعمل، وباعتبار أنه مخلوق مدبر، يرجع إلى الله عز وجل، فلا يكون اتكاليًا، ولا يكون أنانيًا. يعني أنه لن يستغني بنفسه عن ربه، ولن يكون اتكاليًا يقول: إن قدر لي شيء صار، بل هو يعمل مستعيناً بالله معتمداً عليه.

٣ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن لنا أن ننتفع بهذه الأنعام بالركوب، ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك مشقة عليها، فإن كان في ذلك مشقة كان حراماً؛ لأن المشقة تعذيب لها في غير محله.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: جاز الاترداف على الدابة لعموم قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ولكنه مقيد بما أشرنا إليه أن لا يكون



في ذلك مشقة .

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: حل هذه الأنعام، أو حل بعضها إذا جعلنا «من» للتبويض وجعلنا «الأنعام» أعم من «بهيمة الأنعام» والحل في الأنعام كلها هو الأصل، ولهذا لو تنازع شخصان في أن هذا الحيوان حلال أو حرام، لكان القول قول من يقول بالحل حتى يقوم دليل على التحريم وذلك:

أولاً: لعموم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾<sup>(١)</sup> .

ثانياً: لعموم قوله: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فالأصل هو الحل حتى يقوم دليل على المنع، لكن هذا الحل مقيد بشروط الذكاة المعروفة؛ لأنها إذا لم تذك البهيمة الحلال ذكاة شرعية صارت حراماً لا تحل، فهذا الإطلاق ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> مقيد بشروط وهو أن يكون مذكاً بذكاة شرعية، ومع هذا إذا اضطر الإنسان إليه حل له ولو لم يذك لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾<sup>(٣)</sup> .

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز تعذيب الحيوان إذا لم تتم المصلحة إلا به، لأن الأكل مصلحة، ولكن لا أكل إلا بعد الذبح، والذبح من أعظم ما يكون من الإيذاء، ولأن الشرع جاء بإباحة وسم البهائم بالنار من أجل حفظ ماليتها، ولأن الشرع جاء بمشروعية إشعار الإبل والبقر في الهدى ليعلم أنها هدي،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣ .

وإشعارها هو شق صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم، وعلى هذا إذا احتجنا إلى تعذيب الحيوان من أجل حفظ ماليته أو غير ذلك فإنه لا بأس به، مثل ما يفعله بعض الناس الآن في الحمام إذا أراد أن تربي عنده فإنه ينتف مقدم الأجنحة لئلا تطير، حتى تألف المكان وتربي فيه، يقولون: لو أننا قصصناها قصاً ما نبت لها ريش بسرعة. فلهذا يختارون أن ينتفوها نتفاً من أجل أن ينبت الريش بسرعة وتستعد للطيران.

\* \* \*

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣)

قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ من لبنها، جمع مَشْرَب بمعنى شرب، أو موضعه ﴿أَفْلا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) المنعم عليهم بها فيؤمنون. أي ما فعلوا ذلك].

المنافع أعم مما قاله المؤلف: [كأصوافها وأوبارها وأشعارها] فالكاف للتشبيه، والأصواف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للبقر والغنم، وكذلك ما ينتفع بها من الحرث والزراعة عليها ودك الأرض وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى، ولهذا أتى بصيغة منتهى الجموع ﴿مَنَافِعُ﴾. ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ إما موضع الشرب كما قال المؤلف، أو الشرب، ولكن الأولى أن نقول: إن لهم فيها مشارب أي: شرباً، وهذه المشارب تكون من الإبل والبقر والغنم فكلها يشرب الناس من ألبانها، ويتفعون بها شرباً وبيعاً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْلا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) والهمزة

للاستفهام، والمراد به التوبيخ، أي أنهم لم يشكروا الله عز وجل فهم موبخون على عدم شكرهم .

وقول المؤلف - رحمه الله - : [أي ما فعلوا ذلك] لأنه يرى أن الاستفهام للنفي، وما ذكرناه من أنه للتوبيخ أحسن؛ لأن التوبيخ يدل على انتفاء ذلك، وأنهم موبخون على عدم الفعل .  
وقد تقدم الكلام على معني الشكر ومتعلقه والفرق بينه وبين الحمد عند قوله تعالى : ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) .

### الفوائد:

١ - استفاد من هذه الآية الكريمة : أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء لمنافعنا، فأى منفعة يمكن أن نحصل عليها من هذه البهائم فإنها مباحة لنا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ لكن بشرط كما أسلفنا أن لا يكون في ذلك مشقة فإن كان فيها مشقة فإنها ممنوعة .

٢- ومن فوائدها : حل ألبان هذه البهائم ؛ لقوله : ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ .

٣ - استفاد من قوله : ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وجوب شكر الله تعالى على هذه النعم، ووجهه أنه وبخ من لم يشكر، ولا توبيخ إلا على فعل محرم، أو ترك واجب . وشكر المنعم كما دل عليه الشرع فقد دل عليه العقل، فإن كل إنسان مدين لمن أنعم عليه أن يشكره بحسب ما تقتضيه الحال، ولهذا جاء في الحديث الصحيح : «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه» (١) .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٨٢) وأبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عز وجل (١٦٧٢) .

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيَّاهُ غَيْرًا لَعَلَّهُمْ

يُنصَرُونَ﴾ (٧٤).

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من غيره، ولا يمنع أن يكونوا اتخذوا آلهة مع الله، فهم اتخذوا من دون الله أي اتخذوا غير الله آلهة، وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنهم لم يتخذوا الله إلهاً، بل اتخذوا هذه الآلهة من دون الله وتركوا ألوهية الله تعالى، مع أن هؤلاء يتألهون إلى الله تعالى وإلى غيره، ولكن قد يقال: إن الفائدة من التعبير بقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مع أنهم يألهون الله تعالى ويألهون الأصنام أن الإنسان إذا اتخذ شريكاً مع الله فإن الله تعالى يتركه وشركه وكأنه لم يأله الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» (١).

﴿إِيَّاهُ﴾ جمع إله، والإله بمعنى مألوه. أي: معبود، وفعال تأتي في اللغة العربية بمعنى مفعول في مواطن عديدة، منها: غراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، وفراش بمعنى مفروش. فهؤلاء - والعياذ بالله - يتألهون لهذه الأصنام كما يتألهون لله عز وجل يركعون لها ويسجدون وينذرون ويعكفون عليها.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء ٤٦ (٢٩٨٥).

﴿ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٧٤) قال المؤلف رحمه الله تعالى :  
[يمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم].

النصر بمعنى المنع من تسلط الأعداء، ولكنه في الحقيقة ليس المنعة فقط، ولكنه في الغالب يطلق على غلبة الأعداء، أي :  
لعلهم يغلبون. والواقع أن متخذي الأصنام يتخذونها للأميرين :  
لشفع لهم عند الله تعالى فينجو من عذاب الله عز وجل ؛ لقوله  
تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى  
اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (١) .

وهم أيضاً ينتصرون بها عند الحرب والقتال، كما قال أبو  
سفيان في غزوة أحد: أعل هبل . فانتصر بإلهه واعتز به .

فهم اتخذوا هذه الآلهة للأميرين جميعاً: لدفع ما يكره،  
وحصول ما يحب. وهذا هو المناسب لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ  
يُنصَرُونَ ﴾ (٧٤) لأن إطلاق النصر على مجرد دفع المكروه - هذا  
وإن كان وارداً - لكن إطلاق النصر على حصول المطلوب والعزة  
والرفعة أكثر في اللغة العربية. ولكن هل هؤلاء ينصرون بهذه  
الأصنام؟

الجواب : قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ  
مُخَضَّرُونَ ﴾ (٧٥) . أي : هذه الآلهة التي اتخذوها للنصر لا تستطيع أن  
تنصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودليل ذلك أنهم يضعون  
الأحجار بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى، ويذهبون إلى

الشجرة ويعبدونها، وهم إذا احتاجوا إلى الحطب قطعوها وأوقدوا بها، فكيف وهي لا تنصر نفسها تنصر غيرها؟ وهذا شيء مستحيل أن تنصرهم، ولهذا إذا كان يوم القيامة فإنهم كلهم يحصبون في النار كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾<sup>(١)</sup> لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها، فهي لا يمكن أن تنصرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حِشَرَ النَّاسِ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾<sup>(٢)</sup> فهم في الدنيا غافلون عنهم، لأنها جمادات، وفي الآخرة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم.

فإذا قال قائل: إنه يوجد من يدعو الصنم بحصول مطلوب، أو دفع مكروه، ثم يحصل له المطلوب، أو يندفع عنه المكروه فما الجواب؟

قلنا: الجواب: أن هذا فتنة من الله عز وجل يفتن من شاء من عباده، والذي حصل لم يحصل بدعاء الصنم وإنما حصل عند دعاء الصنم، أي حصل عنده لا به، فالله عز وجل جعل هذا يحصل عند دعاء هذا الصنم ابتلاء وامتحاناً، والله عز وجل بحكمته قد ييسر أسباب المعصية ليلو الإنسان هل يكون امتناعه عن المعصية خشية لله عز وجل، أو لعدم القدرة عليها، ألم تر إلى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ٥، ٦.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ  
 وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾<sup>(١)</sup> فابتلى الله الصحابة وهم  
 محرمون بالصيد ينالونه بأيديهم فيما يعدو، وبرماحهم فيما يطير،  
 ليعلم الله من يخافه بالغيب فلا يأخذ من هذا الصيد، فلم يأخذوا  
 رضي الله عنهم من هذا الصيد وتركوه خشية لله لا عجزاً عن  
 الوصول إليه، كما ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين حرم عليهم  
 الصيد يوم السبت بأن تأتي الحيتان يوم السبت شرعاً طافية على  
 وجه الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، وهذا امتحان من الله  
 عز وجل، لكنهم لم يصبروا على هذه المحنة، بل ذهبوا يعاملون  
 الله عز وجل معاملة الغر الجاهل يخادعون الله فأتوا بحيلة ومكر  
 ونصبوا الشباك يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت  
 دخلت في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فاحتالوا فقلبتهم  
 الله تعالى قردة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ ءَاعْتَدُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا  
 قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾<sup>(٢)</sup> فهؤلاء الذين يدعون الأصنام لجلب نفع أو  
 دفع ضرر يمتحنون ويختبرون فيدفع عنهم الضرر ويحصل لهم  
 النفع، لكن عند هذا الدعاء وليس بهذا الدعاء، نجزم بذلك يقيناً؛  
 لأن هذه الأصنام لا تأتي بخير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا  
 يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

قال المؤلف: [لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ] أي: ألتهتهم. نزلوا  
 منزلة العقلاء ﴿وَهُمْ﴾ أي: ألتهتهم من الأصنام ﴿لَهُمْ جُنْدٌ﴾

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

بزعمهم نصرهم ﴿تُحْضِرُونَ﴾ (٧٥) ﴿ في النار معهم ﴾. قوله: نزلوا منزلة العقلاء، لأن واو الجماعة خاصة بالعقلاء، والذي يأتي لغير العقلاء ما يدل على التأنيث سواءً كان بالإفراد أو بالجمع، فلو مشى التعبير على الغالب لقال: (لا تستطيع نصرهم) أو (لا يستطيعن نصرهم) لكن قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تنزيلاً لهذه الأصنام منزلة العاقل؛ لأن هؤلاء يدعونها دعاء العاقل يرون أنها عاقلة تجلب النفع وتدفع الضرر فخطبوا بما يعتقدون.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ (٧٥) ﴿ المؤلف - رحمه الله تعالى - مشى على أن ﴿وَهُمْ﴾ الضمير يعود على الأصنام، أي والأصنام لعابديها جند ينصرونهم حسب زعمهم ﴿تُحْضِرُونَ﴾ (٧٥) أي: معهم في النار، فهذه الأصنام جند لهؤلاء العابدين، لكن الجميع محضرون في نار جهنم يعذبون. وهذا قول فيه بعد عن ظاهر الآية وعن المعنى.

والصواب: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على العابدين ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الأصنام ﴿جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ (٧٥) أي: حاضران. فالمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين ينتصرون للأصنام ويكونون جنداً لها كما قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨) (١) فهؤلاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم ولكنهم هم ينتصرون لهذه الأصنام ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ (٧٥) ليدافعوا عن هذه الأصنام، فيكون في هذا التصرف نقص من وجهين:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.



الوجه الأول: أنهم هم ينصرون هذه الأصنام ويتصرون لها ويدافعون عنها.

الوجه الثاني: أنهم انتصروا لشيء لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، ويتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لا يمكن أن ينتصر له.

فالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين في الآية وهو المناسب، وهو الذي ينادي عليهم بالسفة والضلال.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾: صحة إطلاق الإله على غير الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ ولكن هل هذه الآلهة حق؟

الجواب: لا، هي آلهة باطلة لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾<sup>(١)</sup> فهي وإن سموها آلهة وعبدها كما يعبدون الرب عز وجل فإنها لن تكون آلهة، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين اتخذوا هذه الآلهة توهموا فيها أنها تنصرهم، ولكن أبطل الله هذا الوهم بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان المبطل لا بد أن

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٣.

يتعلق بشيء يبرر به باطله، وهو هنا رجاء النصر ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٦)، وكل إنسان مبطل لا بد أن يعلل ما ذهب إليه من الباطل كما مر كثيراً في أقوال أهل البدع.

٤ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ (٧٥) أن هذه الآلهة لا يمكن أن تنصر عابديها لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ﴾.

فإن قلت: أليسوا يستغيثون بالآلهة فيغاثون أحياناً؟

فالجواب: نعم، يمكن، وهو امتحان وفتنة، ولكن هذا الغوث حصل عندها لا بها، وفرق بين أن يكون الشيء حصل بالشيء، أو حصل عنده، والسبب غير، فسبب هذا الغوث الفتنة، وليس دعوة هذه الأصنام لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ (١).

٥ - من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء العابدين جند محضرون لأصنامهم، يدافعون عن الأصنام وينتصرون لها، لقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ (٧٥) وفي هذا من المناداة بسفهمهم ما هو ظاهر، حيث يستنصرون بمن لا يستطيعون نصرهم، وهم ينصرونها، وهذا من السفه كيف تنصر شيئاً لا يستطيع نصره ولا تستفيد منه، ولهذا يعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ (٧٥) كالدليل على سفه هؤلاء. أي: أنهم ينتصرون لهذه الآلهة وينصرونها مع أنها لا تنصرهم، وهذا الذي قررته بناء على ما

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

اخترناه من أن معنى الآية (وهؤلاء العابدون للمعبودين جند محضرون) أما على رأي المؤلف فهو يرى خلاف ذلك، يرى أن هذه الأصنام جند لهؤلاء، لكنهم محضرون في النار جميعاً، وسبق بيان ضعف هذا القول.

\* \* \*

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦)

الخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ ومعنى ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ﴾ أي لا يوقعك في الحزن، والحزن هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف هو الهم والترقب لما يستقبل. ولا شك أن هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ يقولون في الله عز وجل، ويقولون في رسول الله ﷺ قولاً عظيماً، والنبي ﷺ يحزن لهذا؛ لأنه أنصح الخلق للخلق، فيحزنه أن يتكلم هؤلاء بما عاقبته سيئة عليهم، وإن كان هذا لا يضره، ولكن يحزن، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> أي: لعلك مهلك نفسك لعدم إيمانهم، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> والآيات في تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتقويته على التحمل والصبر على تكذيب هؤلاء كثيرة، وقد قالوا أشياء كثيرة: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا طعن في الألوهية.

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

وقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾<sup>(١)</sup> وهذا طعن في الرسالة، وقالوا: إن محمداً ﷺ مجنون، وشاعر، وكاهن، وساحر، وهذا أيضاً عيب في شخصية الرسول ﷺ، ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صودمت دعوته في لبها وأصلها وقيل: ﴿أَجْعَلِ آلَ اللَّهِ إِلَهًا وَإِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ﴾<sup>(٢)</sup> والإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلاً يحس بنفسه بضغط، لكن إذا كان سيهدم أصله يكون أشد وأعظم، وإذا عيب عيباً ذاتياً يكون أشد وأشد.

ولهذا يُسلي الله نبيه محمداً ﷺ في مثل هذه التوجيهات ﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. هنا يجب الوقوف على قوله: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ لأنك لو وصلت لأوهم أن تكون جملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ من قولهم، وليست كذلك بل هي جملة استثنائية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولون في رسول الله ﷺ وما جاء به، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله عز وجل لما يسرون وما يعلنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنونه للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يبدونه لغيرهم، فعندنا إسراران:

الإسرار الأول: إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

الإسرار الثاني: إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم، ونضرب لهذا مثلاً:

هؤلاء قوم عددهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمر من

الأمر، لكن لا يخرج لغيرهم فهذا إسرار، وأحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئاً لم يخبر به زملاءه فهذا أيضاً إسرار .  
 فقوله: ﴿ مَا يُسْرُونَ ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: ما أسره كل إنسان في نفسه، وما أسروه فيما بينهم دون أن يعلنوه لغيرهم، وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر، فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه، وسوف يجازيهم على ذلك يوم القيامة .

\* \* \*

﴿ أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ مَبِينٌ ﴾

﴿ أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ ﴾ يرى بمعنى يعلم، والمعنى: أولم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ، (والواو) حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مقدر بعد الهمزة، وإما ما سبق، وعلى الثاني تكون الهمزة منقولة عن مكانها، وأصله على القول الثاني (وَأَلَمْ يَرَ) وقوله: ﴿ الْإِنْسَانَ ﴾ قال المؤلف: [وهو العاصي بن وائل] وعلى رأي المؤلف تكون (ال) هنا للعهد الذهني، ولكن الصحيح أن (ال) للجنس، أي: جنس الإنسان، ومنه العاصي بن وائل؛ لأن الأصل في (ال) أنها لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ يعني: جنس الإنسان ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾<sup>(١)</sup> ووجه كون ذلك هو الأصل. أن العهد يحصرها في شيء معين، والأصل بقاء اللفظ على عمومته، فإذا قال قائل: ﴿ أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ ﴾ إنه فلان بن فلان، فنقول الله

عز وجل، قال: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ وهو شامل، إذاً فالصحيح أنه عام، لكن نجعل العاصي بن وائل مثلاً لمن قال هذا القول، أو لمن رأى هذا الرأي ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال المؤلف: [مني إلى أن صيرناه شديداً قويا] ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة لنا ﴿مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ بينها في نفي البعث] فالإنسان خلق من نطفة، وهو هذا المني، المهين كما وصفه الله عز وجل، هذا الماء المهين الذي خلق منه الإنسان، إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنه كالنخامة ليس بشيء، ثم بعد هذا ينشئه الله عز وجل حتى يعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحججة، وبعد أن يتربى بنعم الله في بطن أمه، ثم من صدر أمه بالثديين، ثم بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشدد عقله، وفكره، وذهنه فيكون خصيماً، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي شديد الخصومة؛ لأن فاعل بمعنى فاعل، لكن تدل على المبالغة.

وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ أي: بين، والذي يظهر أنها ﴿مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ بمعنى مظهر، يعني مظهر لخصومته؛ لكونه شديد الخصومة قويها، وسيأتي إن شاء الله بيان نوع من جدل الإنسان وخصومته، ف﴿مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ أي: مظهر للخصومة، خلافاً لقول المؤلف: بينها.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان أن الإنسان خلق من ضعف؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو كذلك.

٢ - ومن فوائدها أيضاً: أن هذا الإنسان الذي خلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مبينة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧).

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: النداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خلق من هذه النطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيماً لله عز وجل بين الخصومة؟! لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مخاصماً لربه عز وجل.

٤ - من فوائد الآية الكريمة: أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية سبقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١١).

ولولا الجدل مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلا بد للإنسان من الجدل في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدل إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: جدال محمود، مأمور به: إما وجوباً، أو استحباباً.

القسم الثاني: جدال مذموم، منهي عنه.

القسم الثالث: وجدال بين بين.

أما الجدل الممدوح فهو الذي يقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، وهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله، فكما أن المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل.

والقسم الثاني: بالعكس وهذا مذموم منهي عنه قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحِظَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١).

والقسم الثالث: بين بين، يعني لا يأمر به، ولا ينهى عنه، لكن لا شك أن تركه أولى، وهو الجدل في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لا شك أنه لا خير فيه، وأنه من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه.

ثم إن أفضى إلى مفسدة كان منهيًا عنه، وذلك إذا كان مع الجدل والمراء والمحاورة عداوة بين المتجادلين، أو تعصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تحزب.

وإن أفضى إلى مصلحة كان مأموراً به، مثل: أن يكون المجادل مغروراً بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فتجادله من أجل أن تكسر حدة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا فائدة في حد ذاته، لكن فيه فائدة لغيره وهي كسر غرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهياً في نفسه، مترفعاً على غيره.



﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ

رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ يعني هذا الإنسان الذي كان خصيماً مبيناً ضرب مثلاً لله عز وجل، يريد التعجيز والإنكار، وتقرير نفيه، وهذا المثل يبينه بقوله: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بياناً لمبهم في قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ .

﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ يعني ابتداء خلقه، أنه خلق من ماء مهين، فكان هذا الإنسان الخصيم المبين، والجملة في قوله: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ جملة يحتمل أن تكون جملة خبرية، ويحتمل أن تكون جملة حالية، أي: وقد نسي خلقه، يعني أنه في ضرب المثل قد نسي أصله، وهو أنه من مني ثم كان إنساناً سوياً خصيماً مبيناً.

المثل بينه بقوله: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ يقول المؤلف رحمه الله: [ونسي خلقه من المنى وهو أغرب من مثله]. لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء كائن، وخلقه من المنى ابتداء خلق، وأيهما أشد امتناعاً لو كان فيه امتناع على الله تعالى؟ الابتداء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾<sup>(١)</sup> فإذا كان كذلك فإن الإنسان الخصيم المبين يكون ضالاً من وجهين:

الوجه الأول: استغرابه قدرة الله عز وجل على الإعادة.

الوجه الثاني: نسيانه أول الخلق، حيث نسي أنه خلق من

ماء مهين، حتى صار إنساناً قوياً خصباً مبيناً.

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) أي: بالية و ﴿ مَنْ ﴾ استفهامية، والمراد به النفي، أو الإنكار، يعني لا أحد يحيي العظام وهي رميم. فالإنسان إذا مات ورم، أي: ذهب لحمه، وعصبه، وصارت عظامه تتفتت لقدمها، فهي إذا رميم، هذه العظام الرميم هي أبعـد شيء عن الحياة؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعـد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام؟ هذا وجه استغراب هذا الرجل المنكر ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قال المؤلف: [أي بالية، ولم يقل رمية بالتاء لأنه اسم لا صفة] الرميم تارة يراد به الصفة، يعني اسم المفعول، أو اسم الفاعل مرمومة، أو رامة.

وتارة يراد بها الاسم: يعني أن العظم إذا بلى يسمى رميمًا، فلما قصد به الاسم لم يحتج إلى التاء فـقيل: (رميم) لأنه مثل أسد، وحجر، وشجر وما أشبه ذلك، لكن لو أريد الصفة لكان يؤنث فيقال: (رميمة) لأن العظام جمع، وكل جمع قابل للتأنيث لاسيما وأنه قال: ﴿ وَهِيَ ﴾ وهذه ضمير مؤنث.

قال المؤلف: [روي أنه أخذ عظماً رميمًا ففتته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعدما بلى ورم؟ فقال النبي ﷺ: «نعم ويدخلك النار»<sup>(١)</sup>]، المؤلف ساق هذا الأثر بالتضعيف؛ (روي) وهو جدير بذلك، لأن هذا الرجل المنكر سواء أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه منكر بكل حال، وليس من عادة الرسول عليه

(١) ابن جرير الطبري في تفسيره ج ٢٢ ص ٣١.

الصلاة والسلام أن يعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: «نعم ويدخلك النار» فالأثر هذا يحتاج إلى نظر في سنده، وفي صحته.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن المجادل بالباطل يأتي بالشبهات التي ينصر بها باطلة؛ لقوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) فإن هذه شبهة تلبس على العامة؛ لأنه لم يقل: (من يحيي العظام) فقط، بل قال: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) فكيف تحيا بعد أن رمّت؟ فأهل الباطل يأتون بالشبهات ليلبسوا على الناس.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإنسان استهان بربه حيث ضرب له الأمثال للتعجيز، لقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني قال: أنا أضرب لكم مثلاً بهذا الشيء الذي يعجز: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨).

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن المعارض للحق قد يصرح بالإنكار بدون مراوغة لقوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ﴾ وأحياناً «يراوغ». فأيهما أهون؟

الذي يصرح وبيّن أهون؛ لأن هذا يمكن أن يتقى شره، أما المراوغ فإنه في الواقع خطر، ولهذا كان خطر المنافقين على الإسلام أشد من خطر الكافرين الذين يصرحون بالعداوة؛ لأن المنافقين يغرون الناس ولا يمكن التحرز منهم.

\* \* \*

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩)

يقول الله تعالى مبيناً قدرته على إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ﴾

الخطاب للرسول ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهذا الذي أنكر أن يحيي الله العظام وهي رميم ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واعلم أن الله عز وجل إذا قال للرسول عليه الصلاة والسلام «قل» فهو أمر له بالإبلاغ. ومن المعلوم أن النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عموماً لقوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾<sup>(١)</sup>. فإذا خص شيئاً من الأحكام، أو من الأخبار بـ(قل) كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أمر أن يبلغه على وجه الخصوصية، ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكد مما دخل في العموم، وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيه ﷺ بقوله: (قل) فهذا أمر خاص بتبليغ هذه المسألة، سواء كانت خبراً، أو كانت حكماً. ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يقل: (يحييها الله) ليكون الجواب متضمناً للدليل، لأنه لو قال: (يحييها الله) فهم الإنسان أن الله هو الذي يحييها، لكن إذا قال: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان هذا الجواب متضمناً للدليل ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والذي أنشأها أول مرة هو الله عز وجل، ولم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم ينشأها أول مرة، فإذا كان الله عز وجل أنشأها أول مرة، فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء. وهذا هو الدليل الأول على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم، ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ووجه الاستدلال بهذا: أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانياً: قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(٧٩)</sup> قال المؤلف:

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

[﴿ خَلَقَ ﴾ بمعنى مخلوق] فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول، والذي يظهر أن المراد بالمصدر نفس المصدر، ومن المعلوم أنه لا مخلوق إلا بخلق، لكن إذا قال: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) صار في هذا نص على علمه بالخلق أي: كيف يخلق، وكيف ينشأ الخلق، فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا وهو بكل مخلوق، لأنك إذا قلت بكل مخلوق صار علمه بالمخلوق بعد خلقه، لكن إذا كانت الآية على ظاهرها ﴿ بِكُلِّ خَلْقٍ ﴾ يعني: أنه يعلم كيف يخلق، والعالم بكيفية الخلق إذا أَرَادَهُ لم يستعص عليه، لأنه إذا كان عالماً لم يبق إلا الإرادة، وإذا أَرَادَهُ وهو بكل خلق عليم، صنع ما علم عز وجل، فكونه بكل خلق عليم دليل على أنه قادر على أن يعيده، لأن الذي يعجز إما أن يكون لعجزه، وإما يكون لجهله، هنا لما قال: ﴿ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذه القدرة ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) هذا انتفاء الجهل، فإذا انتفى العجز المستفاد من قوله: ﴿ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وانتفى الجهل المستفاد من قوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) صار الخلق ممكناً.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان قوة الإقناع في إقامة الحجة من كلام الله عز وجل: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فأقوى ما يسوق الحجج ويبينها هو كلام الله، لأن كلام الله عز وجل أبلغ الكلام وأحسنه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

حَدِيثًا ﴿١﴾ ، فحديث الله عز وجل لا شك أنه أصدق الحديث وأتمه، وأحسنه في الإقناع، وإقامة الحججة .

٢ - من فوائد الآية الكريمة: الاستدلال بالأشد على إمكان الأخف؛ لقوله: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقد استدل بالأشد على إمكان الأخف، فالأشد إحيائها أول مرة، والأخف الإعادة .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمستدل المناظر أن يأتي بالشيء الذي يقر به خصمه، من أجل أن تقوم عليه الحججة؛ لأنه قال: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والخصم هنا لا ينكر أن الله تعالى أنشأها أول مرة .

فينبغي أن تأتي بالشيء الذي يقر به خصمك لتقيم الحججة عليه بإقراره، وهذا أدب من أدب المناظرة، لأنه أقرب إلى الإقناع، وله نظائر منها:

- أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ناظر الذي حاجه في ربه فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (٢) . فعدل إبراهيم عن ذلك، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ (٣) وهذا يقر به الخصم، ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، وهذا لا يمكن للخصم أن يقوم به .

فالحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة

(١) سورة النساء، الآية: ٨٧ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨ .

والمحاجة، وأن يأتي خصمه من الوجهة التي يقر بها حتى يقيم عليه الحجة؛ لأن المناظرة والمحاجة وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإنشاء هذه العظام لأول مرة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق هذه العظام ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾<sup>(١)</sup> مع أن الذباب ليس فيه العظام القوية الصلبة، فإذا كانوا لا يقدرون على ذلك فهم على ما هو أعظم أعجز.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، وسبق لنا في التفسير هل الخلق هنا بمعنى المخلوق، أو بمعنى الفعل؟ وذكرنا أنه يحتمل الأمرين، لكن احتمال الفعل أكثر، يعني كل خلق فالله عليم به، ومن المعلوم أن العالم بالخلق عالم بالمخلوق كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(٢)</sup> إذا استفاد من ذلك عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، أي: بكل صنع يصنعه مما نتصور، ومما لا نتصور، وبكل مخلوق؛ لأن العالم بالخلق عالم بالمخلوق.

\* \* \*

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ قال المؤلف: [أي: في جملة الناس ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار، أو كل شجر إلا العناب ﴿نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ﴿جعل﴾ بمعنى صير، والذي جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً هو الله عز وجل، وأراد المؤلف بقوله: [في جملة الناس] أن هذا الجعل ليس خاصاً بالمخاطبين، أي: برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بل هو عام لكل أحد، فهو جعل لهم في جملة الناس من الشجر الأخضر، المؤلف يقول: [المرخ والعفار]. وبناءً على كلامه تكون (ال) للعهد الذهني، ويكون عاماً أريد به الخاص، ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر، وأن (ال) الأصل فيها أنها تفيد الجنس، أي: العموم.

فالصواب أن المراد ﴿مِنَ الشَّجَرِ﴾ أي: من كل شجرة كما قال، وقوله: [إلا العناب] لا نعرف عن هذا شيئاً هل إنه مستثنى، وأن العناب لا يمكن أن تأتي منه النار - الله أعلم - على كل حال نحن نقول عندنا الأصل: ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ عامة، والشجر الأخضر فيه الرطوبة، والرطوبة يلزم منها البرودة، والنار التي تخرج من هذا الشجر الرطب البارد، يابسة وحارة، فهذا اليابس الحار متولد من رطب بارد، ولا يخفى ما بين الرطوبة والبرودة وبين الحرارة واليبوسة من التنافر العظيم.

فإذا كان الله عز وجل يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التنافر ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي



رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

إذاً هذا الدليل الثالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ «الفاء» هنا عاطفة

و«إذا» فجائية يعني: أنه بمجرد ما أن تضرب عوداً يعود من هذا الشجر تقدح النار، فتوقد منه، فلا يحتاج إلى كبير عناء، بل إن الإيقاد أمر سهل، مفاجئاً للعملية، والمفاجأة استفدناها من كلمة ﴿فَإِذَا﴾ وفي قولنا ﴿أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ دليل على استمرارية هذا العمل؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وهذا أمر لا أحد ينكره، فلا أحد ينكر أنه يتولد من الشجر الأخضر ناراً يوقد الناس منها.

﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ قال المؤلف رحمه الله:

[تقدحون وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يطفىء النار، ولا النار تحرق الخشب].

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل حيث يتولد من هذا الشيء الرطب البارد، شيء حار يابس. فتولد الشيء من ضده دليل على كمال القدرة؛ لأن العادة أن الضدين متنافران، لا يلتقيان أبداً، وهنا صار أحدهما يتولد من الآخر.

٢ - ومن فوائدها أيضاً: الاستدلال بالأشد على الأخف؛

لأن التنافر بين الرطب واليابس، والحر والبارد، أعظم من أن

يعاد الخلق، أو تعاد العظام بعد رميمها، فالقادر على هذا الشيء قادر على إحياء الموتى.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله علينا بجعله من الشجر الأخضر ناراً، ووجه الدلالة أنه قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ﴿٧١﴾ وَإِلَّا لَكَانَ يَكْتَفِي فَيَقَالُ: (الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً) لكن ذلك لمصلحتنا، ففيه نعمة من الله عز وجل على عباده بهذه النار. وقد قرر الله هذه النعمة بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (١) ولا أحد ينكر ما في الطاقة الحرارية من المنافع العظيمة للخلق، فأنواعها بل أجناسها لا تحصى، فضلاً عن أفرادها.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: تقرير الشيء بالواقع فبدلاً أن نلقيه تصوراً في الذهن نذكر واقعه بالفعل، تؤخذ من قوله: ﴿فَإِذَا أَسْمُ مِنْهُ تُوْقِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ فهو سبحانه وتعالى بين أنه جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً، وهذا يعطينا تصوراً بأن الله سبحانه وتعالى جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً، نستفيد منها، ثم حقق ذلك بذكر الأمر الواقع ﴿فَإِذَا أَسْمُ مِنْهُ تُوْقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: تحسونه بواقعكم، وتلمسونه بأيديكم.

\* \* \*

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾. أجاب الله تعالى نفسه بنفسه، وخلق

السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى:

﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾<sup>(١)</sup> وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يساؤون كوكباً من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله عز وجل، والسموات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾<sup>(٤٧)</sup>؟<sup>(٢)</sup> والذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادراً على خلق الناس؟ الجواب: بلى والله، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة، قادر على أن يخلق مثلهم بالأولى والأحرى، وهذا هو الدليل الرابع.

قال: ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾<sup>(٨١)</sup> قال المؤلف: [الخلق: الكثير الخلق] فجعل فعلاً من صيغة المبالغة، ولا شك أن الله عز وجل كثير الخلق، لكن ينبغي أن نقول أيضاً: إن فعلاً هنا نسبة، أي: أنه موصوف بالخلق، ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق، أو بفعل الخلق، يعني أننا لو قلنا: فلان نجار. ماذا يفيد قولنا: (إنه نجار) إذا جعلناه من باب النسبة، وماذا يفيد إذا جعلناه من باب المبالغة؟ إذا جعلناه من باب المبالغة: فالمعنى أنه كثير النجارة، فنجار يعني كثير النجارة، ولكن هل هو مجيدها؟ وهل هو مستحق لأن يوصف بهذه المهنة فيقال نجار؟ وهل النجارة وصفه، بمعنى أنه حاذق متقن لها؟ لا يلزم قد يكون وقد لا يكون.

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

أما إذا قلت: (نجار) على أنها نسبة، أي: صاحب صنعة، فهو أبلغ في الوصف، والنجار، أي: ذو الصنعة المتقن لها سواء نجر كثيراً أو قليلاً فهو نجار متقن. فهنا يمكن أن نقول: ﴿وهو الخلاق﴾ نحملها على النسبة المفيدة لوصف الله عز وجل بهذه الصفة العظيمة، أي: ذو الخلق المتقن على أكمل وجه، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى اجتمع في حقه الوصف والفعل يعني كثرة الخلق، فلا شك أن خلق الله عز وجل لا يحصى أجناساً، فضلاً عن الأنواع، فضلاً عن الأفراد، من ذا الذي يحصي أجناس الخلق؟ من ذا الذي يحصي أنواع هذه الأجناس؟ ومن الذي يحصي أفراد هذه الأنواع؟ لا يستطيع أحد أن يحصي ذلك.

إذن فقد اجتمع في حق الله سبحانه وتعالى الأمران: النسبة الوصفية كمال الوصف، والثاني: الكثرة التي تفيدها صيغة المبالغة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلاقاً، أي: من وصفه الخلق اللازم له، وكذلك كثير الخلق، هل يعجز عن أن يحيي العظام وهي رميم؟ لا.

﴿الْعَلِيمُ﴾ (٨١) العلم دليل على القدرة على الإعادة؛ لأننا قلنا: إن عدم الإعادة إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للجهل، فكلما وصف الله نفسه بالعليم فإن ذلك يعني أنه قادر؛ لأنه لا يجهل كيف يخلق، وكيف ينشأ.

### الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن الله تعالى استدل بقدرته على خلق السموات

والأرض على قدرته على إحياء العظام وهي رميم .  
 ٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته حيث خلق هذه السماوات والأرض، بما فيهما من المصالح والمنافع، والأجرام الثابتة وغير الثابتة، وهذا دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى. وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، ومع عظمتها وسعتها وكبرها قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) أي: من تعب وإعياء.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدوم الأفلاك وجه ذلك: أنه قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أوجدها من العدم، ومعلوم أن الموجد ليس بقديم، والقديم عندهم هو الأزلي الذي لا بداية له، فالسماوات والأرض كانت معدومة، ثم أوجدت بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأما من قال: بقدوم الأفلاك، وأنه لم تزل ولا تزال هذه الطبيعة، فإنه ظالم لا يعلم عن هذا شيئاً؛ لأنه بنى الأمر على غير دليل عقلي ولا نقلي، بل إن الدليل العقلي والنقلي يدل على إمكان حدوث هذه الأفلاك، وأنها حادثة.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إجابة السائل نفسه في الأمر المحقق المتقرر لقوله: ﴿بَلَى﴾ .  
 إذ قد يقول قائل: إن إجابة المتكلم نفسه لا معنى لها؛ لأن أجابته دعوى، أو تقرير لدعوى ادعاها.

فيقال في الجواب : إذا كان الأمر ثابتاً واقعاً فإن إجابته نفسه لا تأتي بشيء جديد سوى أنه يقرر ما كان واقعاً معلوماً للمخاطب؛ ولهذا قال ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١).

٥ - في هذه الآية فائدة نحوية وهي : أن جواب الاستفهام المقرون بالنفي، إذا أريد إثباته يقال فيه : ﴿بَلَىٰ﴾ ولا يقال : نعم؛ لأنك لو أجبت بنعم، لكان ذلك تقريراً للنفي المنفي، مثاله : لو قلت : أليس زيد بقائم؟ فقلت : نعم، يعني قررت النفي ليس بقائم، فإن قلت : بلى، فقد أثبت القيام.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة : أن الخلق وصف الله عز وجل الذي هو متصف به أزلاً وأبداً لقوله : ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) فهو موصوف بالخلق من قبل أن يخلق؛ لأن صفة الخلق أزلية والمخلوق حادث، فهو عز وجل متصف بالخلق، ولهذا قلنا : إن النسبة في قوله : ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ﴾ أظهر من كونها للمبالغة.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة : وصف الله تعالى بالعلم الأزلي؛ لقوله : ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ولا شك أن الله تعالى موصوف بالعلم أزلاً وأبداً، فإنه لم يزل ولا يزال عالماً، لم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (٥٢).

\* \* \*

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢)

قال المؤلف : [﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شأنه] يعني شأنه وحاله إذا

أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن﴾ فيكون، فلا يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلاً، أو إلى جنود يساعده، ولا إلى أن يعمل بيده عز وجل، بل يقول: ﴿كُن﴾ فيكون. وقوله - رحمه الله -: [شأنه] قد ينازع فيها، ويقال: إن المراد بالأمر أمر التكوين، يعني أمره أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون أن يكرر كما في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾<sup>(١)</sup> فجعل الأمر واحد الأوامر. والمؤلف يريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويمكن أن نقول بالأمرين جميعاً نقول: شأنه عز وجل في تمام قدرته أن يقول للشيء: (كن) فيكون، وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: (كن) بدون تكرار، ﴿فَأَتَمَّتْ هِيَ زَجْرًا وَجِدَةً﴾<sup>(١٣)</sup> فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ<sup>(١٤)</sup> ﴿٢﴾. ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أي خلق شيء] ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١٢)</sup> أي: فهو يكون]. والأولى أن لا نقيد ﴿شيئاً﴾ بالخلق، بل نقول: إذا أراد شيئاً خلقاً، أو إعداماً، فالأولى إبقاء الآية على إطلاقها ﴿شيئاً﴾ سواء كان خلقاً، أو إيجاباً، أو إعداماً وإتلافاً. ولكن الذي حمل المؤلف - رحمه الله - على أن يقول: [خلق شيء] لأن السياق للاستدلال على الخلق، وهو الإيجاد، فلهذا خصها به، ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام. فالأولى أن يقال: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي أيجاد شيء وخلق، أو إعدامه.

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٣.

وقد يعتذر عن المؤلف فيقال: إن الإعدام فيه نوع خلق؛ لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾<sup>(١)</sup> مع أن الموت عدم وفناء، والأمر في هذا سهل، قال: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿كُنْ﴾ هنا الظاهر أنها تامة، وإذا جعلناها ناقصة صار المعنى: كن كذا. أي: تحول إلى كذا، لكن إذا جعلناها تامة صار المعنى أشمل، لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله إيجاده أصلاً. يعني ﴿كُنْ﴾ أي: أن يوجد ويتكون، أو (كن كذا) أي بأن يكون الطويل قصيراً، والقصير طويلاً وما أشبه ذلك، فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل ﴿فَيَكُونُ﴾<sup>(٢)</sup> قال المؤلف: يقول: [فهو يكون، وفي قراءة بالنصب عطفاً على ﴿يقول﴾] قراءتان سبعيتان لأنه قال: [في قراءة] واصطلاح المؤلف - رحمه الله - إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: (وفي قراءة) وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة (قُرِئَ). في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾<sup>(٢)</sup> على قراءة الرفع بالفاء هنا للاستئناف، وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير فهو يكون، أما على قراءة النصب فهي معطوفة على ﴿أن يقول﴾ للشيء: كن فيكون، والفاء على كلا الوجهين دالة على الترتيب والتعقيب، يعني أن الشيء يكون فوراً بدون تأخير، وقد بين الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾<sup>(٣)</sup> ولمح البصر ليس شيء أسرع

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.



منه، وأمر الله عز وجل واحد كلمح البصر، وإذا كان هذا أمر الله وشأن الله فهل إذا قال للعظام الرميمة: كوني إنساناً سوياً هل يمتنع عليه ذلك؟ لا، ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَنمَأْهِي زَجْرَةً وَوَجْدَةً ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾<sup>(١)</sup> وقال في هذه السورة: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَوَجْدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

### الفوائد:

- ١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بعموم قدرته عز وجل وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.
- ٢ - ومن فوائدها أيضاً: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى التامة التي لا يضاهيها، ولا يقاربها قدرة، لأنه إذا أراد شيئاً لم يتكلف لإحضار المواد، أو غيرها مما يتكون به هذا الشيء، وإنما يقول: ﴿كُنْ﴾ فيكون.
- ٣ - ومن فوائدها: إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ وإرادة الله سبحانه وتعالى كما قال أهل العلم تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية.

فالشرعية: هي التي بمعنى المحبة.

والكونية: هي التي بمعنى المشيئة.

والفرق بينهما من حيث الأثر:

(١) أن الإرادة الكونية لا بد فيها من وقوع المراد.

(٢) أن المراد فيها قد يكون محبوباً لله، وقد يكون غير محبوب لله.

(١) سورة النازعات، الآيات: ١٣ - ١٤.

أما الإرادة الشرعية: فقد يقع فيها المراد، وقد لا يقع، ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً لله .

فإذا قال لك قائل: هل الله يريد الكفر؟

فقل له: أما شرعاً، فلا، وأما كوناً، فنعم .

ولو قال لك قائل: هل الله يريد الإيمان؟

فقل: نعم يريده شرعاً، وقدراً إن وقع، لأنه إذا وقع فقد

أراده قدراً، وإذا لم يقع فلا نعلم هل أرادته قدراً أو لا؟ بل نقول: إنه الآن لم يرده قدراً .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿ أَنْ

يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٧) .

٥ - ومن فوائدها: أن كلام الله عز وجل يكون بحرف؛

لقوله: ﴿ كُنْ ﴾ فإن «كن» كلمة مكونة من حرفين، وإثبات أنه

بصوت لقوله: ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٧) فهذا الخطاب

موجه لما أرادته الله، وهو يقتضي أن يكون هذا المراد سامعاً لهذا

القول، ولا سماع إلا بصوت .

فيكون في الآية رد على قول الأشاعرة في كلام الله عز وجل

حيث يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن ما يسمع

من الأصوات والحروف وهو عبارة عن كلام الله، ويرون أن هذا

المسموع مخلوق، ولهذا قال بعض المحققين منهم، أو

المنصفين منهم: إنه في الحقيقة لا فرق بيننا وبين المعتزلة في

كلام الله؛ لأننا متفقون على أن ما بين دفتي المصحف فهو

مخلوق . فإذا كانوا متفقين على هذا، فإن قول المعتزلة قد يكون

خيراً من قولهم؛ لأن المعتزلة يقولون: إن ما بين دفتي المصحف كلام الله. فكلهم يقولون: إنه مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلام الله، والأشاعرة يقولون: إنه عبارة عن كلام الله، فإضافته إلى الله على رأي الأشعرية مجاز لا حقيقة، وعلى كل حال في الآية رد على الأشعرية في تفسيرهم لكلام الله عز وجل، وحقيقة الأمر أنهم لا يثبتون الكلام؛ لأنهم إذا جعلوا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فكأنما جعلوا الكلام هو العلم؛ لأن العلم هو المعنى القائم بالنفس، أما الكلام والقول فهو أمر زائد على ذلك.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن أمر الله عز وجل إذا وجه لشيء فإن هذا الشيء يكون كما أمر؛ لقوله: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٨٢] أي فيكون على ما أمر الله به، في العين، والوصف، فإذا أراد الله إيجاد شيء قال: ﴿ كُنْ ﴾ فكان على حسب ما أراده الله عز وجل.

\* \* \*

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٨٣]

(سبحان) بمعنى تنزيهاً، وهي اسم مصدر، والمصدر: تسبيح، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائماً، وملازمة أيضاً للإضافة حتى لو قطعت عن الإضافة لفظاً فهي مضافة تقديراً. و(سبحان) معناها: التنزيه أي أن الله منزّه عن النقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين، فمثلاً ينزه أن يكون وجهه كوجه المخلوق، وينزه أن يعترى صفاته نقص بأي وجه، فمثلاً: العلم، علم البشر ناقص ابتداءً، وانتهاءً، وشمولاً، ابتداءً؛ لأنه مسبوق

بالجهل، وانتهاء؛ لأنه ملحق بالنسيان، وشمولاً ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥) (١) لكن علم الله عز وجل كامل من هذه الوجوه كلها ابتداء، وانتهاء، وشمولاً، فهو سبحانه وتعالى عالم بعلمه الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً، وهو لا ينسى كما قال موسى عليه الصلاة والسلام، ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (٥٢) (٢) وعلمه شامل لكل شيء، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٥) (٣) ﴿ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (١٢) (٤).

فالله تعالى منزه عن النقص في صفاته الثابتة له، ومنزه عن مماثلة المخلوقين، وقلنا: مماثلة، ولم نقل مشابهة والفرق واضح:

أولاً: أن المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٥) ولم يقل: «ليس كشيء شيء» وقال: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ (٦).

ثانياً: أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه، ولولا ذلك ما فهمنا من صفات الله شيئاً.

فمثلاً: الوجود للمخلوق وللخالق، بينهما تشابه من حيث

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٦) سورة النحل، الآية: ٧٤.

أصل المعنى، وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى لكنهما يختلفان.

فإذا نفيت المشابهة مطلقاً فهذا نفي للوجود في الواقع.

ثالثاً: أن المشابهة صار نفيها عند كثير من الناس نفياً للصفات؛ لأن كثيراً من أهل التعطيل يصفون من يثبت الصفات بالمشبهة، فإذا قلت: من غير تشبيه يعني من غير إثبات؛ لأن كل مثبت عندهم مشبه.

فلهذا كان التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبه من ثلاثة أوجه.

فتنزيه الله عن كل نقص دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رميم نقص ينافي التنزيه، فإذا ثبت أن الله عز وجل منزّه عن كل نقص، لزم من ذلك تنزيهه عن العجز عن إعادة هذه العظام.

﴿بِيَدِهِ﴾ أي: بتصرفه مع إثبات اليد، فنحن نقول في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾<sup>(١)</sup> وما أشبهها ليس المعنى أن الملك في يد الله عز وجل، لكن في تصرفه مع ثبوت اليد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(٢)</sup> بمرأى منا، مع ثبوت العين؛ لأن السفينة ليست في وسط عين الله عز وجل حاشا وكلا، فالمنكر أن تقول: بيده أي أمره بدون أن تثبت اليد، أما إذا قلت

(١) سورة الملك، الآية: ١.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

بيده بتصرفه وتدييره مع ثبوت اليد فهذا هو المراد .

﴿ مَلَكُوتٌ ﴾ كما قال المؤلف في أصل ﴿ مَلَكُوتٌ ﴾ [ملك

لكن زيدت الواو والتاء للمبالغة] أي : زيدت للمبالغة في ملك الله لكل شيء ، لأن ملك الله لكل شيء ملك تام لم يسبق بعدم ، ولا يلحق بزوال ، بينما ملك غيره ملك ناقص بالأصل لم يملك هذا الشيء ثم ملكه بعد ، ومع ملكه إياه فإن هذا الملك قابل للزوال ، ثم إن ملكه إياه ليس ملكاً مطلقاً يفعل فيه ما يشاء بل هو ملك مقيد ، أما ملك الله فهو تام . ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة ﴿ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي ملك كل شيء .

وقوله : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ دليل على قدرته على

إحياء العظام وهي رميم ؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكاً مطلقاً - مبالغاً فيه بالواو والتاء - قادر على أن يحول هذا المملوك إلى ما شاء ، ولهذا فسر المؤلف - رحمه الله - الملكية هنا بالقدرة ، فقال : [أي : القدرة على كل شيء] ، ولكن هذا الكلام فيه نظر ، بل نقول : مالك لكل شيء ، وإذا ملكه ملكاً مطلقاً فهو قادر على أن يتصرف فيه كما شاء .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٣) قال المؤلف : [تردون في الآخرة] أي :

إليه لا إلى غيره ليجازيكم ، ووجه الدلالة من هذه الجملة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم أنه لا يرجوع إلى الله في الآخرة إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم ، ولو قلنا : بعدم القدرة لانتفى الرجوع إلى الله عز وجل ، وإذا انتفى الرجوع إلى الله تعالى صار وجود الدنيا كلها عبثاً ولعباً ، وهذا لا شك أنه منافٍ لكمال الله عز

وجل، فمجرد رجوعنا إلى الله تعالى يلزم منه القدرة على الإحياء. ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأننا إذا قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثاً، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله عز وجل على إحياء العظام وهي رميم، والله على كل شيء قدير، ولو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧) (١) لكان كافياً في بيان قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

### الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، ويؤخذ من قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ ومر علينا في التفسير أن الذي ينزه الله عنه أمران:

الأول: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

فعلمه عز وجل لا يناله نقص، لا من حيث الشمول، ولا من حيث السبق، ولا من حيث اللقوق، ولا يماثل علم المخلوقين، وهكذا بقية الصفات.

٢ - ومن فوائدها: أن ملكوت السماوات والأرض وكل شيء فهو بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو مالك لكل شيء، ولا أحد يشركه في ملكه، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.

ظهير ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿١﴾ .

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن مرجع الخلائق إلى الله لقوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ وهذا الرجوع يشمل الرجوع إلى الله يوم القيامة، والرجوع إلى الله تعالى في أحكام الخلق الكونية، والشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٣﴾ .

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله سبحانه وتعالى وذلك بكون الرجوع إليه، وأنه لا بد من الرجوع إلى الله؛ لأنه لولا هذا الرجوع لكان خلق الخلق عبثاً لا فائدة منه، إذ إنه لولا هذا الرجوع والمجازاة على هذا العمل في هذا الرجوع لكانت الخليقة خلقت ليفسد في الأرض من يفسد، ويحصل الفتن والشرور والنهاية لا شيء.

٥ - في هذه الآيات كلها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ .

إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم وذلك من عشرة أوجه:

الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنه فيه استدلالاً بالأشد على الأخر.

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٢٢، ٢٣ .

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠ .

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩ .



الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) وعلمه بكل خلق يقتضي أنه سبحانه وتعالى قادر على إحياء العظام وهي رميم .  
الثالث: قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فإن من جعل من هذا الأخضر البارد الرطب ناراً وهي يابسة محرقة قادر على أن يعيد الخلق؛ لأن جعل النار من الشجر الأخضر أبلغ في القدرة.

الرابع: قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فقدرتة على خلق السموات والأرض دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ .

الخامس والسادس: قوله: ﴿الْخَالِقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) والخلاق صفة لازمة له، وكونه خلاقاً يشمل أن يخلق كل شيء، وكونه عليمًا يدل على أنه لا يخفى عليه شيء من الخلق حتى يعجز عنه .  
السابع: أنه لا يستعصي عليه شيء، بل إذا أمر بشيء كان في الحال؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) .

الثامن: تنزيه الله عز وجل عن كل نقص، ومن المعلوم أن العاجز عن إعادة الخلق ناقص، فإذا كان الله تعالى منزهاً عن كل نقص، كان ما وعد به من إحياء العظام وهي رميم واقعاً .  
التاسع: قوله: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومن بيده ملكوت كل شيء فإنه مالك لكل شيء، والمالك لكل شيء قادر على أن يوجد المعدوم، ويعدم الموجود.

العاشر: قوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) فإن هذا هو نتيجة الخلق أن يبعث الخلق ويرجعون إلى الله ليجازيهم بما عملوا.  
وإلى هنا انتهى تفسير هذه السورة العظيمة، والله أعلم  
وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



# الفهرس



## الموضوع

## الصفحة

- المقدمة ..... أ
- هل سورة يس مكية أو مدنية ..... ٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ..... ٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْ﴾ ..... ٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ..... ٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ..... ١٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ..... ١٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ..... ١٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ..... ٢٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَیْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ..... ٢٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ ..... ٢٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ..... ٢٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ..... ٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ..... ٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ..... ٤١

- ٥٣ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعُزِّنَا بِسَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا
- ٥٦ ..... إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
- ٥٨ ..... أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾
- ٥٩ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾
- ٦٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ
- ٦٤ ..... مَتَاعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
- ٦٦ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا
- ٧١ ..... الْمُرْسَلِينَ ﴾
- ٧٣ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾
- ٧٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدَّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي
- ٨٠ ..... شَفَاعَتَهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفَعُونَ ﴾
- ٨٨ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي إِذًا لِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾
- ٨٩ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنْ ءَأَمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾
- ٩٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾

- ٩٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿يَمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا
- ٩٨ ..... مُنْزِلِينَ﴾
- ٩٩ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
- ١٠٥ ..... يَسْتَهْزِئُونَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْمُرِوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ
- ١١١ ..... لَا يَرْجِعُونَ﴾
- ١١٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
- ١١٦ ..... يَأْكُلُونَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنْ
- ١١٩ ..... الْعُيُونِ﴾
- ١٢٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ
- ١٣٠ ..... أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾
- ١٣٣ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
- ١٣٥ ..... الْعَلِيمِ﴾



- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ..... ١٤١
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ..... ١٤٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ ..... ١٥٠
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ..... ١٥٤
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ..... ١٥٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ..... ١٥٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ..... ١٦٣
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ..... ١٦٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ..... ١٧٥
- تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ ..... ١٧٦
- تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ..... ١٧٩
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيُفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ..... ١٨٠
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا بُولَلَتْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ..... ١٨٤
- فوائد قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ..... ١٩١

- تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَيُّوَمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ..... ١٩١
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَهُونٌ ﴾ ..... ١٩٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونُونَ ﴾ ..... ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ ..... ٢٠٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿ سَلِّمُوا قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ ..... ٢٠٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ..... ٢١٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ..... ٢١٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ..... ٢٢٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ..... ٢٢٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَضَلُّوهُا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ..... ٢٢٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ..... ٢٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ ..... ٢٣٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ..... ٢٣٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ..... ٢٣٩

- ٢٤٢ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾
- ٢٥٤ تفسير قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . . . . .
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمَا فَهُمْ لَهَا
- ٢٥٦ مَلِكُونَ﴾ . . . . .
- ٢٧١ تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ . . . . .
- ٢٧٧ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ . . . . .
- ٢٧٩ تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ . . . . .
- ٢٨٣ تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ . . . . .
- ٢٨٦ تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ . . . . .
- ٢٨٨ تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾
- ٢٩٢ تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾
- ٢٩٤ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ
- ٢٩٨ نُوقِدُونَ﴾ . . . . .
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ
- ٣٠١ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ . . . . .
- ٣٠٥ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . . . . .
- ٣١٠ تفسير قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . . . . .
- ٣١٩ . . . . . الفهرس

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ①

تفسير

# القرآن العظيم

سورة الصافات

لفضيلة الشيخ العلامة  
محمد بن صالح العثيمين  
عمر الله له ولوالديه وللمسلمين

جميع المطابع مؤسسة  
الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر